دمشقيات

سوريا التي في خاطري

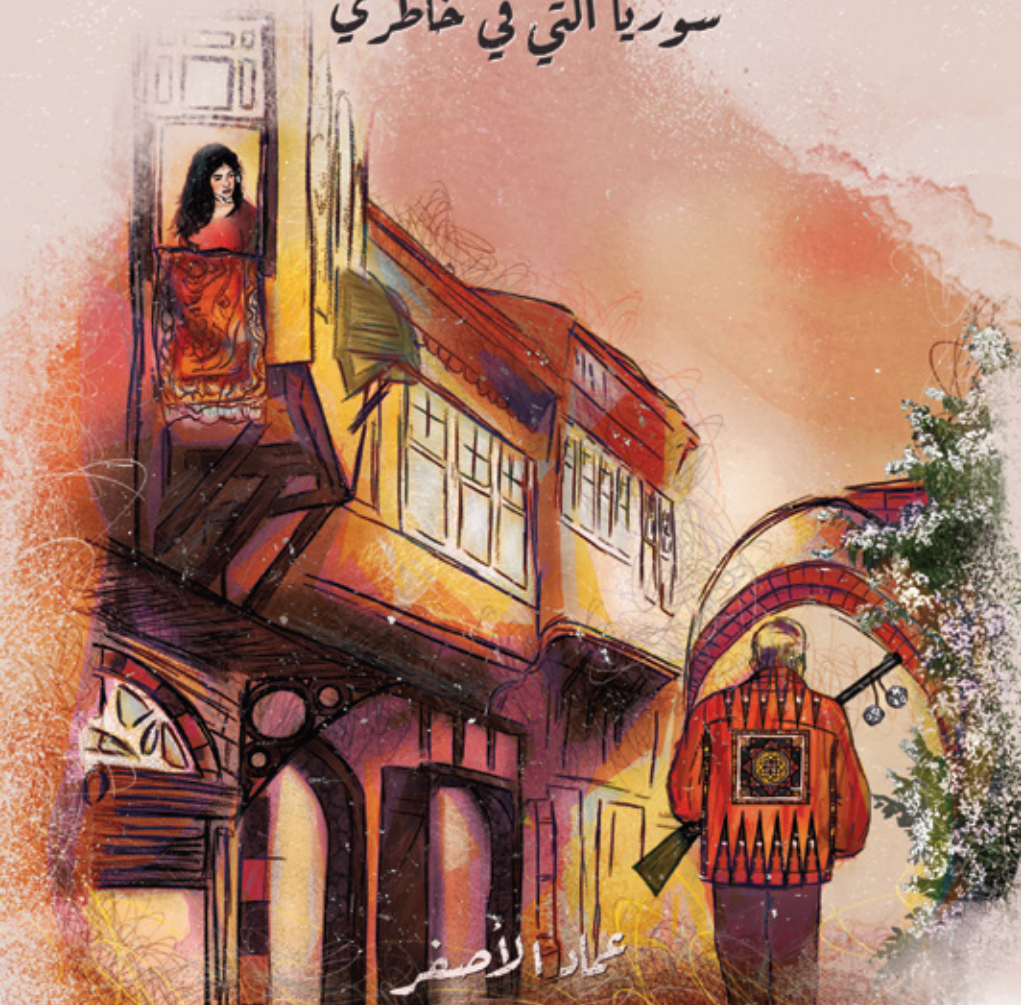

عمار الأصفر

الطبعة الأولى 2021

لوحة وتصميم الغلاف سارة الاصفر

تصميم: شربل إلياس

حقوق الطبع والنَّشر محفوظة للناشر

مكتبة كل شيء حيفا

يُمنع طبع، أو تصوير، أو نقل أَيِّ مادَّة من الكتاب،

دون موافقة خَطيَّة مسبقة من الناشر.

الناشر: **مكتبة كلّ شيئ - حيفا 2021**

ناشرون

info@kul-shee.com

www.kul-shee.com

عماد الاصفر

دمشقيات

سوريا التي في خاطري
88 يوما في بحور الشام

رام الله

صيف وخريف 2020

الفهرست

يا شامة الدنيا ووردتها	9
كلنا في الهم شرق	11
بقلاوة شغل الشام	14
يضرب الحب شو بذل	19
بدري بيك ابو كلبشة	23
حارة كل مين ايدو إلو	27
فطوم حيص بيص	30
ايطاليا والبرازيل	35
حيط الفنان وسقفه	39
هدّى البلبل ع الرمان	43
فلسطينية العينين والوشم	47
من سينما الشعار الى سينما الانسان	50
المخرج السمكري وصراعه في جرش	54
عيد وسلفانا وناشد	57
جولان واسكندرون	61
ميغ وميراج وتجريدة مغربية	65
الجاسوس الذي كاد يصبح رئيسا للحكومة	69
سوريا يا حبيبتي	74
رمضان وغفران بين اكتوبر المصري وتشرين السوري	78
لا وحدة ولا حرية ولا اشتراكية	82
ماذا يطبخ تجار الشام على نار جهنم؟	86
ليس بوسعها أن لا تفوح.. مزارع الدراق	91

خلاص مسافر... مسافر، مسافر 95
تركوا فلسطينًا ليغتالوا غزالة!! 99
حرب بالربابة وعنتريات ما ذبحت ذبابة 104
السياسات كلها افيون 108
يوميات حمار وطني 111
شهيدنا تكلم فانطق الحجر 114
وإللي ما شاف من الغربال يا بيروت أعمى بعيون أمريكية 119
من يكرم الشهيد يتبع خطاه 123
ما في حجة للي ما طلعلو صوت... لانو المجزرة بتهز حتى الموت 126
جبرنا العظم المكسور ونفخنا بالصور 130
وكيف تتوب نار وهي إن تابت فسوف تذوب 134
بانوراما الخلافات العربية 142
بطل طوباس الحاج بوتاس يقصف ايلات 148
الطبيب اليوناني الفلسطيني كريس يانو 153
أنا صوتي منك يا بردى... مثلما نَبْعُكَ من سُحُبي 160
الشاعر سعيد عقل يتحدى الزعيم جمال عبد الناصر 163
عرفات في دمشق بعد 5 سنوات على طرده 166
لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة 171
ع الصالحية يا صالحة 175
القسام يبيع النمورة في الازهر 179
شيوعي يمجد الشيخ القسام 183
إن الزعامة والطريق مخوفةٌ... غير الزعامة والطريق أمان 188
مطران العرب كل العرب 193
جيفارا العرب تشهد له جروحه 199

القاوقجي مثيرا للجدل 204
يحتاج الشرق الى الكثير من طراز هذا الرجل 210
يا دار لنا... حقك علينا 214
القاوقجي بين مدح وقدح 220
عصا القاوقجي وسيكارته 224
لم يكن ملاكا ولا شيطانا 230
القاوقجي فقيرا مهملا بعد 40 عام من القتال 233
عرفات بين اسد سوريا وصدام العراق 247
يدخل السياسي في الثقافي متى يشاء 252
الطيش على شبر ماء 257
أنا الدمشقيُّ لو شرحتمُ جسدي... لســالَ منهُ عناقيـدٌ وتفـّاحُ 262
لم يبق وجه الحزب وجه الناس 268
لاهوت المقاومة والتحرير 271
سمرة وانا الحاصودي 276
جول وجاكلين 280
ابو سعاد يمتشق السلاح 30 عاما 284
امير البزق 291
امير الكمنجة 295
السحر الحلال 299
الزهاوي والرصافي يتنافسان في مديح الشوا 303
هزمتْك يا موت الفنون جميعها 306
كمنجة الشوّا عليك السلام 310
الشوا يعتزل الفن 314
الشوا: الموسيقى انفع طرق التربية واقواها 318

الجواهري: أني شآمي إذا نسب الهوى... وإذا نسبت لموطن فعراقي 323
شعر في كل العواصم ولم يذهب الغزاة، ولم يترجل الطغاة 329
اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض 335
تجري الرياحُ كما تجري سفينتنا... نحن الشراعُ ونحن الريحُ والقدَرُ 340
الشعر منارة لا مرآة 348
يا خجل هذه الليلة من التاريخ 352
سليمان الحلبي يقتل الجنرال الغازي بخنجر غزيّ 356
كفانا هجرة ولجوء 362
زهرة دمشق وسيفها 366
قتلناكَ.. يا آخرَ الأنبياءْ 373
احلام ومريم الاسطرلاب 386
ماري وبترو باولي 393
لا أَعودُ من الشام حيًا، ولا ميتًا، بل سحابًا 401
مثلما النسمةُ من بردى 409
فلسطين داري ودرب انتصاري 415
العقربات الخمس 420
تسامح وغفران وليس تناسي وتغاضي 427
سوريا التي في خاطري 88 427
سوريا التي في خاطري 432
الختام 432

يا شامة الدنيا ووردتها

على المدن ان تكون جميلة، وعلى نحو رباني غير مبالغ فيه، نحو صعب النوال ولكن ليس مستحيل، فالمدن كالنساء، تعشق واحدة فلا تنساها، قد يفشل ارتباطك بها لسبب او آخر، لكنك لن تنساها، تلتزم بغيرها التزاما قد يفضي الى حب، وقد تحب اخريات، وقد تظل تفتش عن حب جديد. قد تكون المدينة اما او حبيبة او صديقة، المهم ان المدينة مؤنثة ولا تستقيم فكرة تذكيرها ولا تصمد.

ليس لدي وقت طويل لابني علاقة حب مع دمشق، لا اريد ان اكون عابرا يمر في شوارعها ثم ينساها، علي ان احبها، ولكن هل يكون الحب بقرار؟!.

المدينة الحقيقية هي التي تفتح الباب امام الصدفة لتتمرجح في الساحات، وتستريح على الارصفة، وتركض في الشوارع وتتسلل عبر الحارات. ترى كم هو عدد المصادفات الذي قد يمر في مدينة تهتم لأمر الغرباء، تفرد ساحاتها للفقراء، وتبتسم.

ابتسامة المدن كما جميع الابتسامات جميلة، كابتسامة طفل، ما همّ إن كان متسخا، كابتسامة عجوز، ما همّ ان خفت بريق عينيها وتجعد وجهها، كابتسامة شيخ تساقطت اسنانه، كابتسامة صبية فاجأها الحب المنتظر صدفة، فتهلل قلبها واشرقت احلامها.

ابتسامة المدينة حضن واسع دافئ، يشع نارا في الشتاء ويفيح نسيما عليلا في الصيف، ويفيض بهجة في الربيع، وانسا في ليالي الخريف.

اريد ان اصدق كل ما فات ذكره وما كتبته وسأكتبه، ولكن دمشق وكافة المدن العربية لم تعد قادرة على الابتسام، اصبح حضنها طاردا حتى لأبنائها، وصار الفساد فيها متوالية حسابية، لم تعد تستطيع مخاتلة

غول الحرب، وصناع الظلم ودعاة الظلام، اصبح شبح الموت متحكما فيها، واصبحت دروبها متاهات، وعقول ابنائها مشتتة الولاءات.

دمشق ليست طيعة وليست عصية، ليست مزاجية كبيروت، وليس مبالغا فيها كدبي، ليست كسولة ولا متجهمة، تبتسم ولكن بتحفظ، لا تقهقه ولا تتصرف بعفوية كبغداد.

دمشق تاريخ يتربع في الذاكرة، يتصدر كتب التاريخ، ويصدر شعرا وفنا وجمالا، ويفيح طيبا، وينثر ياسمينا. لا تسطيع دمشق العيش في الهوامش، واريد ان اصدق انها ستشكل الاستثناء في هذا العالم المتماهي مع الدناءات. فهل الى نهاية للحرب من سبيل؟

ظَمِئَ الشرقُ فَيَا شامُ اسْكُبي... واملأي الكأسَ لَهُ حتّى الجَمَامْ

تشيخ المدن كما الآباء والامهات، تشيخ المدينة لتصبح اما ابدية، ويشيخ الناس، يشيخون ليتمرد الاولاد، وليأخذوا فرصتهم في الغواية والضلال، وليكبروا ويتوالدوا ويتدافعوا، ليتقاتلوا ويهاجروا، ليشعروا بلوعة الشوق، ليكويهم الحنين الى تلك الام الابدية. تلك الام التي شاخت وصارت نزقة سرعان ما سترتد لتكون اكثر طيبة وحكمة.

لي ربيعٌ فيكِ خَبَّأْتُهُ... مِلْءَ دنيا قلبيَ التَّعِبِ

طابت الذكرى فَمَنْ راجعٌ... بِي كَمَا العودُ إلى الطَرَبِ

أنا صوتي منك يا بردى... مثلما نَبْعُكَ من سُحُبي

كلنا في الهم شرق

سوريا التي في خاطري كان عنوانا لنص طويل، كتبته اول مرة من تداعي الذاكرة في ليلة واحدة، هي ليلة الثلاثاء 27 آب عام 2013، يومها كانت التهديدات بضرب سوريا قد اخذت منحى جديا جدا، يُذكر بما تعرضت له وآلت اليه بغداد، كتبت قطعة اولى بحدود السادسة مساء، وكانت عن اول مرة سمعت فيها اسم سوريا وانا طفل، يعيش في مدينة الزرقاء الاردنية.

احتشدت الذكريات ومنعت النوم، فكتبت نصا ثانيا وثالثا، كنت اكتب وانشر على الفيسبوك، انهيت الحلقة الاخيرة بعد منتصف الليل. وفيها تساءلت عن مصير صديقين اعرفهما هناك، وتقطعت اخبارهما، ولشدة المفاجأة فلقد كانا يتابعان ما اكتب بصمت، فطمأناني عليهما، لكن الطمأنينة على سوريا ظلت بعيدة.

اقوم الآن بإعادة نشر هذا النص، مرة اخرى وبتتابع يومي عبر الفيسبوك، ولكن بعد تدقيق تواريخ احداثه، واضافة ما ينفعه، ما استطعت الى ذلك سبيلا، فانا لم ازر دمشق الا في مناسبات قليلة ولفترات بسيطة، واقمت في نقيضها السياسي والحزبي بغداد، غير ان لسوريا بصمتها البارزة سلبا وايجابا على جلد السياسة الفلسطينية، وبصمتها المرئية احيانا، والوهمية احيانا اخرى على حيوات الفلسطينيين ممن لم يزوروها ايضا.. دمشق وبغداد بلدين تشابها فينا وتشابها في المآل رغم الاختلاف. اراعي الصدق ما امكنني في ايراد انطباعاتي عن سوريا، في كل مرحلة كما شعرت بها في وقتها، متدرجا في العمر الذي اصبح ورائي الآن وخالطا احيانا دون عمد بين ما كان وما صار عليه وعيي للأحداث.

الانطباعات اقوى من الوقائع، والذكريات البعيدة اكثر حضورا من

الحاضر، اتذكر اشياء بعيدة عن سوريا، ولكنني اعجز الآن عن تذكر ماهية تلك التهديدات التي تعرضت لها سوريا يوم كتابة هذا النص لأول مرة، ولأن اخبار الحاضر ومعلوماته اصبحت من الكثرة والتشعب بحيث يصعب غربلتها وتدقيقها، سنظل ننتظر الزمن، ليحكم على هذا الحاضر من خلال ترسيخ انطباعات دون اخرى في ذاكرتنا الماضية نحو الافول.
اتحايل بهذا النص عبر اضافات لا تهدف لشيء سوى تفريغ جزء من مكنونات الذاكرة والقلب. الكتابة السريعة هي الاصدق في المشاعر والاوضح في النوايا وتبيان المقاصد والمواقف، ولكنها تظل معرضة لخطأ هنا او هناك. اخطاء سيسعدني تلقي الملاحظات عنها من اصحاب الذاكرات السورية وهم كثر.

يقول ياقوت الحموي عن مدينة دمشق: «ما وصفت الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله»، البيت الدمشقي هو الآخر جنة مصغرة وحميمة، بيوت سوريا كما في لوحة الفنان محمد هشام الخياط تعلمنا ان لا نحكم عليها من الخارج، ففي داخل هذا الهيكل الخارجي المتواضع، ألفة واتساق تعادل كل ثراء، بعض البيوت الاخرى وبعض الناس ايضا ينطبق عليهم قول: «من برة هالله هالله ومن جوة يعلم الله» او يكونون «بلا مخبر ولا منظر» وهذا اسهل لمنع الانخداع بهم.

سوريا التي في خاطري ليست بعيدة عن بلاد اخرى في خاطري وخاطركم.

تذكرون دون ادنى شك عددا كبيرا من ابيات قصيدة امير الشعراء احمد شوقي:

سلام من صبا بردى ارق... ودمع لا يكفكف يا دمشق

تذكرون معذرة اليراعي والقوافي والجراحات التي لها في القلب عمق، تذكرون ائتلاق الاصيل والوجه ضاحك القسمات طلق، وتذكرون الانباء

التي توالت على سمع الولي بما يشق، وتذكرون دم الثوار الذي تعرفه فرنسا وتعرف انه نور وحق، وتذكرون باب الحرية الحمراء الذي بكل يد مضرجة يدق.

اريد تذكيركم بالبيت الواحد والاربعين من بين الابيات الخمس والخمسين لهذه القصيدة، لأننا درجنا على استخدام عجزه دون شطره، ونسينا انه كتب لسوريا رغم انطباقه على غيرها.

نَصَحتُ وَنَحنُ مُختَلِفونَ دارًا... وَلَكِن كُلُّنا في الهَمِّ شَرقُ.

بقلاوة شغل الشام

كنت طالبا في الصف الأول الابتدائي، بمدرسة الرازي الابتدائية للبنين في مدينة الزرقاء الاردنية، كنا نداوم شهرا في الفترة الصباحية، والشهر الذي يليه في الفترة المسائية، كان اسم آذن مدرستنا ابو طالب، لم تكن المدرسة بعيدة، كنا نذهب ونعود مشيا، انا وابن عمتي هايل، لا اتذكر ابعد من ذلك.

زمن طويل انقضى على يومي الدراسي الاول في تلك المدرسة، كان يوما عاديا لأسرة انا رابع ابنائها الذاهبين للمدرسة، ولكنه كان يوما مميزا مشوبا بالحذر والتوجس والرهبة لمن لم يسبق له الذهاب الى أي روضة او حضانة مثلي.

اغلب الظن ان ذلك اليوم كان في مطلع خريف العام 1971، كانت الفصول ايامها اكثر حدة وصراحة، وكانت مناديل القماش والحقائب والقرطاسية متماثلة جدا بشكل يثير الملل، ويقضي على كافة ادلة الملكية المتنازع عليها دوما بين التلاميذ الثلاثة الجالسين على مقعد واحد، مقعد طويل نسبيا يقضي على الخصوصية ويدمر الشخصية ويؤسس لصراعات باهتة الاسباب.

كنت قد استعددت لذلك اليوم بحلاقة شعري الذي كان ايامها كثيفا، لكن سؤالا بسيطا وجهه الحلاق لي فور جلوسي على كرسيه العالي، جعلني اكره الاسئلة منذ ذلك اليوم المتناهي في البعد وحتى يومنا الحالي، ولا شك انني سأظل اكره الاسئلة فقد فات الاوان على التغيير. سألني يومها: على الزيرو؟ ولم اكن اعرف ما هو الزيرو، ربما هززت رأسي لاستفهم ربما حاولت النظر اليه لاستفسر، لكنه كان متعجلا واعتبر انني وافقت.

لم يزعجني منظر رأسي الخالي من الشعر، لا ايامها ولا ايام الشباب

عندما فقدت شعري مبكرا جدا، ولكن فكرة ان يكون هناك سؤال يخصني ويتعلق بي ولا اعرف الاجابة عليه ما زالت تؤرقني، ومن يومها الى اليوم وانا افكر بالأسئلة التي تتعلق بي ولشدة تفكيري بها فأنها تتراكم وتتراكم واما الاجابات والخيارات فإنها تذوب في سوائل الاحتمالات شديدة الاذابة.

لم يكن في منهجنا سوى سمير وسميرة وباسم ورباب وراس روس، والتي اكتشفنا انها غير متبوعة بحمير تيوس كما كان يردد من سبقنا الى المدرسة.

بعد ربع قرن على ذلك اليوم، سكنت ذات عطلة صيفية في شقة جديدة بحي ام الشرايط في مدينة البيرة، وأطل الخريف برأسه لاستيقظ ذات صباح على بكاء وعويل عدد كبير من الاطفال، نظرت من النافذة فإذا بالآباء والامهات يقومون بتسليم اولادهم للروضة الواقعة بجوار عمارتنا.

كان بكاءً مرا وطويلا، وكان الآباء والامهات والمربيات يتحايلون على الاطفال بشتى الطرق لترك اولياء امورهم والدخول الى المبنى دون طائل، الاولاد يبكون بحرقة واولياء الامور ينسحبون تدريجيا بعيون دامعة، استمر الامر ساعتين، قبل ان يخبو العويل ويخفت، اغلب الظن

ان الله استجاب لدعائي وجعل الاطفال ينامون.
بدأت جولات العويل والبكاء تتناقص يوميا، وانتهت بعد اسبوع، لتحل محلها اصوات من انواع اخرى، اجملها تلك المنطلقة من حناجر الاطفال عند انتهاء الدوام وملاقاة الوالدين.

الحمد لله أنني انهيت المدرسة، وأنني لا اعمل في التدريس. ما زال مشهد الخروج من المدرسة في نهاية الدوام هو الاكثر بعثا للسرور في نفسي. يذهبون للمدرسة كالسلحفاة الكسلى ويخرجون منها كالنمور متحفزين.
راقبت خروج النمور من عدة مدارس، تعمدت ذلك احيانا في بغداد، ومر امامي مصادفة في بكين، وللآن كلما مررت بخروج التلاميذ من المدرسة توقفت لأردع تلاميذ اشقياء يتنمرون على زميل ضعيف.

ببالي الآن قصيدة كتبها الشاعر العراقي مظفر النواب في واحدة من ايام منفاه الدمشقي عندما مر بباب مدرسة دار السلام في دمشق فابتلى بالجمال المندفع من تلك المدرسة على شكل ارغفة خبز تنور حار.

يا عمر الورود و نثّات المطر
حالاّت الشعر...غزوة شام
و النفنوف هلهولة بحر
حارات من المدارس چن خبز تنور
يفسدنك يا گلبي لو حجر
ضبية عمي تگلي، ضبية تگلي خالي
ضبية بي تبحّرت، ركبتلي جني
طوال و محزمات... و ريّانات
يا الله دخيلك
أنا بسنين البرد و الثلج منهن عطّبيت
يساعد الله التوه خط الزغب فوق شفافه المورمات شهوة
و خالي جيبه و ماله بيت
إيـــــه يا إنتِ تذكريتچ
كلهن أنتِ
شگد ضگت بقلاوة شغل الشام
مثلچ يا شغل بغداد أبدًا ما لگيت

اجمل الطرق هي طريق العودة من المدرسة الى البيت، واكثر المشاهد اثارة للشجن هي مشهد اندفاع التلاميذ من فوهة المدرسة، نحو الشارع نحو العالم نحو احضان والديهم نحو المائدة نحو البيت وبعدها نحو الحارة ثم الجلوس امام التلفزيون مساء.

التلفزيون، من هنا تحديدا عرف ابن الصف الاول الابتدائي في مدرسة

الرازي بوجود دولة جميلة وسعيدة تسمى سوريا، ذاكرتنا ثنائية القطب لم تكن تتسع لاستضافة ثالث بين السعادة والحزن او الجمال والقبح.
في بياض هذه الذاكرة كان غوار الطوشة ومسلسل صح النوم، وفي سوادها كل ما عداه.
الصورة مدرسة دار السلام (الفرنسيسكان) بحي الشعلان في دمشق تأسست سنة 1925، وطالبات الثانوية ايام نظام الفتوة.

يضرب الحب شو بذل

كنا نتجمع مع بقية أفراد اسر الجيران في حوش دار العم ابو وليد والواقعة في زقاق يتفرع من شارع شامل بمدينة الزرقاء، أمام تلفزيون ياباني من ماركة توشيبا، كان هذا التلفزيون الاسود والابيض بشاشته الصغيرة والمحدبة جدا، يكاد يكون الوحيد في الحي.

كنا نتمسمر امام التلفزيون لمتابعة الحلقة الأسبوعية من مسلسل صح النوم لغوار الطوشة (دريد لحام) وصديقه ابو عنتر (ناجي جبر) وغريمهما اللدود حسني البورزان (نهاد قلعي) ومعشوقتهما فطومة (نجاح حفيظ) وخالها القصاب ابو رياح (محمد الشماط) وخادمها ياسين بقوش (الممثل السوري من اصل ليبي والذي حمل اسمه الحقيقي داخل المسلسل) وصديقهما بياع الخيار ابو قاسم (محمد العقاد) وذلك الواقف بالمرصاد للجميع بأنفه وحاسته السادسة بدري بيك ابو كلبشة (عبد اللطيف فتحي)، وكان معهم حمار ابيض جميل اسمه ابو صابر.
كنا نغفو قبل نهاية الحلقة ونصحو فإذا بالسهرة قد انفضت واستعد الجميع للرحيل فنبدأ بالبكاء مطالبين بإعادة العرض، يحاولون اقناعنا

دون طائل فنظل نبكي حتى ننام مرة أخرى.
وفي اليوم التالي نتجمع في الحارة ومعظمنا ينكر انه قد نام، ويستشهد على ذلك برواية أحداث مفترضة من هذا المسلسل الذي كرس سوريا في خاطري وأنا صغير حتى اعتبرتها بلد السعادة المطلقة.
ما زالت موسيقى مقدمة هذا المسلسل حاضرة في عقلي وكأنها حبل سري لم ينقطع مع طفولتي وما زالت أغنية فطم فطوم فطومة ترن في أذني:

فطوم فطوم فطومة / خبيني بيت المونة
لما بكرا بيجي البرد / مالك غير كانونة
شو حبيتي بنص نصيص هل بورزان
راسو من دك البستان موعرفان
فتاحي قلبي وخدي منو شي نارة
مهما فتلتي ما في متلي بالحارة
فطومة كيف حبيتا اهل الحارة سالوني
بعيونكن لا تشوفوها / لك شوفوها بعيوني
في رجال بيتجوز مو مجنون
خديني قبل ما اعقل يا فطوم
لا تقضي عمرك بالخطاب محتارة
برمشة عين بيمضى العمر يا خسارة
غمضي عين وفتحي عين / بتصيري عل عكازة
طقم سنان وحدربة / وبتبقي بدون جوازة
وقارن قارن قارونة سيرن سيرون سيرونة
فطوم اشلبدش / فطوم يا مو / فطوم تيني سيفيرو
فطوم يضرب الحب شو بذل

اذن لم يكن كاظم الساهر هو اول من كتب هذه العبارة (يضرب الحب

شو بذل) او قالها او لحنها وغناها، لقد إقتنصها من الاغنية وقبلها من فم الممثل ناجي جبر (ابو عنتر) الصديق الصدوق لغوار الطوشة.

كان غوار قد طرد من وظيفته في نزل السعادة الذي تملكه فطوم، فبدأ يعمل كماسح احذية، لأنه حسب اقواله لا يستطيع العمل كماسح جوخ، جلس ابو عنتر الى جواره مواسيا وقال له عبارته الشهيرة: باطل ابو الغور!!! يضرب الحب شو بيذل!!!

فعلا يضرب الحب شو بيذل!!! ففطوم التي رفضت حب غوار لم تحظ بحبيبها حسني، وتزوجت في النهاية من اجيرها الساذج ياسين بقوش، والذي ظلت تهدده طوال حلقات المسلسل بأن تمصع رقبته وان تحل وبره. فانطبق عليها المثل العراقي القائل: «لا حظيت برجلها ولا أخذت سيد علي».

لحن اغنية فطومة مأخوذٌ بحذافيره، عن أغنية أرمينية قديمة (كارون كارون كاروني، سيرون سيرون سيروني)، وقد اعاد توزيعها الفنان عبد الفتاح سكّر.

الحقيقة أن عملية الاقتباس هذه قدّمت خدمة جليلة للأغنية الأصلية، حتى ان الفنانة نانسي عجرم غنتها في مقابلة مع نيشان على تلفزيون الجديد.

المدن والحكومات ايضا عندما تعاند قدرها ونصيبها، وترفس كل ضرورات التحديث والتطور والتجاوب مع الراهن، يصيبها ما اصاب فطوم، فكما يقول المثل: «اللي بيعاند مؤخرته بيعملها في لباسه»، عاند الرئيس التونسي زين العابدين بن علي كثيرا وفي خطابه الاخير قال: الآن فهمتكم. كان الاوان قد فات.

في ذلك الصباح كانت كاميرا الجزيرة ترصد انفعالات التوانسة، المسن احمد الحفناوي كان قد بات ليلته في مقهاه الواقع بشارع الحبيب

بورقيبة قبالة وزارة الداخلية، خرج من باب المقهى وصل الى الجزيرة الوسطية المظللة بالأشجار، فاجأته الكاميرا فقال بكل عفوية وتأثر، وبفرح تشوبه الحسرة، وهو يمسح بيده اليمنى على شعره الاشيب بالكامل:... هرمنا! لقد هرمنا في انتظار هذه اللحظة التاريخية...

قالها مقطعة على نحو مؤثر، وسرعان ما اصبحت العبارة الاكثر تداولا، وسرعان ما اصبح صاحبها الاكثر شهرة.

يقول صاحب العبارة الشهيرة في مقابلة اجريت بعد 7 سنوات على ذلك اليوم الواعد، انه ليس نادما، ولا زال مؤمنا بالثورة، وان تلك اللحظة كانت من اجمل لحظات حياته، ولكنه يعيش الآن اتعس ايام حياته، لقد كان لديه مقهى ايام الزين، واما بعد الثورة فقد اضطر الى بيعه بأبخس الاثمان.

بعضهم علق على المقابلة قائلا: لقد ندمنا. يبدو انه كما يقول المثل: «فسّا غلب 100 عطار».

يا رب ان حكامنا فسائين فلا تجعلهم معاندين ايضا، ولا تجعلنا من النادمين.

بدري بيك ابو كلبشة

لست الوحيد الذي دأب على استخدام وتجنيد المقولات المأثورة الواردة على لسان ابطال المسلسل السوري صح النوم في كتابات سياسية، لقد فعل ذلك كثيرون، ربما اكون قد استخدمتها جميعا، وربما كررت استخدام بعضها، فهي اقوال مستقرة في بال الكاتب وفي اذهان وذكريات مجايليه من القراء، وهي اقوال مغرية وصالحة للاستخدام. وربما تكون عبارة يضرب الحب شو بيذل، ورغم انها اصبحت اغنية شهيرة، هي المقولة الاقل استخداما.

«انا انفي لا يخطئ ابدا» عبارة اخرى شهيرة ظل يرددها الفنان الراحل عبد اللطيف فتحي (بدري بيك ابو كلبشة) للتدليل على مهارته البوليسية وحدّة حاسته السادسة. وكان يُتبعها بحركة شهيق مبالغ فيها، لدرجة انها تجعل خطوط جلد جبينه اكثر بروزا وارتساما، وحواجبه اكثر تقاربا.

وكان يرددها مع كل مقلب يدبره العاشق الغيور غوار للإطاحة بغريمه حسني، علّه يفوز بقلب صاحبة الحسن والدلال فطوم خانوم.

مقالب غوار في المسلسل المسمى صح النوم، كانت مكشوفة تماما ولا تستدعي انفا ولا حاسة سادسة، كذلك مقالب الآخرين في المسلسل المسمى حياة وواقع، ممن يعتقدون انفسهم اذكياء، او ممن يعتقدون ان الجمهور اغبى منهم. اذا كان الجمهور غبيا فهو غبي بإرادته ومزاجه واختياره، واما هم فانهم اغبياء فعلا.

كان بدري بيك الشهير بـ ابو كلبشة في مسلسل صح النوم السوري مجرد شرطي لا اكثر ولا اقل، وبرتبة عريف لا راح ولا أجا، ويدير مخفرا صغيرا للشرطة في حارة صغيرة، ليس لها بوابة، لم يكن منافقا بما يكفي

ليستلم مخفرا اكبر في حارة اوسع، ولسوء حظه فقد كانت هذه الحارة الصغيرة «حارة كل مين ايدو إلو».

سيمضي زمن طويل قبل ان اغادر المسلسل ومقولاته، ثم استعيدها عيشا على ارض الواقع في بلاد يجب ان تسمى «حارة كل مين ايدو إلو»، وقبل ان تتحول سوريا بحد ذاتها، ومن قبلها ومن بعدها العراق ودول اخرى، الى تجسيد حقيقي لهذه المقولة، فتتحول حاراتها الى ملاعب لكل من هب شرقا او دب غربا.

لم تعد انوف الرؤساء العرب ولا قيادات المعارضة تعمل كأنف ابي كلبشة، لقد فقدوا حاسة الشم وربما التذوق ايضا، وهما الحاستان

اللتان لا تدلان فقط على الطعم والرائحة، بل تذهبان ابعد حيث يعتبر فقدانهما واحدا من عوارض الاصابة بفيروس كورونا، وتذهبان ابعد وابعد ايضا فتصيران شديدتي الارتباط بالسلوك الحضاري.

لو كنت أمامكم او كُنتُم امامي لخيرتكم في اولوية ترتيب الحواس، السمع والبصر والتذوق واللمس والشم، ولكنكم بشكل او بآخر امامي ولستم امامي، ولا تملكون الحماس للإجابة والاختيار، ليس لانكم مترددون، وانكم تحسبونها كثيرا، بل لأنكم ترونها جميعا على قدم المساواة، ولا ترون في الترتيب اضفاءً لأهمية من نوع ما، فأنتم تمتثلون للآية الكريمة «ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد وكل أولئك كان عنه مسؤولا».

لماذا تقدم السمع على البصر؟ ولماذا أضيف الفؤاد الى الحواس؟ لماذا للسمع كمصدر، فعلٌ ثلاثي هو سَمِعَ، وللبصر كمصدر فعل هو أبصر، وليس للفؤاد اي فعل؟ هل تكون حاسة الفؤاد هي الحاسة المسماة اصطلاحا بالسادسة؟ هل يا ترى القلب المقصود بالآيات الكريمة هو المضخة التي تدفع الدم، ام العقل؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا» ؟ هل نحن فعلا مسؤولون عن قلوبنا؟ وسؤال إضافي: هل ترون مثلي ان حاستي الشم والذوق ظلمتا اكثر من بقية الحواس؟ ربما لارتباطهما بالحياء والخجل واللياقة، فمثلا عندما نعاتب من لا يستحي نقول له ألا تشم؟! وعندما ننتقد قليل اللباقة نقول انه بلا ذوق.

هل يمتلك الرؤساء والقادة انوفا حساسة تؤهلهم لكي يشموا رائحة غضب الجماهير، ماري انطوانيت شاهدت ذلك الغضب وسمعته ولكنها لم تفهمه، فقالت الجملة التي ادت الى اعدامها: «اذا لم يجدوا خبزا فليأكلوا البسكويت».

بطانة الحاكم لا تُسمعه الا ما يحب ان يسمع، ومع توالي ارخاء الاذنين لهؤلاء يقتنع الحاكم انه اسطوري، ويقع في حبائل نوع غير مألوف من الادمان.

بحثت كثيرا عن السبب الذي يدفع فاسدا ما الى الاستمرار في فساده، حتى بعد ان يجمع أموالا تكفي احفاد احفاده، او حاكما الى الاستمرار في التمسك بالحكم، حتى بعد عجزه عن التحكم في تبوله.

بحثت كثيرا ولَم اجد الا جوابا واحدا فقط وهو؛ ان ذلك الجزء من الدماغ والذي يتعرض للعطب نتيجة الإدمان على الكحول او المخدرات، هو ذاته الذي يتعرض للعطب ايضا عند كسب الكثير من المال، او الحصول على كثير من الجاه والمنصب والقدرة.

وعليه فلذات الأسباب تجد انه من الصعب على المدمن ترك المخدرات او الكحول او التدخين، وصعب على لاعب القمار ان يمتنع عن اللعب مهما كانت خسائره، تماما كما هو صعب على من ادمن السلطة المطلقة ان يتركها.

بنية المجتمع وثقافته وتركيبته السياسية ونشاط احزابه المعارضة هو ما يحول هذه السلطة المطلقة، نحن حين تجاوزنا هذه السلطة المطلقة اعدنا انتاجها على شكل الاب القائد، او الديكتاتور الطيب. مشوارنا طويل.

في المسلسل هتف غوار الطوشة: «فليسقط بدري بيك، فليسقط بدري بيك» وقاد تظاهرة في احدى المسرحيات، كان يسأل الجمهور: «شو بدكم؟» فيردون: «بدنا تغيير المختار» ولكن المختار لم يتغير، وبدري بيك لم يسقط، وغوار لم يهتف بشيء خارج المسلسل والمسرحيات، ليس غوار فقط وانما كثيرون، يكتبون هنا وهناك ويصرخون عبر الفيسبوك، في عالمنا حتى عندما يسقط بدري بيك نجد ان الشعب وقواه غير جاهزة ببدري بيك افضل من سابقه.

حارة كل مين ايدو إلو

«حارة كل مين ايدو إلو» لم يكن هذا التوصيف دارجا ولا مستخدما قبل مسلسل صح النوم، وهو وإن كان قد انطلق لتوصيف حال حارة دمشقية صغيرة يعيث فيها غوار الطوشة ورفيقه ابو عنتر فسادا، فقد تحول مع المدة الى توصيف لسياسات مؤسسات ودول وحكومات، تنتشر فيها الفوضى وتسودها مظاهر اخذ القانون باليد، ويجبر فيها التجار على دفع الاتاوات. وقد تصبح فيها كل من «سلطتو إلو» او «صواريخو إلو» ولاحقا «حارتو بكاملها إلو»، وليس فقط يده.

في هذه الحارة القديمة كما في حارات الحاضر والمستقبل هناك الفهلوي والشبيح، والمسكين والساذج والمثقف والغشاش والمغرور والمواطن المقهور، والثائر والخانع، وهناك القانون ولكنه الحاضر الغائب. يحضر ويغيب وفق رغبات اصحاب الايادي الطويلة، اصحاب الايادي الاطول والاشرس والابشع ستحاول اعادة كتابة التاريخ بادئة من يوم اعتلائها مزبلة الحكم، وستظل تدعي انها تصحيحية او ان اياديها متوضئة، لكن

عقولها وقلوبها ليست كذلك.

وهناك من يجيد خلط الاوراق وتوزيعها على اللاعبين، ويحتفظ في كم قميصه بجوكر او اكثر، ويلعب بمهارة مستخدما جوكر القانون الذي يجعل من نصوصه مطاطة وقابلة للتأويل، او جوكر الديانة بعد ان يجري عليه تعديلات تناسبه، او جوكر الشعور الطائفي بعد ان يلمعه بحرية الاعتقاد ويشحنه بمشاعر الحرمان، او غيرها من الجواكر التي تستطيع ان (تكش) ما عداها من اوراق اللعبة. لا يوجد جوكر للنوايا الحسنة، فهذه اصبح لها سفراء يزيد عددهم على عدد النوايا.

ان لم تفلح الجواكر فهناك التقية والاستبطان، أمر الله سبحانه وتعالى بالتُقية في القرآن الكريم، وحدد شرطها بالخوف على الحياة بسبب اضطهاد العقيدة، وفضل عليها بالطبع الاستشهاد في سبيل هذه العقيدة. هذه التُقية انتقلت مع المدة الى اباحة واسعة، شملت ما هو دون العقائد كالطائفية والحزبية والمصالح، وانتقلت بمرور الوقت، من الشيعة الذين استخدموها ايام قمعهم على ايدي الامويين ثم العباسيين فالعثمانيين، الى السنة، ومنهم الى الشيوعيين وغيرهم. ولم يتوقف الامر عند توسع مفهوم التُقية افقيا ليشمل مستخدمين جدد، بل انها توسعت عموديا ايضا لتشمل النفاق والإستبطان.

جماعات تتعهد بإرساء الديمقراطية ان فازت في الانتخابات، وحين تفوز ترسي مبدأ الشورى الداخلية وتصبح الانتخابات حراما، قوى تتعهد ببناء الدولة المدنية، والمواطنة، والمساواة، والحرية، وبعد ذلك لا تجتهد في ارسائها بل في اختراع المبررات التي تحول دون تلبية هذه التعهدات، وهناك من ينافق لهؤلاء واولئك من قوى غيرت لونها وصار علمها متلونا. احتراف ممارسة النفاق، وخاصة حين يتعلق الامر باللعب مع الكبار، دولا وجماعات، لا شك سيقود الى الإستبطان، والى الالتزام باخفاء حقيقة

وتفاصيل العقيدة او الايدولوجيا والاهداف.

مارس شيوعي سوداني التُقية فعمل اماما لاحد المساجد، واما الحزب الشيوعي السوداني فقد نافق للاسلام السياسي بمبرر وسطيته، واستبطن مطلبه بفصل الدين عن الدولة، وكان الاسلام السياسي بالطبع أمهر منه في الإستبطان، فما ان وصل الحكم حتى اعدم الامام وحلَّ الحزب وكفره. يا الهي، كما قال الشاعر المصري صلاح عبد الصبور:»لا أدرى كيف ترعرع في وادينا الطيب هذا القدر من السفلة والأوغاد»..

اغرب ما رأيت لدى هؤلاء الاوغاد انك حين تخونهم يتحولون الى ملائكة، وعندما تجادلهم بالمنطق يتحولون الى اوباش. ربما لأنه ليس لديهم منطق، او لان تعاليم التقية والاستبطان دخلت عميقا في وجدانهم.

ويا الهي كم نفاق واستبطان وتقية مورس علينا عبر التاريخ، عندما ذبح البعثيون السوريون الاخوان المسلمين في حماة سارع البعثيون العراقيون الى استقبالهم، كرها بزيد وليس حبا بعمرو، وعندما كان النظام السوري يتزعم معسكر المقاومة والممانعة كان يغلق جبهة الجولان بإحكام، وعندما كان يتغنى بدعم الثورة الفلسطينية كان يشق فصائلها ويطرد قياداتها، بل انه كان يذبح ابنائها في المخيمات، وفي المقابل لم يستفد احد من النظام السوري بمقدار ما استفادت منه تنظيمات ناصبته العداء المطلق قبل ان تعود لطلب صداقته. اوقح التحالفات هي تلك التي تمت في عصر ازدهار الاسلام السياسي، الازمة السورية كانت الكشاف الذي فضح كثيرين.

الحارة الدمشقية كما يصورها شيخ كار الرسم في سوريا نذير بارودي.

فطوم حيص بيص

منذ انتاج مسلسل صح النوم في سبعينيات القرن الماضي واسم فطوم يأتي متبوعا بـ حيص بيص، حتى حين يكون اسم دلع لـ فاطمة او فطيمة، وذلك لشهرة صاحبته الفنانة الراحلة نجاح حفيظ.

سنظل عاجزين عن ادراك مقصد مؤلفي المسلسل (نهاد قلعي ودريد لحام) من وراء هذه التسمية، فعبارة حيص بيص تعني اللخبطة، وهي عبارة وإن كانت قد اشتهرت بفضل المسلسل وتحققت على ارض بلد ممثليه فأنها اقدم منه بكثير.

وفطوم ليست اول من حمل هذا اللقب العجيب اذ سبقها الى ذلك بثمانية قرون الشاعر أبو الفوارس سعد بن الصيفي التميمي وقد سمي حيص بيص لأنه رأى الناس يومًا في حركة مزعجة وأمر شديد فقال: ما للناس في حيص بيص؟، فرموه بهذا اللقب ومات عليه.

كان ابو الفوارس مناهضا للعباسيين، ومؤيدا للعلويين، ولا شك في أن لُمنافسه ومُهاجيه، هبة الله بن الفضل أثرًا كبيرًا في انتشار هذا اللقب ويدلنا على ذلك قول ابن الصيفي في إحدى هجائياته:

لئن أصبحتُ بـيـنكـمُ مُـضاعـًا / أبـيـعُ الـفـضلَ مـجَّـانـًا رخـيصا
وعـاقـنـيَ الـزمـانُ عـن المعالي/ فـصـرتُ إلـى حبائـلـهِ قـنيصـا
فـإنـي سـوف أوقـعكم ببأسـي / وإن طال المدى فـي حَيصَ بـيصا
فَحسبُكُم هذا التفاوتُ بَينَنا.. وكُلُّ إناءٍ بالذي فِيهِ يَنضَحُ

ويبدو ان تهديده قد نفذ، فما زالت الناس في حيص بيص، والامل ان لا تموت كذلك. لهذا الشاعر مقولة يرددها العرب جميعا وربما يوميا في السر او في العلن، وهي العبارة الواردة في ختام هذه الابيات:

مَلكنا فَكانَ العَفو مِنّا سَجيَّةً.. فَلَمّا مَلَكتُمْ سالَ بالدَّمِ أبطُحُ
وحَلَلتُمْ قَتلَ الأسارى وطالما.. غَدَونا عَن الأسرى نَعفُ ونَصفَحُ

شهرة نجاح حفيظ في المسلسل طغت على بقية اعمالها (15 فيلما و 30 مسلسل)، كانت محبوبة في المسلسل رغم انها لم تبادل غوار ذلك الحب، وكانت محبوبة لدى الجمهور، وفي الوسط الفني ايضا، رحلت عن عالمنا عام 2017، ولم يخرج في جنازتها سوى سبعة فقط. لان الناس كانت في حيص بيص.

قالت في مقابلات صحافية ان امنيتها الأخيرة كانت إعادة تقديم شخصية فطوم حيص بيص لتكون اكثر نضجا وخبرة.

ترى لو كانت قد قدمت تلك الشخصية بشكل ناضج هل كانت ستحقق لها ذات الشهرة؟ وهل كان غوار سيحبها ويغني لها: فطوم فطوم فطومة خبيني ببيت المونة.

الحيص بيص ليست اشد وطأة من الفوضى الخلاقة التي تم حقننا بها، وكأننا فئران تجارب في مختبر.

يقول محمود درويش: ان اثر الفراشة لا يرى، اثر الفراشة لا يزول. وتقول الفيزياء في نظرياتها ان فراشة تضرب بجناحيها في البرازيل قد تسبب اعصارا في كاليفورنيا بعد سنوات، وان اطلاق بوق السيارة داخل نفق مروري يخترق جبلا قد يؤدي لانهيار الجبل، لان الموجات الصوتية ستنتقل من الهواء الى جوانب النفق لتخترق ذرات الصخر محدثة خلخلة وشقوقا متتالية تسفر اخيرا عن تصدع الجبل ولكن على المدى البعيد. هل يشبه هذا قولنا: «القشة التي قصمت ظهر البعير»؟

يبدو ان دهاقنة السياسة استلهموا من ذلك نظرية الفوضى والمسماة بالانجليزية Disorder او Chaos وبعضهم يعرفها بنظرية الشواش والتي تقول: ان الاشياء المتحركة اللاخطية والتي تبدي نوعا من السلوك العشوائي ظاهريا تنتج في النهاية وعبر (تأثير الفراشة) نظاما محكما يمكن التنبؤ به ورسم ملامحه.

ومن هنا جاءت نظرية الفوضى الخلاقة Creative Chaos ويقصد بها قيام اشخاص غير مكشوفي الهوية بإحداث فوضى متعمدة عبر وكلاء معروفين بهدف تعديل الأمور لصالحهم.

هذا المصطلح موجود في ادبيات الماسونية بحسب الكاتب الامريكي دان براون، صاحب رواية شيفرة دا فينشي، ولم يظهر حديثا للعلن الا بعد الغزو الامريكي للعراق، وللتذكير فان وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس قالت لصحيفة واشنطن بوست بوست عام 2005 ما مفاده: ان لدى الولايات المتحدة نية لنشر الديمقراطية في العالم العربي، وتشكيل شرق اوسط جديد عبر نشر الفوضى الخلاقة، وبعدها طبعا انتشرت فرق الموت ومنظمات الارهاب كالقاعدة وغيرها وحينها ايضا ازدهر الاسلام السياسي وصار يريد كراسي الحكم وباي طريقة. وزادت الحياة حيصا على بيص.

شيخ الادب الشعبي في لبنان الكاتب سلام الراسي ألف عام 1983 كتابا اسماه «حيص بيص» وقال عن ذلك:

يُحكى أنّ رجلًا أنعمت عليه السماء، بكثير البنات. لكنّه ثابر على شكران الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه، حتى جاءَت الابنة الخامسة فسمّاها «كفى» ثم جاءَت السادسة فسمّاها «منتهى». ثم جاءَت السابعة فسمّاها «تمام». ثم جاءت الثامنة فسمّاها «خاتوم».

ثمَّ أنعم الله على الرجل بابنتين توأمتين متشابهتين، وبالنظر لعدم وجود أسماء في حجم هذه الداهية الدهماء ارتجل الرجل لابنتيه اسمًا مشتركًا لا معنى له هو «حيص بيص». وجرى هذا الاسم مجرى الأمثال نعود إليه كلّما اكتنفتنا الحيرة، أو ساءَت بنا الحال.

وكانت عمّتي أم سعيد قد تخصّصت باختيار أسماء المواليد الذكور – دون الإناث – في القرية. فإذا جاءَت ساعة إحدى الحبالى لتلد، جاءَت

عمّتي وجلست إلى جانبها وتنبّأت لها بمولود ذكر، وراحت تتبرّع لها بأسماء مناسبة للصبي العتيد، لتختار المرأة منها ما تريد، فتصرف، بذلك اهتمامها عن آلامها إلى توهّمات أحلامها.

وكنتُ قد أنجبتُ سابقًا خمسة كتب انتخبت أسماءَها من وحي نباهة عمتي الطيّبة الذكر أم سعيد. ثم حبلتْ جعبتي بمولود جديد، هو هذا الكتاب بالتحديد، فتراكمت عليّ نصائح الأصدقاء والأشابين والقوابل، بشأن تسمية الكتاب، حتى اختلط الحابل بالنابل، فقلت أخيرًا: وليكن اسمه «حيص بيص»، وعلى روح عمّتي أم سعيد السلام.

ايطاليا والبرازيل

«إذا اردنا معرفة ما يجري في إيطاليا علينا معرفة ما يجري في البرازيل» عبارة شهيرة للممثل الرائع المرحوم نهاد قلعي (حسني البورزان)، كان يرددها دائما في مسلسل (صح النوم) قبل شروعه في كتابة مقال، او محاولة تعليم المساجين في قاووش ابو كلبشة.

وغالبا ما كان يتبع قوله لهذه العبارة مقلب من مقالب دريد لحام (غوار الطوشة)، والتي لا تسمح ابدا لهذا المقال ان ينتهي، ولا للحارة ان تهدأ، ولا لنزل السعادة الذي تديره فطوم ان يحظى بهداة البال.

ان تعرف ما يدور في البرازيل وإيطاليا اسهل بكثير من معرفة ما يدور في اذهان الصغار من اصحاب المقالب والمغامرات ويبقى الأهم ليس مجرد المعرفة وإنما التصرف بناءً عليها.

انتهى المسلسل قبل 50 عاما ولم نعرف ما الذي كان يدور في البرازيل ولا في ايطاليا، بل اننا لم نعد نعرف ما يدور في دمشق ولا اسطنبول،

ولا الرياض ولا الدوحة، ولا رام الله ولا غزة. رغم ان كل منا يملك انف بدري بيك ابو كلبشة.

لماذا تريد معرفة ما يدور في ايطاليا والبرازيل؟ ربما لأنك في عصر حيص بيص، عصر الايادي الخارجية الطويلة الممدودة في مؤخرة كل الحارات، عصر ما بعد المعلومات، حيث تجد كل ما تريد من بيانات واحصائيات ومواقف وتسجيلات، وتحصل على كل شيء الا شيئا واحدا هو اليقين، ستعرف كل شيء عن داعش الا امرين: كيف ولدت من العدم وكيف تبخرت؟! ستصدق ان خليفتها موجود وستعرف نوع ساعة يده، وستصدق ايضا انه لم يكن موجودا على الاطلاق، ولكنك بعد ساعة ستناقش حقيقة مقتله، وكيف جرى التخلص من جثته، ولن تطأ اقدامك مهما اجتهدت جمهورية الجبل الاصفر، رغم انك قد تحصل على جواز سفرها.

لقد اصبح عالمك واسعا الى درجة انك تعرف عن غيرك اكثر مما تعرف عن نفسك، لقد اصبحت شؤونك الخاصة متشعبة وكثيرة ولا تعرف من اين تبدأ، لقد اصبحت مواطنا كونيا، ولكنك فاقد للمواطنة في حارة تعرفك وتعرفها.

ستعرف اشياء كثيرة عن مرض كورونا، ولأن المعلومات عن هذا المرض سلعة تلقى الكثير من الاقبال، ستجدها وفيرة الى حد التنافر والتعارض والتعاكس، ستجد سيناريوهات جاهزة لمؤامرات شرقية وأخرى غربية، وستجد اعلانات كل يوم عن دواء جديد، لن تصدق أي سيناريو او اعلان ولكنك ستخوض مع الخائضين، وتتنافس مع المتنافسين، وقد تصنع اعلانك الخاص بك او السيناريو الذي تفضله لمؤامرة تفصلها على المقاس، وفي نهاية اليوم ستكتشف انك لا تعرف شيئا، لا تعرف ما يدور في الخليل ولا ما يدور في الجلزون، لكنك لن تستسلم ستبحث

عن شخص يمكن الامعان في لومه، واتهامه وتحميله المسؤولية، ستبحث عن شماعة يمكن تعليق كافة الخطايا عليها، لحسن حظك فالشماعة موجودة، وتسمح لك بان تبقى مواطنا كونيا سعيدا ومزهوا بنفسك، الا اذا لا سمح الله اصابك الفيروس، واصبحت اوجاعك غير افتراضية، ستعرف عندها ان مواطنتك الكونية لم تكن سوى سراب وافتراض.

في الحلقة الاخيرة من المسلسل الذي انتج في التلفزيون الاردني يقيم ابطاله حفلة زجل يلقي خلالها غوار الطوشه مقاطع عن كل شخصية من شخصيات المسلسل ويختمها بالحديث عن الحارة:

مهما قلنا راح تبقى / حارتنا احلى حارة
بمحبتنا راح نضوي الليل / وربي يسعدلي نهاراا
وبعد الليل بيطلع ضو / استني شوية يا حارة
حنعمرها من جديد / بكد صغاراا وكباراا

****

اوعوا تطفوا التلفزيون بدي اعايد ع اصحابي
بالمخفر ممنوع الضرب وع الدلال رباني
بس فلقة بدري بيك وطعمتها تحت اسناني
بورازانا من لا مختار عمره ما قلكن هاتوا
جسم كبير ومخ صغير وفطوم سرقت عقلاتو
ابو قاسم بياع الخيار وحده ما بينسى الماضي
بس يدبه مالو خيار عقله مبزر ع الفاضي
رجال الحارة بينعدوا واحسن واحد ياسينو
يقطع عمره شو دساس جوز الست العارفينو
ابو عنتر شو قبضاي وبالزنقة ما في منو
بس ان طلعلوا صرصور بيتسربع بهرب منو

وشو هالطلة يا ابو رياح اسم الله ع غصن الريحان
شحم ودهن وجلافيط كلو بينزل ع الميزان
12 شب بيسووا شاب وانا بسوى دزينة
واكبركن مهما علّى قدامي بيطلع فلينة
****
مهما قلنا راح تبقى / حارتنا احلى حارة
بمحبتنا راح نضوي الليل / وربي يسعدلي نهاراا
وبعد الليل بيطلع ضو / استني شوية يا حارة
حنعمرها من جديد / بكد صغاراا وكباراا

ما اجمل ان تعود دمشق بقوتها حتى لو ظلت نشازا ومختلفا على دورها، ما اجمل ان يختفي الموت وبراميله من سمائها ودروبها، وان يحظى ابنائها الناشطون دوما، والعاملون بكل مهارة بفرصة جديدة للعيش على ارضهم، بدلا من المنافي. لشدة ما صارت طموحاتنا متواضعة، تمنى مظفر النواب ذات قصيدة: «ان يرجع اللحن عراقيا وإن كان حزين». وتمنى الفنان السوري نذير بارودي ان تعود هداة البال وايام «السيران على ضفاف بردى.

حيط الفنان وسقفه

رحل عن الدنيا الى رحمة الله الواسعة كافة نجوم صح النوم، بقي فقط دريد لحام اطال الله في عمره، رحلوا بعد المشاركة في عشرات الافلام والمسلسلات والمسرحيات، غير ان شخصياتهم في مسلسل صح النوم، ظلت ملتصقة بهم، رغم انه كان لموسمين فقط و 19 حلقة بين عامي 1971 و 1972، وربما حالت شهرة شخصياتهم في هذا المسلسل دون تقبل الجمهور لهم في الاعمال الاخرى، امر مشابه جرى لنجوم المسلسل الامريكي الشهير فريندز ولكن بعد 10 مواسم 236 حلقة وعلى مدى 10 اعوام. سأشكر القدر على ان منى واصف لم تشارك في هذا المسلسل كي لا تضييع شخصياتها الدرامية المبدعة فيما بعد.

كلام كثير جدا يجب ان يكتب ويقال عن الدراما السورية بكافة انواعها، وكذلك عن المسرح السوري: غربة وضيعة تشرين وكاسك يا وطن وشقائق النعمان وغيرها.

تميزت الدراما السورية بتجميل الحي الدمشقي وابراز تراث السوريين، فأبدعت ووضعت لهجة واكلات وعادات سوريا في اعماق القلوب، اعتقد

ان الدراما التركية فعلت ذلك لاحقا، مستفيدة من تجربة الدراما السورية. الدراما السورية وكذلك المسرح ابدعا ايضا في الكوميديا والنقد السياسي والاجتماعي القائم على الفكرة لا على التهريج وتقليد الشخصيات، ياسر العظمة في مرايا فعل ذلك بكل اتقان، ومحمد الماغوط شكل رافعة قوية لهذا النجاح، وكان السوريون من الذكاء بحيث انهم اعادوا انتاج كل ما كتبه الاديب التركي عزيز نسين في رواياته وقصصه الساخرة على شكل درامي ناجح جدا.

واما الابداع في مجال الدراما التاريخية فقد كان علامة تفوق بارزة جدا، يكفي تذكر اسم المخرج حاتم علي لتنهال من الذاكرة عناوين مسلسلاته، ككاتب احيانا واحيانا كممثل وغالبا كمخرج: التغريبة الفلسطينية، صلاح الدين الايوبي، الزير سالم، ربيع قرطبة، ملوك الطوائف، عمر. وهناك الكثير من المسلسلات المهمة الاخرى لمخرجين آخرين مثل ابو زيد الهلالي والظاهر بيبرس وخالد بن الوليد ومسلسل الحجاج وهو من انتاج اردني ولكن غالبية ممثليه كانوا سوريين، يحتاج هذا الصنف من الدراما الى لغة قوية والسوريون يتخرجون من المدارس ومعهم امتياز باللغة العربية الفصيحة وضعف شديد في اللغة الانكليزية.

تصعب الاحاطة بذلك العدد الكبير من الاعمال التلفزيونية والمسرحيات، واما الافلام السورية فلا اجد عندي الرغبة للحديث عنها، ومع ذلك سأذكر من دون كبير استحسان افلام: خياط السيدات مع المطربة شادية في الستينيات، وزوجتي من الهيبيز مع هويدا في السبعينيات، والحدود مع رغدة في الثمانينيات، وكفرون مع مادلين طبر وسامية جزائري في التسعينيات.

قسم من الجمهور عاتب وربما ناقم على الفنان دريد لحام، النجم الوحيد الباقي على ظهر الحياة من بين ابطال مسلسل صح النوم، وصاحب

ادوار البطولة في كثير من المسرحيات والافلام الواردة اعلاه، ناقمون عليه بسبب مواقفه من النظام ومن الازمة السورية، يريد الجمهور من الفنان ان يظل كأدواره، وان يكون موقفه كموقفهم، ليتهم يتشددون في طلب ذلك من صانعي السياسات والقرارات قبل ان يطلبوه، او على الاقل مثلما يطلبوه، من الفنان. حيط الفنان دايما واطي. مع ان سقفه مرتفع.

فلسطينيا ما زال مسلسل التغريبة النموذج الدرامي الافضل لرواية قصتنا، لقد ابدع كاتبها وليد سيف في انسنة القضية بعيدا عن الشعارات الرنانة، وابدعت الفنانة الاردنية جولييت عواد في دور ام احمد، واما بقية الابداع فقد جاء سوريا خالصا اخراجا وتمثيلا وانتاجا، وجاءت مواقع التصوير الذي تم في حلب وتدمر وغيرها مماثلة لواقع القرية والشتات الفلسطيني.

صحيح ان اطول سوء علاقة رسمي هو سوء العلاقة بين منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات وسوريا بقيادة حافظ الاسد، الا انني على قناعة بان اكثر مواطن عربي يفهم القضية الفلسطينية هو المواطن السوري، صحيح ان كثير جدا من ابناء الاقطار العربية يحبون فلسطين، ولكن السوري يتفهم قضيتنا اكثر، لقد اختبرت ذلك في عدة مناسبات فوجدته صحيحا، بل ووجدت ان المواطن السوري يعرف عن فلسطين اكثر من الجولان، وبالتأكيد اكثر من لواء الاسكندورن.

هذا الفهم يتجلى في قدرة المخرج والممثل السوري على تجسيد الحكاية الفلسطينية، ويتجلى ايضا في قدرة الدكتور الاديب المولود بطولكرم في عام النكبة وليد سيف على تشكيل ثنائي ناجح مع المخرج السوري المبدع حاتم علي وتقديم مسلسلات مهمة مثل: صلاح الدين الايوبي، صقر قريش، ربيع قرطبة، ملوك الطوائف، عمر.

لوليد سيف وفضلا عن الشعر والسيرة والنقد والبحث الكثير من الاعمال

الدرامية الابداعية الاخرى التي جعلته يفوز بجائزة افضل نص درامي في مهرجان القاهرة لخمس سنوات متتالية، ومع ذلك تبقى التغريبة الفلسطينية هي العمل الاكثر نجاحا وشهرة، ولكنها ليست المسلسل الاول ولا الاوحد، لقد سبقها بسنوات مسلسل سوري فلسطيني آخر نستعرضه غدا.

هدّى البلبل ع الرمان

مسلسل التغريبة الفلسطينية للثنائي المبدع الفلسطيني وليد سيف في الكتابة والسوري حاتم علي في الاخراج هو المسلسل الاكثر نجاحا وشهرة ولكنه ليس الاول ولا الوحيد، لقد سبقه مسلسل عز الدين القسام من انتاج دائرة الاعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية عام 1981، جرى تصوير احداث هذا المسلسل التاريخي في تلفزيون قطر وتسجيل اغنياته في الاذاعة السورية.

كتب قصة المسلسل الشاعر الفلسطيني الراحل احمد دحبور. واخرجه السوري هيثم حقي، ومثلت فيه نخبة من النجوم السوريين مثل اسعد فضة ومنى واصف، وشارك فيه ممثلون فلسطينيون من اللاجئين الى سوريا مثل: عبد الرحمن ابو القاسم، اديب قدورة، زيناتي قدسية، حسن عويتي، وتيسير ادريس.

استصعب جدا المرور على مسلسل عز الدين القسام دون التوقف عند تلك الاغاني الرائعة التي كتبها الشاعران صلاح الدين الحسيني «ابو

الصادق» واحمد دحبور «ابو يسار»، لقد امتزجت كلماتهما ولم يعد احد يعرف من كتب هذه ومن كتب تلك، لقد كانا على درجة عالية من الشغف والتفاني ونكران الذات.

يقول اللاجئ الفلسطيني الى سوريا احمد دحبور: ركزت في القصة على شخصية الشاعر نوح ابراهيم، رفيق درب القسام وقد استشهد بعده بفترة، وقد تولى الشاعر المرحوم ابو الصادق، مهمة استكمال ما بدأته من اناشيد المسلسل على لسان نوح ابراهيم، ومن الطريف ان تداخل ما كتبناه انا وابو الصادق، بحيث لم نعد نفرق من صاحب هذه الكلمات من ذاك، حتى ان المرحوم احمد الجمل – وكان مدير عام الدائرة- قال ذات يوم: إن هذه الاغنية من كلمات احمد دحبور، فلما سألناه عن سر هذا الاستنتاج، قال: ان في الاغنية قولا: ما عاد فينا نستنى، وهذا التعبير ما عاد فينا بتأثير اللهجة السورية وانت يا احمد كنت في سورية دائما فلا يقولها ابو الصادق ابن غزة!!

ابدع في تلحين هذه الاغاني الموسيقار الفلسطيني اللاجئ الى سوريا ايضا حسين نازك، وأدتها كأجمل ما يكون الاداء فرقة اغاني العاشقين التي تشكلت من بداية من لاجئين فلسطينيين يقيمون مؤقتا في مخيم اليرموك، ومن هذه الاغاني:

غنى الحادي وقال بيوت... بيوت غناها الحادي
ايام بتجري وتفوت... وتحكي حكايات بلادي

*****

هدى البلبل ع الرمان... سمعته بالليل يغني
ويصحي جفن الغفيان... اللي بنومه متهني

*****

كنا نغني في الاعراس... جفرا عتابا ودحية

واليوم نغني برصاص... ع الجهادية الجهادية

*****

على ما قال المعنى... بلادي روضة من الجنة
ما بنلين وما بنحيد... وهالارض قطعة منا
يا فلسطين الغدر اشتد... مين في الدنيا كان معنا
كل يوم عم بيزيد الجد... وما في حد بيسمعنا

*****

ابو ابراهيم ودع عز الدين... دمه عربي قلبه فلسطيني
يا ابو ابراهيم ارفع بعد الراية... لعيون الارض اقسمنا اليمين

****

هذا هو قدر الإنسان.. يتجرع مر وعلقم
قد ما ينزف هالشريان.. الإنسان بيتعلم
اللي يصارع هالتيار.. آخرته يرسي ع البر
والنسمة تولد اعصار.. والعتمة بيعقبها الفجر

*****

هاي دار العز واحنا رجالها... ثورة ثورة عز واحنا ابطالها
هللي طلوا النشامى هللي... يا ديار العز يا ديرة هلي

واستصعب المرور على سيرة العاشقين دون القول انها غابت بعد العام 1993 وكادت ان تتلاشى، لولا ان شابا فلسطينيا يدعى مالك ملحم والذي افتخر بانه صديقي قام بتجميع مؤسسيها وضخ وجوه جديدة فيها لتعاود الانطلاق وانتاج الاغاني الجديدة وتقديم الحفلات في اكثر من دولة.

الصورة من ارشيف الباحث فادي عبد الهادي وفيها الشيخ السوري عز الدين القسام (الممثل اسعد فضة) وعلى هامش حضوره لحفلة عرس،

يناقش مع الشاعر الفلسطيني نوح ابراهيم (الفنان حسين المنذر المغني الرئيسي لفرقة العاشقين) دور الفن والغناء في تثوير الجماهير. بعضنا لم يتجاوز حتى الآن مربع هذا الحوار، والبعض الآخر تجاوزه عندما صار فنه هابطا وفاقدا للمضمون.

الشاعر الشعبي نوح ابراهيم عرف كشاعر ومحرض على الثورة وتلميذ لعز الدين القسام ومناضل في الميدان واسير في سجني المزرعة وعكا ثم شهيد في كمين محكم اعده البريطانيون مساء يوم الجمعة 28\10\1938 أول ايام شهر رمضان، لم يزد عمره عندما قتله الجنود البريطانيون والقوا بجثته في بئر قرب قرية طمرة على 25 عاما فقط.

كان قد تربى في دير للراهبات قبل ان ينتقل للمدرسة الاسلامية الواقعة في وادي الصليب بحيفا، ولعل ذلك انعكس جليا في اشعاره الوطنية فقد كتب في قصيدة «الوطن للجميع»:

المسلم والمسيحي... اتحادهم قوي ومنيع

والدين والمذهب لله... أما الوطن للجميع.

فلسطينية العينين والوشم

قبل انتاج مسلسل عز الدين القسام عام 1981، انتجت دائرة الاعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يراسها عبد الله حوراني «ابو منيف» وبالتعاون مع تلفزيون ابو ظبي، مسلسل «بأم عيني» عام 1977، عن كتاب المحامية الاسرائيلية فيليسيا لانغر، والذي رصدت فيه بالوثائق والشهادات معاناة الاسرى في سجون الاحتلال، وقد جسدت دورها في المسلسل الذي اخرجه موسى سليم، الفنانة منى واصف.

الصور للفنانة السورية منى واصف وهي تزداد روعة على مر السنين.
عبد الله حوراني وقبل ان يكون رئيسا لهذه الدائرة او عضوا في اللجنة التنفيذية للمنظمة كان يعمل مديرا عاما للإذاعة والتلفزيون في سورية،

ولكنه استقال بعد هزيمة حزيران عام 1967. وكان معه في تلك الفترة ايضا المستشار في الرئاسة الراحل نمر حماد.

صاحبت مسلسل «بأم عيني» اغاني عديدة مثل: يا ظلام السجن خيم، فلسطينية العينين والوشم، فلتسمع كل الدنيا فلتسمع، وتكبر تكبر، وغيرها من القصائد التي كتبها توفيق زياد ومحمود درويش وصلاح الدين الحسيني «ابو الصادق» واحمد دحبور «ابو يسار»، وسميح القاسم، ولحنها جميعا الموسيقار الفلسطيني حسين نازك، وغناها الفنان سمير حلمي بمصاحبة فرقة العاشقين.

كانت دائرة الاعلام والثقافة في المنظمة تنتج هذه الاعمال، الآن لا تستطيع اصدار بيان.

وطالما ان باب المقارنات مفتوح فلنقارن ايضا بين الفنانة منى واصف في دور فيلسيا لانغر، والفنانة حياة الفهد في دور ام هارون.

ولنقارن ايضا بين شخصية الاسرائيلي المحتل في ادب وفن ورواية ايام زمان وبين شخصيته اليوم، ليس في الرواية والادب والافلام فقط، بل في الاذهان وفي التعامل اليومي ايضا. لم تكن اعين الكتاب في ذلك الوقت مهتمة ببريق الجوائز ودنانيرها.

أحببنا ذلك ام كرهناه، اعترفنا به ام لم نعترف، تعاملنا معه ام رفضناه، هناك اسرائيلي ولد على هذه الارض ولا يعرف غيرها، ويرفض الاحتلال، قد يكون مولودا في عائلة يسارية او يمينية، المهم انه يرفض الاحتلال، وقد يرفض الخدمة العسكرية، يرفضها ربما لأن لدية نزعة واخلاق انسانية تتخطى الدين والسياسة، او لأنه عاقل يريد حماية اسرائيل من جنونها وجبروتها، او يريد مجرد تحسين سمعتها، عدد هؤلاء ليس محور نقاش، النقاش يجب ان ينصب على جواب السؤال: هل نريد لهؤلاء ان يكبروا وان يرتفع صوتهم ام لا؟ وكيف؟ سؤال صعب فنحن لم نعد

قادرن على التفاهم مع بعضنا ولا مع العرب والاصدقاء، اصبحنا نشتري عداوة الآخرين مجانا. ونطلب منهم فوق ذلك ان الدعم الوفير والحب الكثير ومن طرف واحد!!.

في العام 2004 قام الشاب الفلسطيني باسل يوسف الخطيب المقيم في دمشق والمنحدر من اب خليلي (من دورا تحديدا) وام غزاوية (من عائلة الريس تحديدا) بإخراج مسلسل «عائد الى حيفا» عن رواية الكاتب غسان كنفاني، وفي العام 2010 قام بكتابة واخراج مسلسل «انا القدس» والذي مثل فيه فنانون من سوريا ومصر وفلسطين والاردن ولبنان.

كما قام الخطيب بإخراج مسلسل عن حياة الشاعر السوري نزار قباني، فيما قام المخرج السوري نجدة اسماعيل انزور بإخراج مسلسل «في حضرة الغياب» عن حياة الشاعر الفلسطيني محمود درويش، ووجه المسلسلان بالكثير من الانتقاد، وهذا امر طبيعي، فكاريزما وصورتا الشاعرين وصوتهما وانفعالاتهما ما زالت حاضرة في الاذهان، ولن تستطيع شخصية درامية ان تحاكيها مهما اجادت، ربما لو كانت اسرة صلاح الدين الايوبي او الزير سالم حاضرتين وشاهدتا مسلسلا عنهما لاحتجتا ايضا.

للأمانة انا لم يعجبني اطلاقا مسلسل محمود درويش، ولم يعجبني بتاتا المدعو فراس ابراهيم وهو يؤدي دور الشاعر درويش، وكان صوتي منخفضا عندما قمت مع صديقي مدير عام تلفزيون فلسطين احمد حزوري، باستقبال مظاهرة مثقفين تطالب بوقف بث هذا المسلسل، يومها اقترحنا عليهم الظهور على الشاشة بعد الحلقات لتصحيح أي خطأ وتوضيح أي خلل، وافقوا ولكنهم لم يظهروا. اكتشفت بعدها ان صغار السن ممن لم يعرفوا درويش ولم يشاهدوه ولم يعرفوا قصة حياته، قد عرفوه قليلا من هذا المسلسل (البائس فنيا).

من سينما الشعار الى سينما الانسان

الراحل عبد الله حوراني «ابو منيف» وقبل ان يكون رئيسا لدائرة الإعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية او عضوا في اللجنة التنفيذية للمنظمة كان يعمل مديرا عاما للإذاعة والتلفزيون في سورية، ولكنه استقال بعد هزيمة حزيران عام 1967. وكان معه في تلك الفترة ايضا المستشار في الرئاسة الراحل نمر حماد.

وقتها كتب حماد قصة وسيناريو وحوار فيلم «فدائيون حتى النصر... عملية الساعة السادسة» وهو فيلم روائي طويل اخرجه المصري سيف الدين شوكت، ومثل فيه 33 من خيرة نجوم السينما في سوريا، مثل: منى واصف، هالة شوكت، ملك سكر، طلحت حمدي، رفيق السبيعي، هاني الروماني، عبد اللطيف فتحي، سليم كلاس، اسعد فضة وآخرون.

كان هذا الفيلم من بواكير الافلام التي تناولت بطولات المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الاحتلال بأسلوب روائي درامي وليس وثائقي او تسجيلي، وكان حماد رحمه الله ومع انتقاله للعمل مديرا للمنوعات في التلفزيون السوري قد كتب اولى الحلقات التلفزيونية التي مثلها الفنان الشهير دريد لحام.

تدور قصة الفيلم حول مجموعة فدائية تقرر القيام بعملية ضد جيش الاحتلال الاسرائيلي، ولكن العملية تكاد تنكشف، لولا صمود الاسرى في التحقيق، وتحملهم لأبشع صنوف التعذيب، وعدم بوحهم باي تفاصيل، فتنجح العملية الفدائية في النهاية.

تم توزيع هذا الفيلم على نطاق واسع خاصة وانه كان مترجما للإنكليزية، تروي سيدة مغربية انها شاهدت هذا الفيلم وهي طفلة فقررت الانتقام للفدائي الفلسطيني الذي نزع المحقق الاسرائيلي اظافره،

فداومت ولعدة ايام على كسر شبابيك منزل جارتهم اليهودية، الى ان تقدمت الجارة بشكوى لام الطفلة والتي عاقبتها بشدة وشرحت لها كيف ان هذه الجارة اليهودية مغربية مثلهم تماما وان الرسول محمد (ص) كان يحسن معاملة جاره اليهودي، تقول السيدة المغربية من يومها عرفت الفرق بين اليهودية والصهيونية.

مشوار طويل قطعته السينما الفلسطينية منذ ذلك اليوم البعيد من عام 1935 حين اشترى الشاب ابراهيم نمر سرحان اول كاميرا يدوية بـ 50 ليرة من يافا، وتعاون مع زميله المخرج الفلسطيني جمال الأصفر في انتاج أول فيلم روائي فلسطيني بعنوان «أحلام تحققت» يومها قام سرحان بصناعة الآت المونتاج بيديه، لأنه كان يجيد السمكرة، السمكرة اصبحت مهنته الوحيدة من اجل تأمين لقمة العيش بعد لجأ الى مخيم شاتيلا بلبنان بعد النكبة، ليموت مقهورا على ضياع وطنه وارشيفه. كان من الرائع والمحزن ان يعثر المخرج العراقي قاسم حول على ابراهيم بعد ان تدهورت احواله، فيؤمن له راتبا شهريا من المقاومة الفلسطينية. مشوار طويل قطعته السينما الفلسطينية المقاومة منذ تلك الايام التي كان فيها مصطفى ابو علي وهاني جوهرية يتحايلان على إخراج المعدات من التلفزيون الاردني، لتصوير افلام لمصلحة منظمة التحرير.

مشوار طويل قطعته السينما الفلسطينية منذ فيلمي ذاكرة خصبة وعرس الجليل لميشيل خليفي.

مشوار طويل اثبت وما زال يثبت ان هناك دائما ابداع فلسطيني على المستوى الفردي، وفشل مطلق على مستوى العمل المؤسساتي. الناقد السينمائي الفلسطيني المولود في سوريا بشار ابراهيم، هو خير من رصد هذا المشوار ودرس تحولاته، من سينما الصراخ الى الهدوء، ولحظات الصمت التي تسمح بالتفكير والتأمل، من سينما الفلسطيني الملثم الى سينما الملامح الشخصية، من سينما الشعار الى سينما الانسان، من سينما القضايا الكبرى فقط الى سينما كل القضايا.

تم اخذ بوستر الفيلم من معرض بوسترات السينما العربية والذي اقامته جامعة ييل الامريكية عام 2009 وضم 1200 بوستر لأقدم الافلام العربية، المعرض جاء على هامش مشروع نفذه طلبة برنامج دراسات

السينما في الجامعة لرصد انطباعات اناس ولدوا قبل العام 1952 عن ذكرياتهم السينمائية الاولى. ويهدف البرنامج إلى جمع البيانات من منظور الجمهور، ولا سيما الأطفال، لرصد انطباعات الطفولة عن قصص وشخصيات السينما وما تركته من اثر في نفوسهم. كما يهدف الى تمكين طلبة البرنامج من اقامة علاقة شخصية مع عصر الفيلم من خلال مقابلة احد شاهده وتأثر به.

المخرج السمكري وصراعه في جرش

ها قد مرت على رحيل بشار ابراهيم ثلاثة اعوام ونصف تقريبا، التقيته في دمشق قبل اكثر من 20 عاما، وفتح عينيّ على السينما الفلسطينية، فبدأت ابحث في ماضيها مستعينا بما جمعه هو شخصيا من هنا وهناك، وبفضله تعرفت على رواد هذه السينما من الفلسطينيين بدءا من جمال الاصفر وابراهيم سرحان والاخوين لاما وسلافة جاد الله ومصطفى ابو علي وشهيد السينما الفلسطينية هاني جوهرية، والعراقيان قاسم حول وقيس الزبيدي، والسوري محمد ملص، ومنه عرفت انتاجات هذه السينما وتعرفت الى فيلم «سجل شعب» وغيرها.

منه عرفت كيف مات ابراهيم سرحان لاجئا فقيرا معدما يعمل في السمكرة في مخيم اللاجئين ولم تسر في جنازته الا زوجة ابنه وزوجته، لاجئتان حزينتان تدفنان لاجئا اكثر حزنا، كان هدفه في مقتبل العمر تصوير فلسطين خضراء لا كما يصورها الصهاينة قاحلة وخالية من الناس، لم يبق من ابراهيم الا شيئان صورته في ذلك العهد البعيد خلف الكاميرا، وفيلم «صراع في جرش» والذي كان اول افلام السينما الاردنية، من بشار عرفت اشياء كثيرة وتعلمت من اقواله وكتاباته الشيء الكثير.

كان بشار يرى ان «السينما لدى الفلسطيني ليست ترفًا، بل طريقة تعبير وقول، إن لم نقل موقفًا وصرخة احتجاج. إنه يحاور ويساءل وجوده ومصيره عبر السينما، وبها، ريثما يمكن له أن يصنع سينما مثل الآخرين من شعوب الأرض، ويحبها كما يفعل غيره».

وكان يقول: «في معرفة الحقيقة تتماهى أوجه عدة، يصحُّ أن نتأملها جميعها. نبحث عن الحقيقة لنعرف، وفي المعرفة تتحقق الذات، تتطهّر، تتسامى... نبحث عن الحقيقة لنلتقطها، لنمجّدها، ولنمنحها صفة

الخلود، ولتغدو سمة ماضٍ انتهى، وركيزة مستقبل يأتي. ونبحث عن الحقيقة حتى لا تتكرّر، وحتى لا تغدو بتغييبها حدثًا عاديًا يمكن ممارسته وتكراره بتجاهله ونكرانه... نبحث عن الحقيقة، لأنها بوابة الولوج إلى العدالة. العدالة مع أنفسنا، مع ما حدث، ومع الذاكرة، وكذلك العدالة مع الآثم الجاني».

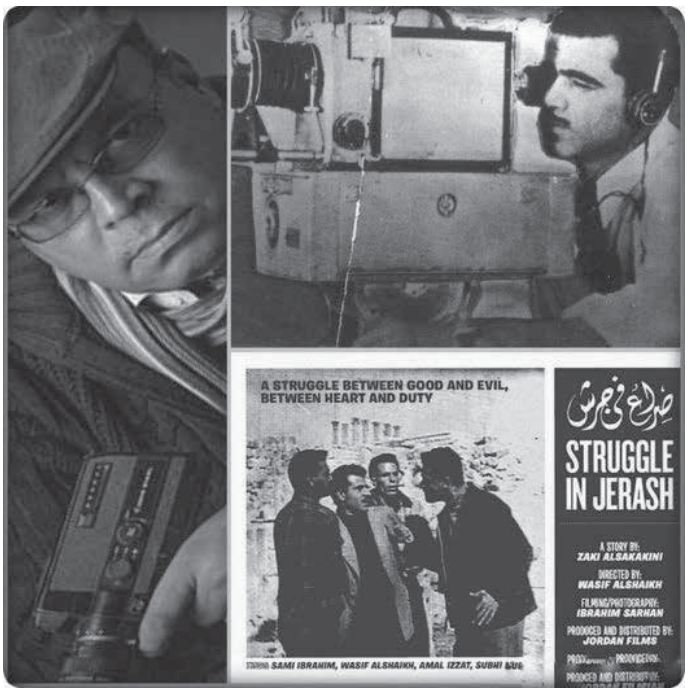

بشار إبراهيم اللاجئ الذي تربى في مخيم خان دنون بريف دمشق، واحد من أبرز النقّاد والموثّقين العرب الذين ساهموا إلى حد كبير في أرشفة نتاجات السينما الفلسطينية في الداخل والخارج، ورصد تواجد فلسطين قضية وشعبا في الأفلام العربية والأجنبية. العناوين التي أصدرها الكاتب فلسطيني الأصل سوري المولد، احتلت رفوف مكتبات السينمائيين والمهتمّين العرب نظرًا لأهميتها وضرورتها، منها:

السينما الفلسطينية في القرن العشرين، سلسلة الفن السابع - وزارة الثقافة، دمشق، ثلاث علامات في السينما الفلسطينية الجديدة (ميشيل خليفي، رشيد مشهراوي، إيليا سليمان)، فلسطين في السينما العربية، سيف الدخان، المخيم في الرواية الفلسطينية، ومئات مقالات النقد السينمائي.

واضافة الى ابحاثه ودراساته ومقالاته الدورية، ظل يشغل منصب مدير المحتوى في مؤسسة مهرجان دبي السينمائي. الى ان وافاه الاجل المحتوم، رحمة الله عليك يا بشار.عشت مخلصا لمهنتك وقضية شعبك، ولم تقصر ابدا في السعي لخلق سينما فلسطينية محترفة.

كان في غرفة العزل بالمستشفى، وابرة العلاج الكيميائي في يده، ومع ذلك لم يتوقف عن الكتابة ومسابقة الموت لإنجاز كتابه الاخير «إياد الداود.. مشوار البحث عن هوية» وفيه استعراض لحياة هذا المخرج الفلسطيني - الاردني وقراءة في أعماله السينمائية التي حصدت العديد من الجوائز.

عيد وسلفانا وناشد

لم تكن ولم تصبح علاقتي طيبة ولا حتى سوية مع الاعياد، وعيدياتها وملابسها ومراجيحها، اتذكر هذا الآن بقوة، وأجد نفسي مدعوا، بعيدا عن هذا النص، الى التفتيش عن الاسباب في قبو الذاكرة، كنا نعيش في الاردن ووالدي يعمل في مدينة الاحمدي بالكويت، لا اتذكره في الاعياد، اتذكره بمنتهى الحزن والمرارة في اليوم الذي تنتهي فيه اجازته الصيفية، اتذكر كيف كنت اتصنع النوم للهرب من وداعه والوقوف

امام دمعاته الممانعة للسقوط وصوته المخنوق. ليس هناك على وجه الارض من هو اضعف من الآباء في ترجمة عواطفهم تجاه ابنائهم، وليس

هناك من هو اقوى من الامهات في البوح بهذه الترجمة.
موزعون بين تكبيرات العيد وصوت ام كلثوم في اغنية يا ليلة العيد:
يا ليلة العيد آنستينا... وجددتي الأمل فينا
حبيبي زي القمر قبل ظهوره يحسبوا المواعيد
حبيبي زي القمر يبعث نوره من بعيد لبعيد
والليلة عيد ع الدنيا سعيد
عز وتمجيد لك يا مليكي
سيمضي نصف قرن قبل معرفتي ان المليك المقصود هو الملك فاروق، آخر ملوك مصر، ولقد أنعم (جلالته) على ام كلثوم بوسام الكمال ليصبح لقبها «صاحبة العصمة» بعد ما غنت له هذه الأغنية عام 1944. رغم انها قديمة وتعود للعام 1937 وقد كتبها احمد رامي ولحنها رياض السنباطي لتكون واحدة من اغاني فيلم (دنانير) وفيه تغني دنانير هذه الاغنية في مديح هارون الرشيد ووزيره جعفر فتقول:
يا دجلة ميتك عنبر... وزرعك فى الغيطان نور
يعيش هارون يعيش جعفر... ونحيي لكم ليالي العيد
وكان سهلا تحوير كلمات الاغنية لتصبح:
يا نيلنا ميتك سكر... وزرعك فى الغيطان نور
يعيش فاروق ويتهنى... ونحيي لُه ليالي العيد.
مهرت هذه الاغنية ايام وقفات العيدين، عيدي الاضحى والفطر للمسلمين، لم نكن نشعر ونحن اطفال بوجود المسيحيين في بلادنا، لم يكونوا غائبين مطلقا، لقد كان تأثيرهم الثقافي كبيرا، غير انني لم اكن احس به، لعدم تواجد احد منهم في حارتي او مدرستي، غير انني عرفت عددا من ابناء الشيشان والشركس والدروز وعدد من العائلات السورية المقيمة منذ زمن في الاردن.

وجدت كثيرا من اسرار العاصمة الاردنية عمان وتواجد الاقليات فيها، ضمن فصول كتاب الروائي عبد الرحمن منيف، سيرة مدينة، لا غرابة ان يحتفل الكاتب، صاحب خماسية مدن الملح، بهذا التنوع، لأنه حمله في عقله وجسده، فهو سعودي ولد واقام في الاردن ثم العراق فسوريا حيث مات ودفن هناك.

كان العيد ايضا ممهورا بنوعين من الحلوى اللذيذة، الاول هو شوكولاتة سيلفانا، والتي كانت تأتي من مدينة رام الله الفلسطينية المحتلة، سيمضي زمن طويل قبل ان اعود الى فلسطين التي غادرتها نازحا في عمر العامين ونصف العام، فيصير مصنع سلفانا على يميني او يساري في طريق الذهاب والاياب من منزلي في بلدة بيتونيا الى مقر عملي في اذاعة صوت فلسطين بحي ام الشرايط من مدينة البيرة، كانت مدن الضفة الغربية ايامها قد بدأت في التحرر الجزئي والشكلي من الاحتلال بفضل اتفاقيات اوسلو التي ما زالت معلقة وما زال الفلسطينيون عالقون عندها.

لم يكن الاسم سيلفانا مأخوذا من ورق السوليفان الملون الذي يغطي تلك الحبات، كما كنت اعتقد، لقد كان اسم الممثلة الايطالية الفاتنة (سلفانا مانغانو) والتي استولت على قلب مدير المصنع، منتصف الاربعينيات من القرن الماضي، فجعل حلاوتها تسيل في كل فم وعلى كل لسان.

واما النوع الآخر من الحلوى والذي مهر اعيادنا فهو سكاكر «ناشد» والتي كانت تأتي من مدينة حلب السورية، كان في كل علبة ما يزيد على 60 قطعة صغيرة مغلفة، وموزعة على خمسة اطعم، وكان يصعب على طفولتنا ارشفة أي طعم منها، لأنها باختصار كانت جميعا لذيذة.

صفط الناشد اخوان كان الراعي الرسمي لكل المناسبات السعيدة، في السبعينيات، وليس مستغربا ان يتكوم في خزانة الام او النملية ستة او

سبعة منها، وليس مستغربا ايضا ان تستطيع الام حمايتها من العفاريت الصغار، ان لم يكن بالتهديد والوعيد فبالإخفاء جيدا بين الشراشف والمناشف المخصصة لكبار الضيوف، كان صفط الناشد جاهزا لأية مناسبة ولادة او طهور، او نجاح في المترك او التوجيهي، او أي خطوبة او زواج، فان شحت الافراح فان العيد قادم لا محالة.

في تلك الفترة الموشاة بالبساطة كانت البضائع السورية وفيرة في الاردن، ليس على مستوى السكاكر والحلويات والمواد الغذائية وانما على عدة مستويات بينها الملابس والاصواف والتريكو وعبايات الجوخ والبسط والسجاد، وكان الناس يحبون هذه البضائع ويتفاخرون بشرائها، كانت جميلة وتنم عن ذوق رفيع وكانت فوق ذلك في متناول الجميع تقريبا.

جولان واسكندرون

اصبح في الجزء السوري من خيالات الطفولة مسلسل صح النوم، وناشد اخوان، وحربٌ، ولكن من غير معالم.

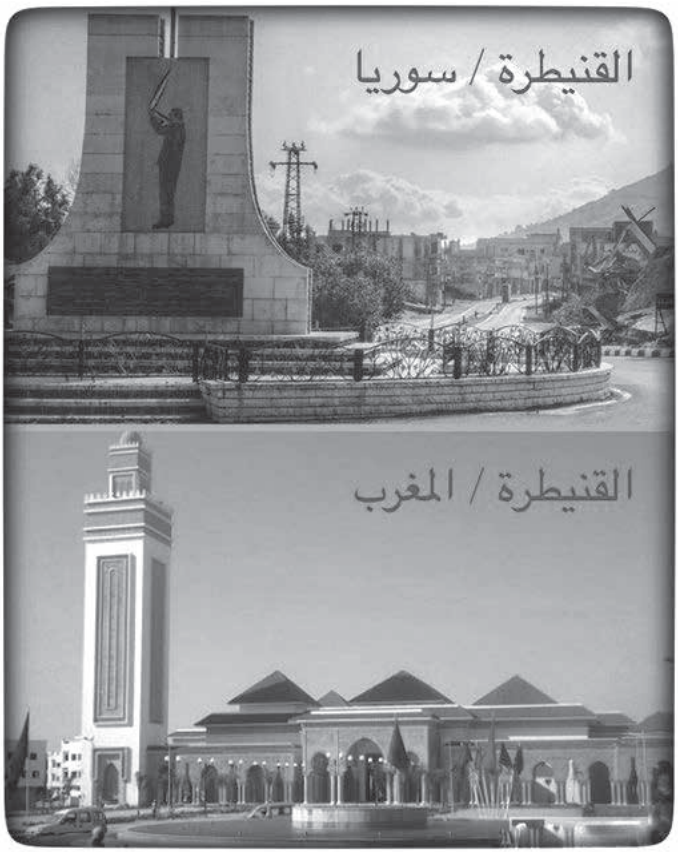

كبرت قليلا، وعرفت من الراديو ان العاصمة السورية هي دمشق، وان حلب التي تنتج ناشد اخوان مجرد مدينة سورية اخرى، وليست العاصمة، وتعلمت من كتاب التاريخ ان سوريا زهو وحاضرة الامويين، ومن كتاب الجغرافيا عرفت ان لها حدودا مع الأردن وتركيا ولبنان

وفلسطين، وسمعت ان حاكمها هو حافظ الاسد، وعرفت من المتحدثين بالسياسة (والحديث على عهدتهم) ان اسمه كان حافظ النعجة وان الزعيم جمال عبد الناصر قال له بعد استعراض عسكري بل انت حافظ الاسد، كان عبد الناصر ايامها الزعيم بلا منازع، وقد تطوع كثيرون لترويج الاساطير والحكايا الايجابية عنه.

كانت أسهم سوريا تقل وتكثر اوتصغر وتكبر في أحاديث السياسيين مما يزعجني ويمنعني من وضعها في خانة المحبوب الأبيض أو المكروه الأسود، فلم تكن عقولنا ولا قلوبنا قد استحدثت بعد تلك المساحة الرمادية بين النقيضين، وعرفت فيما بعد ان لسوريا لواء كاملا يدعى الاسكندرون وان تركيا تحتله.

غابت أوصاف التاريخ عن سوريا من مخيلتي لتبقى فيها أوصاف الماء والخضراء والوجه الحسن، والحسد الذي يطال كل من تزوج شامية، وطيب الحلويات وروايات الأغنياء عن زياراتهم الصيفية لبلودان والزبداني والغوطة وبردى وما أكلوا وما شربوا وما اشتموا من روائح نفاذة لفواكه دمشق وما احضروه معهم من فستق حلبي وسكاكر وفواكة مجففة.

كل ما كتب اعلاه هو بلسان الماضي عن اشياء ماضية، ولو نظرت الى الماضي، بلسان الحاضر لتخيلته مشهدا دراميا تأسيسيا لمسلسل طويل وغير جميل:

كنا صغارا وما نزال في ذات الحارة التي لم يعكر صفوها يوما أكثر من كسر شباك نتيجة كرة القدم، وما قد يتلوه من تهديد ووعيد بمنع اللعبة، وهو تهديد ووعيد كنا نعرف انه سرعان ما سيتلاشى، بل ان أمهات كثيرات سيدفعن أبناءهن دفعا لمعاودة اللعب من اجل التخلص من ازعاجهم داخل المنزل.

تعكر صفو الحارة هذه المرة بفعل طائرات عسكرية اخترقت الأجواء مسرعة، ولم يكن لهديرها أي شبيه في ذاكرتنا الصغيرة التي لم تكن قد اختزنت بعد أي ذكرى لأي حرب أو غارة جوية، شدتنا أحاديث الكبار عن الاسد والسادات، وسمعت لأول مرة اسم جيش التحرير الفلسطيني، وأرتسمت في ذهني صورة شيء يطاول السماء ارتفاعا واسمه الجولان، كانت الحرب إذا، وكان حضور الراديو فيها لافتا البعض يحمله على أذنه والبعض يخفيه تحت الوسادة، الترقب سيد الموقف والتحليلات تقترن بالخلاف ولكنها تشي بالأمل، لم يكن يعنيني سوى ان افهم ما هذا الشيء؟ ولماذا؟

كبرت وعرفت انه الحرب ضد اعداء وان من يشاركون فيها ابطالا، أما لماذا فلم اعرف، ولماذا يموت بعض الابطال او لا ينتصرون كما في الحكايات، فهذه اسئلة مؤجلة، ويبدو أنني لن اعرف ان كانت حربا تحريرية ام تحريكية الا بعد عقد من الزمان، فلا شيء تحرر فعلا ولا شيء تحرك أيضًا سوى خيبتنا الجمعية وخلافاتنا العربية وانشقاقاتنا الفلسطينية.

سأعيش لأسمع حوارا في احد مقاهي رام الله (ربع المحررة) عن القنيطرة المحررة، بين صديقين من الجولان المحتل، ينصح الاول صديقه بالتوقف عن انتقاد البعث والاسد، لأنه قد يحاسب في حال تحرير الجولان وعودته الى سوريا، يضحك الصديق من كل قلبه وهو يقول: وهل تتخيل فعلا ان الجولان يمكن ان تعود لسوريا اذا بقي فيها الاسد؟!!!!. نقاش مماثل سيدور بينهما بعد سنوات حول الثورة ضد الاسد، وكيف يتلقى ثوارها العلاج في مستشفيات اسرائيلية!!!!.

في النقاشين كانت تتسرب الى نفسي اسئلة مقلقة حول الهوية المستقبلية لسوريين يخضعون لاحتلال اسرائيلي في محيط فلسطيني، هو الآخر

يواجه سؤال الهوية. ما عدت اتذكر من الذي كتب مبكرا عن ولادة نوع جديد من الوطنية الاسرائيلية مع ولادة جيل يهودي جديد على ارض فلسطين، جيل لا يعود بذكرياته البعيدة الى المانيا وبولندا ولا العراق او المغرب او اليمن كما الاسلاف، وانما الى القدس ويافا وحيفا والناصرة.
وانا اكتب الآن تغزوني اطول سورة فاتحة قرأتها في حياتي، لقد كانت على قبور شهداء مغاربة استشهدوا في حرب تشرين ودفنوا في القنيطرة السورية ليصنعوا مجدا اضافيا للقنيطرة المغربية.

ميغ وميراج وتجريدة مغربية

سيطول الزمان قبل ان اخرج من رام الله (ربع المحررة) لأصل الجولان من جهة سوريا فأقف على صخرة النداء، واتجول في القنيطرة المحررة وأقرأ الفاتحة على قبور شهداء منسيين من الجيش المغربي هناك. قدم الجيش المغربي 170 شهيدا في حرب تشرين. لا غفران لمن لا يريد ان يتذكر هؤلاء الشهداء.

باسم العروبة والاسلام والقدس وسينا والجولان
احنا جينا نحمي الدار عرب احرار
ايدينا في ايدكم نمحي العار ونعيد مجد الايام
الله اكبر باسم الوطن باسم الحسن لبينا النداء
الله اكبر الله اكبر وانطلقنا للجهاد والفداء
وحق اسلامي وقرآني ودموع النصر لأوطاني
ما نفرط في شبر واحد اما انتصار واما استشهاد
قسما بالله يا فلسطين عن ارضك ما نتخلى
بالحق والكتاب المبين فوزك المقدر يتجلى
نعيد ايام صلاح الدين وبروح الاستشهاد نتحلى

الله اكبر يا رفاقي في الكفاح... الله اكبر والوحدة اقوى سلاح
على وقع كلمات هذا النشيد الحماسي ودع العاهل المغربي الملك الحسن الثاني يرافقه ولي عهده الطفل، 5 آلاف جندي مغربي قرر ارسالهم للمشاركة في حرب تشرين على الجبهة السورية، و6 آلاف آخرين للمشاركة في ذات الحرب التي حملت اسم اكتوبر على الجبهة المصرية.
وُصفت القوات المغربية بانها حسنة الاعداد والتدريب وقد تلقت دراسات عسكرية تختلف عن تلك التي تلقتها جيوش مصر وسوريا على ايدي خبراء المنظومة الاشتراكية.
كان المغاربة اول الواصلين وقد استقبلهم الرئيس السوري حافظ الاسد معتبرا ذلك تعزيزا للعروبة ووحدة الهم والمصير، وجاءت بعدهم قوات من العراق والاردن والسعودية وجيش التحرير الفلسطيني.
دعيت تلك القوات بالتجريدة المغربية وتولى قيادتها الجنرال عبد السلام عامر الصفريوي وكان معه الجنرال عبد القادر العلام والذي استشهد في المعركة بعد ان تمكنت قوات بلاده من التقدم واعتلاء جبل الشيخ الذي يطل على دمشق وتل ابيب.
القت الطائرات الاسرائيلية مناشير على راس الجنود المغاربة، تقول فيها انها تنظر باحترام وتقدير كبير لبلدهم البعيد، وتدعوهم الى تجنب القتال، ولكنهم صمدوا هناك للحفاظ على هذا الموقع الاستراتيجي، وانتظروا الاسناد من طائرات الميغ السورية المصنوعة في الاتحاد السوفياتي، غير ان الطائرات التي حلقت فوقهم كانت اسرائيلية من طراز ميراج الفرنسي واف 5 الامريكي.
يقول افيغدور الكحلاني قائد كتيبة الدبابات 77 الاسرائيلية في برنامج وثائقي اعدته الجزيرة: اشتبك المغاربة راجلين مع دبابات اسرائيلية، وكانت معركة شرسة.

تدخل الطيران العراقي بأوامر مباشرة من صدام حسين، لم يكن هو الرئيس وقتها ولكنه كان شخصية نافذة، لتامين انسحاب القوات المغربية والحيلولة دون ابادتها بالكامل.

حررت سوريا القنيطرة المدمرة، وابقت على دمارها لتظل شاهدة على المعركة، ودفنت على اطرافها جثامين الشهداء المغاربة، ومنحت قيادتهم اوسمة رفيعة، ورفعت شعار التوازن الاستراتيجي وشعار الرد في الزمان والمكان المناسبين. وشعار الاسد الى الابد، والذي تحول لاحقا الى شعار «الاسد او بنحرق البلد».

خسرت اسرائيل قتلى كثيرين، اعترفت بفشل استخباراتها، وندمت لأنها لم تصدق التحذيرات، واهتز كبريائها بفعل هذا الهجوم المشترك المباغت، وادركت كم كانت خسارتها كبيرة عندما اعدمت سوريا الجاسوس الاسرائيلي «كامل امين ثابت»، لم تغفر لنفسها هزيمة حرب الغفران ولكنها اعادت احتلال جبل الشيخ، وظلت تراقب من مرصده قلب دمشق، واقامت على سفوحه المزيد من المستعمرات والمنتجعات السياحية واعلنت ضم الجولان في العام 1981.

صارت المنطقة خاضعة لأحكام وقف اطلاق النار وعسكرت فيها قوات مراقبة دولية، قام اعضائها بتسجيل اسمائنا وتفتيش الحافلة قبل ان ندخل الى القنيطرة المحررة، ومن يومها لم يحلق الطيران السوري فوق تلك المنطقة الا مرة واحدة يوم زيارة البابا يوحنا بولس الثاني عام 2000.

سيقول معارضون مغاربة ان ملكهم اراد من وراء ارسال هذه القوات استعادة العلاقة المقطوعة مع دمشق منذ اغتيال المغرب لمعارضها المهدي بن بركة، واشغال المعارضة التي خططت للانقلاب عليه، من مدينة القنيطرة المغربية تحديدا، سيذكرون رواية الطاهر بن جلون

«تلك العتمة الباهرة» عما تعرض له المتهمون بتنفيذ هذا الانقلاب في معتقل تزمامارت. سيقفز آخرون عن الموت الغامض لمحمد اوفقير ليحدثوك عن ابنته مليكة.

سيقول معارضون سوريون ان حافظ الاسد قلل من شأن مشاركة الجيش المغربي واعتبرها رمزية، وانه تخلى عنهم وعن الجولان وتركهم لمصيرهم الاسود، وانسحب بشكل غامض ودون اعلام المغاربة بعد ان وصل الى سهل الحولة وبحيرة طبريا، سيقول معارضون عراقيون ان صدام حسين ظل منذ البداية يورط بلده بالحروب الخارجية، كلام كثير سيقال ليس من بينه تمجيد لهذا الهجوم المشترك المباغت، ولهذه المشاركة العربية. وليس من بينه ايضا تناقل امنية الجنرال الشهيد عبد القادر العلام بأسر وزير الجيش الاسرائيلي موشيه ديان خلال زيارته للجولان.

ستظل رواية المهزوم عرضة للتشكيك مهما صدقت، وستصبح رواية المنتصر هي الحقيقة مهما احتوت من اباطيل. فكتابة التاريخ حق حصري للمنتصرين.

الصورة اللواء المغربي الشهيد عبد القادر العلام الحاصل على وسام بطل الجمهورية العربية السورية، واللواء عبد السلام عامر الصفريوي، الحاصل ايضا على ذات الوسام وعلى تقريع شديد اللهجة من العاهل المغربي الملك الحسن الثاني، لأنه اخفى عنه موعد انطلاق الحرب خشية افتضاح خطة المباغتة التي وضعتها سوريا ومصر. وفي الوسط العاهل المغربي في القنيطرة بعد سنوات يقرأ الفاتحة على روح الشهيد الجنرال عبد القادر العلام.

الجاسوس الذي كاد يصبح رئيسا للحكومة

السوريون هم خير من يرصع الجدران والموبيليا بالصدف، وهم خير من ينتج ويبيع تلك الهدايا الفاخرة المرصعة بقطع الصدف الملون من صناديق وطاولات زهر، كلما رأيت طاولة زهر مرصعة بالصدف، تذكرت ذلك الجاسوس الاسرائيلي الذي كاد ان يصبح رئيسا لحكومة سوريا، بعد ان تغلغل عميقا في حزب البعث.

تقول المخابرات المصرية ان جاسوسها المزروع في اسرائيل رفعت علي سليمان الجمال والمشهور باسم «رأفت الهجان» هو من كشف هذا الجاسوس الاسرائيلي المزروع في سوريا، وتقول رواية اخرى ان السفارة الهندية في دمشق اشتكت من تشويش على مراسلاتها اللاسلكية فقام

الامن السوري بمتابعة الامر فاكتشف هذا الجاسوس متلبسا بإرسال تقاريره الاستخبارية الى اسرائيل، وتقول الرواية السورية ان وداد بشير وهو مسؤول الإشارة في الجيش السوري، اكتشف بالصدفة وجود ترددات بث لاسلكي غير مماثلة للترددات التي تستخدمها السفارات، فداهم سفارة أو سفارتين بعد الإذن بذلك، ثم رصد الإشارة مجددًا وحدد المكان بدقة فداهم البيت، الواقع بقرب قصر الرئيس، وقبض على الجاسوس متلبسًا، قبل ان يتمكن من الانتحار بتناول السم. وذكرت صحيفة لبنانية ان الفضل يعود لأجهزة تتبع وتنصت دقيقة روسية الصنع، ونقلت صحف اخرى عن مدير المكتب الثاني السوري أحمد سويداني قوله: إن كوهن كان تحت المراقبة لمدة عام.

لم يكن من السهل حتى على اكثر الناس تشككا، الشك بان الشخصية الشهيرة والوطنية والاقتصادية المرموقة والمقربة من صانعي القرار والتي يحملها السيد كامل امين ثابت تخفي ورائها جاسوسا اسرائيليا خطيرا اسمه ايلي كوهين. لقد تمكن هذا الجاسوس الخطير من خداع الجميع فاصبح شخصية من النخبة التي يشار اليها بالبنان.

ولد هذا الجاسوس في الاسكندرية عام 1924 لعائلة يهودية هاجرت من حلب في ذات السنة، اجاد العربية والعبرية والفرنسية وعمل في منظمات يهودية تنشط بالإسكندرية، اعتقله المصريون مرتين بسبب نشاطه في مساعدة اليهود على الهجرة من مصر الى اسرائيل، وعلى المشاركة في خلايا نفذت تفجيرات ضد مصالح امريكية في الاسكندرية بهدف تخريب العلاقات بين القاهرة وواشنطن، في المرتين تمكن من اقناع المصريين ببراءته والافلات، فهاجر الى اسرائيل، وهناك رتب الموساد قصة ملفقة، تسهل دخوله الى سوريا للتجسس عليها.

وبحكم هذه القصة الملفقة صار الجاسوس كوهين سوريا مسلما اسمه

كامل امين ثابت، احد ابناء قدامى المهاجرين السوريين الى الارجنتين، ويعمل هناك في تجارة الاقمشة، ويرغب في توسيع تجارته لتشمل التحف التراثية وطاولات الزهر المرصعة بالصدف، تمهيدا للعودة الى بلد اجداده ونقل كل امواله وتجارته من بيونس ايرس الى دمشق.

ولكي تنجح هذه الخطة كان على كوهين التدرب على كيفية استخدام أجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكي، والكتابة بالحبر السري، ومعرفة كل أخبار سوريا وأسماء رجال السياسة والاقتصاد فيها، ودراسة القرآن وتعاليم الدين الإسلامي، واتقان اللغة الاسبانية ثم السفر الى الارجنتين. وبمساعدة بعض عملاء الموساد بنى كوهين شخصيته كرجل أعمال سوري، واكتسب وضعا متميزًا لدي الجالية العربية في الأرجنتين، باعتباره رجلًا وطنيًا شديد الحماس لبلده، كان الدبلوماسيون السوريون دائما على رأس قائمة الضيوف في المآدب الفاخرة التي كان يكثر من اقامتها، لإعلان حنينه الى وطنه ورغبته في زيارته.

وصل إلى دمشق بالفعل مطلع عام 1962 حاملا معه آلات دقيقة للتجسس، ومزودا بعدد من التوصيات الرسمية وغير الرسمية لأكبر عدد من الشخصيات المهمة في سوريا، فصار محل ترحيب واهتمام المسؤولين في سوريا.

بعد الافراج عن ملفات الموساد بشأن هذا الجاسوس نتيجة تقادمها وانقضاء المدة القانونية لحجبها، نقلت الصحف العبرية اسماء خمسين شخصية سورية بارزة تعمل في قطاعات سياسية وحزبية وعسكرية واقتصادية، تمكن كوهين من بناء صداقة معها، والحصول منها على معلومات مهمة عن صفقات التسلح ومواقع التحصينات العسكرية في القنيطرة وغيرها من المناطق المهمة، وخطط الجيش السوري، وخارطة توزيع قواته ودباباته، اضافة الى مميزات الاسلحة الروسية التي كانت

تصل لسوريا، وتقديرات عن الشخصيات النافذة في الحزب والدولة والجيش.

وبحسب هذه الملفات فان كوهين ارسل على مدى 3 سنوات مئات الرسائل المشفرة والتقارير والصور التي التقطها لمواقع عسكرية في القنيطرة بفضل ساعة خاصة مزودة بكاميرا دقيقة، اكدت صحة كل الصور التي كانت ترد من الاقمار الصناعية واضافت تفاصيل ضرورية لهذه الصور الجوية.

الامساك بالجاسوس كوهين واخضاعه للتحقيق هو والشخصيات الاخرى التي استغفلها، وكذلك بائعات الهوى اللواتي كان يستخدمهن لتسلية الضيوف في حفلاته الكثيرة، وتنفيذ الحكم بإعدامه علنا في ساحة المرجة منتصف عام 1965، سبب صدمة للسوريين، فقد كان معروفا على انه مسؤول رفيع المستوى في حزب البعث، ومقرب من الرئيس السوري امين الحافظ، والبعض كان يقول ان امين الحافظ يعرف هذا الرجل من ايام عمله كملحق عسكري في سفارة سوريا بالارجنتين، وانه يستعد لتكليفه بتشكيل حكومة جديدة. وهو ما نفاه الحافظ جملة وتفصيلا وبالتواريخ الدقيقة لفترة تواجده في الارجنتين، ضمن حلقة من برنامج الجزيرة «شاهد على العصر» تم تسجيلها في بغداد عام 2001.

وكانت الصدمة في اسرائيل اكبر فقد خسرت جاسوسا ثمينا، مما ادى الى اهتزاز معنويات الموساد وعملائه، وتجدد اهتزاز الصورة هذا مع مباغتة الجيشين المصري والسوري لإسرائيل في حرب تشرين، ظلت اسرائيل من ايامها والى يومنا هذا تسعى وتطلب وساطة روسيا وغيرها لاسترداد جثته، ولكنها لم تفلح حتى الآن سوى في استرداد الساعة التي كان يستخدمها لتصوير التحصينات السورية.

قال نتنياهو ان استرداد الساعة التي ارتداها هذا «البطل الاسطوري»

تم في عملية نوعية وشجاعة نفذها الموساد، فيما قالت ارملته وابنته ان الساعة كانت معروضة للبيع في الانترنت، وان الموساد اشتراها بعد ان تحقق منها.

الارملة والابنة لم تبديا الاعجاب بقصة كوهين التي عرضتها دراميا شبكة نيتفليكس في مسلسل الجاسوس واعتبرتا ان المسلسل قصر في اظهار حجم بطولته، واستجلاب التأييد لضرورة استعادة جثته، ورأى كثيرون ان المسلسل قد شهد مبالغات واخطاء تاريخية كثيرة، ذات الراي قاله الرئيس السوري الاسبق امين الحافظ عن الفيلم الامريكي جاسوس المستحيل المصور في اسرائيل عام 1987. بقي مسلسل «رأفت الهجان» هو الانجح.

سوريا يا حبيبتي

كانت سوريا بقعة خطيرة أو هكذا ارتسم في أذهاننا ونحن فتيانا، فمرة يصبح السفر إليها بمجرد الهوية ودون جواز السفر وبأرخص الاثمان عبر القطار البطيء الذي يسير على الخط الحجازي الشهير، ومرة يخضع القادمون منها لتحقيق مطول وشاق وعسير لدى أجهزة المخابرات، بتهمة الانتساب لتنظيم فلسطيني يعسكر في دمشق، أو بتهمة الانتماء لحزب البعث العربي الاشتراكي، والذي عرفت ان شعاره «امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» وان اهدافه هي الوحدة والحرية والاشتراكية، ولم اعرف عن ممارساته شيئا سوى ما كان يردده صغار أمراء جماعة الاخوان المسلمين، وفحواه انه تنظيم علماني وأخطر على دين الله من الإلحاد والشيوعية!.

ومرة يتم إعدام شاب في وسط دمشق بتهمة التجسس، ومرة تغضب مدينة الرمثا الاردنية الحدودية مع سوريا، فتضع على مداخلها يافطة تقول: «سوريا ترحب بكم».

اختفت عن الأذهان وعن أثير الإذاعات اغنية «سوريا يا حبيبتي» التي كتبها ولحنها محمد سليمان وشارك ايضا في غنائها مع نجاح سلام وجمال محمد:

سوريا يا حبيبتي
أعدت لي كرامتي أعدت لي هويتي
بالحرب والكفاح وشعلة الجراح
تنير درب ثورتي
يا يا يا يا حبيبتي
قنالنا جولاننا سماؤنا و أرضنا

تفديهم دماؤنا تحميهم أبطالنا

وبعثنا يسير لمجده الكبير

مبشرًا بعودتي ورافعًا كرامتي مجددًا هويتي

الآن الآن الآن الآن

الآن اني عربي

لم ينتهي المشوار يا عروية

حتى تعود أرضنا السليبة

ففي الخيام طفلة المصيبة

تنادي يا سورية الحبيبة

في مصر انتشرت في ذلك الوقت اغنية الفنانة شريفة فاضل «انا ام البطل» والتي غنتها بعد استشهاد ابنها الطيار سيد بدير في الحرب التي حملت

عدة اسماء منها تشرين ورمضان واكتوبر واسمتها اسرائيل الغفران. وتراوحت اوصافها السياسية بين تحريرية وتحريكية، والحقيقة انها حركت اكثر مما حررت.

عن نتائج هذه الحرب كتب الدكتور نبيل شعث في سيرته الذاتية «حياتي من النكبة الى الثورة: «حرب 1973 ونتائجها السياسية وتحول الرئيس المصري السادات من تحالفه مع الاتحاد السوفياتي الذي امده بسلاح الحرب في اكتوبر، الى التحالف مع امريكا لترعى عملية السلام في الشرق الاوسط مع اسرائيل، ونمو جبهة رفض عربية ابتداء بسوريا ثم العراق فليبيا، خلقت الانشقاق العربي والذي انعكس على الساحة الفلسطينية، وخاصة مع تيار (س – س) سوريا / السوفييت، رموز هذا التيار كانوا نمر صالح (ابو صالح) وسميح ابو كويك (قدري) وسعيد مراغة

(ابو موسى) وموسى العملة (ابو خالد العملة)، هذا التيار لم يكن ضد الحل السلمي للقضية الفلسطينية خاصة بعد حرب اكتوبر التي غيرت موازين القوى، ولكن شريطة ان يتم ذلك من خلال مؤتمر دولي يؤدي الاتحاد السوفياتي دورا مركزيا فيه، ويوفر لسوريا الشروط ذاتها، كان هذا التيار يرى ان الخلاص لن يأتي الا من خلال التحالف مع الاتحاد السوفياتي، والالتصاق بسوريا ومعاداة السادات وحلفائه الجدد».

ما بدأ تيارا وتوجها على ايدي هؤلاء سرعان ما اصبح انشقاقا، وشتان ما بين الانشقاق والولادة، المولود يكبر برعاية ابويه، واما المنشق فانه ينقطع عنهما ويبحث عن غيرهما، في اعماق ذهنية الفلسطيني يستقر رفض كبير لأية محاولة مساس بوحدانية التمثيل، او للارتباط بأطراف خارجية، هذا الرفض افشل هذا الانشقاق والانشقاقات التالية، فشل اعترف به المنشقون انفسهم ولكن بعد خراب مالطا.

رمضان وغفران بين اكتوبر المصري وتشرين السوري

عند المدخل الشمالي لمدينة دمشق اقام حافظ الاسد عام 1998 صرحا عظيما لتخليد المعركة التي تعددت اسمائها واختار هو من بينها اسم «حرب تشرين التحريرية» دخلت ذلك المبنى العملاق بعد افتتاحه بعامين، استقبلني نحتان حجريان على المدخل، نحت يدلل على معركة ميسلون وضع الى اليسار ونحت آخر يدلل على انجازات الثورة التصحيحية وضع الى اليمين، صور كبيرة جدا للقائد حافظ الاسد في الداخل، وصور اخرى لزنوبيا ملكة تدمر وصلاح الدين

الايوبي ومن خلفه قبة الصخرة، وطارق بن زياد ومعه موسى بن نصير، ولوحات ضخمة ترسم مشاهد من المعركة.

وفي وسط البناء تقع البانوراما، وهناك جلسنا فوق قرص دوار على الكراسي الانيقة وبدأت الارض تدور من تحتنا لمدة عشرين دقيقة مصحوبة بمؤثرات صوتيه وموسيقى وتعليق حماسي على المعركة فمر من امامنا ما تم رسمه على جدران بطول 130 مترا وارتفاع 15 مترا وما تم وضعه ايضا امام هذه الجدران من مجسمات ليعطي بعدا اضافيا.
شاهدنا القنيطرة والجولان ومرصد جبل الشيخ وجنود ودبابات ورايات وصناديق ذخيرة ومركبات عسكرية ومضادات طيران وراجمات صواريخ وقاذفات وخوذ عسكرية ملقاة على الارض وجرحى يتوجعون.
كان المصريون قد سبقوا السوريين بـ 9 سنين واقاموا بانوراما خاصة بهم قرب ستاد القاهرة الدولي لتمجيد الحرب التي سموها حرب اكتوبر. وتخليد بطولات عبور القنال وتدمير خط بارليف.
زرت القاهرة عدة مرات ولكنني لم ازر هذه البانوراما، حتى انني لم اذهب الى الاهرامات، لقد اكتفيت بمشاهدتها عن بعد مرة عن يميني ومرة عن يساري وانا ذاهب من وسط القاهرة الى مدينة 6 اكتوبر، غير انني كنت اذهب كل ليلة الى حي الحسين فهناك تجد القاهرة الحقيقية، وكنت لا اعود منه الا بعد مرور عازف العود، ادعوه للجلوس وشرب الشاي معي، وما ان ابدأ بترديد اغنية مصرية او عراقية او يمنية الا ويبدأ بعزفها وغنائها، اختم جلستي معه بأغنية البحر بيضحك ليه، واعود الى قصر الجزيرة الذي بناه الخديوي اسماعيل في حي الزمالك لاستقبال ضيوف حفل افتتاح قناة السويس وتحول فيما بعد الى فندق بـ 5 نجوم اسمه ماريوت. انا نادم الآن لأنني لم اطلب منه ولا مرة اغنية جيفارا مات.
يجمع بين اكتوبر المصري وتشرين السوري انهما وقعتا في شهر رمضان، وان جيش الاحتلال الاسرائيلي جمع الاسمين في اسم واحد هو

حرب الغفران، يجمع بينهما حجم التغني الهائل وبؤس النتائج، يجمع بينهما انهما يتحدثان عن حرب واحدة تم شنها بتنسيق وتخطيط اربك العدو وفاجأه، رغم وجود تحذيرات، يجمع بينهما انهما انتهتا كلٌ على حدة، ويجمع بين بانوراما تشرين واكتوبر ان كل منهما لا تعترف بالأخرى، وتتحدث عن نفسها فقط، يجمع بينهما ايضا اقيمتا على يد خبراء ومهندسين وفنانين من كوريا الشمالية.

هؤلاء الكوريون الشماليون هم ايضا من اقاموا بانوراما القادسية في العراق.

كان العراقيون الاشد رفضا لتسمية الخليج العربي بخليج فارس، وكان صدام حسين يرفض تسمية حربه مع ايران باي اسم سوى القادسية الثانية، صحيح ان صدام لم يستلهم عبرا نهائية من التاريخ، لكنه كان حافظا جيدا له، تثبت ذلك اضافة الى سيرته، شهادته المدرسية التي شاهدتها معروضة في متحف اسفل القبة في نصب الشهيد، بحسب هذه الشهادة كان صدام راسبا في الرياضيات وناجحا على الحافة في بقية المواضيع، ولكن علامته كانت 100 من 100 في التاريخ.

لتكريس القادسية كاسم لحربه التي استمرت 8 سنوات مع ايران ذهب صدام الى مدائن كسرى والتي اصبح اسمها بعد الفتح الاسلامي للعراق سلمان باك تيمنا بواليها سلمان الفارسي، والذي كان اول من اسلم من الفرس، ذهب الى هناك عام 1980 واقام بناية عظيمة اسماها بانوراما القادسية،

قلعة ضخمة بداخلها بناء دائري بطول 110 امتار وارتفاع 15 مترا رسمت وجسدت على جدرانه الداخلية وعلى الرمال والصخور التي وضعت امامها مشاهد من المعارك التي استمرت 4 ايام بين جيش المسلمين بقيادة سعد بن ابي وقاص، وجيش الفرس بقيادة الهرمزان

ومعه 33 فيلا.

لم تكن انتصارات المسلمين قديما بحاجة الى نصب وبانورامات لتوثيقها، لقد استقر فتح عمورية في ادمغتنا من خلال بيتي شعر قالهما ابو تمام:

السيف اصدق انباء من الكتب / في حده الحد بين الجد واللعب

تدبير معتصم بالله منتقم / لله مرتقب في الله مرتغب

الانتصارات الحقيقية لا تحتاج الى كلام كثير، عندما عاد يوليوس قيصر منتصرا من حربه مع قبائل الغال الفرنسية قبل الميلاد بـ 50 عاما، وقف ليلقي خطبة الانتصار فلم ينطق سوى بـ 3 كلمات جعلت شعبه يهيج طربا وتصفيقا، قال يومها: Veni Vidi Vici أي ذهبت، رأيت، انتصرت.

عبارة خلدها التاريخ كأقصر خطاب، فبعد 1950 عاما انطلقت سجاير مارلبورو فوضعت هذه العبارة على علبها الحمراء، تماما تحت التاج وبين حوافر الحصانين، ارادت ان تقول انها ستنتصر على سجائر الغلواز الفرنسية. خاصة وان هذه السجائر اتخذت من قبعة الريش التي كان يرتديها المحاربون شعارا لماركتها التجارية.

المهزوم مثلنا نحن الفلسطينيون والعرب عامة لن يكفيهم الكلام كله لتبرير هزائمهم، ولو جعلنا كل شجر الارض اقلاما وجعلنا البحر تمده سبعة ابحر اخرى مدادا لكلماتهم، ولن تستطيع النصب والتماثيل ان تكرس انتصارات وهمية. فجلودنا اصبحت مصبوغة بالهزيمة والقهر.

لقد اصابنا الملل، ملل عبر عنه مظفر النواب: «مللٌ يشبه علكة بغي لصقته الايام بقلبي».

لا وحدة ولا حرية ولا اشتراكية

لم يبق في العقل عن سوريا إلا ذلك الدور المختلف عليه وذلك الحزب الذي يخشاه الجميع والأحاديث السرية عن تسرب شباب عبر الحدود للذهاب متطوعين في صفوف الفصائل الفلسطينية.

كنا نلعب الكوتشينة ذات يوم في بغداد، ونوزع الورق بعد خلطه بتفنن وغش، فنعطي 13 ورقة لكل لاعب من اللاعبين الاربعة،

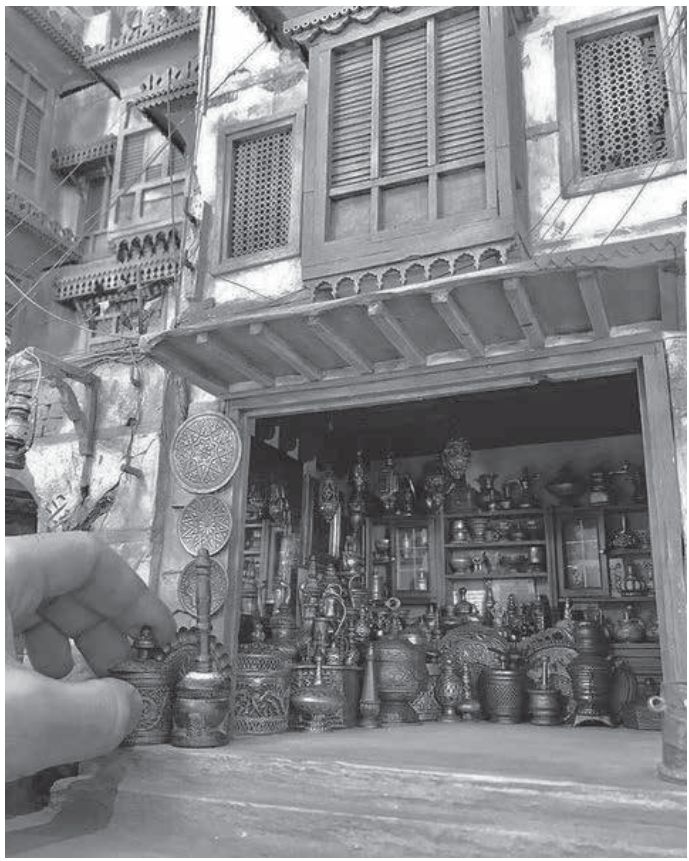

احد اصحابنا كان يوزع الورق وهو يقول: حزب، البعث، العربي،

الاشتراكي، وحدة، حرية، اشتراكية، امة، عربية، واحدة، ذات، رسالة، خالدة. لم يكن يخطأ في العد فهي 13 كلمة، فقط لا اكثر ولا اقل ولا ابعد من كونها مجرد كلمات لم يتحقق منها شيء على ارض الواقع.

لا اعتقد ان احدا مستعد الآن لخوض نقاش حول هذه الاهداف الثلاثة، ولكن الامر كان مختلفا تماما في الستينيات والسبعينيات وحتى ايام اقامتي في بغداد في الثمانينيات، لقد كان النقاش محتدما وصاخبا وبمنتهى الجدية، ولكنه لم يكن حرا، لقد كان للحيطان ايامها آذان.

كان علي ان اجتهد تمام الاجتهاد لأناقش واقارن بين مقولتي: «الوحدة طريق فلسطين» و عبارة «فلسطين طريق الوحدة»، كان علي ان افهمهما لكي اطويهما وامضي. لقد كان قطبا الدعوة للوحدة العربية في تنافر دائم!!!.

لم يكن هناك احد حتى من بين عتاة البعثيين من يستطيع الادعاء بوجود حرية.

كان هناك بعض مظاهر الاشتراكية في الفقر، مظاهر متماثلة نوعا ما بين بغداد ودمشق، ففي الدولتين ممنوع الاستيراد الا من قبل الحكومة، وممنوع تصريف العملة الا من خلال المصارف المركزية، هل استفاد ابناء البلدين من ذلك؟ لا على الاطلاق. لقد استفاد منه الوافدون الى هاتين الدولتين، استفادوا كما المنشار (نازل واكل طالع واكل)، كانوا يهربون بضائع اجنبية يستقتل عليها ابناء البلد، ويهربون الى الاردن بضائع محلية سورية وعراقية كانت متوفرة بكثرة وبأسعار رخيصة جدا.

من طريف ما حصل في تلك الفترة ان شابا كان يسافر بشكل متكرر من الرمثا الاردنية الى درعا السورية على دراجة هوائية، وكان يحمل معه في كل مرة كيسا صغيرا من الرمل، كان موظفو الجمارك مقتنعين بانه يهرب شيئا ما، يفتشونه مرارا وتكرارا، فلا يجدون الا الرمل، يفحصونه

بأيديهم، يشمونه، يحاولون تذوقه، انه مجرد رمل، يفرغون الكيس على الارض، ويسمحون للشاب بالدخول، لقد كان يهرب الدراجات الهوائية، يذهب بواحدة متهالكة ويعود بواحدة جديدة.

قبيل انهيار جدار برلين كنت هناك في المانيا الشرقية ادرس في اكاديمية تابعة لحزب الوحدة الاشتراكية الحاكم، وكان معي طلبة من كمبوديا، هؤلاء ايضا كانوا يوفرون من مصروفهم الضئيل لشراء دراجة هوائية يقومون بتفكيكها، وتقسيمها على طرود بريدية لا تتجاوز الحد المسموح به للإرسال عبر البريد على دفعات لا تثير الشبهة لدى جمارك بلدهم، ليكون لديهم عندما يعودون قطع يجمعونها لتصبح دراجة.

عندما زرت هذا البلد للمشاركة في مؤتمر اعلامي عام 2016 رأيت اصنافا من الفقر كنت اعتقد انها اختفت من العالم اجمع وسمعت عن اتجار بالبشر. وعرفت معنى وقيمة امتلاك الشاب الكمبودي (لبسكليت) في ذلك الزمن.

تكاد الدهشة ان تختفي من عالمي فلقد تم سبي الايزيديات وبيعهن في العراق على ايدي الدواعش، واعتقد ان مخلفات الحرب في اليمن الذي كان سعيدا، ستجعل كمبوديا نعيما قياسا بجحيم اليمن. واما الشتات الذي يعيشه العراقي والسوري فقد بات مشابها لنكبة الفلسطينيين وهجرتهم.

جلست في احد مقاهي كوالالمبور ذات يوم قبل ساعات من سفري الى فلسطين، تعرفت الى سوري ويمني، فقالا لي: تخيل المفارقة، انت من بلد محتل وتستطيع الرجوع اليه، ونحن لا نستطيع لألف سبب وسبب ان نعود الى اوطاننا.

الغريب في فكر الوحدة لدى البعثيين انه كان يقود المنادين به الى الانفصال والتناحر، ويدعو كلا منهم الى احتلال جارته، والغريب في

حريتهم انهم ظلوا حزبا حاكما متفردا يلجأ الى البيعة والتوريث، واما اشتراكيتهم فلا حققت كفاية في الانتاج ولا عدالة في التوزيع، فظلت اعين مواطنيهم دوما متجهة الى الخارج.

الفنان عبد الرحمن عيد ومن شدة حبه لدمشق يعيد صناعة نماذج فنية مصغرة عن حاراتها ومبانيها وتراثها.

ماذا يطبخ تجار الشام على نار جهنم؟

امتدادا لذلك الدور المختلف عليه تولت سوريا قيادة قوات الردع العربية في لبنان، رأى مظفر النواب يومها ان الامر مزاد علني للقتل والدمار وتساءل: ماذا يطبخ تجار الشام على نار جهنم ؟ واجاب:

فيمَ السرعة؟ قوات الردع لقد وصلت

خصيان الأمّة، رغم خِلاف الأفكار اتصلت

قوات الردع لقد وصلت

معجزة القرن العشرين لقد حصلت

بالنفط هدمنا لبنان، وبالنفط سنبني لبنان

تاريخ الهدم بالنفط في لبنان يتكرر في سوريا الآن، كان مظفر ايامها يبكي شهداء مجزرة تل الزعتر، ذلك المخيم الذي اسماه عاصمة الفقراء، وفي قصيدته وصف دموية قتل الاطفال ونزع الارحام ولم يترك شتيمة الا والقاها على رؤوس الحكام القردة من الخصيان وعرب الردة واولاد الوسخة والماموث واصحاب الاظلاف والديوس والمسفلس والجالس تحت الجذر التكعيبي والمعوج من الساق الى الرقبة وختمها قائلا:

صرح نفط ابن الكعبة أن يعقد مؤتمرًا

بالصدفة... والله بمحض الصدفة كان سداسيًا

أركان النجمة سِتٌّ بالكامل

يا محفل ماسون تَرَنَّح طَرَبًا

يا إصبع كيسنجر إن الإست الملكي سداسيٌ.

لم تعجبني الشتائم في اشعار مظفر النواب لا في هذه القصيدة ولا في غيرها رغم انها شتائم مستحقة، ولكن اعجبني قوله في هذه القصيدة: «إن تراب العالم لا يغمض عيني جمجمة تبحث عن وطن»

الباحثون عن وطن في مخيم تل الزعتر عاشوا 4 شهور تحت القصف والحصار التجويعي الذي اجبرهم على اكل لحم القطط والكلاب، وبعد سقوط المخيم دخلت الميليشيا اللبنانية بحماية الجيش السوري فارتكبت المذبحة.

جاء في كتاب السيرة الذاتية للدكتور نبيل شعث «حياتي من النكبة الى الثورة» هذا النص عن مذبحة تل الزعتر: «استغلت الكتائب فرصة الاجتياح السوري للهجوم على المخيم الواقع في قلب منطقة التحالف الكتائبي شرق بيروت، كان عدد سكانه حسب آخر احصاء 20 الف نسمة، وفي 12 آب 1976 أي في اليوم التالي على توقيع اتفاق يقضي بإخلاء سكانه، تحول المخيم من اسطورة صمود الى اسطورة شهادة وذكرى مذبحة ووصمة عار على جبين مرتكبيها، لقد تراوحت اعداد المذبوحين بين الالفين والثلاثة آلاف».

الكاتب اللبناني سهيل ادريس والذي كان قد هرب من لبنان المُسيطَر عليه سوريًا ولجأ الى العراق الذي يكره حافظ الاسد، اصدر وقتها عددا خاصا من مجلة الآداب وضع فيه عشرات المقالات والقصائد التي تحدثت عن دور حافظ الاسد في هذه المذبحة التي هزت الوجدان العربي، وكان مما جاء في قصيدة الشاعر السوداني محمد الفيتوري:

تلك الجريمة لا رُحمانَ يغفرها / الا رصاصك بين الرأس والجسد
والطائفي الذي استقوى بسادته / كلب وان البسوه فروة الاسد
دمشق حاضنة الاجيال في دمها / القدسي غير سرايا حافظ الاسد

وانشد المغني باكيا: «تل الزعتر يا مدمر فيك البنيان، خليت الشعب العربي يغلي غليان» ولكن الحقيقة كانت ان القتل الذي رافق التدمير ظل بعيدا عن أي غليان، ولم يتبعه سوى حرق المعونة الطبية في حصار الثورة الفلسطينية ببيروت عام 1982 كما تحدثنا الأغنية الشهيرة لفرقة

العاشقين.

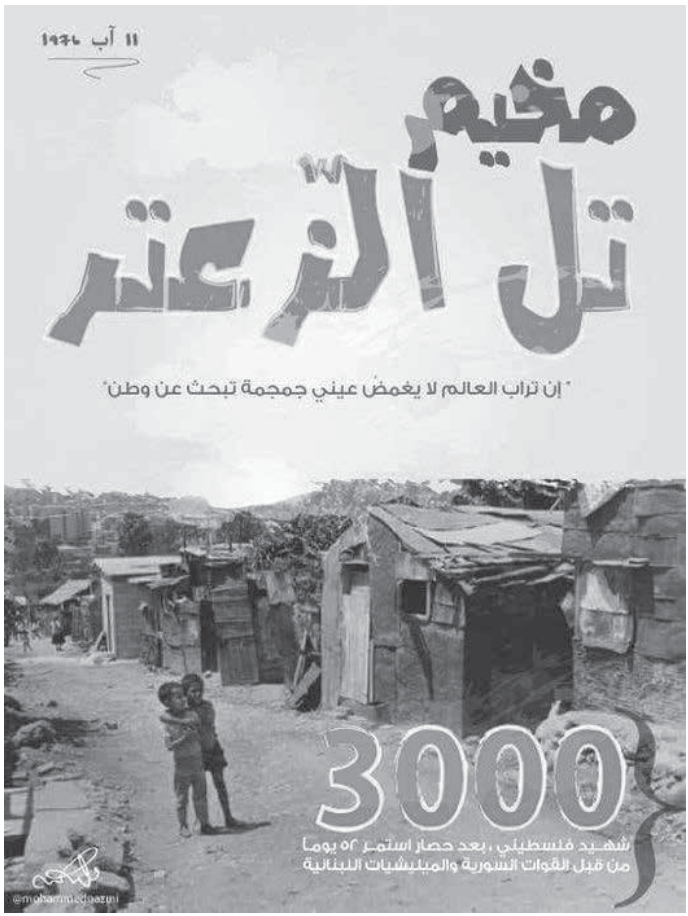

تل الزعتر ايضا كان حاضرا في القصيدة الشهيرة «احمد الزعتر» والتي كتبها محمود درويش وتحولت الى غنائية طويلة الف موسيقاها السيمفونية مارسيل خليفة وغناها مع اميمة الخليل، ومن المفارقات ان سوريا اختارتها لتكون الحدث الابرز في فعاليات «دمشق: عاصمة الثقافة العربية»، وكأن سورية لم تكن على صلة بتل الزعتر المذبحة. قالوا عنها احمد العربي وليس احمد الزعتر، تبييض سياسي لا يقل

خطورة عن تبييض وغسل الاموال.

من شدة اعجابي بهذه القصيدة كتابة او القاء او غناء، لا استطيع انتخاب أي مقطع منها لوضعه هنا. أقرأوها واسمعوها، مرارا وتكرارا ان كنتم من الباحثين عن الشعر الفاخر.

نتيجة نقاش سابق بين شعراء تولدت لدي نقطة صغيرة من سواد حول هذه القصيدة، عندما تم طرح امكانية ان تكون «المرأة الجميلة التي تقطع القلب والبصل الطري بسكين ثم تمضي الى البنفسج» قد أُخذت من شاعر آخر، ربما تكون مصداقية الباحث، التي تعالت فوق حبه للشاعر، قد اغفلت مدى استخدامنا لعبارة «تقطيع القلب» ومدلول الحسرة فيها، وهو مدلول يتفوق على نظيره الانجليزي «القلب المكسور». علما ان عبارة «تقطيع القلب» وردت في الانجيل بداية وفي اشعار شكسبير، وجاءت حاملة مدلول الذهاب الى صميم الشيء اكثر مما حملت مدلول جرح الاحساس. وان قرنها لدى درويش بتقطيع البصل صنع المفارقة الكبرى فهو يطالب المرأة بان تذكره قبل ان ينسى يديه التي هرب منها بردى، ويعترف بانه ينساها احيانا لينساه رجال الامن.

سرني جدا ان الدكتور عادل الاسطة وهو الاكثر قراءة ودراسة وكتابة عن درويش يُعلي ايضا من شأن هذه القصيدة، وطالما ان هذا هو المديح الثاني للدكتور الاسطة خلال اقل من شهر، فسأضيف انني معجب ايضا باهتمامه الكبير بالشاعر احمد دحبور، فلهذا الشاعر دور كبير في صياغة شعورنا الوطني عبر ما كتبه لفرقة العاشقين وخاصة عن تلك الفترة من الاشتباك السوري الفلسطيني على ارض لبنان. لا يقارب مكانة هذين الشاعرين عندي الا الشاعر توفيق زيّاد فانا احبه شعرا ومسلكا.

ترجم درويش التواجد على ارض لبنان بسؤال عن حق العصافير في التغريد على سرير النائمين، ولخص الكثير عندما قال: «حين يبتسم

المخيم تعبس المدن الكبيرة». اعتقد ان هذا المقطع الذي جاء في «مديح الظل العالي» بعد الخروج من بيروت عام 1982 تأسس هناك في احمد الزعتر، بعد مذبحة المخيم عام 1976.

يتبخر حب سوريا وتحل مكانه اللعنات، اللعنات على من يقودون انشقاقا مخزيا في الساحة الفلسطينية ويدعمون فصائل طائفية تقتل وتخنق المخيمات فيما يفتي شيوخها للفلسطينيين بجواز اكل لحم القطط، لم يعد دور سوريا مختلف عليه في عقلي، ولم يعد حزبها خطيرا في ذهني، بل مكروها وبغيضا ولكن نزار قباني يتسلل الى صحراء مراهقتي فيزرع فيها حبق وريحان وياسمين الشام ولا استطيع له ردا.

ليس بوسعها أن لا تفوح.. مزارع الدراق

لنزار قباني بصمته الواضحة على مراهقة ومخيلة واحاسيس الشباب العربي ذكورا واناثا، بصمة حسية واخرى رومانسية، قرأنا قصائده علنا وسرا، تخيلنا ما فيها من صور، وتقمصنا ما فيها من احاسيس، نطقنا بمفرداته، بنينا حبيبات بمواصفات مزاجه الشعري، صار قاموسنا في التعبير عن العشق مستمدا من ابياته، اطلنا الوقوف على عتبات دواوينه وسهرنا ليلا طويلا على شرفات قصائده.

لم تترك لنا الافلام المصرية الكثير لنرسمه على مقاسنا او نتقمصه، ولكن نزار ترك لنا هذه المساحة، هنا يكمن الفرق بين المرئي وضيقه والمتخيل بكل اتساعه، كان الحب شعرا سوريا قبانيا واغاني مصرية كلثومية، لم

يكن هذا اختيارنا، لقد كان ذلك رجع الصدى في قلوبنا وعقولنا لطول وكثرة ما استمعنا الى ذلك الشريط المسجل لمقاطع شعرية بصوت نزار تتلوها مقاطع من اغاني ام كلثوم، في خزانة كل منا كان هذا الكاسيت موجودا:

يقول نزار: حديثُكِ سُجَّادةٌ فارسيَّةْ.. وعيناكِ عُصفوتانِ دمشقيّتانِ.. ولكني اخاف التورط فيك

فتغني ام كلثوم: صبرت سنين على صدك... (يا ظالمني)

يقول: دعيني اقول بكل اللغات التي تعرفين ولا تعرفين احبك انت...

فتغني: كنت لي ايام كان الحب لي امل الدنيا ودنيا املي... (قصة الامس)

يقول: دعيني أفتش عن مفرداتٍ.. تكون بحجم حنيني إليك.. وعن كلماتٍ.. تغطي مساحة نهديك..

فترد: الهجر اهون من عذابي بقربك... (ليلي ونهاري)

يقول: أحبك.. كيف تريديني أن أبرهن أن حضورك في الكون، مثل حضور المياه، ومثل حضور الشجر

فترد: جددت حبك ليه... بعد الفؤاد ما ارتاح... حرام عليك خليه... غافل عن اللى راح (جددت حبك ليه)

يقول: انا عنك ما اخبرتهم لكنهم لمحوك تغتسلين في احداقي... للحب رائحة.. وليس بوسعها أن لا تفوح.. مزارع الدراق

فترد:... تلوعني وتكويني تحيرني وتضنيني... ولما أشكي تخاصمني وتغضب لما أقولك يوم يا ظالمني (يا ظالمني)

يقول: ذات العينين الصاحيتين المطرتين.. لا أطلب أبدا من ربي إلا شيئين.. أن يحفظ هاتين العينين.. ويزيد بأيامي يومين.. كي أكتب شعرا...في هاتين اللؤلؤتين

فترد: تشكي مش ح اسأل عليك تبكي مش ح ارحم عنيك.. يلي ما

رحمتش عنيه لما كان قلبي في ايديك.. دارت الايام عليك (حسيبك للزمن)
يقول: أشكوك للسماء.. كيف استعطت أن تختصري جميع ما في الارض من نساء
فترد: صبرني الحب كثير وداريت في القلب كثير..ورضيت عن ظلمك لكن.. كل ده كان لوه تأثير (للصبر حدود)
يقول: عشرين ألف امرأة أحببت.. عشرين ألف امرأة جربت.. وعندما التقيت فيك يا حبيبتي.. شعرت أني الآن قد بدأت
فترد: بيني وبينك هجر وغدر وجرح في قلبي داريته.. بيني وبينك ليل وفراق وطريق أنت اللي بديته (فات الميعاد)
يقول: اني خيرتك فاختاري ما بين الموت على صدري او فوق دفاتر اشعاري اختاري الحب او اللاحب فجبن ان لا تختاري.. لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار
فترد: أنا لن أعودَ إليك مهما اسْتَرْحَمَتْ دقاتُ قلبي (قصة الامس)
يقول: لن تهربي مني..فإني رجلٌ مقدرٌ عليك.. لن تخلصي مني.. فإن الله قد أرسلني إليك
فترد: ح أفضل أحبك من غير ما أقولك.. إيه اللي حير أفكاري... لحد قلبك ما يوم يدلك.. على هواي المداري (حيرت قلبي معاك)
يقول: اني احبك.. اني احبك.. اني احبك
فترد: حب ايه اللي انت جاي تقول عليه.. انت عارف قبله معنى الحب ايه (انت فين والحب فين)
يقول: قولي.. انفعلي.. انفجري.. لا تقفي مثل المسار
فترد: يقول الناس إنك خنت عهدي... ولم تحفظ هواي ولم تصني (ثورة الشك)
يقول: اشتقت اليك فعلمني ان لا اشتاق... علمني كيف اقص جذور

هواك من الاعماق

فترد: فات المعاد... وبقينا بعاد بعاد بعاد.. والنار النار النار بقت... النار دخان ورماد (فات الميعاد)

يقول: زيديني عشقًا زيديني.. يا أحلى نوبات جنوني.. زيديني غرقًا يا سيدتي.. إن البحر يناديني.. زيديني موتًا علً الموت إذا يقتلني يحيني.. اشعر بالخوف.. من المجهول فآويني.. أشعر بالخوف.. من الظلماء فضميني.. أشعر بالبرد.. فغطيني وظلي قربي غني لي.. فأنا من بدأ التكوين.. أبحث عن وطن لجبيني..

فترد: هجرتك يمكن أنسى هواك.. وأودع قلبك القاسي.. وقلت اقدر في يوم أسلاك.. وأفضي م الهوى كاسي.. لقيت روحي في عز جفاك.. بأفكر فيك وانا ناسي (هجرتك)

يقول: انا لا اناقش حبك... انا لا اناقش حبك

فترد: أروح لمين واقول يامين ينصفني منك... ما هو انت فرحي وانت جرحي وكله منك (اروح لمين)

غدا نقلب كاسيت الـ TDK الياباني، ابو الـ 60 دقيقة، والذي كنا مسبقنا قد كسرنا قطعتي بلاستيك صغيرتين اسفله لمنع التسجيل فوقه، لنسمع بقية الحوار القباني الكلثومي على الوجه الثاني.

خلاص مسافر... مسافر، مسافر

اعتقد ان كثير من تلك الصور والعبارات التي حفل بها كاسيت الحوار بين نزار قباني وام كلثوم ما زالت مترسبة في باطن عقولنا، تثور احيانا لنضحك على انفسنا وكيف كنا، وربما تثير الحسرة عند من ظل ممسكا على جمر رومانسيته من القلة القليلة، التي نسميها الفئة الناجية ولا نعرف من أي شيء نجت.

الجريئون فقط سيعترفون بانهم حاولوا كتابة قصيدة بقافية الحب المجنون والجبين الذي يبحث عن وطن وعن المنطقة الوسطى ما بين الجنة والنار وعن نساء يحترقن على الصدر ودفاتر الاشعار، نقلب كاسيت الـ TDK لنسمع بقية الحوار:

نزار قباني يسأل: أأعجبك الشاي؟. هل ترغبين ببعض الحليب؟.. وهل تكتفين –كما كنت دومًا- بقطعة سكر؟.. وأما أنا فأفضل وجهك من غير سكر..

فترد ام كلثوم على السؤال بجواب محير: اسأل روحك.. اسأل قلبك.. قبل ما تسأل إيه غيّرني.. انا غيرني عذابي في حبك.. بعد ما كان أملي مصبرني (اسأل روحك)

يقول: اكرر للمرة الألف أني أحبك.. كيف تريدينني أن أفسر ما لا يفسر؟

فترد: انت ما بينك وبين الحب دنيا.. دنيا ما تطولها ولا حتى فخيالك.. اما نفس الحب عندي حاجه تانية.. حاجه اغلى من حياتي ومن جمالك.. انت فين والحب فين.. ظالمه ليه دايما معاك.. ده انت لو حبيت يومين.. كان هواك خلاك ملاك.. ليه بتتجنى كده ع الحب ليه.. انت عارف قبل معنى الحب ايه.. حب ايه اللي انت جاي تقول عليه. (انت فين والحب فين)

يقول: احبيني قليلا.. واكسري انظمة السير قليلا.. واتركي لي يدك اليمنى قليلا.. فذراعاك هما بر الامان

فترد: لسه فاكر قلبي يدي لك أمان.. و لا فاكر كلمه ح تعيد اللي كان.. ولا نظره توصل الشوق بالحنان.. لسه فاكر كان زمان كان زمان.. (لسه فاكر)

يقول: مرهقة انت وخائفة وطويل جدا مشواري

فترد: طول عمرى بخاف.. م الحب.. وسيرة الحب.. وظلم الحب لكل أصحابه.. وأعرف حكايات مليانة آهات.. ودموع وأنين (سيرة الحب)

يقول: ان كنت حبيبي ساعدني كي ارحل عنك.. او كنت طبيبي ساعدني كي اشفى منك

فترد: اعطني حريتي أطلق يديَّ.. إنني أعطيت ما استبقيت شيَّئا.. آه من

قيدك أدمى معصمي.. لم أبقيه وما أبقى عليَّ.. ما احتفاظي بعهودٍ لم تصنها.. وإلام الأسر والدنيا لديَّ (الاطلال)

يقول: لو اني اعرف ان الحب خطير جدا ما احببت.. لو اني اعرف ان البحر عميق جدا ما ابحرت.. لو اني اعرف خاتمتي ماكنت بدأت

فترد: تفيد بإيه يا ندم يا ندم يا ندم... وتعمل إيه يا عتاب (فات الميعاد)

يقول: فأنا من بدء التكوين.. أبحث عن وطنٍ لجبيني.. عن شعر امرأة.. يكتبني فوق الجدران.. ويمحيني.. عن حب امرأة يأخذني.. لحدود الشمس ويرميني.. عن شفت امرأة تجعلني.. كغبار الذهب المطحون

فترد: حاسيبك للزمن لا عتاب ولا شجن.. تقاسي م الندم وتعرف الألم.. تشكي مش حاسأل عليك.. تبكى مش حارحم عنيك.. ياللي ما رحمتش عنيه.. لما كان قلبي في ايديك.. دارت الأيام عليك (حاسيبك للزمن)

يقول: إن كنت نبيًا.. خلصني.. من هذا السحر.. من هذا الكفر.. حبك كالكفر.. فطهرني من هذا الكفر..

فترد: كنت بخلصلك في حبي بكل قلبي وانت بتخون الوداد من كل قلبك.. بعت ودي بعت حبي ليه بعت قلبي ليه (انت فين والحب فين)

يقول: إرمي أوراقك كاملةً.. وسأرضى عن أي قرار..

فترد: إن كان على الحب القديم.. إن كان على الجرح الأليم.. ستاير النسيان نزلت بقالها زمان.. وإن كان على الحب القديم وآساه... انا نسيته.. أنا... يا ريت كمان تنساه.. كمان تنساه.. كمان تنساه (فات الميعاد)

لم يكن نزار قباني يحاصرنا بدواوينه فقط، ولا بهذا الكاسيت الذي ما زلت احتفظ به، كان يتسرب الى قلوبنا من دون ان ندري محمولا على اجمل الاصوات واحلى احلى الاغنيات:

فيروز في اغنية «لا تسألوني ما اسمه حبيبي»

نجاة الصغيرة واغنيات: «ماذا أقول له» و«أيظن» و«متى ستعرف كم أهواك» و«أسألك الرحيل»

فايزة احمد في اغنية «رسالة من امرأة»

والعندليب الاسمر عبد الحليم حافظ في رائعتين هما: «رسالة من تحت الماء» و «قارئة الفنجان»

اما ما غنته بعد ذلك ماجدة الرومي او اصالة نصري او كاظم السهر، فقد استمعنا اليه واستمتعنا به، ولكننا تركناه لأولادنا، لأننا كنا قد امتلأنا بالأحاسيس حد الطفح، حد (طفحة الزيت) كما غنى المطرب الاردني عبده موسى على الربابة:

سميت بأسم الله والصبح مديت... باب الكريم وباب خَيَر قصدنا

والبارحة كثرن همومي وجضيت... جضيت من دهر الزمان الرصدنا

دهرن طفح من فوقنا طفحت الزيت... ضيق منافسنا وكثر جهدنا

على وقع اشعار وانغام واغاني هذا الكاسيت وهذه الاغنيات انهينا الثانوية العامة، اهدينا هذا الكاسيت لحبيبة او اكثر، سمعناه عن بعد مع حبيبات حقيقيات، واخريات مُتخيلات، جيد انه لم يكن هناك جوال وخلافه او ماسنجر واخوته في ذلك الزمن وإلا لما انهينا الثانوية بسهولة، انهيناها وسافرنا مزودين بهدية حزينة هي الاخرى كاسيت ولكن عليه اغنية شادية خلاص مسافر... مسافر... مسافر.

في تلك الليلة احببنا اغنية «ليلة الوداع» بصوت محمد عبد الوهاب اكثر مما احببناها بنسختها الرحبانية، لأنها كانت اصدق تعبيرا عن الوجع مع عبد الوهاب.

اليك وحدك يا ربي اشكو الملل والخيبة والخواء الذي يسببه لي مطربو هذه الايام.

تركوا فلسطينًا ليغتالوا غزالة!!

ليس من الانصاف التوقف عند نزار قباني كشاعر للمرأة فقط، صحيح انه خير وأجرأ من عبر عنها، تعبيرا صارخا ومبكرا جدا في ديوانه الاول قالت لي السمراء عام 1944 أي قبل تخرجه من الجامعة، حيث استقبلت العامة والمحافظون ديوانه في ذلك الوقت على انه شعر اباحي هدام، وصحيح انه ظل يعبر عنها الى وفاته، ولكن نزار كان مقسوما الى عدة انصاف: نصف مع المرأة ونصف مع السياسة، نصف في سوريا وآخر خارجها، نصف على وفاق مع النظام ونصف او اكثر في معارضته، نصف مع دمشق ونصف مع بغداد، يقول وزير الثقافة السوري السابق رياض نعسان آغا في شهادته عن سيرة نزار قباني، ان ابنته ارادت دفن جثمانه في بغداد، ولكن تدخلات شخصية جرت مع حافظ الاسد شخصيا حالت دون ذلك، ليتم دفنه في دمشق، ولكن دون احتفاء رسمي يليق بمكانته. لقد اختطف المشيعون جثمان الشاعر من ايدي الرسميين، وطافوا به في شوارع دمشق وهم يهتفون «الشام شامنا ونزار نزارنا» كانت تلك تظاهرة كبيرة للاحتفاء بالشاعر، ولإعلان الكراهية لنظام حافظ الاسد، الذي ظل على خلاف او اهمال مقصود للشاعر، فيما كان يحتفي كثيرا بمن هم دون موهبته بدرجات.

من اين بدأ هذا الخلاف مع الشاعر الذي كان حتى العام 1966 سفيرا لبلاده في عدة دول، ولماذا فضل رغم عشقه لدمشق ان يعيش في بيروت الى ان سيطرت عليها سوريا، لينتقل بعدها الى لندن؟

ابنة الشاعر الصغرى قالت لوفد السفارة السورية في لندن الذي جاء ليعزيها: قتلتم أمي بلقيس واليوم أتيتم لتسرقوا أبي.

كان مقتل بلقيس في انفجار السفارة العراقية ببيروت هو رابع موت يهز نزار من الاعماق ويخرجه عن اطواره، انتحرت اخته وهو صغير بعد اجبارها على الزواج، ومات ابنه توفيق وهو ابن سبعة عشر عاما، وماتت امه التركية التي جعلت عالمه كرنفالا من الفن والالوان. نعى بلقيسه متهما سوريا بالتفجير ولكن من دون ان يسميها:

سأقول في التحقيق:إن اللص أصبح يرتدي ثوب المقاتل

وأقول في التحقيق:إن القائد الموهوب أصبح كالمقاول..

بلقيس..يا عطرًا بذاكرتي..و يا قبرًا يسافر في الغمام..

قتلوك، في بيروت، مثل أي غزالةٍ من بعدما.. قتلوا الكلام..

بلقيس..إن الحزن يثقبني..وبيروت التي قتلتك.. لا تدري جريمتها

وبيروت التي عشقتك.. تجهل أنها قتلت عشيقتها..

بلقيس:يا قمري الذي طمروه ما بين الحجارة..

الآن ترتفع الستارة..الآن ترتفع الستارة..

سأقول في التحقيق..

إني أعرف الأسماء.. والأشياء.. والسجناء..

والشهداء.. والفقراء.. والمستضعفين..

وأقول إني أعرف السياف قاتل زوجتي..

ووجوه كل المخبرين..
وأقول: إن عفافنا عهرٌ..وتقوانا قذارة..
وأقول: إن نضالنا كذبٌ وأن لا فرق..
ما بين السياسة والدعارة!!
سأقول في التحقيق:إني قد عرفت القاتلين
وأقول:إن زماننا العربي مختصٌ بذبح الياسمين
وبقتل كل الأنبياء..وقتل كل المرسلين..
حتى العيون الخضر..يأكلها العرب
حتى الضفائر.. والخواتم والأساور.. والمرايا.. واللعب..
حتى النجوم تخاف من وطني..ولا أدري السبب..
حتى الطيور تفر من وطني..و لا أدري السبب..
حتى الكواكب.. والمراكب.. والسحب
حتى الدفاتر.. والكتب..
بلقيس..يا معشوقتي حتى الثمالة..
الأنبياء الكاذبون..يقرفصون..
ويركبون على الشعوب ولا رسالة..
لو أنهم حملوا إلينا..
من فلسطين الحزينة..نجمةً..أو برتقالة..
لو أنهم حملوا إلينا..من شواطئ غزةٍ
حجرًا صغيرًا..أو محارة..
لو أنهم من ربع قرنٍ حرروا..
زيتونةً..أو أرجعوا ليمونةً
ومحوا عن التاريخ عاره
لشكرت من قتلوك.. يا بلقيس..

يا معشوقتي حتى الثمالة..
لكنهم تركوا فلسطينًا ليغتالوا غزالة!!...
كان من الممكن القول ان نزار يوجه اصابع الاتهام في مقتل زوجته للكثيرين وليس لحاكم سوريا، الا ان السلطات السورية ظهرت كمن على رأسها ريشة، فنبذت نزار، وهو ما استدعى بعد سنوات ان يكتب قصيدة «اقدم الاعتذار»، والتي قال لأصدقائه ان الهدف منها هو الحصول على قبر في دمشق:

.. أقدم اعتذاري
لوجهك الحزين مثل شمس آخر النهار
.. عن الكتابات التي كتبتها
.. عن الحماقات التي ارتكبتها
عن كل ما أحدثته
في جسمك النقي من دمار
وكل ما أثرته حولك من غبار
.. أقدم اعتذاري
عن كل ما كتبت من قصائد شريرة
.. في لحظة انهياري

لم تأت القصيدة كما ارادت حاشية الرئيس الاسد، ومع ذلك فقد اسموها بالاعتذارية، قاصدين بذلك الاعتذاريات التي كتبها كعب بن زهير للنبي محمد (ص) وقبله تلك التي كتبها النابغة الذبياني لملك الحيرة النعمان بن المنذر، وكانت كافية لكي يقوم نزار قبل وفاته بعشر سنوات وبعد غياب دام عقودا، بزيارة دمشق لإقامة امسية شعرية دعاه اليها المرحوم باسل الاسد الذي كان يُعامل كخليفة رئاسي لوالده، تلقى يومها الكثير من دعوات العشاء من علية القوم، ولكنها الغيت جميعا بعد ان قال في

تلك الامسية:

أيها الناس: لقد أصبحت سلطانا عليكم

فاكسروا أصنامكم بعد ضلال، واعبدوني...

إنني لا أتجلى دائما..

فاجلسوا فوق رصيف الصبر، حتى تبصروني

اتركوا أطفالكم من غير خبز

واتركوا نسوانكم من غير بعل.. واتبعوني

احمدوا الله على نعمته

فلقد أرسلني كي أكتب التاريخ،

والتاريخ لا يكتب دوني

وهذه ايضا قد يقال انها لم تكن تعني الاسد، ولكن ابنه باسل لم يدع مجالا للشك بذلك حين انسحب من الامسية، وحين تم الغاء دعوات العشاء، حتى ان رياض نعسان آغا ولم يكن وزيرا ايامها قد احتاج الى اذونات خاصة من اجل تسجيل مقابلة مع الشاعر السوري الكبير لتلفزيون لبلده.

الحقيقة ان خلاف نزار قباني مع رئاسة بلاده كان اعمق واقدم من هذه الحوادث على اهميتها....

حرب بالربابة وعنتريات ما ذبحت ذبابة

خلاف نزار قباني مع رئاسة بلاده كان اعمق واقدم من اتهامه للنظام بالمسؤولية عن مقتل بلقيس في تفجير السفارة العراقية في بيروت وهو التفجير الذي دفع الشاعر الى الذهاب للاقامة في لندن، عمق واقدمية الخلاف يأتي من كون الشاعر المولود في نوروز عام 1923 ابن العائلة الدمشقية العريقة، حفيد الرائد المسرحي وابن احد اعيان التجار، وكان سفيرا لبلده، ومتربعا على عرش اشعار الغرام والحب، قد تنازل عن ذلك كله بعد ان هزته عميقا نكسة العام 1967:

إذا خسرنا الحرب لا غرابَة
لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة

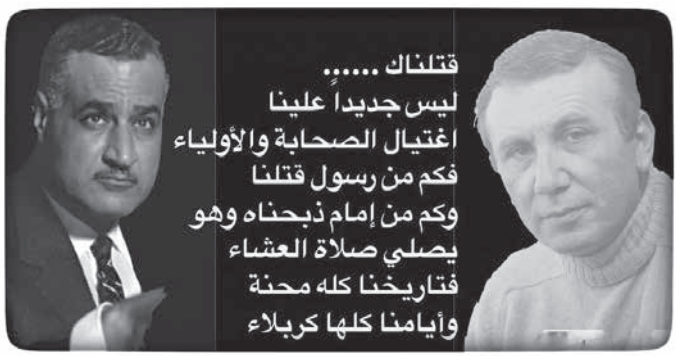

وكما انتشرت قصائد الحب، ذاع صيت قصائده السياسية على غرار «هوامش على دفاتر النكسة»، و«عنترة» و«يوميات سياف عربي»، ولقد دفع الشاعر ضريبة هذه الاشعار والدواوين على جبهتين مختلفتين وفي بلدين عربيين، هما بلده سوريا وبلده الثاني مصر، ففي مصر منعت

اشعاره والاغاني المأخوذة من قصائده، وهو ما استدعى ان يوجه رسالة عتاب للرئيس المصري جمال عبد الناصر:

«سيادة الرئيس جمال عبدالناصر، في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رمادًا، وطوقتنا الأحزان من كل مكان، يكتب إليك شاعر عربي يتعرض اليوم لنوع من الظلم لا مثيل له في تاريخ الظلم.

وتفصيل القصة أنني نشرت في أعقاب نكسة الخامس من يونيو قصيدة عنوانها (هوامش على دفتر النكسة) أودعتها خلاصة ألمي وتمزقي، وكشفت فيها عن مناطق الوجع في جسد أمتي العربية، لاقتناعي أن ما انتهينا إليه لا يُعالج بالتواري والهروب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا. وإذا كانت صرختي حادة وجارحة، وأنا أعترف سلفا بأنها كذلك، فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة، ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح.

من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد 5 حزيران؟

من منا لم يخدش السماء بأظافره؟

من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟

إن قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقديم أنفسنا كما نحن، بعيدا عن التبجح والمغالاة والانفعال، وبالتالي؛ كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف بملامحه وتكوينه عن ملامح فكر ما قبل 5 حزيران.

إنني لم أقل أكثر مما قاله غيري، ولم أغضب أكثر مما غضب غيري، وكل ما فعلته أنني صغت بأسلوب شعري ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي.

وإذا سمحت لي يا سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحا وصراحة، قلت إني لم أتجاوز أفكارك في النقد الذاتي، يوم وقفت بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة، وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

إني لم أخترع شيئا من عندي، فأخطاء العرب النفسية والسياسية

والسلوكية مكشوفة كالكتاب المفتوح.
وماذا تكون قيمة الأدب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معا؟
ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟
لذلك أوجعني يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتي من دخول مصر، وأن يفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها. والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر. لكن القضية أعمق وأبعد.
القضية هي أن نحدد موقفنا من الفكر العربي. كيف نريده؟ حرًا أم نصف حر؟ شجاعا أم جبانا؟ نبيًا أم مهرجًا؟
والقضية أخيرا هي ما إذا كان تاريخ 5 حزيران سيكون تاريخا نولد فيه من جديد، بجلود جديدة، وأفكار جديدة، ومنطق جديد.
قصيدتي أمامك يا سيادة الرئيس، أرجو أن تقرأها بكل ما عرفناه عنك من سعة أفق وبعد رؤية، ولسوف تقتنع، برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأني كنت أنقل عن الواقع بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل لوجوهنا الشاحبة والمرهقة.
لم يكن بإمكاني وبلادي تحترق، الوقوف على الحياد، فحياد الأدب موت له.
لم يكن بوسعي أن أقف أمام جسد أمتي المريض، أعالجه بالأدعية والحجابات والصراعات. فالذي يحب أمته، يا سيادة الرئيس يطهر جراحها بالكحول، ويكوي- إذا لزم الأمر- المناطق المصابة بالنار.
سيادة الرئيس: إنني أشكو لك الموقف العدائي الذي تقفه مني السلطات الرسمية في مصر، متأثرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلب شيئا أكثر من سماع صوتي. فمن أبسط قواعد العدالة أن يسمح للكاتب أن يفسر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأل عن سبب صلبه.

لا أطالب يا سيادة الرئيس إلا بحرية الحوار، فأنا أُشتم في مصر، ولا أحد يعرف لماذا أُشتم، وأنا أطعن بوطنيتي وكرامتي لأني كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفًا من هذه القصيدة.

لقد دخلت قصيدتي كل مدينة عربية، وأثارت جدلا بين المثقفين العرب إيجابًا وسلبًا، فلماذا أحرم من هذا الحق في مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها؟

يا سيدي الرئيس، لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد ان يكون شريفا وشجاعا في مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيدي الرئيس، لا أصدق أن يحدث هذا في عصرك».

بعد هذه الوثيقة السياسية الادبية زال المنع عن نزار وعادت اشعاره واغانيه الى الاذاعة، وظل محبا وفيا لعبد الناصر، ولكنه مع ذلك لم يمدحه شعرا الا عندما رثاه في 4 قصائد بينها:

قتلناكَ.. يا آخرَ الأنبياءْ

قتلناكَ..

ليسَ جديدًا علينا

اغتيالُ الصحابةِ والأولياءْ

فكم من رسولٍ قتلنا..

وكم من إمامٍ..

ذبحناهُ وهوَ يصلّى صلاةَ العشاءْ

فتاريخُنا كلّهُ محنةٌ

وأيامُنا كلُّها كربلاءْ..

واما على جبهة بلاده سوريا فلقد ظلت العلاقات باردة، رغم محاولاته لترميمها ولكن بطريقة اشكالية وملغزة...

السياسات كلها افيون

على جبهة بلاده سوريا ظلت علاقات الشاعر نزار قباني باردة مع القيادة، صحيح ان نزار لم يهجو قادتها بالاسم، وظل يتغزل بكل ما في دمشق، ولكنه لم يقدم أي شعر يسمح لهؤلاء القادة بالاطمئنان اليه، خاصة وانه لا يحتاجهم في منصب او شهرة او مال كغيره من انصاف الشعراء، ولقد فاقم الخلاف ان نزار ظل ضيفا دائما على مهرجان المربد الشعري في بغداد، التي كانت الضرة المرّة لدمشق، وهناك تعرف الى بلقيس، والقى قصيدة في عشقها وفي تأنيب القيادات العربية على النكسة، بل انه طلب يومها ما يشبه الالتجاء الى العراق حين قال:

أينَ وجهٌ في الأعظميّةِ حلوٌ .. لو رأتهُ تغارُ منهُ السـماءُ؟
إنني السندبادُ.. مزّقهُ البحرُ .. و عـينا حـبيبتي المـيناءُ
إنَّ في داخلي عصورًا من الحزنِ.. فهـل لي إلى العـراقِ التجاءُ؟

ومعلوم ان الرئيس العراقي احمد حسن البكر قد تدخل شخصيا يومها لخطبة بلقيس الراوي الى نزار.

ومع انتصار تشرين عام 1973 جاءت الفرصة الذهبية والثمينة لترميم العلاقة، فانشد نزار قصيدة عظيمة «ترصيع بالذهب على سيف دمشقي»

في حب سوريا المنتصرة ولكنه ختمها بإشكالية ولغز محير:

ها هي الشام بعد فرقة دهر.. أنهر سبعةٌ.. وحورٌ عينُ
جاء تشرين يا حبيبة عمري.. أحسن الوقت للهوى تشرينُ
ولنا موعدٌ على (جبل الشيخ).. كم الثلج دافئٌ.. وحنونُ
سنواتٌ سبعٌ من الحزن مرت.. ماتَ فيها الصفصافُ والزيتونُ
جاء تشرين.. إن وجهك أحلى.. بكثير... ما سـره تشـرينُ ؟
إن أرض الجولان تشبه عينيك.. فماءٌ يجري.. ولـوز.. وتيـنُ
استردت أيامها بكِ بدرٌ.. واستعادت شبابها حطينُ
بك عَزَتْ قريشُ بعد هوان.. وتلاقتْ قبائلٌ وبطونُ
إنَّ عمرو بنَ العاص يزحف للشرق.. وللغرب يزحفُ المأمونُ
كتب الله أن تكوني دمشقًا.. بكِ يبدا وينتهي التكويـنُ
هزم الروم بعد سبع عجاف.. وتعافى وجداننا المـطعـونُ
وقتلنا العنقاءَ في (جَبَل الشيخ).. وألقى أضراسَهُ التنّينُ
صَدَقَ السيفُ وعدَهُ.. يا بلادي.. فالسياساتُ كلُّها أَفيُونُ
صدق السيفُ حاكمًا وحكيمًا.. وحدَه السيفُ يا دمشقُ اليقينُ
اسحبي الذلَ يا قنيطرةَ المجدِ.. وكحِّل جفنيك يـا حرمونُ
سبَقتْ ظلَّها خيولُ هشام.. وأفاقت من نومها السكينُ
علمينا فقه العروبـة يا شام.. فأنتِ البيـان والتبيـيـنُ
علمينا الأفعالَ قد ذَبَحَتْنا.. أحرفُ الجرّ والكلام العجينُ
علمينا قراءة البرق والرعد.. فنصفُ اللغات وحلٌ وطينُ
علمينا التفكير لا نصرَ يُرجى.. حينما الشعب كلّه سَرْدينُ
إن أقصى ما يُغضبُ اللهَ فكرٌ.. دجّنوهُ... وكاتبٌ عنّين
نحن أصلُ الأشياء، لا فوردُ باق.. فوق إيوانه ولا رابينُ
نحنُ عكا ونحنُ كرمل حيفا.. وجبال الجليل.. واللطرونُ

كل ليمونة ستنجب طفلًا.. ومحالٌ أن ينتهي الليمونُ
إركبي الشمس يا دمشق حصانًا.. ولك الله (حــافظٌ) و (أميــنُ)

لم تستعصِ القافية على نزار لكي يلجأ الى (امين) اسما او صفة، وحتى لو استعصت فلقد كان بإمكانه ان يختم بالبيت قبل الاخير فهو صالح تماما لختام هكذا قصيدة، اللغز في هذا البيت ان كلمة (امين) وكيفما قلبتها تنفي ان يكون (حافظ) المذكور فيه هو حافظ الاسد، فان اخذت امين على انها صفة سيصبح المقصود الله سبحانه وتعالى، واما اذا اخذتها اسما فهذه كارثة اكبر حيث ان المقصود ساعتها سيكون امين الحافظ، ذلك الرئيس الذي حكم سوريا من عام 1963 الى ان تم الانقلاب عليه وخلعه ثم سجنه ونفيه الى العراق عام 1966.

يوميات حمار وطني

في الحادي عشر... من شهر اللوز... يوم السبت... هبط الموج على الشاطئ... و أناخ الحمل... خرج فدائيو وطني من قلب الموج... ودلال السمراء العربية انطلقت... هتفت: بلادي... بلادي... بلادي... لك حبي و فؤادي هكذا غنت فرقة العاشقين لتخليد عملية الساحل عام 1978، سبق هذه العملية وتلاها ايضا، اغتيالات واغتيالات مضادة، قصف فلسطيني واختراقات امنية اسرائيلية، عمليات فلسطينية وردود اسرائيلية، مقاومة مشتركة تقابلها تصفيات، مصالحات وتفاهمات يتلوها قتل على الهويات، وكانت دماء تل الزعتر ما زالت حارة، والرفض الفلسطيني اللبناني لتواجد القوات السورية يواجه عربيا بالتجديد لها، بل وتشريعها وجعلها قوات عربية، ومكافأة سوريا على قيادتها لها.

بعد اربعة ايام على العملية بدا القصف المدفعي الاسرائيلي البري والبحري لمواقع المقاومة وقرى الجنوب وتقدمت قوات الاحتلال برا تحت حماية الطيران، 30 الف جندي اسرائيلي شارك في الاجتياح الذي اسمته

اسرائيل عملية نهر الليطاني، انتهى الهجوم بانسحاب المقاومة شمالا حتى حدود النهر، وبتشكيل اسرائيل لحزام امني ظلت ترفض تسليمه لقوات دولية، واوكلت العميل سعد حداد بادارة شؤونه، وحمايتها من اية هجمات، واعلنته رئيسا لدولة لبنان الحر!.

قوات الردع العربية والتي ضمت جنودا من السودان والسعودية والامارات وخمسة اضعافهم من سوريا، وعشرة اضعافهم من موالين سلحتهم سوريا، لم تتدخل، والتواجد السوري الذي تذرع بمنع تقسيم لبنان تحول الى معول لتكريس الانقسام الجغرافي والطائفي، واما الشريط الحدودي بقيادة سعد حداد فقد اصبح عبئا على اسرائيل وبات عليها ان تحميه وان تنفق عليه، وهو ما سيقود الى اجتياح اوسع بكثير.

بيروت تحاصر يوم يومان ويطول العد بيروت تذبح اسبوع اسبوعان ويستمر الذبح، بيروت تخنق وتستنجد ولكن لا احد، الفلسطيني يقدم المزيد من الارواح لحماية مزبلة فيها، 88 يوما والفلسطيني ومعه قلة قابضة على الجمر، يظل ممسكا براية الشرف العربي... ترى اين كان ذلك العربي الذي حارب في النكبة والنكسة وتشرين؟! لقد كان منضبطا لإدارة قوات الردع العربية بقيادة سوريا.

التطبيع العربي المخزي الذي يجري الآن علانية مع الاحتلال الاسرائيلي، والذي نراه الآن قمة في الخزي والعار، ليس شيئا يقارن بما جرى في تلك الايام، كان هناك مع يجتمع من شارون علنا، ومن يحرس الشريط الحدودي علنا، ومن يرش الارز على مركبات جيش الاحتلال. ومن يبقر بطون الحوامل في صبرا وشاتيلا، طوال ثلاثة ايام من القتل كانت حصيلتها ذبح 3 الآف فلسطيني. تطبيع العلاقات هذه الايام اقل إجراما من تلك. كانت اعواما مجنونة، وكان الجنون فيها قتلا بكل الاشكال ولأي سبب من الاسباب، وكيف يمكن الكتابة عن القتل المجنون!!، حتى خالد

الحسن لم يستطع ذلك فاستعار حمار توفيق الحكيم ليكتب «يوميات حمار وطني».

كيف يمكن الحديث عن كل ذلك بتوازن وموضوعية وعمق وشمولية؟! كم هو ظالم اختصار التاريخ!، وكم هو ضروري ايضا، كيف يمكن المزاوجة بين حق الابطال والضحايا بامتلاك سطر في موسوعة او ذاكرة، وحق التاريخ بان يظل يجري كالنهر دون توقف او نهاية؟

يبدأ التاريخ الفلسطيني دورته بشهيد له اسم وصورة، يكثر الشهداء تتراكم البوسترات، يتقادمون، فيصيرون عددا، يجدد التاريخ دورته بمذبحة لها تفاصيل، وسرعان ما تستحيل الى اسم يؤرخ لمكانها، والى رقم نختلف على دقته، لم نصنع (آن فرانك) من اي مجزرة، كنا نشعر بالخجل من احزاننا، لأنها تذكرنا بعجزنا، رفضنا صورة الضحية كنا نراها عارا علينا، خلقنا صورة البطل، فصرنا اشبه ما نكون بذلك الكافر الذي صنع ربه من تمر ولما جاع اكله، لقد هشمنا صورة البطل واغتلنا سمعته وعهرنا مسيرته، والآن لم نعد نعرف ان كنا ابطالا ام ضحايا؟!

كان من السهل علينا وعلى اعدائنا تشويه صورة البطل، فالبطل قابل للتشويه دائما، وبخبث قليل يمكن تصويره كشرير، وتحويل لثامه الثوري الى قناع قاطع طريق، من يصعب تشويههم هم الضحايا، ونحن لم نكن نحفل كثيرا بخلق صورة تجسد شخصية الضحية، تركناها رقما فبات التشكيك فيه واردا وقابلا للنقاش. حملنا الضحايا ووضعناهم في ركن قصي بالذاكرة، واخترنا ابعد واعمق نقطة من هذه الذاكرة لدفن ضحايانا ممن ذبحوا بأيادي عربية. لقد اردنا نسيانهم على امل مستقبل تسود فيه الاخوة، او التضامن او التفهم، او مجرد عدم التدخل في الشؤون الداخلية للآخر، امل نبيل ولشدة نبله فان نسيان هؤلاء الضحايا قد لا يزعجهم.

شهيدنا تكلم فانطق الحجر

كان صيف عام الاجتياح الكبير 1982 حارا ومرا، تجرع الفلسطيني واللبناني حراراته ومرارته وكادت تقضي عليه، لم تكن هناك فضائيات ايامها، كانت اذاعة مونت كارلو من باريس، تكاد تكون الوحيدة، التي اهتمت ببيروت المحاصرة، بيروت العاصمة العربية الاولى التي يحاصرها جيش الاحتلال الاسرائيلي من الجهات الاربع ويغطي سمائها بسقف من الطائرات التي ظلت تقصف وتقصف فيما البوارج البحرية تقصف ايضا وكذلك المدفعية، بيروت اصبحت اصغر واصغر فلقد عسكرت قوى الانعزال والرجعية في شرقيها مؤيدة للاجتياح بل ومرحبة به، فيما ظل غربيها يدافع عنها وعن شرفها ويدفع من دمه ضريبة هذا الدفاع.

لم تجد صرخات المحاصرين أي صدى فلقد كانت الامة العربية مشغولة بكاس العالم الذي اقيم تلك الفترة في مدريد، عرفت العروبة عن حرب الفوكلاند اكثر مما عرفت عن بيروت، وحفظت اسماء اللاعبين كسقراط وزيكو وفالكاو وباولو روسي اكثر مما حفظت اسماء الاحياء البيروتية والمخيمات الفلسطينية. لم تخرج اية مظاهرة تدعم الفلسطيني واللبناني، او تطالب بمجرد وقف الحرب والاجتياح، تظاهر العرب فرحا بفوز الجزائر على المانيا، وتظاهروا استنكارا لمؤامرة النمسا والمانيا التي اخرجت المنتخب الجزائري، واهتزت مشاعرهم لخروج منتخب الكويت، فازت ايطاليا بالكأس واهدته لمنظمة التحرير.

فقط مظاهرة واحدة كبيرة خرجت في تل ابيب بتنظيم من حركة السلام الآن.

يقول اوري افنيري والذي كان اول اسرائيلي يقابل ياسر عرفات شخصيا ايامها، ان احتجاجات المعارضين للحرب بدأت في اليوم الاول بـ 100

متظاهر فقط، وظلت تزداد الى ان بلغت 400 الف بعد مجزرة صبرا وشاتيلا. طبعا هؤلاء لم ولن يخرجوا للمطالبة بحق العودة، لقد خرجوا للمطالبة بوقف الحرب والقتل والاستيطان. كان صوتهم عاليا واصبح الآن غائبا.

الاحداث الكبرى كالأحزان تولد كبيرة ثم تصغر شيئا فشيئا، سنمر عليها

عاما بعد عام لنقول عاشت الذكرى ونمضي، ولكن الذكرى لا تعيش من ذاتها، تحتاج الى من يجددها.

من سيجدد ذكرى ذلك الشيخ السوري الذي جاء من اللاذقية ليحرض الناس بحيفا على مقاومة الانتداب ويستشهد في يعبد، من سيسجل اللحظات الاخيرة في حياة ثلاثة مناضلين تسابقوا الى حبل المشنقة، من سيصور وصية اسير مرجحت الرياح جثته المشنوقة، من سيقص اثر سرحان العلي وهو ماض لتفجير ماسورة نفط شقية، من سينقل الينا خبر الشهيد الذي تكلم فانطق الحجر في مخيم يغص بالصور، من سيعطي وردة للجريح، من سيحفر النفق في انصار، من سيزرع في ارض الدار عود اللوز الاخضر، من سيشهد على رأس الحية واذنابها وعلى بيروت وعلى اول غارة وعلى قلعة الشقيف وعلى حرق المعونة الطبية، من سيحكي لنا عن اطفال شاتيلا وعن ريح صبرا التي اطفأت القناديلا، وعن شبل يمشي على الجرح، فينفخ في الصور ويقيم القيامة في مدينة صور.

فرقة العاشقين التي ولدت على ارض سوريا وضمت اشبالا وزهرات من مخيم اليرموك ومن خلفها الشعراء ستفعل ذلك.

لغة العاشقين هذي الجراح... من فلسطين أرسلتها الرياح
هبّت النار والندى حملتها... والعتابا والميجانا والسماح
الكلام المباح ليس مباحًا... ونغنّيه فالأغاني سلاح
سرنا راية على راس رمح... فأذيعي أسرارنا يا رياح

يقول الشاعر احمد دحبور: «من ينسى صيف 1982، يومها شن العدو الصهيوني هجومه الشهير على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان، وكنت آنذاك في دمشق، اتابع الاخبار كأي عربي، مشدودا الى التفاصيل والوقائع التي كانت تصل الينا بوسائل مختلفة، وحينذاك

بدأت اكتب الاغاني المواكبة للوقائع او بالأحرى وجدت نفسي اقوم بتأريخ العدوان غناءً، حتى ان اغنية «اشهد يا عالم علينا وع بيروت» كانت بمثابة تدوين لانتقال المعارك من الجنوب الى بيروت وصولا الى الذروة الدرامية الخاصة بخروج الفلسطينيين من لبنان، فوقوع مجزرة صبرا وشاتيلا ثم بروز المقاومة الفلسطينية اللبنانية في لبنان، وقد بلغت ذروتها في عملية مشهودة وقعت في صور وتحولت مجموعة النصوص التي أرّخت بها تلك المقاومة والصمود، الى البوم بعنوان «الكلام المباح» والطريف ان ورشة عفوية قد تشكلت في حينها فانا اكتب وحسين نازك يلحن، وابو علي حسين المنذر ومعه جملة العاشقين يغنون».

خرج الفدائي من بيروت، دخلها شارون والتقط صورة في قصر بعبدا الرئاسي، بكى ياسر عرفات وهو يغادر بيروت: «حين ألقيت النظرة الأخيرة على المدينة قبل أن أغادرها بكيت. كانت تلك من اللحظات النادرة في حياتي التي جرت فيها دموعي بهذه الغزارة.. إن حصار بيروت ومغادرتي لها قد فتحا جرحًا عميقا في قلبي.. نظرت إلى المدينة وأنا على ظهر السفينة وشعرت كأنني طائر مذبوح يتخبط في دمه».

غير ان عرفات سرعان ما استعاد تفاؤل الارادة، وحين سأله الصحفي على متن السفينة بغتة: والآن الى اين؟ اجاب عرفات دون تفكير: الى فلسطين.

كان قاذف الآر بي جي على الكتف خفيفا
وكان كما الكوفية مرحا وسعيدا
سعادة شبل فجر دبابة
صارت الكوفية ثقيلة
كاحلام مذبوحة
صارت الكوفية حزينة

كبوصلة تبحث عن صديق بين اعداء القبيلة
وزع احزانك بين البحار
خذ احلامك الى ما وراء البحار
ستجد يوما موطأ قدم لتزرع الحلم من جديد
وتدفن الاحزان من جديد

وإللي ما شاف من الغربال يا بيروت أعمى بعيون أمريكية

كل كلمة نطق بها الشبل محمد الهباش وهو يقدم الاغاني، وكل اغنية كتبها احمد دحبور وغنتها فرقة العاشقين في البومها «الكلام المباح» تستحق ان تكتب بالذهب، لقد حفظت هذه الاغاني صمودا اسطوريا من الضياع، وجعلته مأثورات تنطلق على كل لسان، بلغة صافية قريبة من القلب، بعيدة عن التخوين والتشكيك والاتهام:

الراوي:

نجوم الليل مسوده... وجرح الفارس الأسمر هجم عالعتمة ضوا الريح والوديان والمعبر... وزرعنا بالصخر ورده... ودفينا برد كانون... ومتل ما عكا صمدت للبحر و جيوش نابليون... صمدنا للردى وجيوشه والعدة... ومتل ما الشعب علمنا تعلمنا بانه الصامد المنسوب للتاريخ مش رح تغلبوا الشده.

فرقة العاشقين:

هذا زمان الشد فاشتدي... ما بين قابلة و جلاد... وترقبي لحدي ما بين معتد ومرتد... فإذا بدا فعليك ميلادي... والآن يبتدأ الصراخ دمي يغطيني...

والأرض تلبسني... يا قبر يا زمني... يا قبر يا زمني... إن كان حدك جارحًا... إن كان حدك جارحًا... فأنا فلسطيني.

الراوي:

آهٍ يا بيروت... يا جرحًا بعيد الغوط... يا نزفًا في جبين الكبرياء... سدّوا آذانَهم عن صوت النداء... بيروت فاتحة العواصم... بيروت آخر كلمة في الحلم تنطقها العزائم... فإذا مَضَتْ بيروت نحو البحر... فالطوفان

قادم.

فرقة العاشقين:

اشهد يا عالم علينا وع بيروت اشهد للحرب الشعبية
وإللي ما شاف من الغربال يا بيروت أعمى بعيون أمريكية
وبالطيارات أول غارة يا بيروت غارة برية وبحرية
برج الشمالي وبالبحر يا بيروت صور الحرة والرشيدية

قلعة شقيف إللي بتشهد يا بيروت ع إللي داسوا راس الحية
الشجر قاتل والحجر يا بيروت والواحد جابه دورية
جمل المحامل شعبنا يا بيروت بعين الحلوة والنبطية
وإحنا ردينا الآلية يا بيروت بحجارة صيدا والجية
تراب الدامور إللي يشهد يا بيروت ع الخسارة الصهيونية
وبخلدة خلدنا الوحدة يا بيروت لبنانية فلسطينية
سدوا المنافذ علينا يا بيروت وحرقوا المعونة الطبية
صور الأشبال مع زهرات يا بيروت منه ما مرت آلية
الطيارات غطوا السما يا بيروت والبحر جبهة حربية
كانت غربال المنية يا بيروت واحنا تحدينا المنية
واشهد يا عالم علينا وع بيروت ع صبرا والمية مية
شاتيلا وبرج البراجنة يا بيروت بالمتحف شافوا المنية
ثمانين يوم ما سمعناش يا بيروت غير الهمة الإذاعية
بالصوت كانوا معانا يا بيروت والصورة ذابت في المية
ولما طلعنا ودعناك يا بيروت وسلاحنا شارة حرية
لا راية بيضة رفعنا يا بيروت ولا طلعنا بهامة محنية
الدرب صعبة وطويلة يا بيروت وعليها عقدنا النية
وإللي ما يشوف من الغربال يا بيروت أعمى بعيون أمريكية.

كان مقدرا للفلسطيني في لبنان وفي سوريا وفي الاردن وفي كل مكان ان يموت قهرا بسبب ما حصل في بيروت، من حصار وذبح وتآمر ودمار، ولكن فرقة العاشقين بشاعرها احمد دحبور بملحنها حسين نازك بمطربها الاول ابو علي حسين المنذر براويها الشبل محمد الهباش، بكل من فيها من شباب وشابات وبكل ما فيها من اصوات وموسيقى ودبكات وقفوا على المسرح في ذكرى انطلاق الثورة، على بعد اشهر من حصار

هو الابشع، وصمود هو الاروع، وقفوا هناك بعيدا في عدن عاصمة اليمن الجنوبي، كانوا بعيدين ولكن الاصوات المنبعثة من قلوبهم وارواحهم، لم تسمح للموت ان ينال من العزائم.

بيروت خلال الاجتياح بعدسة المصور الامريكي ستيف ماكوري

من يكرم الشهيد يتبع خطاه

ولد الشاعر احمد دحبور قبل النكبة بعامين في مدينة حيفا، وكبر في مخيم حمص للاجئين الفلسطينيين بسوريا، ظلت جدته تقول له: يا ستي في حيفا السما ما بتمطر على الناس بس على الزرع. وكانت امه تغني بصوت جميل كل ما حفظته من الحان واغاني حيفا، واما والده فقد ظل يروي له كيف نشأ يتيما في كنف ابو محمد ذلك الشيخ السوري الجليل الذي يعرفه العالم باسم عز الدين القسام.

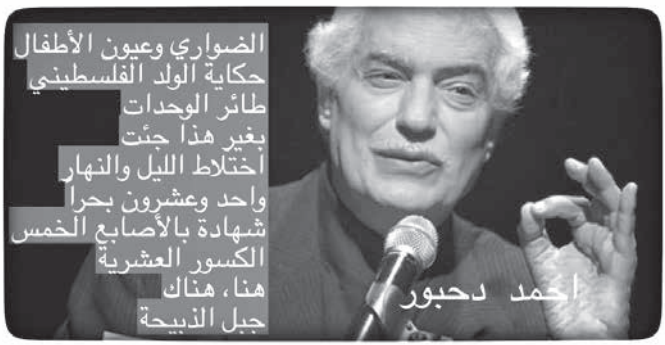

كان واجبا سهلا ومحببا الى نفسه حين كتب مسلسل عز الدين القسام، ففيه استعاد التفاصيل التي رواها والده، وكان سهلا عليه ان يطوع لغته لتصير كلماتها وموسيقاها اقرب الى ما كانت تقوله والدته وجدته، تلك الكلمات استقرت كعود لوز اخضر في كل نفس فلسطينية عندما غنتها فرقة العاشقين.

الراوي:

قراري سمعته الدنيا طوال سنين... على درب الفدائيين مشينا العام بعد العام... مشينا والدرب ألغام... مشينا ع الحفا ع الشوك والسكين... وما مننكرش إنه الشوك أذانا... والسكين دمانا... وما مننكرش إنه بنبكي

ع الشهدا... وما تردش ع البعدا... هدول ال بيدّعوا وبيزايدوا ع الدم والإيام... لإنه الموت مش غية... لكن دربنا درب الفدائية... تودي ع النصر من طلعة الآلام... وعن هالطلعة ما في رجعة... هذا دربنا جرح وفدا وفدا... وهذا دربنا شوفو الشوارع في مخيمنا ملانة بصورة الشهدا.

فرقة العاشقين:

شوارع المخيم.. تغص بالصور... شهيدنا تكلم.. فأنطق الحجر
في كل بيت عرس.. ودمعتان... ميعادنا في القدس.. مهما نعاني
لاتلبس السواد.. أم المكارم... فموته ميلاد.. والفجر قادم
لانقبل العزاء.. ولانزايد... إبن الشهيد جاء.. يا شعبُ عاهد
الوطن البعيد.. نحن فداه... من يكرم الشهيد يتبع خطاه.

الراوي:

على خطواتهم نمشي فتزهر ساحة الشهداء... على خطواتهم نمشي فنغسل بالدماء الماء... وبعد الريح والأمطار والظلمة وبعد الشوك والصبار... وبعد تساقط النوار وبعد تراجع البسمة... لمحنا فى المدى ابطالنا الجرحى جبينًا عاليًا سمحا... وسامًا من دمٍ والكبرياء تفتحت عنده... فيا جرح الفدا مرحى فلست الجرح... إنك في امتداد حقولنا وردا.

فرقة العاشقين:

وردة لجريح الثورة... وردة للجرح الساطع
لجريح الثورة وردة... للجرح الساطع وردة
يا شجرة وردة حمرا...
زغروتة للبطل الغالي... ماشي بكرامة وتحدي
بوسام الحرية العالي... ماشي والجبهة مرفوعة
وتارك رجله في الميدان... قطعها لغم الطغيان
يا صحاب الضحكة المسموعة... يا غفلة وما بدها توعى

يا نسيان ويا غفيان... سبقتكوا الرجل المقطوعة

الراوي:

فلسطينية دعيسة منايا وليل... فلسطينية كبروا عالثلج والسيل... فلسطينية يعني شعبنا العربي... مفيش بيناتنا متعصب وعصبي... فلسطينية حرية... هويتنا النضالية... لكل الي تحدوا الويل وشافوا المرة والمرة... واللي بنتسب النا... معانا بيمشي عالجمرة.

فرقة العاشقين:

يمشي على الجمر شبلٌ طفلٌ ولكن مقاتل... وحين يتعب يعلو صوت الفدا فيواصل

ولدت في أي منفى يا أيها الطفل قل لي... غرفة جدي بحيفا والقدس مسكن أهلي

جاء العدو يحارب من كل صوبٍ وحدب... ما ضاع حق مطالب ما دامت النار دربي

بوارجٌ في البحار والموت عبر القضاء... والخطب عبر البراري

لكنني لست وحدي فالشعب ناري وداري

تقرر العزم عندي وقوتي في قراري

حكاية احمد دحبور هي حكاية الولد الفلسطيني الذي اطل على سهول القش وبيوت الطين، وشهد بكافة أصابعه انه لن يصفح، مهما اختلط الليل بالنهار، ومهما هددت الضواري عيون الاطفال، فهو لغير هذا قد جاء. من حيفا الى بيرت فحمص لاجئا ثائرا فقيرا شاعرا كان جمل محامل، طاف واحدا وعشرين بحرا، وعندما عاد عانق في غزة ذات يوم شابا اسمه احمد محمد عز الدين القسام فبنى معه صداقة تشد اطراف التاريخ الى الحاضر. عندما رحل احمد دحبور ترك في كل منا اغنيته وحكايته.

ما في حجة للي ما طلعلو صوت... لانو المجزرة بتهز حتى الموت

تتلمذ الموسيقار حسين نازك في القدس على يد الموسيقي الفلسطيني المبدع يوسف خاشو (بيتهوفن فلسطين، ومؤسس أول أوركسترا في مدينة حلب السورية)، ولما سافر خاشو الى ايطاليا لمتابعة اعماله الموسيقية هناك، واصل نازك التعلم على يد ملحن مغربي الاصل، فلسطيني المولد والانتماء والجنسية والثقافة واسمه يحيى السعودي، ولما استقر المقام بحسين نازك في دمشق بعد نكسة حزيران عام 1967 كان استاذه يحيى يعمل هناك مراقبا موسيقيا لإذاعة دمشق ومديرا لمعهد فنون الموسيقى. عزف نازك على الآت كثيرة وعمل مع فرق عديدة ولحن لكثيرين، والف مقطوعات موسيقية للعديد من الافلام والمسلسلات والمسرحيات، ولبرامج الاطفال ايضا، وشكل ايضا فرقا فنية كثيرة سورية وفلسطينية للكبار وللناشئة من الاجيال الجديدة. كل هذه الأعمال لم ترو طموحات حسين نازك الذي كان يحلم في نشر التراث الفلسطيني معتمدًا في ذلك على ذاكرته الموسيقية، وذاكرة ذلك العدد الكبير من الفلسطينيين المعمرين المقيمين في دمشق. تحقق حلم هذا المقدسي المبدع حين اسس وتراس فرقة العاشقين.

الراوي:

يموت البغي والطغيان ويحيا شعبنا... لكن هذا كله قد لا يتم الآن... فرحلتنا مطولة وغربتنا مسربلة بنار الخصم والسجان... ولكن النهار يضئ... ومهما أحكموا إغلاقه في سجن أنصار فسوف يجئ... مددنا بيننا جسرا... من الأحباب في المنفي إلي الأشواق في أنصار... وأذ يتجمع الأحباب... سنذكر كل هذا الشوق... نرسمه مع الشمس التي وقفت علي

الأهداب.

فرقة العاشقين:

غريب الليل عن شمسي والاغرب إنه النسر يبقى بسجن الاغراب

يا شعبي وديرتي ثوروا ع الاغراب ليرجع هالنسر زين الفضا

بنص الليل نجم سهيل أدرى يبلغ كل بيت وكل أسرة

بانه بعد في أبطال أسرى ولازم ينكسر قيد العدا

*****

جمع الأسرى جمع في معسكر أنصار... والشمس لما بتطلع بتواعد الثوار

حبستوا جسم البطل ما حبستوش الروح... روحه بحجم الجبل تحمل عنا الجروح

إلليلي هبت نسمة يا نسمة ويا حنين... قولوا عني لأمي على العهود أمين

شمس الحرية فينا مين يحبس الشموس... والفجر بينادينا شو رح تعمل النفوس

سجن العدو ما يقدر يحجب عنا الاوطان... إحنا لفلسطين معبر حنا فدا لبنان

الراوي:

من الرجلين والايدين... من الدم للي غطي الباب والشارع... من الموت للي هز الأرض في يومين... من جروحي لكل الناس من الإحساس... ما في حجة للأطرش ولا السامع... ما في حجة للي ما طلعلو صوت... لانوا المجزرة بتهز حتي الموت... شاتيلا وصبرا فتحوا في عصرنا جرحين... شاتيلا وصبرا فتحوا في عصرنا جرحين.

فرقة العاشقين:

انقاض شاتيلا.. مرت بنا فجرا... والريح في صبرا.. تطفي القناديل

يا طارقين الباب.. لن نفتح الآن... قد سافر الاحباب.. وكان ما كان

ليل وسفاح.. والكوكب اهتز... هم صادرو الزيتون.. واحرقوا الأرز

لن نترك الميدان.. ولتشهد الدنيا... الموت للطغيان.. وشعبنا يحيا

الراوي:

يا فلسطين... مهما تمر سنين وسنين... ومهما تزيد عدد الزنازين... ومهما تشدوا الطوق ع الرقبة... رقابنا بتتحدى السكين.

فرقة العاشقين:

ما في ثمرة أرضي جمرة... وشوكة بحلق الإستعمار

هذي بلادي وأرض اجدادي... وتقول عني غريب الدار

البيت بيتي والزيت زيتي... واحنا اللي بذرنا البذار

يا مستعمر اصحى و فكر... حنا نشامى ما نرضى العار

ما بنتخلى عحبة رملة... ويشهد الله يا ثوار

يشهد الله يا ثوار... يشهد الله يا ثوار

تعاون حسين نازك مع كثير من الشعراء، ولعل البومه الاخير مع الشاعر الراحل ناهض منير الريس «البوم مدن فلسطين» باصوات محمد هباش ومعتز الشيخ خليل وفاتن مصطفى وميساء ابو الفيلات، ومعهم الكورال المشترك الفلسطيني السوري، هو من اجمل ما تم غنائه عن مدننا.

خاشو ونازك والسعودي، ثلاثة موسيقيين فلسطينيين تعرفهم دمشق وتعترف بفضلهم، ما كان لهؤلاء ان يبدعوا لولا ان سوريا اعطتهم الدور والمنصب، ولولا انهم كانوا مبدعين لا يعرفون ولا يعترفون بأية حدود قطرية للإبداع.

جبرنا العظم المكسور ونفخنا بالصور

في مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين بدمشق، وتحديدا في بيت عائلة الهباش بدأت بذرة فرقة العاشقين تنمو ولم يكن لها اسم آنذاك، كانوا مجرد 6 اشقاء وشقيقات ارادوا على صغر سنهم ان يقولوا للعالم حكاية اللاجئ الفلسطيني، من هذه البذرة صنع الموسيقار حسين نازك فرقة العاشقين:

ففي العام 1977 كلفت دائرة الثقافة والإعلام في منظمة التحرير الموسيقار حسين نازك بوضع ألحان الأغاني التي ستؤدى في مسرحية «المؤسسة الوطنية للجنون» وهي من تأليف الشاعر الفلسطيني الراحل سميح القاسم، وتم تكليف الشاعر أحمد دحبور، بوضع نصوص المشاهد الغنائية في المسرحية، وكان مما كتبه نص الأغنية الشهيرة «والله لزرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر» التي اختيرت كمدخل للعمل، دُعيت فرقة عائلة الهباش لأدائها، وقد نال أداء الفرقة إعجاب حسين نازك فقرر الارتباط بها وتلحين كل ما تغنيه

وهكذا أصبح لدينا فرقة العاشقين بملحنها (حسين نازك)، وكاتبها (أحمد دحبور)، وغيره من الشعراء، أما أعضاؤها، فكانوا أفراد العائلة: الطفل محمد الراوي وسارد المواويل، وخالد عازف القانون والشبابة، وخليل عازف آلات الإيقاع إضافة إلى: فاطمة، وآمنة وعائشة، منشدات الكورال في الفرقة، كما اشتهر من أعضاء الفرقة: حسين المنذر، صاحب الصوت الجبلي الذي أصبح مغني الفرقة الرئيسي، وهو المنحدر من أصل لبناني، وكان رفض عرضًا نهاية السبعينيات من الأخوين الرحباني للغناء مع فيروز؛ لشدة إيمانه بالفرقة ورسالتها.

الراوي:

على خطواتهم نمشي فتزهر ساحة الشهداء... على خطواتهم نمشي فنغسل بالدماء الماء... وحين تلونت صور الجريحة بالشظايا السود... وخيمت الغيوم على المدينة بالردى والرعب والبارود... نهضنا من خلال الموت والأشلاء... نفخنا يا قيامة شعبنا في الصور... مقر الحاكم المحتل صار شهادة في مدينة صور... تهاوي رأسه عقبا... ففتح في الصخور الماء... وزهر الشمس نور في مدينة صور.

فرقة العاشقين:

زهر يا دوار الشمس ونور... نور، قامت القيامة في صور
لما حسبوا إنا متنا وظنوها انكسرت شوكتنا
لما قطعوا الزهر الدامي قالوا للشمس الحرة نامي
واحنا قيمنا القيامة ونفخنا في الصور
من دمع الأطفال الرضع من برد الليل الي ما بيهجع
من صبرا من شاتيلا من تل الزعتر من صور الهزمت الاسكندر
من دم الوردة الحمرا من عرق الشاب الأسمر
جبرنا العظم المكسور ونفخنا بالصور

يا شمس بلادي الشمالية يا جنوبية في لبنان
شعبي مرسال الحرية صوته بينادي الأكوان
صور اللي صارت غنية بالعالم ع شفة ولسان
بتقول الحرب الشعبية بترد الطاغي والعدوان
والحرية نبع المية في الصحرا والصحرا ميدان
ويا هالأبطال النشمية المية بتنادي العطشان
إنه الزتونة مروية بدم الأحرار الشجعان
والأرزة الخضرا العربية لا ما بتهون ولا بتنهان

الراوي:

فدا الوعد الفلسطيني... فدا لبنان... يهون السجن والسجان... وتختمر الحجارة بالبراكين... بهذا علمتنا الأمهات... وهكذا يختار نسر الشعب دنياه...

سنحتمل الخناجر والأذى... لكن جور النذل نأباه.

فرقة العاشقين:

يما مويل الهوا يما مويليا... ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيا
ومشيت تحت الشتا والشتا رواني... والصيف لما أتى ولع من نيراني
بيضل عمري انفدى ندر للحرية... يما مويل الهوا يما مويليا
يا ليل صاح الندى يشهد على جراحي... وانسل جيش العدا من كل النواحي
واللي شاف الردى عم يتعلم بيا... يما مويل الهوا يما مويليا
بارودة الجبل أعلى من العالي... مفتاح درب الأمل والأمل برجالي
يا شعبنا يا بطل أفديك بعينيا... يما مويل الهوا يما مويليا

الراوي:

إلي الميدان والبارود يرجع من مضي في غربة السفن... تري كم من رجوع

بات ينتظر الأحبة فيك يا وطني... الى حيفا.. إلى الضفة.. الى اليرموك... سنرجع والوليف سيلتقي ألفه... تري كم من رجوع بات ينتظر الأحبة فيك يا وطني... أيا في حلمي وفي نومي وفي سكني وفي فرحي وفي ألمي... سنرجع لن يدوم زماننا الجاحد... ونار القلب نار الشعب تمحو ليله المارد.

فرقة العاشقين:

يا ظريف الطول وين رايح تروح... بقلب بلادنا تعمقت الجروح
مافي غيرنا بيردلها الروح... واسمع ليل نهار صوت رصاصنـا
ياظريف الطول امشي التل التل... واسأل عنا الريح ياظريف تندل
الطريق معروف والرصاص الحل... وبعزة واصرار نزرع دربنـا
ياظريف الطول من وادي لواد... تناديني الثوار وشوقي للبلاد
ابشر يا شهيد سراج الثورة انقاد... يا سراج الثوار زيتك دمنـا..
ياظريف الطول ارسم يا رسام... صورة لفلسطين وصورة للقسام
وعيون الثوار والله ما بتنام... نصر يا استشهاد وهذا شعارنـا

بعد غياب وتشرذم العاشقين قام رجل الاعمال الفلسطيني مالك ملحم في العام 2009 بتجميع افراد الفرقة واعاد تنشيطها من جديد فأحيت العديد من الحفلات في عدة دول وقدمت اغان جديدة.

وكيف تتوب نار وهي إن تابت فسوف تذوب

خرج مقاتلو الثورة الفلسطينية من لبنان على ظهر بواخر يونانية بسلاحهم الخفيف تاركين الاثقل للحلفاء في المقاومة اللبنانية، خرجوا الى عدة دول، لا كلام يكفي لوصف مرارة الخروج، وحدها الدموع كانت سيدة المشهد. يا الهي كم يصبح التاريخ باردا حين يكتب!!! طلب السوريون من القوات الفلسطينية الى وصلت الى ميناء طرطوس تسليم السلاح الذي خرجوا به من بيروت قبل مغادرة السفينة.

وخرج ياسر عرفات على متن السفينة «فينوس» التي ارسلها له الرئيس اليوناني اندرياس باباندريو، متوجها الى اليونان حيث سبقه الى هناك عدد من الجرحى للعلاج. وقف على سطح السفينة ينظر الى بيروت وهي تبتعد، ولما اختفت نزل الى مقصورته واختلى بنفسه لأربع ساعات.

بعدها بأربعة عشر يوما وفي خطوة رمزية لإظهار الاعتزاز بالصمود الفلسطيني اللبناني في بيروت خرج كافة الزعماء العرب المشاركين في القمة العربية الاستثنائية بفاس لاستقبال ياسر عرفات، خرجوا جميعا لاستقبال ابو الكوفية باستثناء الرئيس السوري حافظ الاسد. لم تعجب

قرارات القمة عددا من القيادات، ومن بينهم ابو صالح الذي عاد الى دمشق في طائرة الرئيس الاسد.

وجاء بعد ذلك الدعم والتحريض والاسناد السوري الليبي للانشقاق الذي اعلنه وترأسه ابو صالح، وما تلاه من معارك في البقاع وطرابلس ثم حصار وتجويع وخنق وقصف المخيمات، معارك مخزية تقول الكثير عن هذه العلاقات وخاصة مع الشقيقة سوريا (قائد معسكر الممانعة).

في حفل انطلاقة الثورة مطلع العام 1983، بعيدا عن سوريا وعن لبنان وعن الاردن هناك في عدن جلس ياسر عرفات الى جانب الرئيس اليمني الجنوبي علي ناصر وابو اياد صلاح خلف، وكان يوزع الابتسامات والقبل على افراد فرقة العاشقين وكان الشبل محمد الهباش يروي الامل بصوت مجلجل وهمة ثورية:

الراوي:

غالي الثمن لكن مش أغلى من وطننا... يا ديرة الاحرار يا صخرة الاصرار... ردي العدا ردي... يا سواعد اشتدي.. يا يعبد الثوار... ثوارنا هدّوا.. كمشة رجال برصاصهم ردوا.. يا بلادنا زاحفين.. لآخر طلق زاحفين... بالروح بالدم نفديكي يا فـــــلسطـــين.

فرقة العاشقين:

قيدي يا نار الثورة وضوي بالدار... جمرة بتولع عشرة وتشب النار

طلعنا من دموع الفقرا وزند الفلاح... علينا الراية الحرة وجينا ثوار

طلعنا من دموع الفقرا وزند الفلاح... زهور الحرية وطلعت من بين الجراح

قيدي يا ثورة قيدي دقي الجراس... ما تخلِي الغاصب أبدًا يهدا ويرتاح

قيدي يا ثورة قيدي ودقي الجراس... الثورة الثورة انطلقت ورفعنا الراس

تسلم إيدك يا فدائي زود العيار... صار رصاصك غنية بعيون الناس
تسلم إيدك يا أبو عمار زود العيار... هذا هو طريق العزة ودرب الأحرار
يا بلادي أعلناها باسم فلسطين... من رفح للناقورة نمشي المشوار

الراوي:

وكيف يتوب عن وعد الهوى المحبوب... وكيف تتوب نار وهي إن تابت فسوف تذوب... ومهما ضاقت الساحات... ينور لوزنا الأخضر... ينور جرحنا في ظلمة السنوات... ومهما دقت الساعات... فإن جراحنا أكبر... ومنها نعبر الشدّات... ومنها يعبر النسر الذي هاجر... وإن سرقته باخرة المنافي منك يا لبنان... فإن جراحه نيشان... ستلمع دائما في فجرنا... لن تعرف النسيان... وفي الآفاق عودة نسرنا... النسر الذي سافر.

فرقة العاشقين:

يا شوفاتٍ للنسر بيسافر بعيدِ... بإيده إشارة نصر والعودة أكيدة
يا شوفاتٍ شفتها طلعت من لبنانِ... مسحت دمع أختها ولولا الزمانِ
زرعت وراها شجر نبته فلسطيني... متل لمحة البصر نور بالمدينة
منديلها من الصبح بيلوح للغالي... بترش الرز والملح بوداع الأبطالِ
يا راكبين البحر والبحر غدارِ... صاح الحجر والشجر عودوا لهالدارِ

****

وكيف يتوب عن وعد الهوى المحبوب
وكيف تتوب نار وهي إن تابت فسوف تذوب
ومهما ضاقت الساحات
فإن جراحنا أكبر
ومنها نعبر الشدّات
ومنها يعبر النسر الذي هاجر
وإن سرقته باخرة المنافي منك يا لبنان

فإن جراحه نيشان
ستلمع دائما في فجرنا
لن تعرف النسيان
وفي الآفاق عودة نسرنا
النسر الذي سافر

بعد الحفل نزع ياسر عرفات بدلته العسكرية مضطرا، وسافر متخفيا الى طرابلس ليكون مع مقاتلي ثورته في مواجهة منشقين تدعمهم سوريا وليبيا.

الانشقاق كلمة كريهة في القاموس الفلسطيني، كلمة تفتح فصولا من تاريخ الخلافات الفلسطينية العربية، وفصولا اخرى من تاريخ الانشقاقات الفلسطينية الفلسطينية بدعم وتمويل عربي، فصول مخزية ودامية، فصول لا ينبغي اهمالها، ويجب تذكرها على امل ان لا تتكرر.

عرفات بين بورقيبة والاسد

بعد الخروج من بيروت، صارت تونس هي مقر منظمة التحرير وبيتها الدافئ والمحب شعبيا ورسميا، وصار ياسر عرفات في ضيافة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، هذا الرئيس الذي زارنا في اريحا عام 1965 لينصحنا في وقت مبكر بضرورة ان نتولى شؤوننا بأيدينا، وليعلمنا بان العاطفة والحماس لا تكفي للانتصار، ولينبهنا الى ضرورة استخدام العقل بواقعية والقبول بما يعرض علينا، وترك سياسة «اما الكل او لا شيء»، رفضنا كل ذلك في وقتها، ورفضه معنا بقية العرب، وبعضهم طالب ايامها بطرد تونس من جامعة الدول العربية،

بورقيبة كان يفصل منذ بداية نضاله السياسي وبكل وعي بين الصهيونية واليهودية، وسعى بجهد للحيلولة دون هجرة يهود تونس الى اسرائيل عبر معاملتهم كمواطنين متساويين مع كافة التوانسة، في دول عربية اخرى تعرض اليهود لأحداث بعضها مفتعل من منظمات صهيونية وبعضها انتقامي مما شجعهم على الهجرة.

وفي قمة فاس الثانية صار العرب جميعا بمن فيهم منظمة التحرير اكثر واقعية من بورقيبة، في هذه القمة تأجج الخلاف الفلسطيني السوري،

الرئيس السوري هو الوحيد الذي رفض المشاركة في استقبال عرفات بالمطار، ولم يلتق معه خلال القمة، وبعد القمة عاد الى دمشق مصطحبا معه قيادة ما سيعرف لاحقا بالانشقاق «فتح الانتفاضة»، كان قد اجتمع معهم لساعات طوال،(الرئيس حافظ الاسد رحمه الله كان مشهورا بطول اجتماعاته وخطاباته) وأمن لهم دعما ليبيا مقداره 6 ملايين دولار شهريا، تصرف من خلال احمد جبريل الامين العام لتنظيم الجبهة الشعبية القيادة العامة، كان جبريل الذي يحمل الجنسية السورية قد التحم بالقوميين العرب ليشكل مع آخرين الجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش ثم انشق عنهم والتحم بسوريا.

كان عضو اللجنة المركزية لفتح سعد صايل ابو الوليد والذي يحظى باحترام وثقة كافة المناضلين يقوم على ترتيب الوضع الميداني بعد الخروج من بيروت، تم اغتياله بإطلاق النار على سيارته في سهل البقاع, بالقرب من أحد الحواجز السورية. شكل اغتياله ضربة في الصميم وخسارة كبيرة للثورة الفلسطينية وخططها العسكرية والقتالية، في وقت هي احوج ما تكون فيه الى خبرة هذا الرجل المستمدة من دراسته العسكرية في ارقى الاكاديميات مثل سانت هيرتز البريطانية وويست بوينت الامريكية، ودوراته العسكرية في مصر والعراق فضلا عن خبراته مع الجيش الاردني.

يقول بسام ابو شريف المستشار السابق لياسر عرفات ان الجنرال سعد صايل اوقف احد جنرالات الامم المتحدة ممن كانوا يفاوضون على كيفية خروج الثورة من بيروت، وقال له: انت كنت زميلي في الدراسة العسكرية ولكنك خنت شرفك العسكري، وتنكرت لكل ما تعلمته، وسمحت للجيش الاسرائيلي ان يمر من امام ناظريك نحو بيروت دون ان تفعل شيئا. واجلسه بعدها ليبلغه بالشروط الفلسطينية وفي مقدمتها ضمان امن

المخيمات من خلال قوات دولية.

لم تفلح كل محاولات احتواء الانشقاق، المخابرات السورية سيطرت على ما تبقى من مستودعات اسلحة وذخيرة تابعة لفتح وسلمتها للمنشقين.

عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري قال صراحة لخليل الوزير: «اذا كنتم ترغبون في حل مشاكلكم فيجب أن تتقيدوا بسياساتنا , تصادقون أصدقائنا وتعادون أعدائنا».

في ظل هذه الأوضاع قام ابو عمار بزيارة هي الاولى لسهل البقاع منذ الخروج من بيروت ومنها توجه الى دمشق لحضور اجتماع طارئ للمجلس الثوري ثم الى طرابلس من طريق حمص, في الطريق قرر ممارسة التمويه احتياطا فسافر مع جزء من الموكب عبر طريق الهرمل وارسل الباقين عن طريق حمص، تعرض هذا الموكب الى كمين واطلاق نار ادى لاستشهاد واصابة 10 اشخاص.

يقول معين الطاهر احد مؤسسي وقيادات الكتيبة الطلابية لفتح: عند وصوله طرابلس تلقى ياسر عرفات اتصالا من السيد رفعت الأسد شقيق الرئيس السوري دعاه فيه للعودة الى دمشق حيث سيتم ترتيب لقاء له مع الرئيس الأسد, فعاد الى دمشق. لكن بعد اجتماعه برفعت الأسد بقليل تم طرد يا سر عرفات من دمشق وتسفيره الى تونس على متن رحلة عادية للطيران التونسي كأي راكب عادي.

ويضيف: على وقع هذه الاهانة غير المسبوقة، ومستفيدين من الدعم والتواجد العسكري السوري، واكتفاء فتح بصد الهجمات دون المبادرة الى البدء في أي منها، سيطر المنشقون على مواقع فتح في البقاع، كانت قوات فتح اذا اسرت منشقا تعامله باحترام وتعيده الى جماعته عن طريق التنظيمات اليسارية.

تعويضا عن الفراغ والارتباك بادر القطاع الغربي لفتح وقيادة كتيبتها

الطلابية بشن عمليات خلف خطوط العدو، وحققت نجاحا نوعيا حين اسرت 8 جنود اسرائيليين.

الخلاف مع سوريا على شراسته في تلك المرحلة لم يكن الاول ولا الاوحد لقد سبقه وتلاه خلافات أخرى معها ومع غيرها، خلافات كانت تنتهي لتتجدد، خلافات تطرح سؤالين: ماذا نريد من العرب؟ وماذا يريدون منا؟

بانوراما الخلافات العربية

ماذا نريد من العرب؟ وماذا يريدون منا؟ وهل يجوز مطالبتهم بأكثر مما يطيقون؟ وهل ينبغي ان نطالبهم بتقديم اكثر مما نقدم نحن اصحاب الشأن؟ هل كان مستوى تضامننا مع الدول العربية حكومات وشعوب متقدما عن مستوى تضامنهم معنا؟ الخلافات الفلسطينية العربية ظلت تنحدر دوما الى مرحلة البذاءة، وتبتعد عن الشكل الحضاري الذي يسهل مستقبلا القضاء عليها؟ لماذا نستسهل اكتساب العداوات وترك الندب القبيحة على مجمل علاقاتنا العربية؟

بعد فيض من التجارب المرة، راكم النظام السياسي الفلسطيني مجموعة قواعد ومرتكزات للتعامل مع الخلافات الفلسطينية – العربية، والعربية – العربية، فما هي هذه المرتكزات؟ وكيف تم التوصل اليها؟

في القلب من هذه المرتكزات: الحفاظ على استقلالية القرار الفلسطيني، والحياد ما استطعنا الى ذلك سبيلا، والعمل ما امكن بشكل جمعي ومن خلال جامعة الدول، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للأشقاء.

كان الهدف من وراء ذلك هو الحفاظ على قواعد الثورة ونقاط ارتكازها، وتأمين سلامة ومصالح التجمعات الفلسطينية، وضمان استمرار الدعم المادي والسياسي، وصيانة وحدانية التمثيل، وتشجيع توحد العرب خلف القضية، والنأي عن جعلها ورقة في سلة فلان او مطية لعلان، يتمسح بها ويستغلها او يبيض دناءتاه بها.

هل مارسنا هذه القواعد بشكل صارم وموحد دون تمايزات فصائلية؟ وهل تحقق الهدف من وراءها؟ التقييم متروك لكم، ولكن بعد استعراض لهذه البانوراما من الذاكرة، عن ابرز الخلافات التي قادت الى تكريس هذه القواعد.

الاردن، لم يستقبل اللاجئين والنازحين فقط، لقد حارب معنا في الكرامة حين وحدنا الدم وتقاسمنا الانتصار... لكن قليلا من العربدة، وكثيرا من المخاوف، حولت الاختلاف السياسي الى احداث ايلول الدامية والمؤسفة والمخزية، وبفضل حكمة القيادتين تم ترسيم علاقة ناضجة بدأت بالاعتراف بمنظمة التحرير عام 1974، وكللها الملك حسين بفك الارتباط.

سوريا، لم تعامل اللاجئين اليها معاملة المواطن السوري فقط، بل انها فتحت المجال واسعا لقواعد الثورة تدريبا وتسلحا، لكن الرغبة الفلسطينية باستقلالية القرار سرعان ما اصطدمت مع فكرة قومية المعركة ودعاية التوازن الاستراتيجي، ومن شدة قناعة السوريين بصوابهم، ضيقوا على ياسر عرفات ورفاقه وزرعوا الانشقاق في الصف الفلسطيني، ودمروا تل الزعتر، وصار المطلوب سوريا هو تناسي جبهة الجولان واشعال بقية الجبهات، سيذكر السوريون، نظاما وشعبا، بعد التعافي ان شاء الله، ان الموقف الفلسطيني من ازمتهم كان الاسلم.

لبنان، لم يكن تفاحتنا الاجمل فقط، لقد كان مسرحا مستعارا لجمهوريتنا فاكهانيا وعرقوبيا، لكن ابتسامة حظنا وحظهم لم تتمكن من الصمود

في وجه الطائفية العبوس، فكان ما كان من قتل على الهوية، وصار ما صار من اجتياح ومذابح، وما تلاها من مقاومة مشتركة، سرعان ما ارتدت رصاصا علينا، يعرف ويعترف من شهد تحرير الجنوب بفضل المقاومة الفلسطينية، وسيعترف لبنان اذا ما قدر له يوما ان يحيا دون طائفية، ان الوجود الفلسطيني لجوءً وثورة بكل تلاوينها كان عامل اخماد للطائفية.

العراق، لم تشكل رعبا للصهاينة فقط، لقد استشهد خيرة ابنائها دفاعا عن فلسطين، رغم نكتة «ماكو اوامر يا عساكر»، رفض العراق ان تتولى الامم المتحدة اطعام وايواء اللاجئين الفلسطينيين، واعتبر ذلك قلة شهامة، (وهو ما ادى الى عدم تسجيلهم رسميا كلاجئين) فتولى هذه المهمة وانشأ عمارات خاصة لهم، غير ان غيرة وشهامة العراق كان مبالغا جدا فيها، فاراد الاستحواذ واعمل في خاصرتنا انشقاق صبري البنا، ولم تنته آثار هذا الانشقاق الا بعد وقوف فلسطين الى جانب العراق ضد حفر الباطن، وتكبدها خسائر ليس اقلها خروج 300 الف فلسطيني من الكويت، اذا ما قدر لهذا البلد ان يخرج سالما من بلواه الكبيرة، سيعرف كرد العراق قبل عربه وشيعته قبل سنته، ان فلسطين تحبهم جميعا، تحبهم حتى لو لم يقصف صدام تل ابيب بالصواريخ، وانها لو خيرت لما اختارت القصف من اجلهم لا من اجلها.

الكويت، تحفظ لفلسطين جميل ارسال المفتي الحسيني اول بعثة تعليم عام 1936، ونحفظ لها الكثير الكثير، من حسن الوفادة وكرم الضيافة، فمن على ارضها انطلق رجال الفتح، وبينهم ابنها فهد الأحمد الجابر الصباح الذي تعرض لثلاث اصابات خلال مشاركته بالعمل الفدائي، لم يسلم الفلسطينيون في الكويت من توابع زلزال احتلال العراق لها، واعلم علم اليقين ان كل كويتي وكل فلسطيني يجاهد نفسه ليشطب

من ذاكرته توابع هذا الزلزال، وحسنا فعل الرئيس ابو مازن حين زار الكويت واعتذر عن موقفنا من حرب الخليج رغم ان لا احد في الكويت طالبه بهذا الاعتذار.

ليبيا، على كل مزاجية عقيدها، كانت داعما لقضيتنا وشعبنا، ولكن بشكل موسمي ومزاجي متقلب، فتارة تختار فصيلا دون آخر، وتارة تنصحنا بالانتحار، لأنها مشغولة في حربها مع تشاد، وتارة تفتح لنا معسكر السارة الصحراوي، وتارة تهاجم لجانها الشعبية مقر ابو عمار في طرابلس وتدمره، وتارة تبكي بحرارة على سقوط طائرة ابو عمار في صحرائها وتجتهد في تسهيل مهمة البحث عنها، وتارة تطرد الفلسطينيين الى حدود مصر التي ترفض استقبالهم،ليجدوا انفسهم يعمرون مخيما عشوائيا في السلوم. مزاجية نظام العقيد اكسبت الفلسطينيين قيادة وشعبا مهارات اضافية في فن التعامل.

مصر، ما ان انتهى حكمها للقطاع، ونسي ابناء غزة ويلات الاعتقال في سجونها الحربية، حتى اصبحت مهبط افئدتهم، واصبح اسم جمال عبد الناصر مفردا ومركبا الاكثر شيوعا بين مواليدهم، ورغم قساوة الحدود على حملة وثائقها، ورغم زيارة السادات وخطابه في الكنيست وطعنة كامب ديفيد النجلاء، وطرد طلبة فلسطين من جامعاتها، الا ان الامل ظل معقودا بناصيتها، ورغم المد والجزر ما زال هذا الامل معقودا، وسيظل رغم التداخل والتقاطع الرهيب في المصالح منذ وصول مرسي للحكم ومن ثم ازاحته وعلاقة كل ذلك بغزة وبحماس وبالأمن في سيناء. سيظل الامل معقودا على القاهرة لأسباب عديدة، حتى لو اصبح جزءا من التراث.

الجزائر، نحبها وتحبنا، ولفرط حبها لنا تناصرنا ظالمين ومظلومين، ولفرط حبنا لها نشجع منتخبها حين ينازل منتخبنا، ورغم كل التحولات لم تنقطع يوما عن دفع ما يترتب عليها من مساعدات لنا، مساعدات

منتظمة وغير مشروطة ولا مرهونة بطلب او تذكير او مناشدة، حاولت ابتزازنا بموقف مؤيد للبوليساريو المعادية للمغرب ولكننا تحاشينا ذلك، ولفرط احترامنا لهذا البلد ولابنائه، نرفض الاقرار بما جاء في وثائق تاريخية تثبت ان احفاد وحفيدات الامير عبد القادر الجزائري قد باعوا عدة قرى اقطعتهم اياها الحكومة العثمانية لشركة بيكا الصهيونية.

السعودية، لن تجد فلسطينيا واحدا في رام الله او القدس او غزة او عكا او في سانتياغو الا ويطالب بدور سعودي اكبر، حجم الآمال التي يعلقها العرب عموما على هذا البلد نابع من حجم زعامتها الدينية وامكانياتها المادية، اكثر مما هو نابع من تقدير سياسي لظروفها وقدراتها مجتمعة، ورغم كل هذا فالسعودية سند كبير عند الحاجة القصوى، سواء كانت حاجة لدعم مادي او سياسي، وهو دعم في الحالين يقل عن الطموح ولكنه لا ينشأ فرقة ويخلو من الضغوط.

عُمان، على بعدها، وحياد سياستها الخارجية، كانت ثاني اثنين في تأييد كامب ديفيد السادات، بعد سودان النميري، وظلت سباقة ومتسرعة في اقامة العلاقات مع اسرائيل وسبقت قطر والامارات في بعض الاحيان، ومقابل ذلك تباطأت كثيرا في الاعتراف بدولة فلسطين وفتح سفارة لنا على اراضيها بسبب علاقة ربطت في السابق السحيق بين تنظيمات يسارية فلسطينية وجبهة تحرير عُمان, ولكنها اليوم وفيما تدعي تجميد العلاقات الظاهرة مع اسرائيل، تستقبل نتنياهو وتنشط في مجال اغاثة الفلسطينيين، وبشكل لا يخدم الانقسام ولا الانشقاق كما تفعل قطر والامارات.

قطر، شاء القدر ان تصبح هذه الامارة الصغيرة لاعبا رئيسيا في ظل غياب القطط الكبيرة، وشاءت الظروف والاحكام ان يكون لها يد طويلة في غزة، بسبب الانقسام، وان يسارع فلسطينيون الى تسمية مواليدهم

باسم شيخ هذه الامارة واسم امه، شرف لم ينله الا جمال عبد الناصر، وعز الدين القسام، اصابع قطر المدودة في اكثر من منطقة باسم الدين والتدين، ليست اصابع للتشهد وانما للبعبصة، وتكذبها بشكل علني الايادي المدودة نحو تل ابيب، والاذونات التي تمنح للعمادي.

الامارات، بعد زايد رحمه الله ينطبق عليها ما قيل عن قطر، هذا زمن الدول التي لا تملك عمقا في التاريخ، دور وظيفي، يحتاج الحداثة، وغياب الممانعة، وكرم الانفاق ليس بحثا عن وجاهة ودور، وانما بحث عن قوة تحميها من الجار الفارسي الشبق والنشيط. الانشقاقات التي ترعاها الامارات لن يكتب لها نجاح، لقد جربت ذلك دول اضخم واعرق، وفي فترات ذهبية، وضمن النطاق الجغرافي المعروف بالطوق، جربت ذلك ولم تنجح، اجمالا الامارات لا تريد ان تنجح، تريد فقط ان تتسلى.

فصول مؤلمة من الخلاف، اكثرها لؤما وايلاما كان الخلاف الدامي مع سوريا، فلهذا الخلاف جذور بعيدة وتشعبات متعددة.

بطل طوباس الحاج بوتاس يقصف ايلات

لطالما اراد نظام حافظ الاسد الاستحواذ على القرار الفلسطيني وسعى الى جعل المقاومة الفلسطينية ورقة يمتلكها ويستخدمها للضغط والمساومة، بذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع من تشكيل لفصائل ظلت تصغر وتصغر، او دعم واستمالة قيادات دون اخرى، سرعان ما تفقد تأثيرها وشعبيتها، او دعم لفصائل دون غيرها، ولكن هذه الفصائل كانت سريعا ما ترتد حين تشعر بان هناك خطرا على وحدانية تمثيل قضية فلسطين.

كان الاسد طموحا لتعزيز دوره الاقليمي، جبهة الجولان المغلقة لا تعطيه اكثر من الهدوء، واللعب فيها يحمل آثارا وخيمة على دمشق، فليكن اللعب

اذا في دول الجوار وبأبناء الجيران، فليكن في لبنان، ففي لبنان تستطيع ان تجد كل شيء، فصائل مقاومة كثيرة وتتكاثر، احزاب سياسية من اقصى اليمين الى اقصى اليسار، افكار قومية تبدا بلبنان الفنيقي وتمر بسوريا الكبرى (نادى بها انطون سعادة، سلمته سوريا لحكومة لبنان مقابل ثمن بخس، فحاكمته وقررت اعدامه واعدمته خلال 24 ساعة من تسليمه) وتصل للامة الواحدة ذات الرسالة الخالدة، شيوعية مختلفة في درجة الاحمرار، دينية اسلامية ولاهوتية ولا دينية والحادية وطائفية.
في روايته الجميلة والشهيرة «مجانين بيت لحم» كتب اسامة العيسة قصة حقيقية عن مصلح الدراجات الذي اعلن النبوة وذهب من بيت لحم الى بيروت فصار له اتباع وصار اسمه النبي الدكتور داهش بيك، وصار له اتباع حتى داخل الاسرة الحاكمة، وما زال له اتباع ينشرون تعاليم ديانته الداهشية. جيد انه لم يكن لهذه الديانة أي جناح مسلح، رغم ان لها شهيدة كما جاء على الموقع الالكتروني للديانة.
التصادم في المصالح والمطامح داخل لبنان كان مؤطرا في الدستور بالمحاصصة، وعلى الارض بالديمقراطية والانفتاح، وحتى الخلاف الفلسطيني اللبناني وجد له حلا من خلال الزعيم جمال عبد الناصر، ولكن الخلاف الذي كان يتفجر احيانا فيطوى، اصبح غير قابل للطيّ مع دخول سوريا الى لبنان.
ذكرنا قبل ايام الكاتب المخضرم حسن خضر بان سوريا لم تفتح سفارة لها في لبنان الا في العام 2009.
يعتبر كثير من اللبنانيين ان التواجد العسكري السوري على ارضهم منذ العام 1976 وحتى العام 2005 كان احتلالا للبنان، وخاصة بعد نهاية الحرب الاهلية عام 1990.
في سيرته الذاتية «حياتي من النكبة الى الثورة» لخص الدكتور نبيل

شعث طبيعة واهداف التدخل السوري في لبنان:

»كنت في الكويت عند بدء الهجوم السوري على لبنان، طلب مني الاخ ابو عمار التوجه فورا الى العراق لأضع العراقيين في صورة ما تقوم به سوريا في لبنان، طالبا الدعم العراقي،.. لم اتلق وعدا عمليا بالتدخل، ولكنني حصلت على تعاطفهم ودعواتهم. الله معكم!«.

كان الفدائي المتميز عبد الاله دراغمة، «ابو محسن» حسب السجلات العائلية، «الحاج حسن» حسب الاسماء الحركية، و»الحاج ايلات» كما يسميه رفاقه منذ نجاحه في قصف ايلات و»الحاج بوتاس» لكثرة قصفه لمصانع البوتاس الاسرائيلي، و»المهندس» لأنه فكك لغما ارضيا اسرائيليا واعاد استخدامه، كان يقوم بمهامه العسكرية والتنظيمية والشعبية على اكمل وجه في طرابلس.

لقد تفرغ لحماية المخيمات في الحرب الاهلية، بعد ان كان يدرب ويخطط ويقود العمليات ضد العدو الاسرائيلي ومنها تفجير خطوط التابلاين في الجولان السوري.

اعتقله الامن السوري مرارا ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة العمل عبر جبهة الجولان، وخلال تصديه للقوات الانعزالية التي هاجمت مخيم تل الزعتر، اصيب بالرصاص، واستشهد مرافقه السوري «ابو حميد»، انسحب الى المناطق الخلفية للعلاج، فسقطت قربه قذيفة هاون اصابت شظاياها فكه وقلبه واستشهد.

بعد استشهاده ارسلت القيادة عبدالحميد وشاحي «نعيم» وحنا ميخائيل «ابو عمر» وسبعة آخرين إلى طرابلس في زورق مطاطي عن طريق البحر لأن القوات السورية وقوات المردة كانت تسيطر على الطريق البري، إلا إن تلك المجموعة اختفت في عرض البحر. يقول نبيل شعث في كتابه عن هذه المجموعة:

«في يوم عودتي الى الكويت، عرفت ان اخي المناضل الفتحاوي جواد ابو الشعر قد استشهد بقذيفة سورية، وان نعيم وابو عمر مفقودان في البحر، مع سبعة من رفاقهم كانوا في طريقهم من بيروت الى طرابلس في زورق مطاطيـ تنفيذا لمهمة تنظيمية... ظل مصير نعيم وحنا مجهولا الى اليوم، رجحت الروايات التي تقول باعتقالهما مع مجموعتهما من قبل الكتائب التي اعدمتهم، او سلمتهم للمخابرات السورية»

كيف رأى الامريكان والاسرائيليون التدخل السوري العسكري في لبنان؟

يرد نبيل شعث:

(استمر الصراع وتصاعد في 1976 وفي حزيران مالت الكفة باتجاه انتصار القوى التقدمية اللبنانية المتحالفة مع الثورة الفلسطينية، واصبحت المليشيات المارونية على وشك الهزيمة... وجد الامريكان ان الحل الوحيد للحفاظ على التوازن لصالحهم في لبنان هو التدخل السوري، اوعز الامريكان للرئيس سليمان فرنجية ان يطلب من سوريا التدخل بحجة ان ميناء بيروت سيغلق، ولكن الاسد قال في خطاب لاحق انه لم يطلب اذنا من احد لاجتياح لبنان.

رد النظام السوري بإنهاء دعمه للفصائل الفلسطينية، وبدأ بدعم الحكومة اللبنانية والرئيس فرنجية، الامر الذي جعل سوريا في صف اسرائيل نفسه، والتي بدأت بدعم الميليشيات الانعزالية بالسلاح والدبابات والمستشارين العسكريين.

حظي الاسد بدعم علني من القيادة الامريكية،.. قال كيسنجر: «نحن شجعنا المبادرة السورية هناك، والوضع يسير لصالحنا، ويمكن رؤية خطوط تسوية»

لا انسى ما قاله هنري كيسنجر لي وللرئيس ابو عمار اثناء زيارته الوحيدة لرام الله بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية: «عندما عجزنا

عن هزيمتكم، فاجأناكم بإرسال حافظ الاسد وقواته... لا اعتقد انكم توقعتم ذلك».

موشيه دايان صرح آنذاك: «دخول القوات السورية الى لبنان ليس عملا موجها ضد امن اسرائيل».

دخول سوريا غير موازين القوى لصالح تحالف الكتائب، ولكنه وضع هذه القوى تحت حماية قواته ثم وضعها بعد ذلك تدريجيا تحت سيطرته.

بطش النظام السوري بلبنان ومؤسساته وشخصياته...

حرك ابو جهاد جزء مهما من قواته باتجاه الجنوب... كان يرى في اشعال الجبهة مع اسرائيل افضل وسيلة للضغط على سوريا وتصحيح البوصلة).

مؤلم ومجحف هو التاريخ حين تكتبه مختزلا، فتجعل حياة رواده وصانعيه مجرد سطور، ترى كم هو مقدار الغبن الذي سيشعر به شهداء ظلوا ينزفون ويتوجعون لساعات، او قضوا وهم يصارعون امواج البحر! كم هو الخذلان الذي سيشعرون به لو قرأوا ما نكتب، او شاهدوا كيف نعيش من بعدهم، وهم الذين استشهدوا لنحيا!.

الطبيب اليوناني الفلسطيني كريس يانو

على وقع هذا التوتر القديم المتجدد في العلاقة بين منظمة التحرير بقيادتها الفتحاوية وسوريا بقيادة حافظ الاسد، وعلى خلفية الخروج المزلزل لقوات الثورة الفلسطينية من لبنان، وبمناسبة قرارات وتعيينات اتخذها ابو عمار ورأى فيها البعض مكافأة لقيادات يجب محاسبتها بدلا من ترقيتها، وقع الانشقاق في حركة فتح، ولا يمكن لاحد ان ينكر الآن انه كان بتحريض ودعم وتسهيل سوري وبتمويل ليبي.

لم يكن الانشقاق هو الاول في جسد الحركة التي لا تملك أي ايدلوجيا وتجمع خليطا متعدد المرجعيات الفكرية، فلقد سبقته ازمات تنظيمية عديدة كانت تضمحل او تذوب نتيجة للتقادم، او تطور الاحداث، ولكن الانشقاقين الاخطر والذين طال عمرهما وكلفا فلسطين دما وجهدا ومالا وسمعة هما انشقاق فتح المجلس الثوري بقيادة ابو نضال المدعوم من العراق البعثي، وانشقاق فتح الانتفاضة بقيادة ابو موسى المدعوم من

سوريا البعثية. حاول المنشقون القدامى (ثوريين ومنتفضين) والجدد (احرارا ياسريين وتيارا تصحيحيا) الاحتفاظ بالاسم التاريخي للحركة (فتح) ولكنه كان ينزلق من ايديهم دوما، لأنه يكره التبعية.

انتهى ابو نضال مقتولا في شقته ببغداد عام 2002 على يد مشغليه العراقيين بعد ان سفك دماء عدد من سفراء فلسطين النوعيين في اوروبا: عز الدين القلق في باريس، سعيد حمامي في لندن، نعيم خضر في بروكسل، عصام السرطاوي في لشبونة (كان شمعون بيرس في مسرح عملية الاغتيال، ولكن القاتل لم يفكر باستهدافه)، واخيرا اغتيال القادة ابو اياد وابو الهول وابو محمد العمري. وانتهى التنظيم بانتهاء الرجل، وقبل ان يسجل أي عملية ضد اهداف اسرائيلية، اللهم باستثناء عملية الاغتيال الفاشلة لسفير اسرائيل في لندن، تلك العملية التي اتخذتها اسرائيل ذريعة لاجتياح لبنان ومحاصرة بيروت عام 1982.

مهما كانت النوايا الابتدائية لدى المنشق ابو نضال، فانه تحول الى بندقية وتنظيم للايجار، وتلقى الدعم والتمويل من مشغلين آخرين غير العراق، مثل ليبيا، وسوريا، نعم سوريا التي حاول اغتيال وزير خارجيتها ونائب رئيسها عبد الحليم خدام مرتين، (احدى هاتين المحاولتين وقعت في الامارات واسفرت عن مقتل وزير الدولة الاماراتي للشؤون الخارجية الصديق لفلسطين سيف سعيد بن غباش)، فضلا عن تفجير عدة سفارات ومكاتب سورية في اوروبا وغيرها، واحتجاز رهائن سوريين في فندق سمير اميس بدمشق.

لماذا طرد العراق ابو نضال؟ ولماذا استقبلته سوريا بكل الترحاب؟ وماذا فعل هناك؟ اسئلة خير من يجيب عليها السفير السابق عاطف ابو بكر، لكونه احد القيادات السابقة في تنظيم ابو نضال، يقول ابو بكر في برنامج الذاكرة السياسية على فضائية العربية: ان العراق طلب من ابو

نضال وقف هجماته ضد الدول التي تسانده في الحرب مع ايران، ولكن ابو نضال فجر بعد ذلك طائرة اماراتية قادمة من كراتشي، فقتل اكثر من 100 شخص غالبيتهم من الباكسانيين، فطرده العراقيون، ولأنه لا يستطيع العيش دون حاضنة، فقد سعى لخطب ود السوريين، والذين رحبوا به نكاية بالعراق واملا في الحصول على معلومات عن جماعة الاخوان المسلمين السورية والذين كانوا يتدربون تحت اشراف العراق في معسكراته، ويعدون العدة للانتقام لضحايا مجزرة حماة، ولأن وجوده كمنشق قديم عن فتح الى جانب المنشقين الجدد، سيزعج عرفات وسيضعف من حركة فتح. وفعلا فلقد ايدت جماعة ابو نضال جماعة فتح الانتفاضة وقدمت لها نصف مليون دولار في اول لقاء وقاتلت الى جانبها في الهجمات ضد القوات الموالية لعرفات.

ربما كانت نوايا المنشقين بعد الخروج من بيروت اكثر طيبة، وربما كانت السيرة الشخصية لقياداتهم اكثر طهرية، وربما كانت مبرراتهم اكثر وجاهة، وهو ما قاد الى التحاق العديد من خيرة الكوادر والمقاتلين بهم، لكن الايام اثبتت ان مسار الانشقاق واحد يمر بالالحاق والتبعية، والارتهان للتمويل، والخوض في الدماء، والانتهاء بالنبذ على الهامش قتلا او اغتيالا سياسيا او اقامة جبرية.

فشل الانشقاق سياسيا لان سقفه ظل تحت ابط سوريا ولم يرتفع فوق السقف السياسي لفتح، وولد فاقدا لأدنى درجات استقلالية القرار.

وفشل اداريا لان مطالب الاصلاح سقطت امام الانشغال بالاستيلاء على مكاتب وممتلكات ومؤسسات حركة فتح في سوريا

وفشل تنظيميا لأنه اخضع هياكله ومجالسه للتقاسم والمحاصصة مع تنظيمات صغيرة تتبع لسوريا، وسرعان ما واجه ازمة تمحور قيادي

وفشل وطنيا وهذا الاهم لأنه تورط في مهاجمة مواقع فلسطينية في البقاع

وبعلبك وشتورا ومخيمي نهر البارد والبداوي واحياء طرابلس مستفيدا من دعم سوريا.

فشل لان ياسر عرفات تنكر بزي مدني وغامر بالنزول عبر البحر الى طرابلس امام اعين من يريدون اغتياله، ليكون بين مقاتليه. ولأن مئات المقاتلين الذين خرجوا من بيروت بدأوا بالعودة الى طرابلس من طريق البحر سرا مثل زعيمهم.

فشل لأن محاولات اغتيال عرفات او قتله في المعارك لم تنجح، فهو لم يكن ينام في نفس المكان مرتين، وكان دائما في الاماكن غير المتوقعة.

فشل الانشقاق لان الكثير من كوادره ثابت الى رشدها وتراجعت مع وقوع الاقتتال الداخلي. ولأن العائدين من الانشقاق قوبلوا برحابة صدر.

فشل لأن فتح اكتفت بصد الهجمات عليها ولم تبادر للهجوم، ولأنها كانت تكتفي بتأنيب من تأسرهم من المنشقين، ثم تقدم لهم وجبة عشاء، قبل ان تعيدهم الى قواعد المنشقين من خلال التنظيمات اليسارية.

فشل لأن القيادة السورية فضحت نواياها حين اوقفت قائد الانشقاق ابو صالح وفرضت عليه الاقامة الجبرية في منزله الى ان توفي، وذلك لأنه صرح بعد الخروج من طرابلس بان المقاومة ستعود الى بيروت.

فشل لان السوريين اتهموا نائب امين سر المنشقين ابو خالد العملة بالانشقاق عنهم، واعتقلوه وفصلوه، لأنه رفض خلال نقاش حاد مع العبدين السوري خدام والليبي جلود الامتثال لأوامر احمد جبريل.

فشل لان قادة الانشقاق مثل قدري ابو كويك اكتشف سوء تقديراته السياسية وانسحب من الانشقاق مبكرا واعتزل العمل السياسي الى آخر يوم في حياته.

فشل الانشقاق لان ياسر عرفات الذي فقد لبنان نهائيا وخرج من طرابلس قرر وهو في عرض البحر ان يقلب الطاولة على سوريا وان يعبر

من قناة السويس ليلتقي الرئيس المصري حسني مبارك رغم المقاطعة العربية لمصر، كان على عرفات ان يبحث عن حليف، فسوريا تكرهه والبقية تتجاهله والعراق منشغل بحربه.

فشل لان المنشقين ومعهم كسور عشرية تتبع لدمشق تحالفوا مع حركة امل والجيش السوري واللواء السادس في الجيش اللبناني وظلوا على مدى 3 سنوات يحاصرون ويقصفون مخيمات اللاجئين في لبنان بحجة القضاء على «زمرة عرفات».

فشل لان الفصائل اليسارية المعارضة جدا لقيادة عرفات «المتنفذة» لم تستجب لضغوط حليفتها دمشق، ولم تستطع الصمت طويلا ازاء الحرب التي ظلت تتوسع، فشاركت الى جانب قوات فتح في الدفاع عن المخيمات وعن القرار الفلسطيني.

فشل لان هناك من كان يتوجه دائما الى العمل ضد جيش الاحتلال، لتذكير الجميع بمن هو العدو المركزي، وفشل لان الشعب الفلسطيني في الداخل اشعل انتفاضته لإنقاذ قيادته في الخارج.

مرة اخرى، كم هي كتابة التاريخ واختزاله ظالمة ومجحفة بحق صناعه وضحاياه!!... تكاد تكون مواجهات طرابلس وحرب المخيمات التي استمرت 3 سنوات الاقل توثيقا، رغم انها لم تكن اقل دموية وعنفا وضحايا ودمار وتأثير سلبي على مجمل النضال الوطني الفلسطيني الذي تم تقييده، وعلى الحركة السياسية التي تم حرفها نحو بوابة مصر كامب ديفيد، لقد كانت الاقل توثيقا لأنها صفحات مخزية يريد الجميع ان يطويها، وان ينساها، قتل وجرح كثيرون وجاع الناس في المخيمات.

لم يترك ياسر عرفات مرجعا دينيا للشيعة في ايران والعراق الا ودعاه وترجاه لإصدار فتوى بوقف هذه الحرب، افتوا له بداية بجواز اكل المحاصرين لحم القطط والكلاب، وبعد ان طالت الحرب واصبحت

محرجة جدا لهم ودون طائل، تدخلوا لإنهائها، انتهت حرب المخيمات، بفقدان حركة امل شعبيتها لصالح حزب الله، وباعتراف زعيم هذه الحركة نبيه بري بان حربه ضد المخيمات كانت غلط في غلط.
مجرد غلط ولكنه استمر 3 سنوات واودى بحياة مئات!!!!
في شهادته على جزء من هذه الحرب في مخيم واحد فقط من بين مخيمات عديدة يقول الكاتب محمود كلم وهو من ابناء مخيم شاتيلا:
«بدأت الاستفزازات من عناصر موتورة من حركة أمل، بدأت تدخل المخيم وتسيء إلى الناس بشكل سافر، شخص اسمه النمرود من حركة أمل قتل عمدًا الطفل محمد شرقية، ثم بدأت الاستفزازات لمخيم الداعوق. بدأت حرب المخيمات يوم سبت ليلة أحد في اليوم الأول من شهر رمضان المبارك عام 1985، حيث حوصر المخيم ثلاثين يومًا ودمر حوالى 90 % منه تدميرًا كاملًا. وسقط ما يقرب من 85 شهيدًا وشهيدة، والدتي آمنة درويش عبد العال مواليد 1936 وأخي سعيد مواليد 1973 استشهدا في 27 رمضان 1985، بالقذيفة نفسها. لقد كانت حرب الثلاثين يومًا صعبة، وكذلك حرب الخمسة والأربعين يومًا.
في أواخر 1986 تجددت المعارك، وامتدت لستة أشهر أخرى، تعرض المخيم خلالها لمجاعة حقيقية، ونقص حاد في المواد المعيشية والطبية، أكل الناس القطط، والبرغل مسلوقًا بالماء والملح من غير زيت وبصل. كان كل اثني عشر مقاتلًا يأكلون علبة حلوى واحدة فقط، كان المقاتل منا يقتات على نصف رغيف خبز في اليوم في آخر شهرين من الحصار، كانت غرفة عمليات المستشفى عبارة عن ملجأ في بيت عيسى الفرماوي، وغرفة الطوارئ في بيت أبو سليم زعرورة. أذكر أن الدكتور يانو (طبيب يوناني متطوع انقذ مئات الفلسطينيين خلال معارك بيروت وحرب المخيمات) أجرى لابي رياض شحادة عملية جراحية بدون تخدير في مستشفى

الهلال. انتهت حرب الستة أشهر. كانت حصيلة حرب المخيمات من الشهداء 575 شهيدًا يرقدون في مقبرة جامع مخيم شاتيلا. كانت جثامين الشهداء تجمع وتدفن على عجل في حُفر جاهزة. وكان يتولى عمليات دفن الشهداء كل من الشيخ عامر المصري، وأبو خليل الكراد وآخرون. ومن الصور التي علقت في الذاكرة ولا يمكن للأيام طمس معالمها: قصة ابو الفدا , اصيب بجراح تحولت الى غرغرينا لعدم توفر العلاج اللازم له. تم وضعه في مدرسة اريحا. ظل يتوجع ونسمع صرخاته في ارجاء المخيم ليلًا. بقي هكذا على حاله مدّة من الزمن حتى وفاته. تمّ دفنه في جامع المخيم بعد ان تحول الى مقبرة جماعية».

مساحة مخيم شاتيلا هي كيلو متر مربع واحد فقط لا غير، كان يسكنه 12 الف لاجئ فلسطيني، في هذا المخيم استشهد المناضل علي ابو طوق قائد الكتيبة الطلابية، وبطل قلعة الشقيف، استشهد بين يدي صديقه اليوناني الدكتور كريس يانو، والذي قال عنه: كان ابو طوق من الفدائيين المخلصين، اول مرة تعرفت اليه في النبطية عام 1981 كان يضع في مكتبه شعارا يقول «الثورة دون اخلاق هي سرقة ونفاق».

في الصورة الطبيب اليوناني الفلسطيني كريس يانو، وصديقه القائد الشهيد علي ابو طوق، وغلاف كتابه «المحاصر: قصة طبيب عن الحياة والموت في بيروت».

أنا صوتي منك يا بردى... مثلما نَبْعُكَ من سَحَبي

دار الزمان دورته ووجدتني عالقا بحب بغداد ومقيما فيها، ومختبرا لما يقال عن حزب تناظر حتى عده الخصوم (خرية قسمت بخيط)، نعومة سوريا ورومنسيتها ام شبق العراق وخشونته، (يسمي السوريون احد اصناف نباتات الزينة تم السمكة، ونفسه يسميه العراقيون حنك السبع، ويسميه المغاربة انف الثور)، مقام وجالغي بغداد أم موشحات الشام وقدود حلب، استقرار سعدي الحلي وثباته وحنجرته المجلجلة ام دوران صباح فخري حول انغامه المنسابة كعسل رقراق، غوطة دمشق وبرداها ام دجلة الخير ام البساتين كما قال الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، فحولة الجوبي ونيران رقصة الهجع ام حلقات السماح الصوفية ورقصات الغندرة، دهاء السياسة ام فحولتها؟

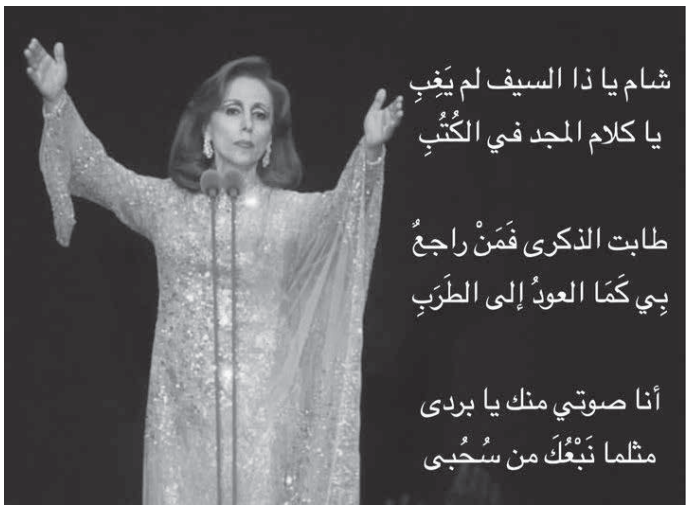

يقال إن دمشقيا خاصم كوفيا دخل على بعير له الى دمشق، قال الدمشقي: هذه ناقتي، وقال الكوفي: هذا جمل وليس ناقة، فارتفع

أمرهما إلى معاوية، فشهد خمسون رجلا الى جانب الدمشقي، فقضى معاوية له وأمر الكوفي بتسليم الجمل، فقال الكوفي: أصلحك الله، إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ثم استفرد معاوية بالكوفي فدفع له ضعف ثمن الجمل، وقال له: أبلغ عليًا أنّى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.

وتضيف الحكاية: انه قد بلغ من شدة طاعتهم له، انه صلى بهم الجمعة في الطريق الى صفين يوم الاربعاء!!.

كنا نغني رائعة الشاعر اللبناني سعيد عقل بلحن الرحابنة وصوت فيروز:

شام يا ذا السيف لم يَغِبِ... يا كلام المجد في الكُتُبِ
قَبْلَكِ التاريخُ في ظُلْمَةٍ... بَعْدَكِ استولى على الشُهُبِ
لي ربيعٌ فيكِ خَبَّأْتُهُ... مِلْءَ دنيا قلبيَ التَّعِبِ
يومَ عيناها بساطُ السما... والرماحُ السودُ في الهُدُبِ
تَلْتَوي خصرًا فأُومي إلى... نغمةِ الناي ألا انْتَحِبِي
أنا في ظِلِّكَ يا هُدْبَهَا... أحسبُ الأنْجُمَ في لُعَبِي
طابت الذكرى فَمَنْ راجعٌ... بِي كَمَا العودُ إلى الطَرَبِ
شامُ أهلوكِ إذا هُمْ على... نُوَبٍ قلبي على نُوَبِ
أنا أحبابيَ شِعري لهمْ... مِثْلَمَا سيفي وسيفُ أبي
أنا صوتي منك يا بردى... مثلما نَبْعُكَ من سُحُبي
تَلْجُ حرمون غَذَانا معًا... شامخًا كالعزِّ في القُبَبِ
وَحَّدَ الدنيا غدًا جَبَلٌ... لاعِبٌ بالريح والحِقَبِ

لم تعد هذه الرائعة تحمل أي معنى للسيف أو أي اثر للمجد، ولم يعد صوت لبنان من بردى، ولم تعد ينابيع سوريا من سحب لبنان، لقد ظلت فقط الذكرى تبحث عمن يعيدها كما يعود العود الى الطرب.

الشاعر سعيد عقل الذي ظل يكتب اجمل الاشعار لفيروز وعبد الوهاب وغيرهم، انتهى الى المطالبة باعتماد اللهجة اللبنانية كلغة وصار يدعو الى كتابتها بالاحرف اللاتينية!

الشاعر الذي كتب عن فلسطين وسوريا ولبنان والاردن والعراق ومكة وغيرها من المدن العربية انتهى الى تأييد مجازر صبرا وشاتيلا ومؤازرة اسرائيل في حربها ضد المقاومة الفلسطينية في لبنان!.

الشاعر الذي انتمى في شبابه الى الحزب السوري القومي الاجتماعي ليناضل من اجل وحدة سوريا الكبرى اعتبار ان لبنان الفنيقي هو مركز الكون واسس حزب حراس الارز لتطهير البلاد من (الاغراب)!!.

الشاعر سعيد عقل يتحدى الزعيم جمال عبد الناصر

في مطلع اربعينيات القرن الماضي كتب الشاعر سعيد عقل رائعته «سائليني يا شآم» وذهب لتسجيلها في اذاعة دمشق، كانت الإذاعة السورية حينها تدفع للشعراء أكثر بكثير مما تدفعه الإذاعة اللبنانية:

سَائِلِيني حينَ عَطَّرْتُ السَلَامْ... كيف غارَ الوَرْدُ واعْتَلَّ الخُزَامْ
وأنا لَوْ رُحْتُ أَسْتَرْضِي الشَذَا... لانْثَنَى لُبنانُ عِطرًا يا شَآمْ
ضِفَّتاكِ ارْتَاحَتَا في خَاطِرِي... واحْتَمَى طَيْرُكِ في الظنِّ وَحَامْ
نَقْلَةٌ في الزهرِ أمْ عَنْدَلَةٌ... أنتِ في الصَّحْوِ وتَصْفِيقُ يَمَامْ
أنا إنْ أَوْدَعْتُ شِعْرِي سَكْرَةً... كُنْتِ أنْتِ السَّكْبَ أوْ كُنْتِ المُدَامْ
رُدَّ لِي مِن صَبْوَتِي يا بَرَدَى... ذكرياتٍ زُرْنَ في لَيَّا قَوَامْ
لَيْلَةَ ارْتَاحَ لَنَا الحَوْرُ فَلَا... غُصنٌ إلّا شَجٍ أوْ مُسْتَهَامْ
وَجِعَتْ صَفْصَافَةٌ من حُسْنِهَا... وَعَرَى أغصانَها الخُضْرَ سَقَامْ
تَقِفُ النَّجمةُ عن دَوْرَتِها... عِنْدَ ثَغْرَيْنِ ويَنْهَارُ الظَّلَامْ
ظَمِئَ الشرقُ فَيَا شامُ اسْكُبِي... واملأي الكأسَ لَهُ حتّى الجَمَامْ
أهلُكِ التاريخُ من فُضْلَتِهِمْ... ذِكْرُهُمْ في عُرْوَةِ الدهْرِ وِسَامْ
أُمَوِيُونَ فإن ضِقْتِ بِهِمْ... أَلْحَقُوا الدنيا بِبُستانِ هِشامْ
أنا لَسْتُ الغَرِدَ الفَرْدَ إذا... قُلْتُ طابَ الجَرْحُ في شَجْوِ الحَمامْ
أنا حَسْبِي أنَّني من جَبَلٍ... هُوَ بين اللهِ والأرض كلامْ
قِمَمٌ كالشمسِ في قِسْمَتِها... تَلِدُ النورَ وتُعْطِيهِ الأنامْ

للاسف لم يعد هناك عطر في العلاقة بين سوريا ولبنان، لقد فسا بينهما الظربان، كما يقولون، ولم يعد الامويون للأسف قادرين حتى على حماية بستان هشام، واما الكلام بين الله والارض فقد اصبح جبلا تحتله اسرائيل، لم يعد لبنان ينثني عشقا يا شآم، لقد انحنى لفترة ذلا لشقيق

غير حنون.

كتب شربل القطار في صحيفة الشرق الاوسط قبل عامين:

«خلال الوحدة السورية – المصرية، عام 1959، كان الرئيس جمال عبد الناصر يخطب على شرفة قصر المهاجرين في دمشق، وقال في خطابه وهو يتكلم عن الشآم «إنه سيدخلها التاريخ»، عند سماع الشاعر سعيد عقل هذه الفقرة، تذكر قصيدته عن الشآم وما كان قد أورده في كلامه عن أهلها:

أهلك التاريخ من فُضْلَتِهم... ذكرهم في عروة الدهر وسام

أمويون فإن ضقت بهم... الحقوا الدنيا ببستان هشام

فكانت ردة فعله الفورية هي الذهاب الى الرحابنة لتلحين هذه القصيدة على امل ان تصل لأسماع عبد الناصر من خلال صوت فيروز. اشتهرت

الاغنية وبثتها الاذاعات العربية وخاصة سوريا وصوت العرب، اختار الرحابنة 14 بيتا من الابيات الـ 70 لهذه القصيدة.

فوجئ سعيد عقل بأن «الرسالة» للرئيس عبد الناصر لم تصل كما اراد، فاتصل بالنائب اللبناني إميل البستاني، وكانت تربطه علاقة خاصة بعبد الناصر ويلتقي به بشكل متواصل، فأخبره سعيد عقل بما يتصل بقصيدته التي غنتها فيروز، وطلب منه إبلاغ عبد الناصر ظروف الأغنية، وبعد أيام صدرت تعليمات بمنع بث الأغنية في إذاعات القاهرة ودمشق، وبقي المنع حتى صبيحة الانقلاب على الوحدة بتاريخ 28 أيلول 1961. صبيحة ذلك اليوم بدأت إذاعة دمشق في بث بلاغات انقلاب الانفصال والأناشيد الحماسية، وفي مقدمتها أغنية فيروز «سائليني يا شآم»، وبعد ذلك أصبحت الأغنية الحماسية التي تبث بمناسبة الانقلابات السورية التي تعاقبت على دمشق»

رحل عقل عن عالمنا عن 102 عاما، نترحم عليه ونقول: ليته احسن ختامه، بقيت فصحاه، واشعاره، واما دعواته السياسية فقد ذهبت ادراج الرياح، ومعها الابجدية التي ارادها للبنان والمؤلفة من 36 حرفا ما بين حروف لاتينة واخرى جديدة. في الصورة احد اعداد صحيفة لبنان بلغة عقل الجديدة، حاولوا قراءة العنوان الرئيس: «نعمل تغييرات؟ بذل احتلال، ولا واحد، ولو مهما اشتد الضغط الامني»، ومثلما مضى عقل ومضى سابقون سيمضي لاحقون، أحسنوا ختامكم. ما بظل في الوادي غير حجاره. واما الزبد فيذهب جفاء.

عرفات في دمشق بعد 5 سنوات على طرده

الانتفاضة الفلسطينية على أشدها رغم أنها ما زالت في البدايات وأبو عمار يصرح وبكل تحدي أنها لن تنتهي بل ستستمر موجة بعد موجة، قادة جيش الاحتلال ينتهجون تكسير العظام والقتل ولكن بعيدا عن الكاميرات على قلتها في تلك الفترة.

جليد العلاقة بين بعث العراق وحركة فتح يضمحل رغم استمرار نشاط مجموعات ابو نضال، اذاعة القدس من سوريا تملأ الدنيا ثورية وحماسا، بقيادة الراحل فضل شرورو الكاتب والاديب والقيادي في فصيل الجبهة الشعبية القيادة الغامة بقيادة احمد جبريل الموالي تماما لسوريا.

كانت هذه الاذاعة بشعارها التقليدي «على طريق تحرير الأرض والإنسان» تبث على خمس موجات قصيرة ومتوسطة وأف. ام، وتبدأ بثها بعبارات يتقاسمها مذيع ومذيعة:

تقول المذيعة: اذاعة القدس صوتكم المحنى بنكهة الزعتر البلدي والريحان

ويكمل زميلها: اذاعة القدس نبض الناس واحلامهم

وتواصل المذيعة: القدس تأتيكم مع خيوط صهيل الشمس فوق مآذن الاقصى وترانيم اجراس بيت لحم

ويستأنف المذيع: اذاعة القدس من هدير الموج على اسوار عكا وبحرها الى وشوشات النهر

اذاعتكم لفلسطين من بحرها الى نهرها

ابدعت هذه الاذاعة والتي كانت مسموعة بوضوح داخل فلسطين المنتفضة في استخدام الاغاني الثورية وعرض الاخبار بطريقة عاجلة وحماسية، غير ان كل ذلك لم ينفعها في محاولة اعتلاء صهوة الانتفاضة، فلقد ظل الموقف من الانشقاق الفلسطيني على حاله، وظل موقف المنتفضين داعم لقيادة عرفات ولزميله ابو جهاد الذي كان يتابع امور الانتفاضة بكل تفاصيلها اولا بأول.

ابو جهاد وبعد طرده واغلاق عدد من مكاتب جهاز الغربي بعمان يتردد اكثر على بغداد، القى محاضرة مهمة حول الانتفاضة بدعوة من مركز الدراسات الفلسطينية الذي انشأته جامعة بغداد عام 1967، كان

كما ياسر عرفات واثقا جدا من ديمومة الانتفاضة، ومؤمنا اشد الايمان بقدراتها، فعلا كان للانتفاضة مفعول السحر في مجمل النظرة العربية لفلسطين وقضيتها وشعبها، كان لها مفعول الترياق العجيب في الجسد الفلسطيني العليل.

التقى عدد من الزملاء مع ابو جهاد وطلبوا منه الأذن باستخدام مكبر الصوت الموجود في السفارة للخروج في مسيرة، ستهتف للمرة الأولى منذ عقدين تقريبا لحركة فتح علنا، ودون مواربة، وأمام البعثيين، وفي عقر دارهم بحي الوزيرية حيث مقرات كافة الاتحادات الطلابية العربية، عدنا الى أقسامنا الداخلية مساءا مبحوحي الصوت ولكن منتشين بهذا النصر الصغير.

نيسان من عام ١٩٨٨ الشهداء يتوافدون من الجبهة مع ايران بالعشرات على بغداد، واليافطات السوداء تتكاثر، وبعدها يعلن الناطق العسكري تمكن الفيلق الثالث من الجيش العراقي بقيادة ماهر عبد الرشيد من تحرير الفاو.

وتلعلع أنشودة «يا قاع ترابك كافوري عالساتر هلهل شاجوري»، ذهبت مع وفد عربي في القطار في رحلة استغرقت نحو ١٠ ساعات لنصل البصرة، ومنها الى الفاو لندخل مكامن الجنود الإيرانيين الفارين تاركين وراءهم رسائل بالفارسية، ونتفقد أرضا ملحية ينمو فيها نبات الحناء، ونشاهد عن بعد بضع نخلات وقد غاب رأسها بفعل قذائف تركت في الأرض تدرجات لونية تخلط الشعور بالجمال ببؤس الحرب، فرحة الانتصار لم تنزع من راسي اليافطات السوداء المتساوية المساحة والتي تعلن بذات الخط ونفس الصيغة استشهاد الرفيق البطل فلان الفلاني، فكيف لهذه الانتصارات ان تلقى أثرا عند ام أو زوجة أو ابنة الشهيد.

تجولت في البصرة لا أثر للسياب ولا لغيره، وقطارنا لا يمكن ان يكون

ذاته الذي حمل مظفر النواب، حين كتب رائعته «مرينا بيكم حمد، واحنا بقطار الليل، واسمعنا دق قهوة، وشمينا ريحة هيل» وهي القصيدة التي غناها ياس خضر وآخرون بعده ودخلت وجدان كل عراقي.

عدت لبغداد ناقما على البطولة والانتصارات ان كان ثمنها خراب البصرة، عدت حزينا وراثيا للعالم الذي يتغنى بالحرب، وكان في انتظاري خبر اغتيال ابو جهاد في تونس على يد وحدة اسرائيلية يقودها ايهود باراك، وما هي إلا ساعات حتى تعود دمشق الى الذاكرة، ففيها سيدفن الشهيد خليل الوزير ابو جهاد بمشاركة ياسر عرفات الذي سيعود للمرة الاولى الى دمشق بعد طرده منها قبل خمس سنوات، فهل تعود دمشق وهل يذوب الخلاف معها وهل سيعفو الجميع عما سلف؟

رثاه عضو اللجنة المركزية لحركة فتح سليم الزعنون ابو الاديب بهذه القصيدة:

ودّعتُ في درب الجهاد خليلًا... وحبستُ دمع الذكريات الأولى
يا من ملكتَ من القلوب أعزّها... وأنرت بالفكر السديد عقولا
يا حمزة الشهداء يا رمز الفدا... انا فقدنا الصارم المصقولا
قد كنتَ أصغرنا وكنتَ امامنا... نزهو ونفخرُ اذ تقودُ الجيلا
وسبقتَنا في موكبٍ لا ينتهي... شهداؤه ما بدلوا تبديلا
ملأوا السماء بطيفهم وبنورهم... ولطالما اشتاقوا اليك طويلا
يلقاك عند الله من سبقوا وهم... قد أكثروا التكبير والتهليلا
قد كنتَ في أُفق الحياة حياتهمْ... واليوم في الجنات صرتَ وكيلا
لمن العواصمُ نكّستْ اعلامَها... عمَّ الوجوم شآمها والنيلا
المسجد الأقصى يضجّ بأهله... وألآي فيه رُتّلت ترتيلا
وترى الكنيسة في مهيب ثيابها... رهبانها قد رنّموا الأنجيلا
تهتز » رملتكَ » الحبيبةُ بالأسى... يوم اعتزمتَ عن الحياة رحيلا

وهي التي هاجرتَ منها عنوةً... وشهدتَ فصلا للعذاب ثقيلا
وبغزة المختار فيض مشاعرٍ... ذكرتك عهدًا في الشباب أصيلا
ما للسماء دنَتْ اليه نجومها... وتعاقدتْ وتنضدتْ اكليلا
هذي الحياةُ بكتْ عليه بحرقةٍ... وهو الذي وهبَ الحياة جميلا
لمن الصخورُ تشققتْ وتدافعتْ... فوق الرؤوس حجارةً سجيلا
وندور في كل الدوائر حيرة... لما فقدنا في المسار خليلا
كُنتَ الجواب وكنت فارس دربنا... بل كنت سيفا للفدى مسلولا
أُفقٌ على اليرموك غيّب شمسنا... وطوى حبيبا للجهاد رسولا
يا ايها الشهداء هاتوا كأسكم... لا عاش من رضي الحياة ذليلا
ودّعتُ في اليرموك رمزًا قائدا... علمًا يرفرف بكرة وأصيلا
دوما ستبقى ملهمًا ومعلمًا... ان الرواية لم تتم فصولا
ايمان حر وانتصار ارادة... ونضال شعب يستقيم طويلا
وحنان نفس بل عقيدة مؤمن... لم يرض يوما أن يموت قتيلا
بين الفواجع باسم لا يرتضى... رغم الوداعة عن حمالك بديلا

لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة

نقل جثمان ابو جهاد الى مخيم اليرموك بسوريا، سوريا التي دخلها عام 1965 بغرض تجنيد من يستطيع من ضباط جيش التحرير الفلسطيني وشباب المخيم لصالح العمل الفدائى.

سبق لحافظ الاسد حين كان وزيرا للدفاع في سوريا ان اعتقل في العام 1966 كلا من خليل الوزير ابو جهاد وياسر عرفات بتهمة قتل الضابط البعثي يوسف عرابي المقرب له شخصيا، نُقل عرفات والوزير إلى سجن المزة وأبقيا في الحبس الانفرادي. عين الأسد لجنة تحكيم من ثلاثة أشخاص للتحقيق في القضية التي وجدت أن عرفات مذنب وحكم عليه بالإعدام. ولكن نائب الأمين العام لرئيس سوريا آنذاك صلاح جديد

عفا عنهما وأغلق الملف، غير ان الاسد لم يغلقه وظل يعتقل عبد المجيد الزغموط منذ ذلك الحين الى وفاته عام 2000، رغم اصابته بالسرطان.
العارفون بالقضية في دمشق اسروا لي بانه كان مطلوب من الزغموط تقديم دليل ادانة واعتراف ضد ياسر عرفات مقابل الافراج عنه. وان الاسد رد على وسطاء تدخلوا للإفراج عن الزغموط بالقول: لن يخرج الا في واحدة من ثلاث حالات، ان اموت انا، او يموت ياسر عرفات، او يموت هو. امضى الزغموط 34 عاما في الاسر، مات هو اولا في شباط من عام 2000 وبعده الاسد بأربعة اشهر ثم عرفات بعد 4 سنين. رحمهم الله جميعا.
آخرون كثر من القيادات الفلسطينية من شتى المستويات جرى اعتقالهم في سوريا ايضا، بينهم الرفيق جورج حبش الامين العام للجبهة الشعبية. كان كمينا محكما ذلك الذي اعده الرفيق وديع حداد حين هاجم قافلة للأمن السوري واشتبك معها من اجل الافراج عن رفيقه المعتقل جورج حبش. رحم الله الرفيقين حداد وحبش.
لا طاقة ولا رغبة عندي لمعاودة قراءة شهادة توفيق الطيراوي عضو مركزية فتح عن ظروف اختطافه من بيروت عام 1985 واعتقاله وتعذيبه لأربع سنوات في السجون السورية.
سبق لدمشق حين طردت ياسر عرفات من دمشق وشحنته كراكب عادي في الطائرة المتجهة الى تونس، سبق لها في حينه ان ابلغت القيادة الفلسطينية بان خليل الوزير «ابو جهاد» شخص غير مرحب به في سوريا.
نقل جثمان ابو جهاد الى سوريا وشيعه مئات الآلاف من ابناء فلسطين ودفن في مخيم اليرموك، كانت الجنازة الحاشدة خير استفتاء وتصويت على الثقة بمنظمة التحرير وبقيادة عرفات لها، استفتاء غير مسبوق

خاصة وانه يجري على ارض الخصم السياسي وبعد سنوات قليلة جدا على ذروة احتدام الصدام بين دمشق والمنظمة وبين المنشقين الموالين لدمشق وفتح التي تقود المنظمة.

يومها حمل اللاجئون الفلسطينيون في مخيم اليرموك سيارة عرفات فرحا بعودته، ونكاية بخصومه.

كتب بشير البكر وهو شاعر وكاتب واعلامي سوري مقالا في صحيفة العربي الجديد قال فيه: «كانت وصية الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد) أن يتم دفن جثمانه في مخيم اليرموك في دمشق، ولم يكن تنفيذ هذه الرغبة سهلا، لأن الرئيس السوري حينذاك، حافظ الأسد، رفض التجاوب معها، ولكن بعد انتظار ووساطات قامت بها شخصياتٌ رفيعة المستوى، استجاب الأسد بشروط، منها أن تكون مراسيم التشييع محدودة جدا، وتحت إشراف الأجهزة السورية».

ويضيف بشير البكر: «لم يكن الأسد على تفاهم مع قيادة حركة فتح التي يحتل أبو جهاد موقع الرجل الثاني في هرميتها بعد ياسر عرفات. وليس سرا أن الأسد اختلف مع قيادة «فتح»، منذ كان وزيرا للدفاع، وقبل أن يصل إلى الرئاسة في انقلاب عام 1970، وعارض أن يكون للحركة أي حضور أو عمل من داخل سورية، ما لم يكن تحت إشراف الأجهزة السورية، وفي المقام الأول الأعمال الفدائية ومعسكرات التدريب. 75 رصاصة اسرائيلية استقرت في جسد ابي جهاد، بينها 8 في القلب، وذلك ترجمة لغضب اسرائيل من عملية مفاعل ديمونا، ومن استمرار الانتفاضة، غير ان الانتفاضة استمرت وظلت ترفع الشعار الذي كتبه ابو جهاد بخط يده «لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة» لكن هذا الشعار الذي طبق داخل الارض المحتلة لم يجد له صدى في العالم العربي، ولم يسهم في عودة الحرارة الى العلاقات مع دمشق.

مؤكد ان المرارة التي اشعر بها وانا اطوي عذابات سنين في مجرد سطور، ليست شيئا يقارن بعذابات من عايشوها وكانوا حطبا لنيرانها، انا اعد الآن العصي التي تلقوها، والعصي هنا قد تكون مجرد مجاز عن الرصاص، كل مر سيمر لا محالة، مر مرار كثير قبل سوريا مع الاردن وزال بحمد الله، ومر مرار كثير بعد سوريا مع الكويت، وزال بحمد الله، وسيمر هذا المرار مع الامارات وغيرها ان شاء الله.

لن انفخ في الكير غدا سأحاول حمل المسك.

ع الصالحية يا صالحة

يقول الشيخ الطبيب محمد خير محيي الدين الشعال: «كان الشاميّ اذا خرج من دمشق القديمة (خارج الاسوار) ميمما شطر الشمال نحو جبل الصالحين (قاسيون) ووقف على ابوب حي الصالحية، خلع نعليه ومشى حافيا، احتراما واجلالا للمقادسة الصالحين القاطنين في سفح هذا الجبل قرب نهر يزيد».

يضيف الشيخ المولود في حي الصالحية ان دمشق تشرفت بمقدم هؤلاء المقادسة وهم من آل قدامة من قرية جماعين القريبة من نابلس، وانهم ما ارادوا ان يضيقوا على اهل دمشق للطفهم ونبلهم فنزلوا خارج باب شرقي ثم انتقلوا الى قرية النخل فعمروها واقاموا فيها المساجد كمسجد

الحنابلة والمدارس الشرعية والعلمية كالعمرية والضيائية، واجتهدوا في تعليم النساء، فوصفوا بالصالحين وسميت المنطقة بالصالحية تكريما لهم.

وهذا ما يؤكده ايضا المؤرخ الدمشقي، المقدسي الأصل أبا شامة عبد الرحمن بن إسماعيل إذ يقول: «بهم سميت الصالحية لصلاحهم»، وهو ما ثبته الشيخ محمد أحمد دهمان في كتابه المحقق «تاريخ الصالحية».

وتقول رواية اخرى ان تسميتهم بالصالحين وانتقال الاسم الى الحي الذي عمروه بعد ذلك في تلك المنطقة الفارغة ايامها، انما جاء من سكنهم في محيط جامع أبى صالح في منطقة القصاع قرب نهر عقربا، واما الانتقال فقد تم بعد ان دعا احمد الكهفي وهو احد مريدي الحنابلة الشيخ احمد ابن قدامه الى نزهة في أرضه على ضفة نهر يزيد في سفح جبل قاسيون, فاعجب الشيخ بجمال واعتدال مناخ موقع سفح جبل قاسيون المطل على مدينة دمشق ومبانيها المعمارية, وواحتها الخضراء, كما اعجب بعذوبة مياه نهر يزيد, فتوضأ منه ووضع حجرا نحو الكعبة وصلى هناك ثم شرع مع اتباعه في تشييد المبنى الذي عرف باسم (دير الحنابلة) وتتابعت أعمال تشييد المباني المختلفة حوله, فعرفت هذه التجمعات السكنية الجديدة باسم الصالحية التي ازدادت أهميتها وشهرتها واصبحت اليوم واحدة من اجمل واهم وانشط احياء دمشق.

كان السلطان نور الدين زنكي يأتي الى الصالحية لزيارة الشيخ احمد بن قدامه في هذا الحي الجديد التي تأسس وازدهر في مدة قصيرة وصار جميلا بطبيعته ومبانيه المعمارية العديدة كالمساجد والجوامع والمدارس والمعاهد والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق والخانات والحمامات والطواحين والترب والنواعير وغيرها, تحيط بها الحقول والبساتين المتميزة بأشجارها وثمارها وورودها.

اهتم السلطان زنكي بمدينة الصالحية الجديدة وراحة سكانها لأنه كان على قناعة بان رخاء عيشهم سيسهم في ازدهار مدينتهم, وان غناهم سيسهم في زيادة موارد الزكاة. وذلك ضمن خطة إعداده كل ما يلزم لتحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي الصليبي.

ما ان استقر هؤلاء في دمشق حتى بدأوا بتأسيس مدارس الفقه وتخصيص بعضها للنساء، يقول الشيخ على الطنطاوي في الجزء السابع من ذكرياته انه تتبع اخبار اسرة آل قدامة الذين انشأوا الصالحية فأحصى اسماء نحو 100 عالم، ووجد من نسائها العالمات بضعا وعشرين كلهن كانت تعد اذا عد مشايخ البلد.

هجرة هؤلاء منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، من جُماعيل (كما ذكرها ياقوت الحموي وقال ان معناها عين الاله)، او جماعين (كما ذكرها مصطفى مراد الدباغ اي تجمع جماعي العلم)، لم تكن هجرة لدنيا يصيبونها، او تجارة يريدون انشائها، لقد كانت هربا من الفرنجة الذين ارادوا الفتك بهم، ورغبة في تدريس الدين والمشاركة في الجهاد لتحرير بيت المقدس، خاصة وان نور الدين زنكي قد وضع نصب عينيه قتال الفرنجة منذ بداية استلامه لإمارة حلب، وكان هدفه تحرير القدس، حتى أنه أمر ببناء منبر ليضعه في المسجد الأقصى بعد أن يقوم بفتح المدينة وقد صنع هذا المنبر في دمشق بواسطة امهر الحرفيين من دمشق وحلب. ونُقل بالفعل إلى القدس بعد فتحها على يد صلاح الدين الأيوبي ودعي هذا المنبر فيما بعد بمنبر صلاح الدين.

عاش هؤلاء واولادهم حياة الزهد والتصوف وشاركوا في حروب زنكي وصلاح الدين، واقاموا حيا دمشقيا جميلا، ما زالت ارواحهم الصوفية تحلق في زواياه وآثاره، لتلهم الشعراء والفنانين.

ودمشق التي اكرمت هؤلاء واستقبلتهم خير استقبال، حفظت جميلهم

وردته لفلسطين بالكثير من الرجال، مثل الشيخ عز الدين القسام والثائر سعيد العاص، والقائد فوزي القاوقجي والمطران هيلاريون كبوتشي وغيرهم.

القسام يبيع النمورة في الازهر

واظب العراقيون من اتباع الطريقة القادرية على زيارة جبلة من اعمال اللاذقية للتبرك بقبر مصطفى القسام وابنه عبد القادر، الا ان الحفيد عز الدين القسام صار يردعهم وينهاهم عن الحج الى جبلة لهذا الغرض، كان جده قد نقل هذه الطريقة من موطنه الاصلي العراق، وبعد وفاته ورثها والده عبد القادر القسام.

عاشت أسرة عز الدين القسام حياة الكفاف والفقر، ولكنّ رصيدها من الذكر الحسن كان كبيرا، فهي أسرة متديّنة، ولها حظ من العلم الشرعي، ومكانة دينية فمنها أقطاب الطريقة القادرية، وكان آل القسام مشهورين بالعلم والصلاح، يعطون ولا يأخذون، ويكسبون قوتهم من عملهم.

اشتغل والده حدادًا لفترة من الزمن، ومستنطقًا (يكتب اوراق النفوس والعرائض في عصر الدولة العثمانية)، وكان يُعلّم الأولاد القرآن ومبادئ الكتابة، ويصلي بالناس في جامع السوق، ويزرع حاكورة، وفي هذه الاجواء من الجد والاجتهاد كبر عز الدين، ولما آنس منه أبوه رغبة في العلم أرسله إلى الأزهر.

كان عمره 14 عاما عندما ارتحل مع آخرين في قارب صيد الى الاسكندرية ومنها القاهرة ليصير طالبا ازهريا، كانت الدراسة ايامها على طريقة الحلقات، وقائمة على الجهد الحر في الدراسة، وكان الانتقال من منزلة إلى أخرى بمقدار ما يستوعب من العلوم التي تؤهله للارتقاء إلى مصافّ العلماء. وكانت العلوم الشرعية (الفقه والتفسير والحديث والأصول) والمواد اللغوية (النحو والبلاغة) هي مدار الدراسة الأزهرية.

روى عز الدين التنوخي زميل عز الدين القسام أن المال نفد منهما وهما يدرسان في الأزهر، فاقترح القسامُ أن يعدّ التنوخي الحلوى (الهريسة أو النمورة) وأن يقوما ببيعها، ليوفرا حاجاتهما، فاستفظع التنوخي الأمر وقال: ولكني أخجل ولا أستطيع المناداة، فأجابه القسام: أنا أصيح على بضاعتنا، وبهذه الوسيلة تمكن الاثنان من مواصلة الدراسة. وذات يوم جاء والد التنوخي لزيارته في القاهرة، وقبل دخوله

الأزهر وجد ابنه إلى جوار القسام خلف صينية الهريسة، فسأل: ما هذا؟ فأجابه ابنه محاولًا رد التهمة عن نفسه: عز الدين علمني، وهو صاحب الفكرة، فقال له: حقًا لقد علمك الحياة.

عاد القسام الى بلده ازهريا يكافح ضد الامية والجهل والفقر فاخذ يخطب في الفلاحين ويحرضهم على مُشغليهم من طبقة الافندية الجشعين ملاك الاراضي، يعلمهم ليلا دروس محو الامية للكبار ويدرس ابنائهم نهارا، ويحرض الناس على قتال المستعمرين في كل مكان، جمع التبرعات والمتطوعين لقتال المستعمر الايطالي في ليبيا.

احتل الأسطول الفرنسي اللاذقية والساحل السوري عام 1918 كان عز الدين القسام أول من رفع راية مقاومة فرنسا في تلك المنطقة، وأول من حمل السلاح في وجهها، نقل عنه ابن أخيه عبد الملك القسام أنه كان يقول: ليس المهم أن ننتصر، المهم قبل كل شيء أن نعطي من أنفسنا الدرس للأمة والأجيال القادمة، أي أنه كان يريد أن يضرب للناس مثلًا في الجهاد والقتال ويرفع من معنوياتهم.

ظل يرفض مهادنة الفرنسيين ولما احكموا سيطرتهم على دمشق وكان قد صدر قرار بإعدامه جاء الى حيفا فعمل مدرسا للبنات ولكبار السن من العمال كما عمل في الخطابة والامامة وصار مأذونا شرعيا، وكان يحرض الناس على مقاومة الانجليز وينظم القادرين منهم كأعضاء في الخلايا السرية لعصبته الجهادية، وظل كذلك الى ان زادت الهجرة اليهودية الى فلسطين وزادت معها حمى الاستيلاء على الاراضي فقرر الخروج بعصبته الى الجهاد علنا منطلقا من الريف سنة 1935 وهي السنة التي استشهد فيها بخربة زيد قرب يعبد تاركا زوجته امينة وبناته عائشة وميمنة وخديجة وابنه محمد في حيفا.

استشهد القسام ولم يترك لعائلته سوى مصحفا كان مخبئا في عبه

و14 جنيها، هي كل ما يملكه من الدنيا، وترك لأمته علامات مضيئة في كيفية التحريض على القتال وتشكيل الخلايا للجهاد، وكان لاستشهاده ولعصبته الدور الاكبر في اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى بين عامي 1936 وعام 1939.

شيوعي يمجد الشيخ القسام

»ثلاثون الفا يشيعون الشهداء الابرار» هكذا عنونت جريدة فلسطين عددها الصادر يوم الجمعة 22 تشرين الثاني عام 1935، أي بعد يومين على استشهاد عز الدين القسام ورفاقه في خربة الشيخ زيد قرب يعبد، خلال اشتباك مع قوات الاحتلال البريطانية.

وكتب اسعد الشقيري تحت عنوان «هؤلاء اتباع فكرة دينية قومية وما كانوا (اشقياء) يقطعون الطرق» باذلا غاية الجهد للرد على الدعاية البريطانية والصهيونية التي تسمي الشيخ وعصبته التحررية عصابة ارهابية.

عمل الصحافة الفلسطينية في ظل الاحتلال وقوانينه ليس سهلا، كانت دائرة التحقيق الجنائي لسلطة الانتداب هي المخولة بالإشراف على الصحف. والتحايل على سيف الرقابة يستدعي مهارة كان يجيدها صاحب الجريدة عيسى داود العيسى.

حفل العدد بتغطية شاملة للمواجهة ومن استشهد فيها ومن جرح ومن تم اسره ومن تمكن من الهرب، كما حفلت بتغطية لمسيرة التشييع وما واكبها من هجمات ضد البوليس البريطاني، ومن حضرها من الوفود، ومن ارسل برقيات تعازي.

عبد الغني سعيد الكرمي وهو من قيادات الحزب الشيوعي العربي الفلسطيني كتب في هذا العدد وتحت عنوان «اجتهد ومات في سبيل فكرته رحمه الله لقد كان مسلما صحيحا» وفيما يلي نص هذا المقال:

(عرفته بعد ان اثقلت كاهله السنون واربى على الستين، ولكن مجالدة الدهر، ومقارعة الحوادث، وصروف الزمان، ما ألانت له قناة، وما اذلت له جناحا لأحد، وما زادته الا ورعا وتقوى.

فلسطين
FALASTIN
ثلاثون الفا يشيعون الشهداء الابرار
رجم دائرة البوليس وسيارتها بالحجارة وجرح ضابطين
الهاف يستولد الانكليز والاستعمار - صدامات من الاهلين والبوليس
الجمعة الشيخ عز الدين القسام، اجتهد ومات في سبيل فكرته
رحمه الله الذي كان مثال صحيح الاسلام

كلن يمشي مطأطأ الرأس من خشية الله. وكان يتكلم في هدوء وتواضع واتزان، كالعالم الواثق من نفسه، المؤمن برسالته، الحريص على تقوى الله، وبث تعاليم الدين الصحيحة بين الناس، وما سمعته على طول صلتي به يحب الاصغاء الى لغو الكلام، والمهاترة، والاستغابة فاذا امعن المتحدثون في هذا الضرب من القول، رفع رأسه وقال: استغفروا الله ايها الناس – وانصرف عنهم.

وسمعته مرات خطيبا، فكان الخطيب الملسن، المالك اعنة القول، المؤثر

على سامعيه، فله من وقاره، وجلال مظهره، وبلاغته، وعلمه الديني الواسع، وقدرته على تخير الالفاظ والآيات القرآنية والاحاديث النبوية اكبر معين على اجتذاب القلوب اليه، وتصديق ما يقول، والاعتبار بما يجري على لسانه من عظات وعبر.

واحسب انه العالم الديني الوحيد في البلاد، الذي كان اذا صعد المنبر وخطب بالمسلمين في ايام الجمعة، يغرس في قلوب سامعيه حب الوطن، والايمان بالحق والجهاد في سبيل الله.

فقد كانت خطبه كلها مزيجا من الدعوة الصريحة الى الانتفاض على الظلم، والتفاني في التضحية، والتدليل على ان المسلم غير مكلف بالخضوع لسلطان غير مسلم او اجنبي عن امته، وكان يردد دائما الآية الشريفة: «يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم» ويشرح معنى «اولي الامر منكم» شرحا وافيا.

وما اظن اني سمعت له خطبة لم يذكر فيها الآية الشريفة «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون».

وما انسى ما حييت مقابلتي له في حيفا يوم علق شهداؤنا الثلاثة على اعواد المشانق في عكا في 17 حزيران 1930 فقد رأيته متجهم الوجه يغالب الدمع ويجالد، وفي عينيه بريق رهيب واوصاله ترتجف غضبا، وهو لا يكاد يعي ما حوله ورأيته يسرع الخطى الى المسجد فيعتصم به فتبعته، وهناك القى خطبة نارية على من حوله، ليس الآن مجال للتحدث عنها.

ورآني بعد اسبوع العب النرد في جمعية الشبان المسلمين وسمعني اسخر بقروي جاء ليتداوى في عيادة الجمعية الاسلامية اذ اشكل عليه التفريق بين الاسمين لتقاربهما فانتهرني واخذ بيد القروي الى العيادة ولم يتركه حتى اشترى له العلاج!

وقال لي ذات يوم: يمين الله ان شباب العصر الاخير ابتعدوا كثيرا عن النهج القويم وامعنوا في الضلال فلم يبق على هذه الامة الا ان تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وايمان وبعد عن بهارج مدنيتكم الزائفة وعلومكم وآدابكم التي تقصي الانسان عن الفطرة المستحبة.

فقلت له: أتدرى انهم يتهمونك بالشيوعية اذا سمعوك؟

فقال: انظر لقد اشتعل راسي شيبا، وخبرتي الطويلة تجعلني ارجو خيرا كثيرا من الفلاحين والعمال فهم واثقون بالله مؤمنون بجنات الخلد واليوم الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان اقرب الناس الى التضحية واجرأهم على الاقدام، اضف الى ذلك انهم اقوى بنية واكثر احتمالا للمشاق والمتاعب.

لما بلغني نبأ استشهاده في زمرة من هؤلاء الذين عناهم قبل خمس سنوات فهمت ما كان يقصد.

هذا هو المرحوم فضيلة الشيخ عز الدين القسام الذي لم يمنعه كبر سنه عن المضي في تحقيق فكرة اعتنقها ورأى فيها مجتهدا سبيلا لانعتاق امته من اسارها واغلالها. رحمه الله لقد كان مسلما صادقا).

انتهى مقال الشيوعي عبد الغني الكرمي، ولكن تغطية وانشغال الصحف باستشهاد القسام ورفاقه بدأت

الصراط المستقيم لصاحبها عبد الله القلقيلي تبنت فكرة تخصيص يوم للقسام تجري فيه توزيع شارات عليها رسم الشهيد وتجمع خلال ذلك التبرعات لكفالة اسر الشهداء.

جريدة فلسطين نشرت خبرا عن اقتراح مجموعة من الشخصيات الوطنية على الشاعر ابراهيم طوقان تأليف نشيد خاص للشهيد القسام

اللواء لصاحبها جمال الحسيني اهتمت بالنشر عن حملات بريطانية لمطاردة بقية افراد العصبة القسامية وتغطية الاستعدادات لحفل التأبين

العظيم يوم 5 كانون ثاني 1936 بحيفا
الدفاع نشرت مناشدة للاعتناء بأحد جرحى العصبة المتواجدين في المستشفى بحيفا، ودعمت فكرة ان يكون حفل التأبين في يعبد وان يقام هناك نصب لتخليد الشهيد القسام ورفاقه.
الكفاح لصاحبها صليبا عريضة سخرت من التقليل البريطاني من شأن القسام، وسألت باستغراب اذا كان القسام كما تقول بريطانيا فلماذا هذا الذعر؟!.
الحقيقة ان ما قام به القسام من تأسيس منظم ومن زرع للمعنويات قد فتح الباب للثورة، والحقيقة ان الصحافة الفلسطينية رغم كل القيود قد حرضت على هذه الثورة كما ينبغي، والحقيقة ان الوطنية ايامها لم تفصل بين الشيوعي والمتدين، وان القومية ايامها قد ذوبت الانتماءات الاقليمية فلم نجد واحدا يقول عن القسام انه سوري.
«لجنة بيل» التي شكلتها بريطانيا لدراسة مقترحات بشأن الانتداب في فلسطين بعد الثورة اعتبرت أن اللهجة الشديدة التي كانت تستخدمها الصحافة هي أحد عوامل تفجير ثورة سنة 1936.
الصور من موقع جرايد: الصحف العربية من فلسطين العثمانية والانتدابية»

إن الزعامة والطريق مخوفةٌ... غير الزعامة والطريق أمان

في عددها الصادر يوم الاحد 15 كانون الاول 1935 نقلت جريدة فلسطين عن جريدة الف باء الدمشقية قصيدة بعنوان «عز الدين القسام» وقالت انها لشاعر عربي كبير آثر ان يخفي اسمه.

اليوم نعرف ان قائل هذه القصيدة هو شاعر النهضة العربية فؤاد الخطيب، والذي كان يعمل مدرسًا للغة العربية والتاريخ العربي في مدرسة الكلية الأرثوذكسية في مدينة يافا حتى عام 1909، قضت تركيا بإعدامه في ذلك العام، فهرب الى مصر، وتنقل بعدها للعمل مدرسا في السودان ثم وكيلا لوزارة الخارجية في حكومة فيصل بدمشق ثم وزيرا للخارجية في حكومة الحجاز الهاشمية بالسعودية فرئيسا للديوان الاميري بالأردن ثم مستشارا للملك عبد العزيز بن سعود.

لا نعلم لماذا اخفى اسمه عن القصيدة، ولكننا نعلم انها 49 بيتا نشرت جريدة فلسطين منها 37 بيتا فقط، الابيات المحذوفة تتحدث بشكل مباشر عن ظلم وعنجهية بريطانيا وعن سعيها لتشويه سمعة وسيرة الشهيد وعصبته وتتوعدها بالثورة، كما تتحدث عن غدر واطماع اليهود. (لم يكن قد شاع بعد لا في الصحافة ولا خارجها مصطلح الاسرائيليون او الصهاينة او المستوطنون).

طبيعة الابيات المحذوفة تشير بوضوح الى تدخل مقص الرقيب البريطاني فيما تنشره الصحيفة او الى الرقابة الذاتية والتقدير المسبق الذي تمارسه الصحيفة للحيلولة دون اغلاقها او تغريمها او محاكمة اصحابها.

ولا نعلم إن كانت القصيدة قد نشرت كاملة ام ناقصة في جريدة الف باء الدمشقية، فدمشق كانت خاضعة لانتداب آخر هو الفرنسي، ولكننا نعلم ان الصحيفتين: فلسطين اليافاوية والف باء الدمشقية، فلسطينيتا المنشأ بل وابنتا عم ايضا، فصاحب الاولى هو عيسى داود العيسى وصاحب الثانية هو ابن عمه يوسف العيسى.

أقسمتُ أنكَ روضةٌ وجنان... والروح فيك يرف والريحان
أنت المقدس أيها السفح الذي... خشعت لديه ربي سمت ورعان
حرم على أطراف يعبد قائمٌ... في الطرم بارك حوله الرحمان

هبطته أطهر عصبةٍ لو أنها... سبقت لرتل مدحها القرآن
إن الزعامة والطريق مخوفةٌ... غير الزعامة والطريق أمان
فاسال بها المتنطعين تبجحًا... والكأس مترعةٌ لهم والحان
يتشدقون وإن كل دفاعهم... قولٌ يغص تهيبًا وبيان
كثر الكلام وما أفاد قلامةً... فتكلمت بلسانها النيران
عرفت فلسطين الشهيد ولم تكن... لينام عنه ضميرها اليقظان
هبت تودع منه أكرم راحل... خسئ التخرص عنه والبهتان
وكم استطال على المسيح بفريةٍ... فيها اليهود فلم يسعه مكان
كان الشقي بهم وقيل شقيهم... ولكم تملقهم به الرومان
إن يسلموه ويجحدوه فإنهم... عبدوه وارتفعت له الصلبان
حبطت دسائسهم وباد عتاتهم... ومضى الولاة وأودت الأعوان
شهدت فلسطين الرواية مرةً... أخرى وأبصرت البريء يدان
واليوم أنت بما فعلت وما جنوا... عظةٌ تجدد ذكرها الأزمان
أولت عمامتك العمائم كلها... شرفًا تقصر عندها التيجان
وجعلت لاسم الشيخ أرفع رتبةٍ... نبذت قديمَ عهودها الأوطان
واليوم حين رأتك قد ذكرت بها... زي الملوك وما ارتدى الفرسان
خفقت على اليرموك منه ذلاذل... وتدثرت بحبيره الأسبان
ورمى الغزاة به الحصون تقحمًا... لا الهول أقعدهم ولا الحدثان
الباسطون على الممالك ظلهم... والصادقون ودهرهم خوان
والضاربون الهام لم يلمم بهم... جزع ولم يتولهم طغيان
ما كنت أحسب قبل شخصك أمةً... في بردتيه يضمها إنسان
لم يثن عزمك والكتائب شمرت... نصلٌ يشب توقدًا وسنان
وعلمت من حمل السلاح وإنهم... في الأرض ليس لغيرهم سلطان
فالبر أين خطوت نهب صفاحهم... وهم الضياغم فيه والسيدان

والبحر أين نجوت طوع رياحهم... وهم السوابح فيه والحيتان
والجو أين علوت تحت جناحهم... وهم الأجادل فيه والعقبان
فرميت في نحر الجميع بعزمةٍ... صدقت وصغرهم لك الإيمان
ووثبت تخترق الصفوف مجاهدًا... والنقع أكدر والسماءُ دخان
آمنت باليوم الأخير فلم تخف... ومكذِّب اليوم الأخير جبان
يا أيها العرب الذين تقسمت... شتى الديار بهم وهم إخوان
زعم العداة عن الجزيرة أنها... خنعت وقلم ظفرها الخذلان
أين الذين تودهم وتعدهم... ركنًا إذا اضطربت لها أركان
هل تنظرون إلى البوائق حولكم... وإلى القلوب تكظها الأضغان
إن العروبة كهفكم وثمالكم... ليست تفرق بينها الأديان
إن يقض عز الدين فهو مخلد... خلعت عليه شبابها الولدان
ومن المعرة أن يكون شهيدكم... ويؤود عاتق أهله الحرمان
ويقول شانؤكم غدًا هي أمةٌ... نسيت وسر شقائها النسيان
طوفان نوح دهى الشعوب فعمها... ومن اليهود يخصكم طوفان
غمر الرواسي والبطاح تدفقًا... أين السفينة منه والربان
ضمن القديم لكم بقاء كيانكم... وعدًا وليس مع الجديد كيان
فهل الحمامة حاملٌ منقارها... غصنًا من الزيتون فيه ضمان
يا رهط عز الدين حسبك نعمةً... في الخلد لا عنت ولا أشجان
شهداء بدر والبقيع تهللت... فرحًا وهش مرحبًا رضوان
يا حصن يعرب في ثراك موسد... نعم الضحية عنك والقربان
هو صيحةٌ ملأ الفضاء دويها... فسل العروبة هل لها آذان

مات شاعر النهضة العربية فؤاد الخطيب عام 1947 في كابول حيث كان يعمل سفيرا للسعودية، ومات يوسف العيسى في عام النكبة بدمشق

بعد ان اصبحت جريدته الناطق الرسمي باسم القوى الوطنية المناهضة للانتداب الفرنسي، وكان آخر عمل قام به هو تشكيل لجنة في دمشق لجمع السلاح والمال للثوار في فلسطين. ومات عيسى العيسى في بيروت عام 1950 عن 71 عاما تعرض خلالها للنفي من قبل تركيا وتعرضت جريدته للتعطيل وخضع لعدة محاكمات بريطانية،،

مطران العرب كل العرب

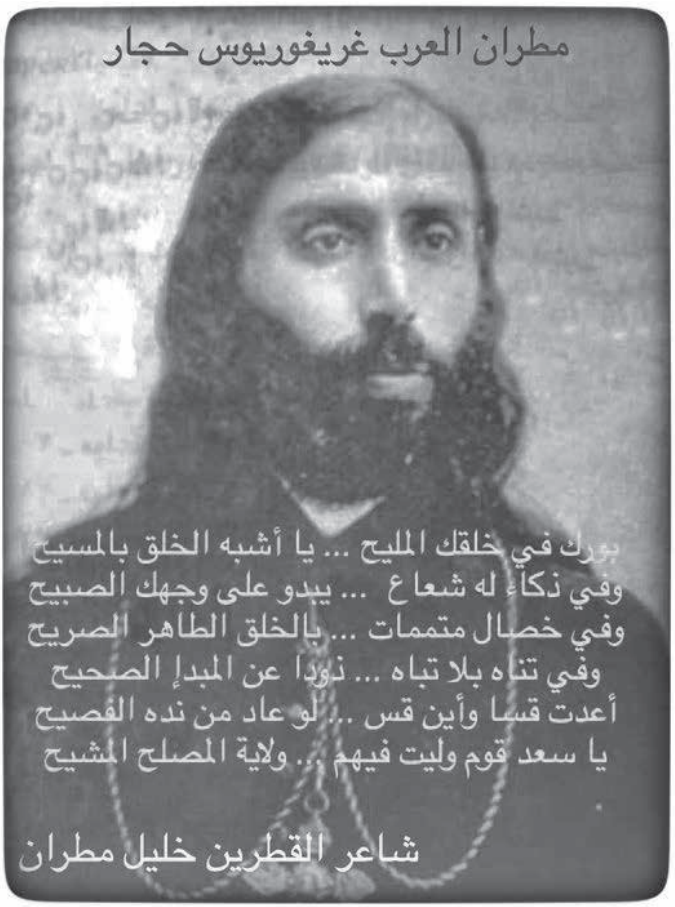

لا يمكن الحديث عن الشيخ السوري عز الدين القسام ونضاله في فلسطين، دون المرور على السيرة النضالية للمطران اللبناني غريغوريوس حجار في فلسطين طيلة 40 عاما، خاصة وان هذه السيرة ستتكرر بشكل او بآخر مع مطران سوري آخر هو المطران جورج البواب والذي عرف عالميا باسم هيلاريون كبوجي.

لم يتردد المطران غريغوريوس حجار القادم من لبنان الى فلسطين عام 1900 في مد يد العون لأبناء رعيته مسلمين ومسيحيين في عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل فدافع عنهم، وساعدهم بالمال ومنح الفقراء قطع اراضي تعود ملكيتها للكنيسة، وحرضهم على الامتناع عن دفع الضرائب الباهظة، فما كان من الحكومة التركية الا ان حكمت عليه غيابيا بالإعدام، ووضعت يدها على املاك طائفته من كنائس ومدارس، واستولت على مستندات كنيسته، وابعدت عددا من كهنتها من حيفا الى الشام، ولما انتهت الحرب العالمية الاولى عاد الى فلسطين، فوجد ان مدارسه قد تحولت الى خراب وان الظلم قد اصبح ظلمات، فلم يتأخر في اعادة الاعمار وتأييد الثورة ضد البريطانيين ورفض وعدهم المشؤوم والتنبيه الى الخطر الصهيوني المتمثل في هجرة اليهود وسرقة الاراضي.

استخدم علمه وبلاغته ومهارته في الخطابة من اجل حشد التأييد لنصرة فلسطين ومساعدة شعبها، في كل المحافل دينية ووطنية محلية واقليمية وعالمية، وامام لجان التحقيق الدولية. وكان سباقا في التحذير من مخاطر أي تطبيع عربي مع الصهاينة او أي تأييد لقيام دولة دينية يهودية.

لما سمعه الشريف حسين يخطب في الناس بالقاهرة اطلق عليه لقب «مفخرة الامة»، ووصفه الزعيم المصري سعد زغلول بأنه «أبلغ خطيب عربي». واما زوار كنيسته ولما شاهدوا بياض جبينه وشعره المنسدل الى كتفيه فقد اطلقوا عليه لقب «مسيح الشرق»، واما ابناء فلسطين مسلمين ومسيحيين فقط لقبوه بـ «مطران العرب» كل العرب، وكان هذا اللقب الاحب الى نفسه رغم ما يفرضه عليه من مهام اضافية، فهو لقب وظيفي اكبر من الواجب الديني.

نقل عنه استاذ الفلسفة والحضارات نصري الصايغ قوله: «أنا مطران العرب. هذا لقب جميل أعطانيه أبناء بلادي على اختلاف مذاهبهم، في

كفاحهم وجهادهم لتحرير بلادهم من ربقة الصهيونيين، وهي تسمية تعلي من شأني ومن قدري وتشجعني في كفاحي ونشاطي في سبيل فلسطين وإنقاذها من الخطر الصهيوني».

في حديث مع جريدة «الصحافي التائه» التي انشأها في زحلة الصحافي اللبناني اسكندر الرياشي عام 1922 حذر المطران حجار اللبنانيين من مغبة تأييد الصهيونية قائلا: «أنتم في لبنان مخدوعون في أمر الصهيونية، ولا ترون فيها غير المال الذي جاءت به الى بلادنا... إنه مالٌ باقٍ لليهود، وإذا استفاد منه بعض الملاكين القلائل عندنا، فهذا لا يعني ان فلسطين العربية استفادت منه... إن الفقر والحاجة اللذين يعيش بهما ابناء الشعب في فلسطين لم يسبق لهما مثيل... ان الاستثمار الذي قام به الصهيوني اخذ البقية الباقية من أموال الفلسطينيين»...

ويضيف «هل تعتقدون أن في فلسطين غير الشقاء والفاجعة... ومع هذا فأنتم في لبنان ما تزالون تعتقدون ان وجود اليهود عندنا ثروة لنا... وبينكم من يتغنى بهم... ومن أحباركم الأجلاء من يأخذ جانبهم..».

ما الذي قاد المطران وقتها الى تحذير اللبنانيين من التعامل مع الصهاينة؟!! ردا على هذا السؤال يقول الدكتور والباحث اللبناني خليل ابو رجيلي في حوار مع غسان الشامي في حلقة من برنامج اجراس الشرق على فضائية الميادين: ان قلة قليلة من مسيحيي لبنان رأت حينها في اقامة دولة يهودية قد يعيد التوازن المطلوب لمصلحة المسيحية امام الاسلام، وان هؤلاء سعوا لإقناع الآخرين عبر الحديث عن رخاء اقتصادي منتظر، ودفعوا الشباب الى الذهاب لفلسطين بحثا عن عمل.

كان المطران على علاقة حسنة بكافة الزعامات العربية وكافة القيادات الثورية للشعب الفلسطيني، ولم يختلف مع احد باستثناء الاقطاعيين الفلسطينيين، لقد ظل ينتقدهم على الدوام، ويرى انهم مقصرون في اداء

واجبهم الوطني.

رصد الكاتب سهيل مخول في مقال على موقع حيفا نت اسهامات هذا المطران في بناء العديد من المرافق الخيرية والكنائس والقاعات والمدارس ومساعدته كذلك في بناء مسجد، وقد شملت هذه الاسهامات الى جانب فلسطين الاردن ولبنان. يقول الباحث ابو رجيله في كتابه «غريغوريوس حجار مطران عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل» و الصادر عام 1970 ان المطران حجار وبعد ان تولى مسؤولياته زار كافة القرى وقدر احتياجاتها، وسافر الى الفاتيكان فحصل على منحة سنوية وعلى توصيات تؤهله للحصول على تبرعات من ايطاليين وبلجيكيين وفرنسيين، وانه استغل هذه الاموال لتلبية احتياجات قرى فلسطين فبنى 25 كنيسة و50 مدرسة كانت تعلم 3 آلاف تلميذ في ذلك الزمان.

كان الاديب والمسرحي الفلسطيني صاحب جريدة الزهور جميل البحري قد الف كتابا عن المطران في عام 1926، وجاء الدكتور جوني منصور ليؤلف عنه كتابا آخر عام 1985 بعنوان «رؤية معاصرة لحياة واعمال المطران غريغوريوس حجار».

اعتنى هذا الكتاب بالآراء السياسية والفكرية لهذا المطران الجليل الذي ظل مخلصا لعروبته وانسانيته ورافضا لأية طائفية او تمييز، ولعل الشهادة المنطقية والجريئة التي ادلى بها امام اللجنة الملكية البريطانية في القدس (لجنة بيل)، عام الثورة الفلسطينية سنة 1936 / 1937 تكشف عن هذه الافكار والمواقف.

كانت اللجنة البريطانية تتوقع سماع صوت مسيحي، مختلف عن أصوات المسلمين الفلسطينيين. وقد خاب ظنها عندما استهل المطران شهادته أمام اللجنة معرفًا بنفسه كممثل وطني، لا كرجل دين مستقل، قال: «أتيت لأتكلم لا باسمي الشخصي فقط، كرئيس ديني مستقل، وإنما

لأنقل إليكم صدى ما سمعته وأسمعه من شعبنا العربي الفلسطيني في المدن والقرى، وأنا مختلط به اختلاطًا تامًا منذ 36 سنة كأسقف عربي، أحسُّ مع الشعب، فأتألم لألمه وأفرح لفرحه وهو يفضي إليّ بما في صدره... العرب هنا في هذه البلاد من آلاف السنين قبل اليهود، ولم يقوَ اليهود على طردهم، وبقيت البلاد باسمهم الى الآن. فلسطين ظلت عربية، برغم ما عرفته من ديانات أكانت يهودية أم مسيحية أم إسلامية.

وتساءل المطران في شهادته عن وعد بلفور: أي قومية من القوميات يعنيها هذا الوعد ؟!... ان الحلفاء خالفوا طريقتهم في تقسيم البلدان، فأعطوا وعدًا لدين، لا لقومية او لجنس، وإن نتائج تنفيذ هذا الوعد ستكون وبالًا، واضاف: لا أظنكم إلا موافقين معي على انه لا يوجد شعب يهودي في العالم. ولو سألنا بلوم (رئيس وزراء فرنسا آنذاك) والمندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل، من أية جنسية أنتما، لأجاب كل منهما بالانتماء الى الأمة التي يحكمها. وحذر المطران من مغبة يهودية الدولة في فلسطين قائلا: «ومتى أصبحت فلسطين دارًا لدين واحد. سيصبح أصحاب الوعد أصحاب البلاد ونحن كزنوج أميركا».

في يوم الاحد 20 تشرين الاول من عام 1940 كان قد توجه الى القدس لمقابلة المندوب السامي البريطاني واقناعه بالإفراج عن فلسطينيين معتقلين في سجون الانتداب، عشية حلول عيد الاضحى المبارك، ولما تحقق له ما اراد، ذهب الى القدس فرفعه اهلها على الاكتاف وطافوا به في ساحة المسجد الاقصى، وفي طريق عودته الى حيفا تعرض لحادث سير غامض اودى بحياته.

يعتقد كثيرون انه تعرض للاغتيال على يد بريطانيا او العصابات الصهيونية، ويعزز اعتقادهم وجود دوافع قوية لدى الطرفين للتخلص من هذا المطران الذي لم يتوقف يوما واحدا طيلة اربعين عاما قضاها في

الابرشية عن خدمة فلسطين واهلها ومقاومة وفضح الاحتلال البريطاني والاطماع الصهيونية. ومما يعزز اعتقادهم ايضا بوقوع جريمة الاغتيال هو تضارب الروايات التي سجلت حول الحادث وعدم الامساك بالسيارة التي اصطدمت بسيارة المطران حسب احدى الروايات، ودهسته بحسب رواية ثانية.

كان المطران في مقتبل العمر قد سافر الى القاهرة وهناك اعترض موكب الخديوي وطلب منه منحة للدراسة فحصل عليها وبدأ يخطط لإنشاء مجلة، لشدة حبه للعربية لغا وتراثا، ولكن القدر ساقه الى فلسطين، فاحبها واحبته، واختارته رعيته ليكون اصغر من تقلد منصب مطران على مر الازمان، فظل وفيا لهؤلاء الذين احبوه، وظل يخدمهم اربعين عاما لم يغلق خلالها باب مطرانيته امام أي محتاج او سائل مهما كان دينه او طائفته.

مزودا بهذه الروح النضالية وهذا الفهم وهذا الحب وهذا النأي بالنفس عن التفرقة الدينية او الطائفية بدأ المطران هيلاريون كبوجي نضاله من اجل فلسطين.

جيفارا العرب تشهد له جروحه

مع استشهاد القسام واندلاع الثورة الكبرى في فلسطين عام 1936 كان (جيفارا العرب) فوزي القاوقجي، الضابط السابق في سلاح الخيالة العثماني قد بات على قناعة بلا جدوى الاستمرار في محاربة البريطانيين والفرنسيين لمنفعة العثمانيين او الالمان او حتى الملوك العرب، كان جسمه مثخنا بالجراح من معارك قادها ضد البريطانيين في العراق وبئر السبع وغزة، ومعارك اخرى ضد الفرنسيين في دمشق وحماة، وكان قلبه مثخنا بخيبات الامل من عمله كضابط في الجيش العثماني، ثم كقائد عسكري مع الملك فيصل في سوريا ثم في العراق، ومع الملك عبد العزيز كمدرب للجيش السعودي، وبات على قناعة بالحاجة الى ثورة كبرى في

سوريا الكبرى. شجعه على ذلك نجاح ثورة الامير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي.

جمع مئات المتطوعين العرب وادخلهم سرا الى فلسطين، فحارب الانكليز وانتصر عليهم في بلعا وبيت امرين وجبع القريبة من جنين، وكبدهم خسائر لم يعهدوها، حتى انهم قاموا باستبدال قائدهم العام بعدها، وهو ما الهب حماس ثوار فلسطين، الذين كانوا بأمس الحاجة الى خبراته العسكرية في المراوغة ونصب الكمائن.

ظل يحارب البريطانيين ويستعد لقتالهم لكن اللجنة العربية العليا قررت انهاء الاضراب الكبير وعقد هدنة استجابة لنداء الملوك والرؤساء العرب، لم يكن سعيدا بهذه الهدنة ولا مقتنعا بجدواها، ولا واثقا بوعود بريطانيا، ولكنه غادر الى العراق حيث فرضت عليه الاقامة الجبرية في كركوك ذات الغالبية الكردية التركية، تنفيذا لطلب بريطاني وشكوى تركية، ومن هناك بدأ يخطط للثورة مجددا بمساعدة المانيا لكن الاسلحة الالمانية التي ارسلت اليه صودرت، فيما بدأ القادة العرب مفاوضات مع بريطانيا، وكانت فرصته الثانية حين نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق سنة 1941، فقد قاد فريقًا من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين وتصدى لقوافل الانكليز العسكرية القادمة من الأردن عند الرطبة وخاض ضدها عددا من المعارك الناجحة.

أصيب بجراح خطيرة حين سارع إلى صد هجوم انكليزي على تدمر، فنقل إلى مستشفى دير الزور ثم مستشفى حلب ومن هناك إلى برلين. حيث أجريت له عدة عمليات جراحية استخرجت بنتيجتها عدة رصاصات وشظايا من جسده، وظلت احداها تسكن رأسه حتى أواخر حياته.

وعندما دعاه الألمان إلى العمل معهم أصر على أخذ اعتراف رسمي منهم بحقوق العرب واستقلالهم قبل الالتزام بالعمل. وشعر أنهم يحاولون

استغلاله واستغلال غيرة من الزعماء العرب الموجدين هناك. وآمن أن الألمان والايطاليين لا يسعون إلى صالح العرب، فهم يرفضون تشكيل جيش عربي نظامي، وكل همهم تجنيد قوات عربية فردية صغيرة تقوم بالتجسس والتخريب خلف خطوط الحلفاء. وقد اتهم القاوقجي الألمان النازيين بتسميم ابنه مجدي لأنه لم يتعاون معهم، ورفض الاشتراك في الجنازة العسكرية التي أقيمت له.

تراجعت آمال القاوقجي والعرب مع تراجع ألمانيا على مختلف الجهات ودخول السوفييت إلى برلين. اعتقله السوفييت مع زوجته ومرافقه ثم أطلقوا سراحه عندما ثبت لهم أن تعاونه مع النازيين كان كرها بالانكليز. رغم اطلاق سراحه ظل هناك تحت الرقابة، ولكنه استطاع أن يفلت منها ويصل الى القطاع الفرنسي من برلين ومنه إلى باريس بعيدًا عن أعين الانكليز الذين كانوا يلاحقونه لتنفيذ حكم الإعدام فيه. ثم طار إلى القاهرة فوصلها في شباط 1947. وهناك وجد قضية فلسطين قد بلغت مرحلة خطيرة، وبدأ الإعداد لتدخل عسكري بمساندة جامعة الدول العربية والهيئة العربية العليا للشعب الفلسطيني.

تقدم باقتراح إلى مجلس جامعة الدول العربية لتأليف قوة متطوعين عرب مدربين تسلحهم الدول العربية ويدخلون فلسطين للوقوف في وجه الصهيونيين، ولتدريب الشباب الفلسطيني في حين تقف الجيوش النظامية العربية على الحدود مستعدة لتلبية نداء الاستعانة بها عند الحاجة وافقت الجامعة العربية على الاقتراح وكلفت القاوقجي تولي قيادة قوات المتطوعين أو ما سمي جيش الانقاذ.

لم يكن بإمكان هذا الجيش من المتطوعين ان يفعل الكثير في مواجهة القوات الصهيونية حسنة الاعداد والتدريب، فيما يواجه النقص في التسليح والمال وحسن التدريب والاعداد اضافة الى سوء التنسيق، ورغم

ان نداءاته ومناشداته للقيادات العربية لم تلق ردا او اهتماما فقد شارك بفاعلية في معارك زرعين، وعارة، وقاقون، والطيرة وباب الواد مخالفا أوامر القيادة العامة التي طالبته بالانسحاب وتسليم مواقعه للجيش الاردني.

ولشدة شعوره بمرارة الهزيمة بعد توقيع اتفاقيات الهدنة الدائمة بين الأردن وسورية ولبنان ومصر مع إسرائيل انتقل إلى دمشق ليعيش فيها فيما يشبه العزلة، ثم غادرها إلى بيروت تحت وطأة ظروف مادية ونفسية أليمة وبقي فيها حتى وفاته. قالت زوجته الالمانية انه كان في اواخر ايامه يتحدث ويصيح بالتركية وكانه يتشاجر مع القادة العثمانيين.

البعض يكرهون هذا الرجل ويتهمونه بالعمالة لبريطانيا تارة، وللألمان تارة اخرى، وهناك من يتهمه بمواصلة السير من فشل الى آخر، والسعي الى احداث فرقة بين القادة العرب، وتقليص مكانة الحاج امين الحسيني، بعض هؤلاء لا يتورع عن ايراد غراميات القاوقجي مع نساء من العراق ولبنان فضلا عن الالمانية التي تزوجها فيما بعد، وبعضهم قال انه شوهد يشرب الويسكي بعد ان استولى على عتاد جنود بريطانيين اسرهم خلال معركة بالسلط، وانه فعل ذات الامر خلال استيلاء الناس على مخازن كانت للقوات العثمانية المنسحبة من طرابلس.

وفي مواجهة هذه الاتهامات لا بد من ايراد جملة حقائق ومنها، ان الزعماء العرب هم اصل وسبب الهزيمة، وان القيادة المحلية الفلسطينية لم تكن ترغب بان ينال المتطوعون العرب من سوريا والعراق ولبنان مكانة متقدمة عليها، وان الفلاحين والمخاتير في القرى قد ضاقوا ذرعا بتلبية احتياجات الثوار، وان بعض قيادات الثورة قد اساءت استخدام القيادة فنفذت اعمال ثأر وانتقام على خلفيات عشائرية.

يبقى الاهم ان لا احد ابدا ينكر ما لدى القاوقجي من غيرة على عروبته

وشجاعة في مواقفه، وجرأة في ميدان المعارك. وان لم تشهد له الناس بذلك فان جروحه الكثيرة تكفي للشهادة له.

القاوقجي مثيرا للجدل

يبدو ان الانقسام حيال شخصية ووطنية القائد السوري فوزي القاوقجي اكبر بكثير مما تخيلت، البعض يصفه بالمجاهد والانموذج الثوري والبعض يصفه بالخائن والعميل، مرة لبريطانيا ومرة للصهاينة ومرة للألمان ومرة لفرنسا. هذا على صعيد الابحاث والدارسين، او على الاقل ما توفر بين يدي من انتاجاتهم. واما على صعيد الشعر: فصيحه وشعبيه، فالانقسام اكثر حدة، نظرا للمشاعر المطلقة التي يسعى الشاعر لتكريسها، مدحا او ذما.

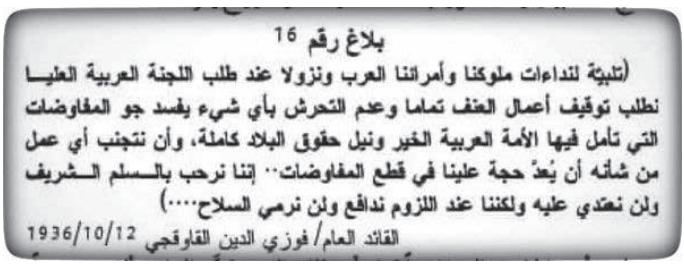
بلاغ رقم 16

(تلبيةً لنداءات ملوكنا وأمرائنا العرب ونزولا عند طلب اللجنة العربية العليا نطلب توقيف أعمال العنف تماما وعدم التحرش بأي شيء يفسد جو المفاوضات التي تأمل فيها الأمة العربية الخير ونيل حقوق البلاد كاملة، وأن نتجنب أي عمل من شأنه أن يُعدّ حجة علينا في قطع المفاوضات.. إننا نرحب بالسلم الشريف ولن نعتدي عليه ولكننا عند اللزوم ندافع ولن نرمي السلاح....)

القائد العام/ فوزي الدين القاوقجي 1936/10/12

ترى، في مواجهة الرأي الخاضع للاثبات وللنقاش الذي تكرسه الابحاث والمقالات. كيف سيُنظر للرجل (القاوقجي) في الرواية التاريخية؟

» كانت المؤامرات التي تحاك ضد الشعب الفلسطيني، تحاك ضده في الخفاء، أحيانًا من قبل أولئك الذين يتسابقون لنجدته، وهم يدفعون به إلى الهاوية، أو إلى خارج وطنه... كل مكروه لحق بالشعب الفلسطيني كان رغمًا عنه، حتى وإن بدا أحيانًا أنه قابل به».

المقصود بهذه الكلمات هو فوزي القاوقجي، ولكنها قد تنطبق على كثير من الزعامات التي جاءت بعده، قائل هذه الكلمات هو الكاتب والشاعر والروائي ابراهيم نصر الله وبها يبدأ مقاله «عن فلسطين... وكرامة أطيب من الخبز وجهنم التي تطرُق الأبواب» والمنشور في القدس

العربي بتاريخ 27 حزيران 2018، ليصل الى احكام خطيرة منها: القاوقجي استدار على العرب الذين اتفقوا على زعامته وتعيينه قائدا لجيش الانقاذ، التواطؤ مع الزعامات العربية لايقاف ثورة 1936 مقابل وعود، واحد من اسوأ القيادات، وليختم بالقول: ومثل فوزي القاوقجي، هناك زعامات فلسطينية في الأمس القريب واليوم، لم يكن دورها أقل خيانة عن دور القاوقجي.

48 – شوف!! (في الشمال الفلسطيني كان الأمر مختلفا تماما فقد (خرجت الجماهير.. لاستقبال البطل فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ!! وكان في خيالها صور البطل فوزي القاوقجي المعلقة على الجدران من أيام 1936، لكنه هذه المرة قبع في قرية (جبع) واتخذ مقره في سرايا (دبة ترسلا) قرب سيلة الظهر وهي سرايا ضخمة فخمة كانت رئاسة للبوليس قبل ذلك، وعندما أعابت به وفود الأهالي للقتال كان جوابه أنه سيقاتل بعد انتهاء فصل الشتاء (إنني أنتظر طقسا حسنا وجفافا للأرض لأنني سأستخدم أسلحة ثقيلة). وقد كانت وفود الحواجات تتقاطر عليه في مقره وتحت حراسة رجاله دون أن يدرك الناس أنهم بعض قادة الصهاينة كما اتضح لاحقاً !! ففي 1/ 4/ 1948 اجتمع القاوقجي سرّاً مع جوش بالمون احد قادة الهاجناه وأول رئيس للموساد في الكيان الصهيوني – فيما بعد – من اجل تنفيذ المخططات المعدة مسبقا، وقد جرى هذا الاجتماع في احراش قرية نور شمس، وفيه طلب القاوقجي من بالمون (نصراً تمثيليا واحداً)!! فردّ عليه بالمون: إن هاجنتا كيفما كان سنردّ عليك بالأسوأ، إياك أن تتدخل!!

وهكذا، كانت له وجيشه تحركات مشبوهة، موهماً الناس أنه يقاتل، فسلّم منطقة الجليل كلها إلى اليهود، وفي وجود جيش الإنقاذ سقطتْ مدن فلسطينية كبيرة مثل حيفا ويافا وعكّا والناصرة وصفد.

لا، لم يكن متقاعساً كما خيّل للناس في بادئ الأمر وحسب، بل ثبت للجميع بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان متواطئاً مع الصهاينة، وبتنسيق غريب، وقد خرج من فلسطين مذموماً تلاحقه اللعنات.)

492

وما من شك لدي في ان صاحب «زمن الخيول البيضاء» والفائز بالبوكر وغيرها من الجوائز، وباعجاب النقاد والقراء وهذا الاهم، قد افاض واطال في تتبع ودراسة فوزي القاوقجي ومرحلته بكاملها قبل ان يكتب روايته الشهيرة، والتي خالفت المكرس في الاذهان عن بطولة او حسن نوايا الرجل، او سوء ادارته او خذلان الزعامات العربية للقاوقجي، لترسم له صورة الخائن لأمته.

منذ فترة طويلة وانا اؤجل قراءة هذه الرواية، بالامس حملتها على جهازي وبدأت بقراءتها، غير انني وقبل البدء استخدمت خاصية البحث لاعثر على المقاطع التي يرد فيها اسم القاوقجي فوجدتها خمسة (كما في

الصور) وهي كالتالي:

اسمه في نهاية منشور يطلب فيه وقف اعمال (العنف) تلبية لنداء الملوك والامراء العرب، وطلب اللجنة العربية العليا وتاريخ المنشور 12 تشرين اول 1936.

48 – شوف!! (في الشمال الفلسطيني كان الأمر مختلفا تماما فقد (خرجت الجماهير.. لاستقبال البطل فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ!! وكان في خيالها صور البطل فوزي القاوقجي المعلقة على الجدران من أيام 1936، لكنه هذه المرة قبع في قرية (جبع) واتخذ مقره في سرايا (دبة ترسللا) قرب سيلة الظهر وهي سرايا ضخمة فخمة كانت رئاسة للبوليس قبل ذلك، وعندما أعابت به وفود الأهالي للقتال كان جوابه أنه سيقاتل بعد انتهاء فصل الشتاء (إنني أنتظر طقسا حسنا وجفافا للأرض لأنني سأستخدم أسلحة ثقيلة). وقد كانت وفود الحواجات تتقاطر عليه في مقره وتحت حراسة رجاله دون أن يدرك الناس أنهم بعض قادة الصهاينة كما اتضح لاحقاً !! ففي 1/ 4/ 1948 اجتمع القاوقجي سرّاً مع جوش بالمون احد قادة الهاجناه وأول رئيس للموساد في الكيان الصهيوني – فيما بعد – من اجل تنفيذ المخططات المعدة مسبقا، وقد جرى هذا الاجتماع في احراش قرية نور شمس، وفيه طلب القاوقجي من بالمون (نصراً تمثيليا واحداً)!! فردّ عليه بالمون: إن هاجتنا كيفما كان سنردّ عليك بالأسوأ، إياك ان تتدخل!!

وهكذا، كانت له وخيفه تحركات مشبوهة، موهماً الناس أنه يقاتل، فسلّم منطقة الجليل كلها إلى اليهود، وفي وجود جيش الإنقاذ سقطتْ مدن فلسطينية كبيرة مثل حيفا ويافا وعكّا والناصرة وصفد.

لا، لم يكن متقاعساً كما خيّل للناس في بادئ الأمر وحسب، بل ثبت للجميع بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان متواطئاً مع الصهاينة، وبتنسيق غريب، وقد خرج من فلسطين مذموماً تلاحقه اللعنات.)

492

اسمه في منشور آخر يدعو الناس الى الصبر وعدم الانجرار وراء الاستفزاز الصهيوني خوفا من افساد المفاوضات التي بدأها الملوك والامراء العرب وتاريخ المنشور 20 تشرين الاول 1936.

اسمه في استخلاص ورد في حاشية الصفحة ويرى فيه الكاتب انه كان لنجاح القاوقجي في انهاء ثورة 1936 الاثر الاكبر في اجماع القادة العرب على تعيينه قائدا لجيش الانقاذ.

كما ورد في ملخص عن اجتماعه السري مع احد قادة الهاغاناة الصهاينة، وطلبه منهم «مجرد انتصار صغير» ورفضهم لذلك وتهديدهم له بعدم التدخل وإلا. ورد ذلك في حاشية الصفحة 492.

مرة خامسة واخيرة حين سرد الكاتب في نهاية الرواية المصادر الكثيرة التي اعتمد عليها ومنها مذكرات فوزي القاوقجي.

يحمل المنشوران الاول والثاني صفة الوثيقة التي يمكن تحليلها مع عدم

الطعن بصحتها، ويحمل الاستخلاص صفة الرأي الخاضع للنقاش، واما الاجتماع السري فامره مبهم قليلا لانه يحمل صفة التسريب اكثر من صفة الوثيقة، وهذه بالذات كنا بحاجة الى معرفة مصدرها. ليطمئن القلب الى حكم الكاتب بخيانة المكتوب عنه.

في حوار مع المصري اليوم نشر بتاريخ 6 شباط 2018 وردا على سؤال: فى رواية زمن الخيول البيضاء.. أبحرت عكس التيار خصوصًا فيما يتعلق بشخصية القائد العسكرى فوزى القاوقجى والاعتقاد السائد عنه؟

(.. أطلبُ من الشعب العربي المجيد مراعاة الأمور الآتية بكل اهتمـام: عـدم مقابلة اليهود بالمثل، وهم الذين أخذوا يعتدون، لا عن شجاعة أو شهامة.. بـل بقصد الدّس والإفساد بين جيش الثورة والجيش البريطاني كـي يعـود النـزاع والاضطراب ولكي يفسدوا علينا المفاوضات فيحولون دون نيل البلاد حقها، وإني أنتظر من الشعب الكريم الصبر والتنظار ما ستصنعه السلطة البريطانية في حقوق العرب... إن جيش الثورة لفخور جدا بأن يكون قام بواجبه، كما عاهد، وأنهـى مهمته بالفوز وأوصل البلاد إلى حدود أمانيها وحقوقها التي أصبحت في عهـدة الملوك والأمراء والأمة العربية جمعاء. لهذا ترى قيادة الثورة، اعتمـادا علـى ضمانة الملوك والأمراء وحفظا لسلامة المفاوضات، ولعدم جعل أية ذريعة للخصم يتذرع بها للعبث في الحقوق المضمونة أن يترك الميدان.. بعد أن لم يبق لـه أي عمل، وإنها لتعاهد أن يكون جيش الثورة في طلائع الجيوش العربية التي سوف تسرع لإنقاذ فلسطين!!!)

القائد العام/ فوزي الدين القاوقجي 1936/10/20

يرد ابراهيم نصر الله:

حين تذهب للكتابة عن التاريخ، أول شيء تفعله هو قراءة التاريخ عبر وجهة نظرك ككاتب، وتحلله، ثم في الكتابة تطرح رؤياك، وهذا ما حصل بشأن شخصية القاوقجى، ولم أر حتى الآن من يقول لي، أو يكتب، أن قراءتي لهذه الشخصية لم تكن صحيحة، على العكس من ذلك أيدها مؤرخون محترمون، وقدّروا ذهابى إلى منطقة عميقة، جديدة، وجريئة إلى هذا الحدّ، فى تناول هذه الشخصية.

ستظل حرية الكاتب الروائي في اطلاق الاحكام على شخصيات التاريخ

ورموزه السياسية المؤثرة بين أخذ ورد، ومحور نقاش، البعض سيتساهل ازائها باعتبارها حرية رأي وتعبير، وقد يسعى البعض لتقييدها كون بعض الاحكام التي قد يصدرها الكاتب كالخيانة مثلا على شخصيات حقيقية هي حق حصري لمؤسسات العدالة.

لمقاربة الامر تخيلوا مثلا لو ان ابناء القاوقجي رفعوا قضية تشهير ضد الكاتب بحق والدهم! تخيلوا مثلا ان نسمح لكاتب آخر بتخوين الحاج امين الحسيني، ولثالث بتخوين ياسر عرفات!. طبعا انا ضد تقديس هؤلاء او غيرهم، ولكنني ايضا اقف ضد تنزيه الكاتب، وإن كنت ارى ان اية زلّة قد تصدر عن كاتب ما، تصدر عنه يصدر بدافع حسن النية. واضف الى ذلك ان الكاتب قد يستخدم تعبير الخيانة قاصدا خيانة المبدأ او الضمير او الاصدقاء اكثر مما يقصد خيانة الشعب والقضية عبر التعاون مع العدو.

لا اميل الى تقييد الكتاب وخاصة الروائيين، ولكنني احب ان يقيدوا هم انفسهم بترك الاحكام المطلقة المحصورة باجهزة العدالة، وان يستغلوا ما لديهم من قدرات في تطويع اللغة لتقول ما يريدون قوله دون اغلاق الباب امام وقائع اخرى. فللتاريخ عدة اوجه.

اعتقد اننا نحن الفلسطينيون ميالون بشكل مرضي لتخوين الآخرين، نستسهل ذلك، ونستشعر الراحة من وراءه، فنظرية المؤامرة علينا تُعفينا من محاكمة انفسنا، وتبرر هزائمنا المتلاحقة، وإلا فلماذا نخوّن القاوقجي وهو مجرد قائد عسكري، وننسى الزعماء السياسيين الذين امروه بذلك؟ ولماذا لا نتجرأ على محاكمة قيادات محلية فلسطينية اخرى كانت معه في الميدان؟!

الامر لا يتعلق بالروائي ابراهيم نصر الله وهو المولود والمترعرع في مخيم الوحدات بالأردن، كونه هو وعائلته ضحايا للنكبة التي سببها

ضعف وجهل قياداتنا الفلسطينية قبل تآمر الحكام العرب وتخاذلهم وضعف امكانيات وقدرات القيادات العسكرية، وحجم التفوق والدعم الذي حظيت به العصابات الصهيونية. الامر لا يتعلق بالروائي فهو من المشهود لهم بالدقة والتعمق وعلو الاحساس بالمسؤولية الوطنية، الامر يتعلق بتنامي حرب التشويه تحت ستار حرية التعبير، وكثرة التحليلات المستندة الى حبكات بوليسية، والى نظرية المؤامرة الكبرى.

اجمالا لم تسلم شخصيات تاريخية اهم بكثير من القاوقجي من الطعن والتجريح في سيرتها او التشدد في محاكمتها، الكثير من ثوار 1936 ينظر اليهم كقطاع طرق، والكثير من ثوريي الحاضر يحاكمون كارهابيين، وينظر الى المنتفضين كفوضويين، الزعيم المصري جمال عبد الناصر طاله كثير من التشويه، وصلاح الدين الايوبي حرر بيت المقدس، ولكنه من لم يسلم من الانتقاد.

قد يرى البعض ان الكتابة التاريخية امر نخبوي وان مستهلكها قادر على التمييز، ولكن بعض هذه الكتابات قد يتحول الى مسلسلات تلفزيونية يشاهدها العامة. والحقيقة ان المشاهد العربي المتابع لبرامج الفضائيات ولسيل الآراء المتضاربة، لم يعد يجد رمزا يُحتفى به، لقد تم الطعن في كافة الرموز وتم تعهير المرحلة: سياسات واحزاب وشخصيات. وقد وضع كل ذلك واستقر في الاذهان على صورة مؤامرة اكثر مما استقر كخلل له اسبابه.

يحتاج الشرق الى الكثير من طراز هذا الرجل

«إن بعض الشعراء مدينون بشهرتهم لدى أوساط واسعة إلى حنجرة بعض المطربين» خطر ببالي هذا القول لمحمود درويش وانا افتش عن قصيد كتبها المهندس والشاعر المصري الكبير علي محمود طه، في مديح فوزي القاوقجي بعد السماح له بالدخول الى مصر، لا احب شعر المديح ولا شعر المناسبات، وربما ما كنت سأسمع بالشاعر لولا انه صاحب قصائد جميلة ابدع في تلحينها وغنائها الفنان محمد عبد الوهاب وهي: الجندول وكليوباترا واخي جاوز الظالمون المدى.

كان القاوقجي في المانيا ولكن على خلاف معها، دخل السوفييت إلى برلين فاعتقلوه مع زوجته ومرافقه ثم اطلقوا سراحه عندما ثبت لهم

أن تعاونه مع النازيين كان كرها بالانكليز. رغم اطلاق سراحه ظل هناك تحت الرقابة، ولكنه استطاع أن يفلت منها ويصل الى القطاع الفرنسي من برلين ومنه الى باريس بعيدًا عن اعين الانكليز الذين كانوا يلاحقونه لتنفيذ حكم الإعدام فيه. ثم طار إلى القاهرة فوصلها في شباط 1947.

يقول الشاعر «كنت اقاوم المرض وما تمنيت على الله اكثر من فسحة في الاجل لأتم هذه القصيدة التي ظلت روحي تضطرب بإثارتها، اني من دعاة الكفاح العملي في سبيل انقاذ الشرق من ربقة الاستعباد وقد وجدت في حياة فوزي القاوقجي الجندي العربي الباسل الذي لم يحفل بالموت والعذاب، والتشريد والحرمان هائما في صحارى الشرق محاربا بسيفه، سافكا دمه في هذا السبيل، انا في حاجة الى مثل هذه البطولة والرجولة، وغدا سيحتاج الشرق الى الكثير من طراز هذا الرجل.»

ويضيف الشاعر في مقابلة اجريت معه قبل وفاته عام 1949 وأعادت نشرتها «ملاحق المدى» مؤخرا: «دع عنك من يقول ان هذا من شعر المناسبات، فان للشعراء قلوبا تخفق كسائر الناس يحب اوطانهم، وان لأوطانهم حقوقا.. انه من شعر النفس لأننا نقوله بلا تكلف، لأنه يتفجر من صميم احساسنا العميق بقوميتنا ووطنيتنا».

لم استطع مقاومة اغراء قراءة الجندول وكليوباترا ثم سماعهما بصوت عبد الوهاب، قبل ان اواصل البحث عن القصيدة، التي تمدح الرجل ولا تذكره بالاسم فوجدت قصيدتين:

الاولى «عودة المحارب» من 60 بيتا وتمدح جهاد واغتراب وبسالة القاوقجي، وجاء في مطلعها:

أتدري الريح من ملكت زمامه... تشقّ الغرب و تطوي ظلامه؟

هفت للشرق فاختلجت جناحا... به، و استقبلت لثما غمامه!

واما الثانية فهي «من الاعماق» وهي من 28 بيتا ويمدح فيها زميل

القاوقجي في الجهاد وغريمه في الزعامة السياسية الحاج امين الحسيني، وجاء في مطلعها:

حيّتك في الشرق آمال و أحلام... و قبّلتك جراحات و آلام

واستقبلتك على الوادي وضفّته... عروبة وثبت فرحى وإسلام

قيلت هذه القصيدة في مساء يوم الخميس المصادف 20 حزيران 1946. يومها تفاجأ الشاعر والجميع بالظهور العلني لمفتي الديار الفلسطينية الحاج أمين الحسيني في قصر عابدين بعد خروجه خفية من باريس.

ايامها استطاع المفتي الهروب من ألمانيا في اللحظات الأخيرة قبل سقوط برلين، وتم القبض عليه في فرنسا، وقضى يومين في زنزانة مظلمة، ولكنه تقدم للضابط المسئول وعرَّفه بنفسه ومكانته، وطالب أن يعامل بالشكل اللائق، وبالفعل انتقل لمنزل جنوب باريس، وعندما أعلن عن وجوده في فرنسا، بدأت المطاردة له من السلطات البريطانية والأمريكية، والصهيونية داخل فرنسا، ورفضت فرنسا أن تسلِّمه بسبب خلافها مع المصالح البريطانية والأمريكية، وحرصًا على عدم استثارة المشاعر الإسلامية، وبدأت المقايضة الأمريكية مع مشروعات إعادة إعمار فرنسا بتمويل أمريكي، ولكن وقبل أن تقرر فرنسا تسليمه لأمريكا استطاع المفتي أن يهرب من فرنسا عن طريق استخدام جواز سفر لأحد أنصاره في أوروبا، وهو الدكتور السوري معروف الدواليبي. ونجح المفتي في الوصول إلى القاهرة وظل متخفيًا بها عدة أسابيع حتى استطاع أن يحصل على ضيافة رسمية من القصر الملكي تحميه من المطاردة الدولية لشخصه.

الدواليبي والذي تولى رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع والخارجية في سوريا مرتين، وانتهى مستشارا في الديوان الملكي السعودي، واحد من الد اعداء القاوقجي، واشد انصار المفتي، ويقول في مذكراته: كان القاوقجي

يوصل أسرار الألمان إلى إنجلترا.

الحقيقة ان الاتهامات التي يسوقها الدواليبي ضد القاوقجي اكبر بكثير من ان يصدقها العقل بسهولة، فهو يتهمه بالتسبب في هزيمة المانيا!! ويقول ان النازيين اكتشفوه، ولكنه لا يجيب على سؤال: لماذا لم يعاقبوه؟!، الغريب ان المفتي كان يكرر هذه الاتهامات بشكل رسمي ويوصلها للالمان.

يستحق الخلاف الغريب والعجيب والمضحك والمبكي بين المفتي والقاوقجي من جهة وبين المفتي ورشيد عالي الكيلاني من جهة اخرى حلقة خاصة وطويلة لشدة ما فيه من غرابة وسذاجة سياسية، وظهور جلي للمحرضين على الخلاف، وهو خلاف ادى الى الاطاحة بشخصية السفير الالماني الاشهر غروبّا والذي كان يعادل «لورنس العرب» في الدهاء وتجنيد العرب.

لم يكن الشاعر على محمود طه الوحيد الذي مدح فوزي القاوقجي فقد مدحه كثيرون، ولكنه الوحيد الذي تلقى رسالة شكر من القاوقجي، ولم يكن نصيب القاوقجي من الشعر مديحا فقط، لقد ناله كثير من الهجاء المرير ايضا.

يا دار لنا... حقك علينا

حواريّ على كفيّه قلب... أبى غير الشّهامة و الكرامه
كسته خشنة غير الليالي... وسلّت عزمه وجلت حسامه
أقام على الفلاة طريد ظلم... وذيد، فما أطاق بها مقامه
وبايع في شبيبته المنايا... فعادت منه وادّرأت حمامه!

أحلّوا قتله وطلّبوه... دما حرا وروحا مستهامه
تنسّي الحرب كلّ فتى هواه... ولا ينسى الكميّ بها غرامه
زئير الليث يطرب مسمعيه... وتشجيه برنّتها الحمامه
ويفرك راحتيه دما ونارا... يغنّي حبّه ويدير جامه
كذاك رأى الحياة فما اجتواها... ولا عرف الملالة والسّآمه
مفازع للرّدى إن لاح فرّت... وراء خطاه وارتدّت أمامه!

هذا جزء مما قاله الشاعر علي محمود طه عن فوزي القاوقجي، والذي رد على الشاعر برسالة انيقة جاء فيها:

تحية عربية. وبعد فقد قرأت قصيدك، وأطربني شعرك، وسألت نفسي، هل أنا جدير بمثل هذا التكريم يزجي إلى شعرًا حرًا؟ وأعدت تلاوة القصيدة فإذا بي أجد في كل بيت روح معركة، أو صدى حق ناقم، أو صورة نضال باسل، وأيقنت أن هذا المجد يضيفه علي مثل هذا الشعر العبقري أجدر به أن يدخر ليوم الفصل، يوم المعركة الكبرى لإنقاذ فلسطين كلها.. يومئذ (لا يمرح الباغون فيها)، ويومئذ يقول شاعرنا الكبير ما يشاء.

أخي؛ ما أشبه هذه الأمة بالكنز الدفين، تراكمت فوقه على مر السنين طبقات من تراب تعلوها أشواك وأعشاب ذهبت بمعالمه وعفت آثاره، يوم توارى وجه الأمة الصحيح، وغر الأجنبي العدو، هذا الوجه السطحي المصطنع للأمة، فاستهان بها، واستحوذ على القادة يأس، فضلّوا عن حقيقة أمتهم، ولم ينفذوا إلى غورها حتى ظن الظانون أن مسكنة قد ضربت عليها.

رأيت كيف يبسط الظلم على هذه الأمة جناحيه، ويطلق يديه في بلادي فيستنزف ثروتها، ويوهن أخلاقها، ويدوس كرامتها. ورأيت كيف يتزاحم وجوه وأعيان وسراة، بالمناكب على أبواب المستشارين، وكيف

تمرغ على أقدامهم بعض الجباه تستجدي العطف من الطاغية والمرحمة من الضاري، فثارت نفسي أولا، وأوحت إلى الثورة... ولكن أين العدة؟ وأين التكافؤ بيننا نحن الضعاف القلة، وبين العدو الكثير؟

ورحت أفتش عن القوة، وأسأل أين تكون المعجزة. واستلهمت التاريخ وبطولة الأجداد، ثم اهتديت إلى أن الوجه الصحيح لهذه الأمة قد توارى تحت كثيف من غبار الدهر. فأخذت أنتزع الأعشاب وألتقط الأشواك وأزيح التراب حتى تجلى لي ذلك الكنز الثمين، ورأيت وجه الأمة الصحيح، إنه هو الشعب العربي، إنه هو المادة الأصيلة التي صنع منها بناة الإمبراطورية العربية أركان مجدها. مددت يدي نحو الكنز وتناولت حفنة واحدة من أبناء هذا الشعب ممن يصدق في كل واحد منهم قولك: حواري على كفيه قلب... أبى غير الشهامة والكرامة.

وأيقنت أن في هذه الحفنة من القوة المدخرة ما تسقط معه حجة التكافؤ مع الخصم. فثمة شيء يقال له إيمان وكرامة لا يستقيم معه حساب العدد والعدة. ولكنني تلفت يومذاك أنشد القدوة في هذه الدنيا. تطلعت نحو الترك... هذا عظيم.. ولكنه بقايا جيش وأنقاض مملكة. وأخيرًا لذت بالتاريخ العربي وإذا بي أجده حافلا غزيرًا. فهنا خالد، وهناك أبو عبيدة، وهنالك أسامة، وكل شبر من بلادنا ينطق بآثارهم، وأين سرت تقاطع آثارنا آثارهم، فسمعت في ضميري أصواتهم تهيب بي إلى الواجب.

وبهذه الحفنة التي احتفنتها من الكنز كنت أثب من قطر عربي إلى قطر عربي آخر، وأكون حيث تقضى النجدة العربية أن أكون. ولطالما قطعت المفازات، واجتزت السباسب، وخضت في لهيب من الصحراء يشوي الوجوه! وطالما وجدتني في متاهات البادية قد استبد بنا العطش، ننشد أثرًا ينم على الحياة فلا ماء ولا ظل ولا أنيس إلا هذا القرص الشمسي، ويا له من أنيس، يبعث بالأشعة لتسلق الرؤوس، وما عرفت أن الأشعة ذات

ثقل تنوء به المناكب إلا في تلك البوادي، وما عرفناها تأكل الظهور أكلا إلا في تلك الأيام، حتى لكأننا نعيش في أتون يتسعر لظى... أما خيولنا، فكانت تقاسمنا الضراء والبأساء. ولطالما مدت أعناقها تنشد ظلا أو ماء! لقد جفت مشافرها وضمرت أجسامها ضمور أجسامنا. وكان الفرسان وهم يسبحون في اللهيب خرسًا لا ينبسون بشكوى، ولا يكادون يقتربون بعد ذاك الجهد من مواطن القتال ويزدلفون من ساحة الجلاد حتى تفتر شفاههم وتنبسط أساريرهم وتتردد أهازيجهم. وترى الفارس منهم كما وصفة المتنبي:

قح يكاد صهيل الخيل يقذفه... عن سرجه مرحًا بالعز أو طربًا

ويتبينون في الأفق سوادًا عظيما، أنه جيش العدو العرم فما تهن عزائم الحفنة، وإنما تمتد أعينهم امتداد بنادقهم نحو العدو.

ويسود صمت، ليس صمت رهبة، ولكنه إيذان للبنادق بأن تتكلم. ثم تنفجر القنابل فالسماء تمطر نارًا. وتنشب المعركة ويستعر القتال، وأين تطلعت تجد نارًا ولهيبًا، وسوادًا وغبارًا، والمعركة بمن فيها كأنها إعصار فيه نار، وعدتنا هي عدتنا. أما الخصم فقد امتلأت يداه بأدوات القتال، ومع ذلك لا يلبث أن ينفد صبره، ويرتقب دنو الظلام لينجو بنفسه. وما يكاد الظلام يرخى سدوله حتى يلوذ به، ويتستر وراءه. وتقف رحى المعركة، ونتعقبه، ثم نعود إلى الساحة نتفقد شهدائنا ونحصى قتلاهم. فإذا النسبة بين شهدائنا وقتلاهم، هي النسبة بين عددنا الضئيل، وعددهم الجسيم.

وهنا تنطلق الأنشودة الشعبية التي طالما هزت مشاعرنا: يا دار لنا... حقك علينا

وهنا نشعر بأننا قد دفعنا قسطًا من حق الوطن، وأن الجثث المتناثرة في ساحة المعركة هي الإيصال الشرعي. وكم من أقساط دفعناها في ميادين

سورية وجبال فلسطين وبطاح العراق. وهل الدار إلا الوطن العربي؟ وهل الحق الذي لها علينا إلا الجهاد في سبيل إنقاذها؟، لقد مرت بي الطائرة في سماء فلسطين، ثم أنزلتني في مصر العربية، ورأيت فيها ما رأيت. فما استطعت أن أخاطبها بغير أنشودتنا في المعارك: يا دار لنا... حقك علينا

وشاء الزمن المعادي أن يحيينا، فمد الله في العمر، ويممت شطر الشام، البلد العربي السيد المستقل، فما كدت أكحل العين برؤية الراية العربية خفاقة، وما كدت أرى ابتسامة العز ترتسم على أول وجه لقيته حتى نسيت كل ألم أصابني في هذه الدنيا وما عانقت أخًا إلا أحسست أنني أضم إلى صدري هذه الأمة كلها. وماذا كنت أسمع في ساعات اللقاء من إخواني المجاهدين الذين رافقوني في ساحات النضال؟ هذا مجاهد يقول وهو يعانقني لا تنسني هذه المرة، وآخر يقسم إنه منتحر إذا لم يرافقني في معركة فلسطين المقبلة. وهذا شيخ آخر يقول وهو يعانقني: لقد غدوت شيخًا، ولكن لدى ثلاثة أولاد، وهؤلاء سيؤدون الواجب الملقى علي، فينوبون عني... الأول فتح عينية على أصوات مدافع ميسلون، والثاني خرج إلى هذه البسيطة يوم كانت دمشق تلتهب بنار قنابل الفرنسيين في أوائل الثورة؛ أما الثالث وهو صغير، فقد ولد يوم الجلاء على أصوات الزغاريد وصيحات الابتهاج؛ لقد أحسست وأنا أستمع إلى هذا الشعور أن دينا جديدًا وواجبًا جديدًا ملقيان على كاهلي...

وهذا ما حبب إليّ الحياة، لا خشية الموت، فلطالما اندفعت نحوه، وقد تخطاني كثيرًا وبالغ في التخطي، وأنشبت أظفاره في جسمي في تسعة وأربعين مكانا... ولم يظفر بأمنيته. ولكنني أحببت هذه الحياة لأتمكن من أداء الأقساط الباقية والمستحقة.

إن سعادتي وافتخاري بانتسابي إلى هذا الشعب العريق لا حد لهما.

ولهذا الشعب نذرت دمي متطوعًا مبتهجا. هذا ما أوحت به إلى قصيدتك وإني أودعك مردداً قولك الحق:

هو السيف الأصم إذا تغنى... صغى متجبر ووعى كلامه.

المحب / فوزي القاوقجي

اذا ما اردنا تحليل لغة الرسالة سنجد فيها: كماَ من ادعاء التواضع في المقدمة، ولكنه تواضع تنفيه بقية الاسطر، ونجد فيها طموحا يداعب احلام البسطاء ويقارب المغامرة والمقامرة، واعتدادا بالنفس يكاد ينفي معه وجود قيادات اخرى، عندما يذكرُ الآخرين من الثوار فهو يذكرهم على نحو يؤكد زعامته، وسنجد في لغة هذه الرسالة رغبة في الظهور، ومحاولة للابتعاد عن ذكر الزعامات العربية بخير او شر، وميل لاستخدام لغة ومشاعر العروبة مع بعد عن الآيات والاحاديث، ولعل هذا يفسر مبلغ التناقض بين شخصيته وشخصية المفتي امين الحسيني، ولعل المطلع على تفاصيل الاحداث سيلحظ ان القاوقجي سعى للرد على اتهامات وجهت له في موضعين على الاقل:

الاول: كيف هبطت طائرته في مطار اللد ولم يستطع البريطانيون الامساك به رغم انهم كانوا يبحثون عنه، وقد فسر الامر في حينه بسوء تنسيق بين الفرنسيين والبريطانيين، ولكون سحنة وملامح ولون بشرة وعيني القاوقجي لا تشبه سحنة ولا ملامح العرب، ويضاف الى ذلك وجود سيدة المانية معه هي زوجته.

الثاني: كم الود الذي قوبل به في سوريا حين زارها، وذلك لنفي اشاعات قالت ان وجوده تسبب في وقوع اشتباكات وسقوط قتلى وجرحى بين عائلتين، والحقيقة ان العائلتين كانتا تتنافسان في الانتخابات وارادت كل منهما اجتذابه لصالحها حتى تضمن الفوز، مما سبب وقوع اشتباكات لم يكن له يد فيها، ولكن وجوده كان الصدفة التي فجرتها.

القاوقجي بين مدح وقدح

فلسطين تدري ما دهاها وتعلم... ولكن بها عيٌّ فما تتكلم كأني بها الخنساء من بعد صخرها... كأني لها قلب كأني لها فم وقد ألهمتني ارضها وسماؤها... وما الشعر الا ما احس وأُلهم بهذه الابيات عبر المحامي الشاعر اللبناني الفلسطيني وديع البستاني عام 1921 عن علاقته بفلسطين، التي وصلها قبل ذلك التاريخ بأربع سنوات ليكون أول موظف مدني في حكومة فلسطين. عمل في هذا الموقع 3 سنوات ولكنه لم يستطع المضي في خدمة حكومة الانتداب البريطانية، لما عرفه واطلع عليه من المؤامرات، فاستقال ليعمل في حقل المحاماة، بعد أن نال شهادة معهد الحقوق الفلسطيني في القدس سنة 1929.

وعند وقوع النكبة، رفض البستاني وزوجته مغادرة بيته في مدينة حيفا. فاحتلته عصابة الهاغاناه، وأسكنت فيه بعض أسر اليهود عنوة ووضعته تحت الرقابة ومنعته من التحرك مدة طويلة. وعندما عجز البستاني عن تحمّل الظروف الجديدة التي حلّت عليه، قرر سنة 1953 العودة إلى لبنان. ليموت هناك بعد عام حظي خلاله بالتكريم والتبجيل. ترجم البستاني رباعيات الخيام، وعيون الادب الهندي، وكتب بالحجج والادلة عن بطلان الانتداب البريطاني على فلسطين، واودع اوجاعه ومشاعره القومية والفلسطينية في ديوان عنوانه «الفلسطينيات».

من خلال قصائد هذا الديوان يتضح دعم البستاني للإضراب العام وللثورة الفلسطينية المسلحة عام 1936، ومن بين قصائده واحدة تمدح فوي القاوقجي:

الى السلاح بني قومي انا لكم... حرب العصابات حرب جدها لعب
كرٌ وفرٌ فَكُرّوا حين آمركم... والامر امري إن آمركم انسحبوا
فلا سلام لجند في مضاربهم... ولا امان لمن في ركبهم ركبوا
سلبا سلبنا ولم نغلب وانت لنا... لا تخمد النار حتى يرجع السلب
فدى لعينيك يا فوزي النفوس بها... نجود جودا ولا مال ولا نشب
الى السلاح الى الموت الى الخلود الى... ما يُنبئ السيف لا ما تُنبئ الكتب
ملء الربى مهجات ثار ثائرها... الى المنايا فدى تلك الربى تثب
مرحى له ولهم اهلا به وبهم... نار الوغى لا القرى في الحي تلتهب
وقل لادورد تسمع كل امته... الله اكبر: لا ما ماتت امة العرب

في هذه الابيات نجد تبريرا لأوامر انسحاب امر بها القاوقجي، والشاعر يعتبرها كر وفر، فالانسحاب ليس الفرار.

لم تكتب الشاعرة فدوى طوقان شعرا في القاوقجي ولكنها كانت تتمنى ذلك، لقد عايشت وكتبت عن عدة احداث وعبرت في حديث مع طالبات

من جامعة النجاح عن رأيها في احاسيس الشاعر بأحداث عصره فقالت: «كل ثورة من هذه الثورات وكل مرحلة نضالية كانت تحمل خصوصية في ملابساتها, وفي شخصيتها وقادتها, لذلك كانت الأوضاع تفرض نفسها على كل قصيدة تكتب حسب المرحلة والمكان والأشخاص, حتى أن بعض القصائد كانت تفقد معناها نتيجة لبعض الأحداث السياسية, فمثلا ثورة فوزي القاوقجي في الثلاثينيات ثارت في خيالي ومشاعري فانكببت على نظم قصيدة تعكس انبهار الصبية الرومانسية بشخصية قائد الثورة الأسطوري ولكن مع خمود الجماهير تجاهه مع مرور الأيام تضيع القصيدة المبهورة.

في هذا الحديث تطرح الشاعرة فدوى طوقان رايا وجيها في اشعار المناسبات الثورية، فتقول:

«أشعار كل هذه الثورات السابقة تحمل في مضمونها نفس الهدف والفكرة, وبما أن الطرف الآخر في هذه القصائد هو العدو الأوحد لنا جميعا يتكرر الكره له في كل بيت وكل مقطع, فان خلود هذه القصائد باق ما بقي العدو وبقيت الروح النضالية موجودة في قلب كل مقاوم».

الشاعر الشعبي الفلسطيني وكما هو متوقع كان الاسرع انفعالا وتعبيرا وانتشارا وتأثيرا. يُعزز هذا القول ان ما أنشده الشاعر الشعبي مصطفى البدوي المعروف بلقب «أبو السعيد الحطيني»، وجد طريقه السريعة الى الناس وصار يتردد على السنة الاولاد في الحارات:

هدول سبع ملوك

شتتهم ابن شرتوك

فوزي القاوقجي يا مهتوك

جنودك عتالة بالسوق

وهل ننتظر من ابن قرية حطين اقل من هذا الهجاء؟!!! لقد كانت ارض

قريته مسرحا لواحدة من اهم المعارك ضد الفرنجة، فصارت مسرحا لانسحابات جيش الانقاذ امام العصابات اليهودية التي طردت اهلها، بعد النكبة تحول ابو السعيد من حداءٍ في اعراس فلسطين ومبارز لألمع نجوم عصره من الزجالة في لبنان وسوريا، الى لاجئ في مخيم اليرموك بسوريا.

الشاعر والفنان الفلسطيني ابراهيم محمد صالح والمعروف بلقب «ابو عرب» وهو اللاجئ من قرية الشجرة الى مخيم حمص بسوريا، يقول في سياق مقابلة مع سامي كليب لفضائية الجزيرة، ان جده الشاعر الشعبي نظم قصيدة هجاء في الحكام العرب لتفريطهم بفلسطين، وان بعض ابياتها شملت القاوقجي ايضا:

بعثوا أبو القاووق يحمي أرضنا... مع طغمة ما ذاقت الإيمان
لا فاز فوزي والذي بعثوا به... لاقوا الشقا والذل والحرمان
آه ملوك العرب! هل أعددتم؟... عذرا إذا ما جئتم الرحمن
أو سطر التاريخ نكث عهودكم... وحنوثكم إذ بعتم الأوطان؟
قسما لو أن المومسات مكانكم... لتركن ماخور الفجور عيانا
ولبسن مسح الراهبات تقشفا... هربا من العار الذي أخزانا

عصا القاوقجي وسيكارته

لم اغرق وأغرقكم معي فيما كتب عن القائد فوزي القاوقجي شعرا ونثرا على سبيل الاطالة او العبث وملء الصفحات، لقد كنت احاول توضيح الاجواء التي رسمته في الاذهان، وادت الى الحكم عليه سلبا او ايجابيا، احكاما يغلب عليها الانطباع، كون الوثائق التي تؤكد الوقائع غير حاضرة في الغالب. لماذا اهتم بمصادر وطريقة اصدار هذه الاحكام؟ لان هذه الاحكام هي ذاتها وبذات الطرق تتكرر مع الآخرين.

هذا سبب وهناك اسباب اخرى، منها انني احاول استيضاح مدى تأثير هذه الصورة على القاوقجي نفسه، وكيف كان ينظر الى نفسه؟ وكيف يقدمها للآخرين؟ وكل ذات على امل استجلاء اسباب ومظاهر خلافه

مع المفتي امين الحسيني، وكيف اثر هذا الخلاف على مواقف المفتي وسلوكه؟

مهمة صعبة ومحفوفة بميوعة التقديرات اكثر مما هي محفوفة بانضباط وصرامة المنهج، ها قد قدمت مقاصدي السابقة واهدافي اللاحقة وقدمت اعذاري وتبريراتي لكم عن الخطأ المحتمل، وبقي ان اتعهد علنا بانني لن اتجنى على احد، وبسم الله ابدأ.

لنفترض اننا نعيش في الربع الاول من القرن الماضي حيث تتفسخ الامبراطورية العثمانية التي اهملتنا وارهقتنا بالضرائب والحروب، في مثل هذه الاجواء اعتقد ان غالبيتنا ستفعل مثلما فعل القاوقجي حين وقف معصوب العينين امام طاولة عليها قرآن وسيف ومسدس ليقسم يمين الانتساب لجمعية العهد، ويتعهد بالسعي وراء الاستقلال الداخلي

للبلاد العربية.

وحين تبرز بريطانيا العظمى بكل اطماعها وتأييدها للصهاينة ووعد بلفورها لليهود، وحيث تقف احلام العرب بالاستقلال يتيمة على موائد اللئام، ربما سنلجأ لالمانيا كما لجأ القاوقجي والمفتي وكل ثائر على الحكومات المرتبطة ببريطانيا مثل العراقي رشيد عالي الكيلاني وغيرهم. وحين تنهار المانيا سيكون عليك ان تتدبر امرك لكي تتمكن من حك جلدك العربي بأظافرك العربية مهما كانت رخوة، وهذا ما حدث مع القاوقجي عندما اعتمد على جمهور يريد نصرا سريعا باقل الاثمان، ودون ان يتولى حتى مجرد مسؤولية تقديم الطعام للثوار، وعلى قيادات عربية متعددة الرؤى مختلفة المطامح والمصالح، وقيادات محلية لا تريد شريكا عربيا وتبحث عن مواقعها بعد المعركة اكثر مما تبحث في الدور المطلوب منها لخوض المعركة وتأمين هذه المواقع.

كان من الطبيعي لشخص مثل القاوقجي ان يشعر بالتفوق على سواه من القيادات، لقد درس العسكرية ومعها الخطابة واصول الفقه واللغتين الالمانية والفرنسية فضلا عن التركية، وترقى في صفوف جيوش عديدة اجنبية وعربية، حصل على ميداليات واوسمة، وخاض معارك نظامية عديدة، وشكل مجموعات الثوار وخاض حروب العصابات في اكثر من دولة وفي اكثر من بيئة ومناخ، اعتقل عدة مرات وابعد وحكم بالإعدام، وجرح مرات ومرات.

تظهر صوره انه شديد الانضباط والعناية بقيافته العسكرية، في بعض صوره بمرحلة الشباب يبرز القاوقجي بشارب تركي، في الصور اللاحقة اختفى الشارب، وحلت على صدر بزته عدة اوسمة، وبعد ذلك اختفت تلك الاوسمة واستقرت على رأسه كوفية بيضاء.

عدد صوره وفير قياسا بغيره، قد يعكس ذلك شهرته، ولكنه يعكس

ايضا اهتمامه المبكر بهذه الشهرة وتجاوبه مع المصورين. غالبية صوره ليست رسمية، وليست عفوية كذلك، انها مقصودة لتعطي طابع الصرامة في قيادة الميدان والتفرد الشخصي.

لا يخلو انسان من التأثر والاعجاب بالآخرين، وقد يميل الى تقليدهم، وربما يفعل ذلك لا شعوريا، الضحايا تتأثر بجلادها هذا ما تقوله عقدة الخواجا التي قد تعتبر شكلا مخففا للعقدة المسماة علميا بمتلازمة ستوكهولم، هل كان القاوقجي يقلد احدا؟ مؤكد انه لم يكن يقلد القادة النازيين، لا في التحية ولا في التصلب بالمظهر، لقد كان اكثر حيوية، ولكن صوره الكثيرة وهو يدخن، وصوره وهو يستخدم العصا تذكرنا كثيرا بونستون تشرشل، فكلاهما يحب العسكرية وكلاهما خاض الكثير من الحروب، وكلاهما احب النساء والخمر والتدخين. صور اخرى توحي بمقدار احترام القاوقجي لنمط القيادة العسكرية التركية، واجمالا فان القاوقجي الذي سبق وان انقذ مصطفى اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة من كمين بريطاني ظل يحترم مواصلة هذا الرجل للقتال وسعيه الحثيث لبلورة الامة التركية وتأسيس الجمهورية.

لا يوجد انسان لا يحب الحصول على المديح والاعجاب، ومهما ادعى المتواضعون انهم لا يكترثون لذلك، فانهم يطربون اليه ولو بشكل سري، قد يكونون من العقلاء الذين يتركون هذا الاعجاب ليتحقق كنتيجة لعملهم، وقد ينساق بعضهم لخدمة شهرته باي ثمن، ولكن الجميع سيشعر بالغضب ان لم نقل الجنون حين يتراجع كم الاعجاب بشخوصهم، وخاصة ان كان هناك منافسون لهم. هل كان القاوقجي منساقا لخدمة شهرته؟ وباية اشكال؟

لقد حصل الرجل على كثير من المديح شعرا ونثرا وغناء ومقالات صحفية، خاصة بعد انتصاره على البريطانيين في جبع وبيت امرين و بلعة حيث

اسقط طائرتين بريطانيتين، لقد خلدت الاغاني الشعبية في الاعراس هذه البطولات ونسبتها اليه، وكان واضحا ان سمعته وشهرته تتفوق على زملائه الثوار السوريين مثل محمد الاشمر والشهيد سعيد العاص، وان هذه الشهرة ظلت صامدة امام شهرة غريمه في الزعامة المفتي امين الحسيني، وكادت تتفوق على شهرة عبد القادر الحسيني لولا استشهاده المشرف في القسطل.

واضح ان القاوقجي كان يسعى للحصول على الاعجاب، وان سعيه كان يزداد كلما خفت بريق شهرته واشتدت المنافسة على الزعامة، ولكنه سعيه لم يكن ساذجا ولا متلونا او منافقا، كان يكثر من اطلاق التصريحات النارية، ويستقبل الصحافيين ويقربهم، وكان في تصريحاته وخطبه ومراسلاته يتحدث ويكتب بلغة سليمة فيها الكثير من الانشاء عن العروبة والبطولة، ومع تجنب لإيراد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية، لقد حافظ على نظرته الرافضة لتحكم الدين في السياسة ولأفكار اعادة امجاد الخلافة.

وكان ملما بمن يخاطبهم ويعرف بانهم يستمعون اكثر بكثير مما يقرأون، ولذلك وعندما اقام مقر قيادته في جبع قرب جنين ربيع عام 1948 اقام محطة اذاعية خاصة به وكان يبث بياناته من خلالها، ولكنه كان يحرص على ارسال بياناته للإذاعة في رام الله.

كان هناك في مقر قيادة القاوقجي صحافي سوري نشيط، يدعى منير الريس، كلف بصوغ المنشورات والبلاغات الرسمية التي وصفت فيها قوة القائد الأعلى ورجاله. البلاغات عن المعارك التي خاضها القاوقجي لا تخلو من المبالغة.

يقول الصحفي الفلسطيني راجي حبيب صهيون (عانى هذا الرجل كثيرا من اسم عائلته رغم انه اسم عربي يجمع الديانات الثلاث) يقول

في كتابه «حتى لا ننسى» والصادر عام 1997، أنه عندما كان مديرًا للإذاعة في رام الله دخل عليه ضابطان من جيش الإنقاذ، وأديا له التحية العسكرية وسلما راجي مظروفًا مغلقًا وفيه بيان من فوزي القاوقجي، طلبا منه إذاعته، وهذا نص البيان:

«قام معالي القائد الأعلى لجيش الإنقاذ العربي باستعراض قواته الباسلة قبل ظهر هذا اليوم، وهو يمتطي جواده الأبيض. ثم ألقى في رجاله كلمة وطنية رائعة حثهم فيها على الجهاد في سبيل الله، ومن أجل تحرير فلسطين. وأنه هو شخصيًا سيواصل الكفاح حتى النصر، وأنه سيدخل تل أبيب على ظهر جواده الأبيض هذا بنفسه!»

كتب راجي أنه مزّق الخطاب، وقال للضابطين: إذهبا وبلّغا ما رأيتما!

علينا ان نتذكر ان هذه الاذاعة انتقلت من القدس الى رام الله بعد سقوط غربي العاصمة وانها ورغم الجهود المخلصة لكادرها الوطني ظلت تحت الرعاية والاشراف البريطاني الى ان وقعت النكبة.

علينا ان نتذكر حقيقة ان القاوقجي الذي سعى لاكتساب اعجاب الجمهور واحترام الثوار، لم يبذل جهدا كبيرا لنيل احترام القيادات العربية، وهذا امر يسجل لصالحه.

لم يكن ملاكا ولا شيطانا

هل كان قائد جيش الانقاذ فوزي القاوقجي على ايمان بحتمية الانتصار، هل كانت احلامه بولادة جيش عربي قومي ما زالت مشتعلة؟ من المؤكد ان ثقته بالنصر قد تضعضعت وان احلامه قد انطفأت تحت رماد خيبات الآمال المتكررة. فبين ذلك اليوم الذي اقسم فيه، وهو معصوب العينين وامامه على الطاولة قرآن ومسدس وسيف، على السعي لإنجاز استقلال عربي، وبين لحظة دخوله فلسطين قبيل النكبة جرت دماء كثيرة في الانهر، ووقعت سلسلة رهيبة من الاحداث الكبرى والتحولات التي جعلته اكثر واقعية، واقل ثورية.

لقد شاهد انهيار الامبراطورية العثمانية وبعدها المانيا الكبرى، شاهد الفلاحين في سوريا ثم في فلسطين وهم يمتنعون عن تقديم المؤونة للثوار، او يقدمونها عن غير طيب خاطر، لقد شاهد التجار في فلسطين وهم يطلبون اليه الهدوء لتصدير محاصيلهم من الحمضيات، وشاهد

تجار واعيان الشام ثم اعيان وقيادات فلسطين وهم يطلبون منه الهدوء لتسهيل التفاوض، شاهد العائلات وهي تصفي ثارات قديمة باسم الثورة، شاهد الحكام العرب وهم يرضون باستقلال شكلي، شاهد احلامه القومية الواسعة وهي تضيق في اعين زملائه الثوريين.

وفي خضم هذه الاحداث قاتل وجرح واعتقل وابعد وفقد ثلاثة من اولاده، وفوق كل هذا وذاك كانت الاتهامات والانتقادات لسياسة الرجل وسلوكه تطارده: البعض يتهمه بالعمالة لفرنسا، والتعاون مع بريطانيا، وموالاة المانيا، والبعض يركز على غرامياته وشربه الخمر، ويشيع انه اثرى من المساعدات والتبرعات.

ربما اختلف الزمان ولكن هذه الاتهامات بالمجمل ظلت توجه وبإسراف، لكثيرين قضى بعضهم شهيدا وثبت انه لم يكن ثريا. المؤسف ان الفاسدين الحقيقيين ظلوا بمنجاة من الحساب، وربما ساهموا في تشويه الشرفاء، المؤسف ان سلم الاتهامات لدينا لا يبدأ بالتدرج، من التقصير او سوء الادارة مثلا، انه يقفز مباشرة الى التخوين باستسهال عجيب، وبذات الاستسهال والتسرع يتم تنفيذ احكام هي الاخرى لا تتدرج بل تبدأ مباشرة من الاعدام، حصل ذلك في ثورة 1936 وتكرر في الانتفاضة.

المؤسف ان التاريخ يظل مفتوحا دون وثائق، ويصير سماعيا، وان لجان التحقيق تشكل فلا تجتمع، وإن اجتمعت تتوالى اجتماعاتها، ولا تصل الى نتيجة.

اشياء كثيرة تتكرر الآن حصلت في تلك الفترة، من اين نبدأ بالتعداد؟ هل نبدأ من البطولات الفردية وما قابلها من نفس قصير لدى القيادة؟ ام نبدأ من تشتت الرؤى والاجتهادات السياسية وغياب الاجماع على برنامج الحد الادنى؟ ام نبدأ من تشكيل كل فصيل لجناحه المسلح؟ ام من المؤسسات التي ظلت تتدهور وتتأخر انتخاباتها حتى فقدت شرعيتها؟ هل نبدأ من التضارب المستمر بين شعارات وحدانية التمثيل وقومية المعركة؟ هل نبدأ من الانشقاقات؟ فهذه ايضا حدثت مبكرا؟

ربما نبدأ بالخلاف الذي حصل بين القائد القومي القادم من الشام لنصرة ابناء فلسطين (فوزي القاوقجي) مع المفتي العام لفلسطين ورئيس اللجنة العربية العليا الحج امين الحسيني؟ او نبدأ الحكاية من بدايتها.

القاوقجي فقيرا مهملا بعد 40 عام من القتال

كانت اول مهمة عسكرية يطلب منه القيام بها بعد تخرجه من الكلية العسكرية العثمانية هي إخضاع قبائل شمر التي تمردت على العثمانيين في الموصل، يومها اهتزت مشاعره القومية: كيف سيعمل ضد ابناء قومه؟! في الطريق الى الموصل وفي الموصل، عرف القبائل وعاداتها، وتعرف الى كثير من رجالاتها، معرفة ستنفعه لاحقا حين يجمع المتطوعين للقتال، وحين يكتب مخططه الثوري للالمان. كان غارقا في التفكير بين حدود عثمانيته وعروبته، وصار يعتبر ان العشائر تمثل جوهر العروبة. كما عرف الكثير عن الكرد وألاشوريّين والأرمن والتركمان، فصارت عروبته اقرب الى العلمانية منها الى التدين.

ربما راوده ايامها حلم الاستقلال العربي، وعجل من انتسابه لجمعية العهد. كان اسم هذه الجمعية، في البداية هو القحطانية، وقد شكلها الضباط العرب في الجيش العثماني، ردا على قيام زملائهم الاتراك باطلاق الطورانية وهي حركة سياسية قومية هدفت إلى توحيد أبناء العرق التركي.

حارب البريطانيين في البصرة واصيب اصابة بالغة، وتصدى للبريطانيين في بئر السبع فأصيب مرة اخرى، هاجم البريطانيين مرة اخرى فاستحق ميداليّة الحرب العثمانيّة، استعاد قرية النبي صموئيل من البريطانيين فاستحق ميداليّة الصليب الحديديّ الألمانيّة.

لقد ظل على الدوام يعتبر البريطانيين عدوا رئيسيا، ولكن حصاد قتاله لهم كان مرا، على كل المستويات، فعندما ذبح الاتراك الارمن، اعدموا عددا من الضباط العرب في جيشهم، واعتقلوا القاوقجي.

يقول الكاتب والباحث الفلسطيني صقر ابو فخر ان جمال باشا قال له في بير السبع عندما جاء إلى تلك المنطقة متفقدًا القوات التركية: «لقد أجريت عملية جراحية في قلب سوريا (إعدام الشهداء في 6 أيار 1916)، فإما أن يؤدي قلب سوريا عمله كما أرغب، أو أن تتوقف دقاته إلى الأبد».

تدخل الالمان للإفراج عنه، لقد لفت نظره على الدوام التهذيب الالماني في التعامل معه ومع بقية الضباط وظل على الدوام يقارنه بغطرسة الضباط الاتراك ضد زملائهم العرب. ومع ذلك ورغم انتسابه لجمعية تطالب بالاستقلال العربي، فقد ظل ملتزما وقائما بواجباته العسكرية ضمن صفوف الجيش العثماني.

انقذ مصطفى كمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة من كمين وحصار بريطاني، انسحب الجنود الاتراك خلافا لرغبات الالمان، ظل الى اللحظات الاخيرة يسهر على تنظيم انسحاب العثمانيين من سوريا تحت وطأة

القصف البريطاني.

اعجبته الروح القتالية للألمان، واعجبه جدا مواصلة اتاتورك للقتال وسعيه الحثيث لبناء امة تركية وتأسيس جمهورية. حدث وشخصية اخرى اثرت في سيرة القاوقجي هي انتصارات الامير عبد الكريم الخطابي ضد الفرنسيين في الريف المغربي.

اصبح ضابطا عثمانيا سابقا، وصار ربّا لأسرة وابا لطفلين، لم يطرح نفسه ولم يقدم خدماته للملك فيصل، لقد بعث اليه الملك يدعوه للعمل فوافق، وانتقل ونقل اسرته من بلده ومسقط رأسه طرابلس الى دمشق، ولكن الملك نفسه انسحب من سوريا بعد فشل مفاوضاته مع الفرنسيين.

يقول الكاتب صقر ابو فخر والذي يمتلك أوراقًا خاصة بخط يد فوزي القاوقجي لم تنشر من قبل على الإطلاق، أن فوزي القاوقجي، مثله مثل يوسف العظمة الذي قاتل في ميسلون واستشهد، ذهب إلى الصبورة القريبة من خان ميسلون كي يتصدى للقوات الفرنسية الزاحفة على دمشق، وتمكن رجاله من إسقاط طائرة عسكرية فرنسية وأسروا الطيار ومساعده.

أرادت الحكومة السورية الجديدة التي خلفت حكومة الملك فيصل أن تتعاون مع ذوي الخبرة، فأبقت على كثيرين في مواقعهم ووظائفهم، ومن بينهم القاوقجي الذي عين آمرًا لسرية الخيالة في حماه. وهكذا اصبح القاوقجي عسكريا في حكومة تعمل تحت الرعاية الفرنسية.

نقطة سوداء اولى وضعها الرجل في سيرته، نقطة لا يمحي سوادها حاجته للوظيفة لتلبية احتياجات الاسرة التي اسسها حديثا، ولا تستطيع الادعاءات بان ذلك تم في اطار التمهيد للثورة، لتبييضها، خاصة وانه حاز خلال تلك الفترة على وسام الشرف الفرنسي برتبة فارس.

انقلب على الفرنسيين، ذهب للحج، وارخى لحيته، وصار يصلي في

المسجد، يتعمم ليلا ويعود الى زيه العسكري في النهار، وفي سنة 1925 اسس حزب الله، ثم أعلن انطلاقة ثورة حماه كجزء من الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان الأطرش.

قاتل الفرنسيين مع الثائرين في حماة ودمشق والغوطة وسهل حوران وجبل الدروز، وكان شجاعا في قتالهم بشهادة كل رفاقه الثوار، انزل الفرنسيون عقابا جماعيا قاسيا على القرى التي تساعد الثوار، خذله الاعيان والتجار وطالبوه بوقف القتال لتسهيل التفاوض، ومنعوا عنه المساعدات. وهنا يتهمه البعض بتحصيل بعض المساعدات خاوة، فيما يتهمون مقاتليه بمحاكمة بعض القرويين ظلما بتهمة التجسس للفرنسيين، ستظل انتقاداته للعائلات الدمشقية الكبيرة التي امتنعت عن تقديم التبرعات والمساعدات للثوار قائمة كحاجز بينه وبين هذه العائلات وهؤلاء الاثرياء، خاصة وانها ستتكرر في فلسطين.

ذهب الى السعودية ليدرب جيشها، على امل ان يكون نواة جيش قومي عربي، كثر حاسدوه مما ادى الى اعتقاله، وبعد الافراج عنه ذهب الى العراق الذي كان قد نال استقلالا شكليا من بريطانيا، فاستأنف الولاء الذي بدأه للملك فيصل في سوريا، ولكن موت فيصل، اطاح به وسرع بمخططاته لإشعال الثورة في سوريا وفلسطين. زار فلسطين مرتين التقى قادتها في المرة الاولى، وتفرغ للتخطيط للثورة في الزيارة الثانية، كانت خطته اشعال الجبهتين السورية والفلسطينية، غير ان تطور المفاوضات في سوريا واندلاع ثورة 1936 في فلسطين كانت فرصة واجبة الاستغلال فاستغلها.

خلال اقامته في العراق التقى المفتى امين الحسيني، تعارض برنامجا الرجلين منذ البداية، فالقاوقجي كان يرى فلسطين سوريا الجنوبية، واما المفتي فكان يريدها كيانا فلسطينيا خالصا ومستقلا، ومع هذا

التعارض انقسم المحيطون بالرجلين الى فريقين احدهما يرى ان زعامة القاوقجي كسوري ستفيد في تجميع قلوب العرب باتجاه فلسطين، فيما رأى الفريق الآخر ان تجميع قلوب المسلمين من خلال شخصية رجل الدين التي يمثلها المفتي افضل.

لم يؤثر هذا الخلاف على نشاط القاوقجي، فقام بجمع الكثير من المتطوعين، 300 متطوع بينهم السوري والعراقي واللبناني ومنهم الدرزي والشيعي وبينهم ابناء قبائل وعسكريون وسياسيون حزبيون ورفاق قدامى من الثورة السورية، اضافة لذلك جندّ القاوقجي أفرادًا من الأكاديميّة الحربيّة في بغداد، وحصل من خلالهم على وثائق تتناول التكتيكات الحربيّة البريطانيّة ممّا قد يُستخدم في فلسطين، وأزياء عسكريّة ومؤنًا. استغل المفتي هذه الامر لاحقا ليتهم القاوقجي بالعمالة لبريطانيا، فيما رد عليه القاوقجي بانه مفتي عينته بريطانيا.

خاض المتطوعون تحت امرة القاوقجي 3 معارك مع البريطانيّين في قرى بلعة، حيث أسقط طائرتين بريطانيّتين، وجبع وبيت أمرين، وتماما كما حصل معه في سوريا حصل معه في فلسطين لقد ضغط التجار على الزعماء والاعيان طالبين الهدوء لكي يتمكنوا من تصدير الحمضيات، وهؤلاء ضغطوا عليه بدورهم لوقف الثورة لتسهيل التفاوض، لقد تم ذلك بموجب نداءات مشفوعة بوعود من الملوك والامراء العرب وبطلب من اللجنة العربية العليا التي يرأسها المفتي الحسيني قبل ان يتم بدعوة منه. رفض البريطانيون بدء التفاوض الا بعد خروج القوات الاجنبية التي يقودها القاوقجي، ورغم انه وافق الا انه لام المفتي بعد ذلك وحمله مسؤولية وقف الثورة والارتهان لوعود القادة العرب.

عاد الى العراق فاستقبل استقبال الابطال، غير ان الحكومة الموالية لبريطانيا رضخت لطلب بريطاني فأبعدته الى كركوك ذات الغالبية

التركمانية الكردية، بعد انتهاء فترة ابعاده اتصل بالألمان وحثهم على دعم الثورة العربية ضد البريطانيين، ايد انقلاب وثورة رشيد عالي الكيلاني على الحكومة المرتبطة ببريطانيا، وقاتل القوات البريطانية مما ادى لإصابته اصابة خطيرة ارسل بعدها للعلاج في برلين حيث انتزعت من جسمه 19 رصاصة وشظية، امّا الرصاصة التي استقرّت في رأسه فتركها الجرّاح خوفًا من التسبّب بعطب دماغيّ.

اختلف مع الالمان لانهم بحسب مذكراته لم يعطوا وعدا باستقلال عربي، الحقيقة ان السبب الرئيس لغضبه من الالمان كان تفضيلهم للمفتي، ذات الغضب ايضا ولذات الاسباب ساور الزعيم العراقي رشيد عالي الكيلاني الذي لجأ الى المانيا ايضا بعد فشل انقلابه على الحكومة المرتبطة ببريطانيا.

خلال اربع سنوات اقامها الرجال الثلاثة في المانيا ظهرت الكثير من الخلافات، القاوقجي والذي تزوج المانية، اتهم الالمان بالتسبب بوفاة ابنه مسموما، ورفض المشاركة في جنازته التي نظمها الالمان، وصار ينتقد المفتي ويسخر من اوهام تنصيبه خليفة كما وعده الالمان، كان الالمان يعتمدون على المفتي ويرونه الانسب لتجنيد مسلمي اوروبا الى جانبهم في الحرب ضد البريطانيين والفرنسيين والروس.

تمكن المفتي من تجنيد كثير من المسلمين لصالح هتلر وموسليني وحصل منهما بالمقابل على اعلانات صريحة تتعهد بدعم العرب ومساعدتهم على نيل الاستقلال والتخلص من الاضطهاد البريطاني.

يقول الاعلامي العراقي يونس بحري والذي كان المذيع الاشهر في اذاعة برلين الناطقة بالعربية: «جاء معظم المقاتلين من البوسنة، ولذك ظل الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروس تيتو يكرهني انا والحاج امين الحسيني طيلة حياته ويعتبرنا مجرمي حرب».

صار المفتي اللاعب الرئيسي في العلاقة مع المانيا، يقول بيتر هاينة أستاذ في العلوم الإسلامية بألمانيا خلال مقابلة مع الجزيرة: «أمين الحسيني كان سفير العالم العربي في برلين فكان يقيم حفلات استقبال للشخصيات المؤثرة من الحكومة والنظام والفنانين، ودعا إلى إقامة مؤسسة بحثية وإعلامية تُعني بالإسلام».

شهرة الحسيني وسطوته اثارت استياء السياسي العراقي رشيد عالي الكيلاني، يقول الكاتب عيسى اللوباني في كتابه «صفحات مطوية من التاريخ»: ان الحاج امين الحسيني ظل لشهر يخفي نبأ وصول رشيد عالي الكيلاني الى برلين، فيما فوزي القاوقجي يريد الاطمئنان عليه، تحرى يونس بحري عن الخبر، واذاعه قبل الحصول على موافقة المفتي. لم يتأخر الحاج امين الحسيني في فهم شخصية يونس البحري الزئبقية، وحبه للإثارة والتهويل، خاصة وانه كان يلجأ الى سب وشتم القادة العرب، ولا يلتزم بنصوص البيانات والتعليقات التي كان يعدها المكتب العربي في القدس، فأوصى بعزله، وكان له ما اراد.

ولم يتوان المفتي عن اتهام القاوقجي امام الالمان بالعمالة لبريطانيا استنادا لمعلومات كان يستقيها من الناشط السوري ايامها معروف الدواليبي. بعد سقوط برلين تمكن المفتي باستخدام جواز سفر الدواليبي من السفر الى القاهرة متخلصا من الرقابة الفرنسية التي فرضت عليه. واما القاوقجي فقد تاخر هناك ربما لأن زوجته المانية، فاعتقله الروس وحققوا معه على انه عميل الماني، وافرجوا عنه بعد شهر، قال فيما بعد ان اتهامات الدواليبي والمفتي ساهمت في اقناع المحققين بالافراج عنه، في ذلك العام توفي ولداه نزار ويُمني بوباء ضرب برلين بعد الحرب، فدفنهما قرب أخيهما مجدي. تدبر امره للحصول على جواز سفر سوري للعودة الى بلاده التي نالت استقلالها مؤخرا.

هبطت طائرته في مطار اللد قبل القاهرة خلافا لما هو متفق عليه، ولم تعتقله القوات البريطانية، لغز آخر سيستخدمه خصومه ضده.

تقول الباحثة البريطانية ليلى بارسونز مؤلفة كتاب «القائد: فوزي القاوقجي وحرب الاستقلال العربية 1914 – 1948»: «... لأسباب مفاجئة أعلم الركاب، وهم في الطريق، بأن الطائرة ستهبط في مطار اللد. هناك صعد رجال إلى الطائرة بحثًا عن القاوقجي لكنه بعينيه الزرقاوين وبفضل زوجته الألمانية التي تجلس إلى جانبه وكان يتحدث معها الألمانية لم يلق القبض عليه. ويقال بأنه استخدم اسمًا مستعارًا خلال هذه السفرة ونجا بأعجوبة».

وتضيف بارسونز في مقابلة مع سوسن الابطح لجريدة الشرق الاوسط ونشرت في 1 حزيران 2017: إنها عثرت على ملف كامل في الأرشيف البريطاني موضوعه هذه الحادثة، وفيه وثائق تظهر غضبًا بريطانيًا من عدم اعتقال الرجل بسبب خطأ من الموظفين. مما يدل على أنه بالفعل أفلت بمحض الصدفة.

ومن القاهرة انتقل الى سوريا ومنها الى طرابلس التي كانت تشهد خلافا حادا بين عائلتين تتنافسان في الانتخابات حاولت كل منهما استقطابه لصالحها، تحول الخلاف الى اشتباك ادى لقتلى وجرحى، لم يكن معنيا لا بطرابلس ولا بانتخاباتها، لقد بدأ الاتصال بجامعة الدول العربية، التي رشحته لقيادة جيش انقاذ فلسطين، الامر الذي اثار غضب المفتي كثيرا. كان المفتي ومعه كثيرون يشعرون بانهم الاحق بقيادة هذا الجيش، وشعروا بان هناك قرار عربي بتجاهلهم.

استقبلته فلسطين الشعبية بالترحاب والامل، واستقبله بقية القادة المحليين بالتشكيك، وصار جيش الانقاذ بقيادة القاوقجي المدعوم عربيا (بالاسم فقط) ندا لجيش الجهاد المقدس الذي يقوده عبد القادر

الحسيني، وعلى وقع هذه الفرقة وعلى وقع الخلاف القديم المتجدد بدأت الحرب وتوالت الانسحابات والهزائم، وتوالت معها طلبات الاغاثة والامداد بالسلاح والعتاد والمؤن، لم يستجب هو لمناشدات عبد القادر الحسيني ولم يستجب احد لمناشداته ولا لبى احد طلباته، هدد بالاستقالة مرتين، ولكن دون جدوى.

كان افراد جيش الانقاذ يحصلون على طعامهم بصعوبة، وثق الروائي اللبناني الياس خوري في روايته «باب الشمس» والتي تحولت الى فيلم سينمائي والى قرية اقامها الشباب لمواجهة الاستيطان، وثق هذه الحكاية: «كنا لا شيئ، مجرد اربعين رجلًا فوق تل الليات، ومئة جندي من جيش الإنقاذ، وقائدهم مهدي يأتي مثل القرد يطلب دجاجًا، أسميناه مهدي الدجاج. وكنا نعطيه. لشو الدجاج؟ فليأكلوا صحتين على قلوبهم، المهم أن تبقى القرية. قرية بدون دجاج أحسن من دجاج بدون قرية. ولكن الدجاج ما نفع.. حين هجم اليهود لم يحارب ملازم الدجاج.. احتل اليهود القرية، فانسحب المقاتلون والتحقوا بنسائهم في الحقول المجاورة. ناموا وقاموا تحت شجر الزيتون، وهم ينتظرون الفرج. ثم ضربهم الجوع، فقرروا استرداد قريتهم.».

مجموعات متفرقة بولاءات متعددة، بعتاد قليل وتدريب وخبرة اقل، تريد مواجهة عصابات صهيونية توحدت تحت لواء واحد اسمه «جيش الدفاع»، كان هناك عمليات ومعارك سقط فيها مئتا قتيل من جيش الانقاذ وأُسر آخرون. استشهد عبد القادر الحسيني في القسطل، بعد ان وجه رسالة قاسية الى امين عام جامعة الدول العربية، بعد المذابح، انسحب القاوقجي ومقاتلوه إلى النبطيّة في لبنان. وحُلّ جيش الإنقاذ وأعفي القاوقجي من مهمّاته، وقُسّمت فلسطين التاريخيّة بين إسرائيل والأردن ومصر. انهزم الجميع، انتكب الجميع.

عاش القاوقجي بعد ذلك في شقة جنوب بيروت، مهملا فقيرا يعتاش على اعانة سعودية نظير خدماته السابقة في تدريب جيشها، روت زوجته الالمانية انه كان في ايامه الاخيرة يصرخ بالتركية في وجه ضباط عثمانيين. دفن في مسقط راسه طرابلس عام 1975. كان ذلك عام وفاته الفيزيائية اما موته الحقيقي فقد كان مع انسحابه من فلسطين.

يقول الكاتب اللبناني سعيد تقي الدين في كتابه «غدا نقفل المدينة» وفي فصل عنوانه «مقدمة لمذكرات فوزي القاوقجي»، انه كان مغتربا في الفلبين وكان يشرب مع رفاقه الانخاب احتفالا بانتصارات القاوقجي، ويضع صورة له تحت زجاج طاولته في مكتبه التجاري، وكان يمني نفسه بكتابة سيرة هذا الرجل في يوم من الايام، ولكنه بعد ذلك مزق صورة الرجل، ويضيف: وفي إبان حرب فلسطين التقيت بفوزي القاوقجي في أحد مكاتب السراي، وكان هو في ثوب الميدان العسكري، فتكلمنا خلال دقائق عابرة، وراح يخبرني، من غير أن يعرف من أنا، أنباء القتال، وكيف أنه تلقى ١٤ تلغراف استغاثة من أحد الجيوش، وأية مهزلة هذه أن يستنجد جيش دولة نظامي بجيش عصابات لينقذه من مأزق جبهة لا يستطيع جيش العصابات أن ينفذ إليها.

في صيف عام 1949 ذهب تقي الدين لزيارة القاوقجي بمعية اصدقاء، توقع انه سيجد الرجل في فيلا على البحر غارقا في النعيم واللذائذ والخمور، ولكنه تفاجأ بمسكن متواضع على قارعة الطريق وبمدخله امرأة تنشر الغسيل هي زوجته الالمانية، وكان هو الداخل مرتديا بنطلونا قصير وكان اولاده منتشرون في الصالة وليس بين ايديهم العاب، واما ابنه اسامة وكان عمره 5 سنوات فقد كان يخرج ليلعب في الرمل ثم يعود، في زيارة لاحقة كان ابنه مريض ولم يكن معه ثمن كشفية الطبيب ولا الدواء.

شهادة مهمة يصعب اختصارها لاهمية ما فيها من مواقف كاشفة، وآراء جريئة وتفاصيل صريحة.

قضى القاوقجى 40 عاما وهو يقاتل في مجمل بلاد المشرق العربي، وظل ينظر اليه كبطل قومي، وبعد النكبة انتقده الجميع، البعض اعتبروه ضالعا في مخطط تآمري رسمي عربي للتفريط بفلسطين، وسبقتها روايات تتهمه بالعمالة لفرنسا التي حاربها في طول وعرض البلاد السورية، ولبريطانيا التي حاربها في فلسطين والعراق ولالمانيا التي اختلف معها ولكن الحقيقة ان الجميع تواطؤ بقصد وبغير قصد. والحقيقة انه لو كان متواطئا لما تم اهماله ولما عاش ربع قرن من حياته بعد النكبة في اهمال تام وفقر مدقع، ولما حاول رجال مخابرات عرب سرقة دفاتر مذكراته. لقد راسل شكري القوّتلي عام 1957 طالبًا مساعدة تعادل معاش منظّف الأرض في قصره، ولم يُجبه القوّتلي.

وبعد وفاته شاعت روايات كثيرة، بعضها إسرائيليّ، تتّهم فوزي بالتواطوء مع الهاغانا، مشكلة هذه الروايات انها مؤسسة على اقوال اسرائيلية عن لقاء جرى بين القاوقجي وبالمون، وهي لا ترقى الى صفة الوثيقة، وان مجرد كونها اسرائيلية مدعاة للشك بوجود مبالغات فيها، ان لم نقل الشك فيها جملة وتفصيلا، وان اضافة عبارة «تم الكشف عنها مؤخرا» لا يجب ان تخدعنا.

في طريقة استخدام هذه الاقوال (الوثيقة) نلحظ انها تستخدم للطعن في الرجل اكثر من الآخرين، واكثر مما تستخدم لنقد المرحلة بكاملها، وانها تستخدم كدليل على ضلوع القاوقجي في تنفيذ مخطط تآمري عربي ضد فلسطين متجاهلة وثائق أخرى يطلب فيها القاوقجي ويطلب فيها عبد القادر الحسيني الدعم والسلاح من القيادة في دمشق ومن الجامعة العربية.

تستخدم هذه (الوثيقة) كتفسير لسوء العلاقة بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني وان تنفيذ ما فيها من تعهدات ادى الى هزيمة القسطل واستشهاد عبد القادر، والحقيقة ان ما سميت بالوثيقة تتحدث عن اجتماع سري وقع قبل القسطل بيومين اثنين فقط، واما الخلاف فهو قديم ويعود في جذورة الى الخلاف مع قريب عبد القادر السيد المفتي امين الحسيني، علما ان القيادة في دمشق امرت القاوقجي بعدم التدخل في عمليات عبد القادر وجيش الجهاد المقدس.

لا نجد في اجتهادات من تعامل مع هذه الرواية اي اجتهاد لتفسير اسباب عدم اندماج الجيشين جيش الانقاذ بقيادة القاوقجي وجيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني.

ونلحظ في نص الرواية الاسرائيلية (الوثيقة) مبالغات تجعلها عرضة للتشكيك وعدم التصديق، منها ان القاوقجي طلب من الهاغاناه تأديب عبد القادر وجماعته (عليكم أن تعلموهم درسا لا ينسوه)!! وانه طلب (نصرا تمثيليا واحدا يستعين به لإكمال تنفيذ مخططه) ولكنهم رفضوا (نحن اليهود لن نعطيكم شيئا, وإن هاجمتنا كيفما كان, سنرد عليك بالأسوأ).

الحقيقة التي لا يستطيع احد ان ينكرها ان القاوقجي قبل وبعد استشهاد الحسيني وقبل التاريخ المزعوم لهذا اللقاء وبعده كان يخطط ويحاصر ويهاجم مستعمرة مشمار هعيمق، وانه فرض على سكانها هدنة وان بنود الهدنة كانت معلنة على الصفحات الاولى للصحف بتاريخ 8 نيسان 1948 (كما في الصورة).

تؤكد بارسونز بشكل قاطع: «في كل الوثائق التي بحثت فيها، لم أعثر على أي دليل ولو صغير، يشير إلى أن القاوقجي لعب هذا الدور. بحثت في الأرشيف البريطاني، وفي الملفات البريطانية للمخابرات، ولم أجد ولو

قصاصة واحدة يمكن أن تجعلنا نوجه له هذا الاتهام».

وتضيف: «...القاوقجي ارتكب أخطاء. فقد اعتقد أن الحرب ستكون أسهل مما هي عليه في مواجهة الإسرائيليين عام 48، وهذا كان انطباع الكثير من القادة العرب وقتها، معتمدين على حربهم مجتمعين لمواجهة الجيش المعادي».

اضافة لكونه قد خسر الحرب، التي كانت نكبة على كل المستويات تعتقد بارسونز أن «السبب الرئيسي في تشويه صورة القاوقجي كان مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني لأنه كان يخشى دوره الكبير، ويتوجس منه».

استشهد عبد القادر الحسيني، اخطأ فوزي القاوقجي واخطأ امين الحسيني، واخطأ غيرهم، اخطاء لا ينبغي القفز عنها، ولا التوقف عندها طول العمر، ولا تضخيمها، ولا تحويلها الى حبكات بوليسية تآمرية وخيانية، ولا ينبغي ايضا انكار فضل كل واحد منهم على هذه المسيرة الطويلة.

سيظل القاوقجي بطلا عربيا امضى 40 عاما وهو يحشد المقاتلين العرب من اجل فلسطين، ويسير نحو حلم قومي، وكان يرى ان بلاد الشام هي قلب العروبة وانها يجب ان تكون موحدة.

وكان مقاتلا محترفا، الحياة في نظره ساعتان: ساعة حب، وساعة حرب؛ في ساعة الحب يكون الرجل انانيا، يحيا هذه الساعة لنفسه، ناسيا ان في الدنيا سواه، وساعة الحرب هي ساعة العطاء؛ إذ يفنى الإنسان في نضاله القومي، ويصبح هو لا شيء، وأمته كل شيء.

كان الاسلام يهزه من الاعماق، غير انه كان يرى ان الدين يجب ان ينحصر في مكانين هما الضمير والمسجد، وأما أن يكون لأحد منا شأن في حياتنا المدنية بسبب انه تخرج من الازهر، او انه يلبس عمة، ويطلق

لحية، فهذا شيء غير مقبول.

وسيظل المفتي الحاج امين الحسيني ببطولاته في اشد الظروف، على مدى نصف قرن من الزمان، وثباته في وجه كل المغريات، وسعيه الدؤوب لخدمة بلده وديانته، حيثما ارتحل او نُفي وأبعد سيظل رمزا خالدا من الرموز المؤسسة لهوية فلسطين، لقد وقف الرجل سدا منيعا امام كل الخطط البريئة وغير البريئة لشهب هذه الهوية وظل حارسا امينا للمقدسات الفلسطينية.

عرفات بين اسد سوريا وصدام العراق

لم يذب جليد العلاقة بين سوريا وابو عمار، بعد زيارته الاولى لها منذ طرده، شارك هناك في تشييع رفيق نضاله ابو جهاد، وكان سعيدا بنتيجة ذلك الاستفتاء الجماهيري العفوي الذي خرج تأييدا له. بعد اسابيع وفي بغداد وأمام حشد جماهيري كبير اقيم في الجامعة المستنصرية بمناسبة تحرير شبه جزيرة الفاو من الايرانيين يخطب ابو عمار قائلا: «ليست مصادفة ان تبدأ الفاو وفلسطين بحرف الفاء» وكالعادة يشتعل المسرح تصفيقا وهتاف.

انحياز ياسر عرفات للعراق في حربه ضد ايران جاء بعد سلسلة وساطات بين بغداد وطهران لوقف هذه الحرب، كان ياسر عرفات

يعتقد ان فلسطين غالية على قلبي صدام والخميني، وكان يعتقد ان مساعدات الثورة الفلسطينية لثورة الخميني تؤهله للعب دور الوسيط الناجح، لكن الصدمة الكبرى كانت في امتناع المرجعيات الدينية الشيعية التي يسيطر عليها الخميني عن اصدار فتوى تحرم على حركة امل قتل وقصف وحصار اللاجئين في مخيمات لبنان.

عرفات وفي علاقته بسوريا والعراق وفي مجمل علاقات الثورة الفلسطينية كان محكوما بدكتاتورية الجغرافيا. خير من يفكك هذه العلاقة ويشرحها هو الاستاذ نبيل عمرو في كتابه «ياسر عرفات وجنون الجغرافيا» في الفقرة الاولى من الفصل الذي حمل عنوان «صدام حسين عدو الامس والحليف الاخير» يقول نبيل عمرو:

»علاقة عرفات بالرئيس العراقي صدام حسين تتلخص بكلمتين لا ثالث لهما: الاسد وايران. واذا كانت علاقة صدام بنظيره الحزبي اللدود، قد تحسنت لبضعة اسابيع او شهور، فإنها انهارت وبلغت حدة العداوة فيها اعلى الدرجات، حين اكتشف صدام محاولة انقلاب نظمها الاسد للإطاحة به،.. منذ ذلك الوقت، ظهر حرص صدام على اقامة علاقة مستقرة مع عرفات، فلا يزال قائد الثورة الفلسطينية، يصلح حليفا كما يصلح احيانا غطاء لسياسات صدام الحازمة والواقعة على حد المجازفة. ذلك ان عرفات كان يلزم لسحب البساط المقدسي من تحت اقدام الملالي في طهران، ويلزم في توفير اهم مقومات البعد القومي في سياسة صدام المتنافس بحدة مع قائد عربي داهية هو حافظ الاسد، «ان عرفات راية فلسطينية مقدسية يجب ان تخفق في بغداد وليس في طهران».

ابو عمار في ذلك الخطاب يرحب بأمين الحافظ ويدعوه بالرئيس الشرعي لسوريا (خلع من الحكم في سوريا عام ١٩٦٦ ولجأ الى العراق، وظل فيها الى عام الغزو الامريكي 2003 عاد بعدها الى سوريا ومات هناك

بعد 6 سنوات)، تاريخ سوريا حافل بالانقلابات. وتاريخ العراق كذلك. سجل العسكري العراقي بكر صدقي اسمه في التاريخ كصاحب اول انقلاب عربي عام 1936 على حكومة ياسين الهاشمي، في عهد الملك غازي، تلاه انقلاب السوري حسني الزعيم عام 1949، على شكري القوتلي، انتهى حسني الزعيم بعد 4 اشهر رميا بالرصاص، لم يعرف موضع قبره إلا بعد عام، حين عثر على جثتهِ مدفونة بثياب النوم التي اعتقل بها في تابوت خشبي تحت كومة حجارة في منطقة أم الشراطيط قرب نهر الأعوج بدمشق.

ومع ذلك لم تكن فترة الشهور الاربعة اقصر فترة حكم في تاريخ سوريا!! استقلت سوريا قبل 74 عاما، حكمها الاسد الاب والاسد الابن طوال نصف قرن، سبقهما على مدى 24 عاما 18 رئيسا، تم الانقلاب على كثير منهم، وبعضهم مثل اديب الشيشكلي (كان منتميا للحزب السوري القومي الاجتماعي الذي اسسه انطون سعادة) لم يستمر في الحكم في الفترة الاولى سوى يوما واحدا، وفي الفترة الثانية عدة اشهر فقط انتهت باغتياله في البرازيل.

يصفق السوريون لترحيب ياسر عرفات بالرئيس المخلوع امين الحافظ، يصفقون بحرارة شديدة وبينهم أعضاء من جماعة الاخوان الذين لجأوا الى العراق أيضًا بعد مجزرة حماة وعاشوا ودرسوا هناك وامتنعوا عن أي نشاط، فهم يعرفون ان البعث العراقي لم يكن قد أسلم وتمشيخ بعد، ويعرفون ايضا ان استضافتهم ليست حبا لهم ولا تأييدا لأفكارهم وإنما كرها ببعث دمشق، وان حالهم كحال جماعة خلق الإيرانية المعارضة، والتي سمح لها بإقامة معسكرات على أطراف المدن تحت رقابة مشددة، تمامًا كما سمح لأعضاء حزب تودة الشيوعي الإيراني المعارض بالإقامة في باريس.

رغم كل الخلاف لم اقرأ تحليلا سياسيا في تلك الفترة يتحدث عن العلويين والشيعة والسنة، ولا الاكراد، كانت كل التحليلات تركز على شرح التبعية وتوضيح مصالح وأهداف المستعمر في السيطرة على خيرات المنطقة، هل كان الكتاب خجولين من ذكر الطائفية ام كانوا أكثر جذرية ام كان عالمنا العربي فعلا اقل طائفية مما هو اليوم؟!!.

يبدو انها كانت تستعر رويدا رويدا كالجمر تحت الرماد، وجاءت ايران بتصدير ثورتها، وجاء الغرب بفوضاه الخلاقة، لينفخ على هذا الرماد، كان الحاكم العربي قد استبد وتجبر، الحصون تسقط من الداخل فما بالك اذا كانت هذه الحصون مجرد كرتون.

في فصل واحد فقط من فصول غربة دريد لحام انقلب مختار ضيعة حلوم على نفسه مرات ومرات، يقول المثل التونسي: البغل تبدل والكريطة هيَّ هيَّ، والكريطة هي العربة واما البغل فحيوان اسطوري يشبه العنقاء في التجدد ولكنه لا يطير.

قال تونسي ذات يوم واعد: هرمنا من اجل هذه اللحظة التاريخية

واستخدم كثيرون هذه العبارة من بعده، لأغراض شتى، تختلف تمام الاختلاف، وتبتعد كأقصى ما يكون الابتعاد، عن ذلك السياق الذي قيلت فيه اول مرة.

ابرز هؤلاء هو المعلق الرياضي الشهير عصام الشوالي وقد نطقها بكل الق وحماس حين احرز رونالدو لاعب ريال مدريد هدف التعادل مع برشلونة في الدقيقة 82، خلال المباراة التي جمعت الفريقين ضمن منافسات الجولة 32 من الدوري الإسباني لكرة القدم.

كان الأرجنتيني ليونيل ميسي قد افتتح التسجيل لبرشلونة فجاء البرتغالي كريستيانو رونالدو ليعادل النتيجة دافعا الشوالي الى استخدام هذه العبارة التاريخية

جرت المباراة مساء يوم السبت 16 نيسان من عام 2011 أي بعد 3 اشهر فقط من ذلك الصباح الذي شهدت فيه تونس الاحتفال بانتصار ثورتها وعزل رئيسها زين العابدين بن علي.

في ذلك الصباح كانت كاميرا الجزيرة ترصد انفعالات التوانسة، المسن احمد الحفناوي كان قد بات ليلته في مقهاه الواقع بشارع الحبيب بورقيبة قبالة وزارة الداخلية، خرج من باب المقهى وصل الى الجزيرة الوسطية المظللة بالاشجار، فاجأته الكاميرا فقال بكل عفوية وتأثر، وبفرح تشوبه الحسرة، وهو يمسح بيده اليمنى على شعره الاشيب بالكامل: هرمنا! لقد هرمنا في انتظار هذه اللحظة التاريخية. سرعان ما اصبحت العبارة الاكثر تداولا وسرعان ما اصبح صاحبها الاكثر شهرة.

يقول صاحب العبارة الشهيرة في مقابلة اجريت معه بعد 7 سنوات على ذلك اليوم الواعد، انه ليس نادما، ولا زال مؤمنا بالثورة، وان تلك اللحظة كانت من اجمل لحظات حياته، ولكنه يعيش الآن اتعس ايام حياته، لقد كان لديه مقهى ايام الزين، واما بعد الثورة فقد اضطر الى بيعه بأبخس الاثمان.

بعضهم علق على المقابلة قائلا: لقد ندمنا.

يدخل السياسي في الثقافي متى يشاء

وتفوق سلاح الجو العراقي، واشتعلت حرب المدن عبر الصواريخ طويلة المدى معلنة عن ذروة ما بعدها إلا النهاية والتي صادفت يوم 8/8/88، وتلتها 3 أيام من الفرح الجنوني، لم يتوقف خلالها العراقيون شيبا وشبانا عن رش بعضهم بالماء مما أنساهم لهيب شهر آب.

انتعش العراق وانتقلت اليه القيادة الفلسطينية وأقام فيه ابو عمار 6 اشهر متواصلة وانتقلت بعض أجهزة فتح والمنظمة الى بغداد ومنها القطاع الغربي وجهاز الامن الذي يقوده المرحوم هواري والذي قيل الكثير عن تخصصه الأمني بالساحة السورية.

انتعشت بغداد وانتعش مهرجان المربد الشعري بحضور محمود

درويش مصحوبا بوزير الثقافة العراقي لطيف نصيف جاسم، وهناك ألقى قصيدة «من فضة الموت الذي لا موت فيه ولا درج» قصيدة تمسخر الحاكم الشمولي العربي أيا كان، أنها قصيدة «الشعار على الجدار» ورغم عنف القصيدة ومغزاها، فقد صفق لها البعثيون قبل غيرهم، باستثناء الكتاب والمثقفين والشعراء المقيمين والمقربين من بلاط الحاكم الدمشقي. في تلك الزيارة اطلق درويش وصف «قمر بغداد الليموني» زيارة تفتح شهية الشعراء لإطلاق النار عليه.

عاتبه اصدقائه من الشعراء العراقيين المقيمين في دمشق، مستنكرين مشاركته في مهرجان يقيمه النظام الذي يقمعهم، فقال لهم: انا ابن الملاجئ فدعوني اتغزل بالقمر حتى لو في بغداد. ردوا عليه: ونحن اللاجئين من العراق وظلم نظامه وقد لجأنا الى اللاجئين. وكانوا وقتها فعلا قد التجأوا الى المقاومة الفلسطينية في بيروت وعملوا في تنظيماتها ومكاتبها.

لم تشفع الضرورات لمحمود درويش، فظل معارضوه وخاصة من اليساريين القابعين في البلاط الدمشقي يكتبون ضده في مجلة الهدف لسان حال الجبهة الشعبية، فنشر على غلاف اليوم السابع رسالة موجهة الى جورج حبش، جاء فيها:

«كان علي ان اموت كبدر شاكر السياب في مستشفى كويتي ليغفر لي بعض اصدقائي العراقيين انني حي، الشاعر ليس ملاكا وليس ملكية لأحد، لست مثاليا لأستعير سؤالكم: لماذا تقيمون في دمشق طالما ان نظامها يبعدنا الى اقاصي الصحراء، يدخل السياسي في الثقافي متى يشاء، ويدخل الثقافي في السياسي متى يشاء، ويختلطان فيصيران لا هذا ولا ذاك، ذلك ان المثقف ما زال عاجزا عن تحقيق استقلاله النسبي عن مؤسسات السلطة وعن ارهاب المعارضة»، بغداد تتعافى سريعا ونهضتها العمرانية

تبلغ الذرى وهي نهضة علق عليها ابو السعيد خالد الحسن رحمه الله بقول جريء أمام مجموعة من الأكاديميين الحزبيين في جامعة بغداد قائلا: أتمنى ان يكون العراقي قد نهض نهضة تواكب هذا العمران، وقال أحد زوار الشام لي سرا ان دمشق التي لم تدخل حربا لا تشهد أي نهضة من أي نوع.

كان خالد الحسن رحمه الله مفكرًا عميقًا، والاهم انه كان جريئا جدًا في طرح أفكاره، الامر الذي جعله غالبا على غير وفاق مع زملائه في اللجنة المركزية لفتح، بدء من قائدها العام ابو عمار وانتهاء بشقيقه الاصغر هاني الحسن.

بعد طول غياب وكبير اختلاف مع البعثيين حل ضيفا على بغداد، واستضافه مركز الدراسات الفلسطينية بجامعتها العتيدة لإلقاء محاضرة للنخبة فقط، في محاضرته أسهب في ضرب الامثلة لشرح مقولة فتح: «قضيتنا فلسطينية الوجه، عربية العمق، عالمية الأبعاد».

مما قاله يومها، ان الولايات المتحدة ستتجه للاعتماد على الدول الهامشية كقطر مثلًا، (ذكرها بالاسم) وليس على مصر ومثيلاتها من الدول، لان مصر دولة عميقة يظل فيها جمر الاصالة متقدًا، مهما تراكم فوقه الرماد، وتعداد شعبها كبير، وهو شعب بحاجة الى تنمية كبيرة، وبالتالي فان رعاية الولايات المتحدة لها ستكون مكلفة جدا، وقد لا تدوم نتائجها طويلا.

تابع خالد الحسن قائلًا: ومن سوء حظنا، وحسن حظ الأمريكيين ان تطور الصناعة العسكرية ووسائل الاتصال بات قادرا على الغاء كثير من الاهميات الاستراتيجية وحسنات الموقع الاستراتيجي والعقبات اللوجستية.

حديث الحسن على وضوحه وعلميته قوبل يومها بالاستهجان، ورأى فيه

الحاضرون محاولة لتسويق مصر!!!! كان مجرد ذكر قطر في هكذا مقام مدعاة للاستغراب.

بعد هذا الحديث بعشرين عاما، رفضت مصر مبارك اقامة قواعد عسكرية امريكية على أراضيها، وانهت السعودية التواجد العسكري الامريكي الذي أقيم على أراضيها إبان حرب الخليج، ودخل العراق حربا طاحنة مع الولايات المتحدة، واما قطر فقد استضافت على حسابها الخاص اكبر قاعدة امريكية في المنطقة، وتكفلت بمصاريف تأسيسها ونفقات تشغيلها ورواتب المتواجدين فيها وتكرمت بتغطية إجازاتهم وتكاليف سفرهم للولايات المتحدة مرتين كل عام.

من هذه القاعدة الامريكية المجاورة لمكاتب فضائية الجزيرة القطرية، كانت تنطلق المقاتلات الامريكية لقصف بغداد، وعلى الشاشة كانت هناك دموع تماسيح تبكي العراق. وعبر هذه الشاشة تمت إشاعة الفوضى في مصر وغيرها، القلائل الذين اكتشفوا مبكرا ألاعيب قطر وجزارتها الساحرة، لم يمتلكوا الجرأة المبكرة والكافية لفضحها، ومن امتلك الجرأة افتقد الفكر، أمثال خالد الحسن ممن يملكون الفكر والجرأة معا غابوا عن الساحة، اليوم الجميع متشابه ومكرر، مكرر حد الملل. وما بعد بعد الملل.

في تموز من العام 2016 خامس اعوام الحرب في سوريا على سوريا، انتشر تسجيل مصور لأفراد حركة نور الدين زنكي الممولة من الامريكان والحلف المعادي لسوريا، وهم يقومون بذبح طفل فلسطيني في حلب.

هزت هذه الجريمة العالم اجمع حتى ان واشنطن اعلنت فكرت بقطع المساعدات عن هذه الحركة، وكانت منظمة العفو الدولية اتهمت، خمسة فصائل مقاتلة في محافظتي حلب وإدلب، بارتكاب جرائم حرب من خطف وتعذيب وقتل خارج إطار القانون، من بينها حركة نور الدين

الزنكي.

ما الذي فعله الاوباش ومؤيدوهم عبر الجزارة (الجزيرة سابقًا)، لقد نقلوا الحديث عن جريمة نحر الفتى على يد ملاعين جماعة نور الدين زنكي الى مستويات منحطة عبر التشكيك في جنسيته (سوري ام فلسطيني) وعبر التشكيك في عمره (11 عاما ام 17 ولكنه يبدو اصغر بسبب إصابته بالثلاسيميا) وعبر التشكيك في كونه مقاتلا، ثم بدأوا في عقد المقارنات للتقليل من هول جريمتهم، وبعد كل هذه الشكوك طلعوا علينا ليقولوا انه حادث فردي وأنهم سيحققون في الموضوع، ثم أغرقوا وسائل التواصل الاجتماعي بصور واخبار تقول ان قاتل الفتى قد قُتِل، وبالتالي لا تحقيق ولا يحزنون.

هذه المهارة الاعلامية ليست مستغربة عليهم حين يُعرف اسيادهم، وليس مستغربا عليهم بطبيعة الحال ان يحرفوا احاديث نبوية وان يطوعوا تفسير القرآن لمصلحتهم.

جماعة نور الدين زنكي واحدة من جماعات كثيرة امتهنت القتل، ورد عليها النظام بقتل اكبر، والاعيب الجزيرة واخواتها كانت ماكرة، رد عليها اعلام النظام ومساندوه بسذاجة مفرطة وانكار عنجهي، والطفل الفلسطيني الذبيح عبد الله عيسى لم يكن سوى واحدا من نصف مليون قتيل في (ثورة) شردت مليون سوري عن بلدهم.

الطيش على شبر ماء

نمنا ذات ليلة بغدادية لنصحو على حال جديد، لا يشبه ما سبقه ابدا، كنا اربعة نحاول تمثيل دور المصطافين على شواطئ بحيرة الحبانية، في زمن عراق ما بعد الحرب، لم نفلح في اداء الدور، فلجأنا الى الشاليه للعب جولات متكررة من التركس تحت المكيف، دخل شريكي حسام، الذي يشبه راغب علامة، والمهزوم دوما من الثنائي الغشاش معاوية ووسيم، والقى قنبلته دون مقدمات: العراق دخل الكويت واسماها محافظة النداء.

الضحك المتواصل هو آلية الدفاع التي تولدت ذاتيا في مواجهة هذه الصاعقة. ولا شعوريا بدأنا نسأل بعضنا ونجيب باللهجة العراقية،

اسئلة غريبة واجابات اغرب، وحالة من الضحك الاقرب للهستيريا. لم نقطع زيارتنا فقط، لقد انقطعنا عن لعب التركس من يومها الى يومنا هذا، بل وتقطعت بنا الدروب وفصلتنا الحدود، ولم نعد نشاهد بعضنا، اللهم الا هنا، في هذا الفضاء الازرق.

وسط ذهول العرب ولا اندهاش الغرب تشكل حلف حفر الباطن وفي القلب منه سوريا الاسد.

كم هو بائس ان تناقش من يرى في احتلال الكويت مقدمة لتحرير فلسطين!

مرة واحد بدو يحرر فلسطين راح بعث جيشه ع اليمن

مرة واحد بدو يحرر فلسطين نسي الجولان وبعث جيشه ع لبنان

مرة جماعة بدها تحرر فلسطين راحت ع افغانستان

مرة حزب بده يحرر فلسطين راح ع روما عشان يفتحها

مرة واحد بدو يحرر فلسطين نسي الطريق وراح احتل الكويت

مرة واحد بده يحرر فلسطين راح ع البحرين

مرة واحد بدو يحرر فلسطين راح ع ليبيا

وكم هو سخيف ان تناقش شخصا شاهد صورة صدام حسين مبتسما على وجه القمر!

شبر واحد من الماء يكفي لكي يطيش البعض، عندما انتصر الخميني، رأى بعضهم صورته على القمر، وألف بعضهم احاديث عن رجل يأتي من الشرق ليحرر المقدسات، يومها سارع فلسطيني لتسمية مولوده الجديد خميني. مؤكد ان والدته لم تستطع ايجاد اسم دلع مناسب له.

بعد نحو عقد من الزمان، رأى البعض صورة صدام حسين على ذات القمر، وقالوا انه كان يضحك، واكد بعضهم ان الشرق المقصود في الحديث لا يتجاوز حدود العراق، ويومها كرر صاحبنا عومه على شبر

الماء، وسمى مولوده الجديد صدام حسين، وصار لديه في بيته، ما يرد العين والحسد، وما يمنع قبول أي طلب فيزا او هجرة لدولة، لا يطيش سكانها على شبر الماء.

يستطيع الفلسطيني الطيش على مجرد شبر واحد من محلول H2O، ويحسن ايضا ممارسة رياضة الركمجة على هذا الشبر من الماء وإعتلاء امواجه، موليا ظهره للرياح ايًا كان مصدرها.

زار جميع قادة فتح بغداد بعد انقطاع، فهل سيزورها ابو أياد صلاح خلف، والذي استقر دهرا في الكويت وكان قد اقسم على عدم زيارة بغداد بعد ان دعمت ابو نضال الذي واظب على مهاجمة ابي أياد الى حد وصفه بابن اليهودية.

لقد زار بغداد فعلا، وتحدث أمام ذات الأكاديميين الذين خاطبهم قبله خالد الحسن، خاطبهم ببساطته وكل عنفه ومباشرته، حديث جعل صاحب «الفلسطيني بلا هوية» يستقر في قلبي مفضلا على غيره بدرجات، ظل ابو اياد ضد دخول صدام حسين الى الكويت، وظل ابو عمار يصطحبه معه لمقابلة صدام حسين لإسماعه هذا الرأي وتحذيره من مغبته، في الختام قال ابو اياد لصدام: دخولكم الى الكويت خطأ كبير، ولكننا معكم اذا هاجمتكم امريكا،

زاد إعجابي بالرجل حين سمعت عن خطابه بعد أيام في عمان بذكرى انطلاقة الثورة وكان ذلك آخر ظهور له حيث تم بعد ايام اغتياله مع ابو الهول وأبو محمد العمري برصاص مندس من جماعة ابو نضال. تم اغتيال ابو اياد عشية الحرب عام 1991 على يد عنصر من جماعة ابو نضال، الحقيقة ان ابو اياد لم يكن مرغوبا من القيادة العراقية اطلاقا، وكان رجلها القوي المأجور ابو نضال ظل يضع ابو اياد على قائمة المستهدفين بالاغتيال.

تجرع ابو نضال من الكأس التي جرعها للآخرين، ومات برصاص المخابرات العراقية في منزله ببغداد. وتم الاعلان رسميا انه انتحر بأربع رصاصات، هذا النمط من الاغتيال الذي يصور انتحارا شائع في دولتي البعث العراقي والسوري.

الجالية الفلسطينية في الكويت تتشرذم والأقل حظا ينتقلون الى العراق الذي ينسحب مهزوما من الكويت، ويعيش حربا داخلية وحصارا وجولات تفتيش للمراقبين الدوليين الذين ركبوا كاميرات في كافة منشآته الحيوية، والمنظمة التي ساندت صدام وهو يقصف تل أبيب بالصواريخ، تُساق في مسار إجباري نحو أوسلو، وتنتقدها دمشق غاية الانتقاد، وتخونها كأشد ما يكون التخوين، ثم تلتحق سوريا الاسد بالمفاوضات وتطالب بوديعة رابين الذي اغتاله متطرف يهودي استفزه تكرار أبي عمار لمقولة (شريكي في عملية السلام).

يرث بشار حكم أبيه وتحاول السلطة فتح مغاليق أبوابه لكن الحاكم الجديد كأبيه يهوى إلقاء المواعظ والخطابات الطويلة وإعطاء الدروس حتى لقدامى الحكام العرب في القمم العربية، وهو ما دفع غالبيتهم الى التغيب عنها لاحقا.

ابو عمار يستمع لتقرير امني وارد من دمشق جاء فيه ان جورج حبش قال خلال اجتماع لجبهة الإنقاذ التي تضم فصائل عشرية موالية لدمشق: «نحن نختلف مع أبي عمار ولكننا لا نختلف عليه» لم تحتمل العبارة عند ابي عمار إلا تفسيرا واحدا مفاده ان المجتمعين ناقشوا مسالة اغتياله، مما حدى بجورج حبش الى إطلاق هذه المقولة في مواجهتهم

كامب ديفيد الثانية وما رافقها من لاءات فلسطينية كانت كفيلة بإذابة كثير من الجليد خاصة وان الانتفاضة الثانية قد اندلعت في أعقابها واحرجت العرب جميعا، وبدأت دمشق في استقبال الجرحى الفلسطينيين

وتنظيم المؤتمرات الشعبية المساندة للانتفاضة.

هل علي ان اشعر بتانيب الضمير وانا اختصر احداث العقد الاخير من الالفية الثانية بهذا التبسيط؟ هل كان علي ان اغوص في تفاصيله اكثر؟ لقد وقفت سوريا البعثية القومية ضد شقيقتها اللدودة البعثية القومية بغداد، واصطف جنودها في حلف حفر الباطن خلف جنود مصر والسعودية، كان الهدف المعلن للحلف اجبار العراق على الانسحاب من الكويت، ولكن هدفه امتد ليشمل تدمير البنية التحتية للعراق، تمهيدا لتدمير معنوياته بفرق المفتشين الدوليين، وتركه لينهار ويتفتت ذاتيا.

هل جنى العراق على نفسه؟ هل كانت امامه فرص اخرى للرد على استفزازات الخليج النفطية؟ هل يتشابه دخول العراق الى الكويت بالتدخل السوري في لبنان؟ هل يتشابه حلف حفر الباطن الذي اكتوت بنيرانه بغداد مع الحلف القائم ضد سوريا الآن؟

اسئلة اعترف مسبقا بانها موجهة، واعرف ان غيري قد يعيد توجيه نارها نحو قرصه، وليس عيبا ان تختلف وجهات الاسئلة، العيب هو فقط في اختلاف الاجوبة.

يا الهي كم خطرت ببالي ذكريات وايام بحيرة الحبانية وانا اقف على رمال الشاطئ الازرق في اللاذقية.

أنا الدمشقيُّ لو شرحتمُ جسدي... لسالَ منهُ عناقيدُ وتفّاحُ

اللهُ يا بنفسجًا كَتوم... مَن لامَنا في الهَوى مَلوم
أميرُ هذا الليلِ في دمشقَ... نَهدٌ أموَيٌّ ظالِمٌ مَظلوم
مَسَحتُهُ على خُدودي فاستَفاقَت... في أناملي مواسِمُ الكُروم
وحينما تركتُهُ قامَ إليَّ نائِمًا... يا حَيُّ يا قيّوم
هل لي إلى لَسعِك؟ هذا جسدي... غابٌ عِراقيٌّ مِن الوشوم
يا نَهدُ يا أزكى من البنفسجِ... البَريّ يا أحلى مِن الحلقوم
يا طفلُ يا صغيرُ يا لذيذ... الرقصِ يا جريء يا نَمنوم
أفديكَ، أقبلَ الصباحُ باردًا... فَقُم إلى الصلاةِ أو أقوم

بهذه الكلمات والمشاعر عبر مظفر النواب عن حبه لدمشق في وقت مبكر.
في البيت الاول يرد على لائميه، هؤلاء الذين رأوا ان الشاعر الذي سأل يوما: «ماذا يطبخ تجار الشام على نار جهنم؟»، الشاعر الذي لم يستثن احدا، قد بات يستثني ويستثني.
الحقيقة ان شاعرا لا يستثني احدا لن يجد ارضا ليقيم عليها او يبول فيها. والحقيقة ان الشعراء كثيري الاستثناء كثيرون، كثيرون عبر

التاريخ وكثيرون هذه الايام، ذهبوا وسيذهبون وتذهب استثناءاتهم معهم ليمكث فقط ما ينفع من شعرهم.

يطرب الشعراء لمن يُعلي من شأنهم في حركة التاريخ، يثملون طربا، وعند اقرب منعطف تذهب السكرة وتأتي الفكرة فيعترفون انهم ليسوا على ذلك العلو.

كتب محمود درويش في مقال بداية سبعينيات القرن الماضي «شعر في كل العواصم ولم يذهب الغزاة، ولم يترجل الطغاة، وماذا بعد،» واستمر يكتب الشعر حتى رحيل جسده عام 2008.

«احبب حبيبك هونا ما» هذا الحكمة ليست شطر بيت من الشعر، انها حديث نبوي شريف، ويبدو ان مظفر النواب قد سار عليها، بعد ان اقبل وادبر ثم اقبل وادبر على دمشق وظل يقبل عليها ويدبر عنها. قال في احدى عوداته اليها انه يعود مقروح القلب:

دمشقُ عدتُ بلا حزني ولا فرحي... يقودني شبحٌ مضنى إلى شبحِ
ضيّعتُ منكِ طريقًا كنت أعرفه... سكرانَ مغمضةً عيني من الطفحِ
دمشق عدتُ وقلبي كلّه قرحٌ... وأين كان غريب غير ذي قُرحِ
هذي الحقيبة عادت وحدها وطني... ورحلة العمر عادت وحدها قدحي
أُصابِحُ الليل مصلوبًا على أملٍ... أن لا أموتَ غريبًا ميتةَ الشبحِ

مظفر كان ايضا ماهرا في الغناء، وصاحب نفس طويل ومزاج رفيع واداء متفرد، ولم يكن يشترط في سهراته الخاصة مصاحبة الموسيقى لحنجرته، تجدون على اليوتيوب هذه القصيدة والتي سماها «دمشق – باللون الرمادي» مغناة بصوته وبأداء بديع.

لماذا سماها اللون الرمادي؟ وهو الذي كان يراها بنفسجية في البداية؟ لقد امتد عمره وطالت غربته، صار يحب حبيبه هونا ما، وصار شبح الموت يراوده.

ظلت ميتة الشبح الغريب تطارد الشعراء العراقيين في المنافي، وكان اقربها الى بغداد، وكان اقلها قسوة المنفى الدمشقي. طاردتهم واصابت عددا منهم.

لم يكن مظفر الشاعر العراقي الوحيد الذي يلجأ الى سوريا ويقيم فيها لقد سبقه وتلاه كثيرون، شواهد القبور في مقبرة الغرباء خلف مقام السيدة زينب تدلنا على الراحلين، واما الاحياء فقد يختارون لاحقا مكانا آخر ليستثنوه ويقيموا فيه.

اعتقد ان طريق الهجرة من بغداد الى سوريا كان مزدحما بالشعراء، وان كثير منهم توقف في محطة ترانزيت اسمها م. ت. ف، واما طريق الهجرة بالعكس فلم يكن فيه الكثير من الشعراء، كان فيه سياسيون وكتاب وصحافيون.

نال الشعراء العراقيون اللاجيُون الى سوريا اهتمام نظامها على حساب اقرانهم السوريين، لم يكن ذلك بدافع اكرام الضيف فقط، لقد كان نكاية بشقيقتها اللدودة بغداد.

هناك كثير من الخلط في نسب قصائد النواب لغيره، وهناك كثير من الاخطاء والتغييرات بين الطبعات المتعددة لاعماله، وذلك لان الشاعر ظل يرفض اصدار اعماله الكاملة، او طباعتها، ولانه لا يملك ولا يتعامل مع اي دار نشر وليس لديه وكيل او مكتب ومساعدين يحفظون حقوق ملكيته الفكرية، فهو لم يكن يحفل بهذه الملكية وكان يعتبر نفسه وانتاجه الادبي مشاعا، وان كل الدواوين والطبعات الموجودة تمت دون علمه ودون موافقته، ولكن دون اعتراضه ايضا، باستثناء ديوان واحد هو ديوانه الاول «الريل وحمد»، فقد رسم هو شخصيا اللوحات المرفقة بالطبعات الثانية واللاحقة من الديوان بعد ان كانت الطبعة الاولى للفنان ضياء العزازي.

ومن بين هذا الخلط ما يتم لاغراض سياسية كما حصل مع نص «انها دمشق» الذي كتبه الشاب السوري فادي عزام، فنسبه آخرون للنواب، واستغلوه لاغراض سياسية تخدم موقفهم من النظام السوري، كنت ضحية لهذا الخطأ، فنشرت النص ونسبته للنواب، اعتذرت عن الخطأ، ولم استطع التعهد بعدم الوقوع في الخطأ ثانية، ولكنني تعهدت بالاعتذار والتصحيح كلما اخطأت وها انا اعيد نشره منسوبا لصاحبه فادي عزام.

(انها دمشق) شقيقة بغداد اللدودة، ومصيدة بيروت، حسد القاهرة، وحلم عمان، ضمير مكة، غيرة قرطبة، مقلة القدس، مغناج المدن وعكاز تاريخ لخليفة هرم.

إنها دمشق، امرأة بسبعة مستحيلات، وخمسة أسماء وعشرة ألقاب، مثوى ألف ولي، ومدرسة عشرين نبيًا، وفكرة خمسة عشر إلهًا خرافيًا لحضارات شنقت نفسها على أبوابها.

إنها دمشق الأقدم والأيتم، ملتقى الحلم ونهايته، بداية الفتح وقوافله، شرود القصيدة ومصيدة الشعراء.

لديها من المآذن ما يكفي ليتنفس ملحدوها عبق الملائكة، ومن المداخن ما يكفي «لتشحير» وجه الكون.

ولديها من الوقت ما يكفي لترتب قبلة مع مذنب عابر، ومن الشهوة ما يدعو نحل الكون لرحيقها.

لديها من الصبر ما يكفي لتنتشي بهزة أرضية، ومن الأحذية و«الشحاحيط» المعلقة في سوق الحميدية ما يكفي للاحتفال بخمسين دكتاتورًا.

لديها من الحبال ما يكفي لنشر الغسيل الوسخ للعالم أجمع، ومن الشرفات ما يكفي سكان آسيا ليحتسوا قهوتهم ويدخنوا سجائرهم على

مهل.
لديها من القبل ما يكفي كل حرمان المجذومين، ومن الصراخ ما يكفي ضحايا نكازاكي وهيروشيما.
لديها من النهايات ما يكفي ثمانين ألف رواية، ومن الأجنة ما يكفي لتشغيل الحروب القادمة.
لديها شعراء بعدد شرطة السير، وقصائد بعدد مخالفات التموين، ونساء بكل ألوان الطيف وما فوق وتحت البنفسجي والأحمر.
دمشق لا تقسم إلى محورين. فليست كبيروت غربية وشرقية، ولا كما القاهرة أهلي وزملكاوي ولا كما باريس ديغول وفيشي، ولا هي مثل لندن شرق وغرب نهر التايمز، ولا كمدن الخليج العربي مواطنين ووافدين، ولن تكون كعمان فدائيين وأردنيين، ولا كبغداد منطقة خضراء واخرى بلون الدم...
إنها دمشق لا تعبأ باثنين: الجلادين والضحايا، تؤرشفهم وتعيدهم بعد لأي على شكل منمنمات تزين بها جدرانها أو أخبارًا في صفحات كتبها، فيتململ ابن عساكر قليلًا يغسل يديه ويتوضأ لوجه الله ويشرع بتغطيس الريشة في المحبرة، لا ليكتب بل ليمرر الحبر على حروف دمشق المنجمة في كتابها. دمشق التي تتقن كل اللغات ولا أحد يفهم عليها إلا الله جل شأنه وملائكة عرشه.
دمر هولاكو بغداد وصار مسلما في دمشق. حرر صلاح الدين القدس وطاب موتًا في دمشق. قدم لها الحسين ابن علي ويوحنا المعمدان وجعفر البرمكي رؤوسهم كي ترضى دمشق. وما بين قبر زينب وقبر يزيد خمسة فراسخ ودفلى على طريقة دمشق. إنها دمشق لا تحب أحدًا، ولا تعبأ بكارهيها، متغاوية ووقحة. تركت عشاقها خارجا بقسوة نادرة كي لا ينسفح كثير من دمهم، وتتفرغ للغرباء الذين ظنوا أنفسهم أسيادها

ليستفيقوا فجأة وإذ بهم عالقون تحت أظافرها.
لا تتعب نفسك مع دمشق ولا تحتار، فهي تسخر من كل من يدعي أنه يحميها ومن يهدد بترويضها، فتود أن تعانقها أو تهرب منها، تلتقط لها صورة أو تحمضها كلها، تود أن تدخلها فاتحًا أو سائحًا، مدافعا أو ضحية، ماحيًا أو متذكرًا كل شيء دفعة واحدة.
فتخرج سيجارة «حمرا» طويلة تشعلها بخمسة أعواد كبريت ماركة «الفرس»، وتقول جملة واحدة للجميع: إنها دمشق)).
امتازت مواقف الكثيرين من دمشق: حكما ونظاما ودورا سياسيا، امتازت بالحيرة والارتباك والتردد والتضارب، مشاعر يعبر عنها النثر اكثر بكثير من الشعر.
مظفر النواب تدرج في حبه لدمشق من اللون البنفسجي الى الرمادي. وغيره انحدر بها نحو سواد المداخن الذي يكفي لتشحير وجه الكون، ولكنه ظل يرى فيها نساء بكل ألوان الطيف وما فوق وتحت البنفسجي والأحمر.
يقول مظفر الدمشقي:
هذي دمشقُ وهذي الكأسُ والرّاحُ.. إنّي أحبُّ وبعـضُ الحـبِّ ذبّاحُ
أنا الدمشقيُّ لو شرحتمُ جسدي.. لسـالَ منهُ عناقيـدٌ.. وتفـّاحُ
ولكنه لا ينسى بغداد ابدا فيقول:
شگد ضگت بقلاوة شغل الشام
مثلچ يا شغل بغداد أبدًا ما لگيت

لم يبق وجه الحزب وجه الناس

سأزور سوريا للمرة الأولى في حياتي مرافقا لوفد كبير يضم الشهيد فيصل الحسيني والأب عطا الله حنا وروحي فتوح وإبراهيم خريشة، وهناك سنلتقي الدكتور سمير الرفاعي وهو طبيب أسنان قضى ردحا من حياته في المعتقلات السورية أثناء الانشقاق وكان يعالج بقية المعتقلين باستخدام إبرة تدمي إبهامه وهو يحفر أسنانهم لتخليصها من السوس قبل ان يخرج من المعتقل ليكون طبيبا في الهلال الأحمر وناشطا سياسيا ثم سفيرا في وقت لاحق، فعضوا في مركزية فتح.

الأب عطاالله يطلب من مستقبليه السوريين ان يأخذوه الى قبر صلاح الدين الأيوبي ليشكره على تخليص البلاد من الصليبيين، والحسيني

ينشغل في لقاءات رسمية وإعلامية كان خلالها كعادته في قمة الروعة، انا ومن معي نتوجه الى مدينة الشباب في حي المزة الشرقية على ما اعتقد حيث نقيم وحيث يعقد المؤتمر.

لن تجد من يفهم الفلسطيني والقضية الفلسطينية أكثر من السوري كان هذا الانطباع الأولي وما زال قائما.

ان تسير في سوق الحميدية الذي سمعت عنه الكثير الكثير، وان تتناول البوظة العربية في بكداش، وترى على واجهاته صور زعماء عالميين زاروه، وان تصل مقهى النوفرة، وتطل على الأموي وتنصرف نحو باب توما فحي الصالحية الذي بناه فلسطينيون هربوا بقيادة الشيخ الصالح من قرية جماعين الفلسطينية أيام الحروب الصليبية فأقاموا هناك وفتحوا المساجد والمدارس، وان تزور اليرموك حيث يلقاك أبناء حركة فتح على سجيتهم الفتحاوية، تلك السجية التي ذبلت أو فسدت عند كثيرين، ان تتناول الطعام في مطعم بو كمال، حيث التقى ابو عمار بجورج حبش بعد النكسة وشحنا روحيهما بالثورة والامل، وان تفعل ذلك كله بصحبة الرفيق هشام حسين فهذا كفيل بان يعيد دمشق الى البؤرة من القلب.

ولمخيم خان الشيح حكاية أخرى فقد زرته بتكليف من الشهيد الحسيني، ورأيت أهله يتجمعون ليعيدوا رواية ما شاهدوه وما سمعوه من أخبار الانتفاضة يوم امس، يستقبلوك بكل ترحاب وإذا ما اطمأنوا إلى فتحاويتك يعاتبوك على موقف القيادة التي نسيتهم، ويسألونك عن فلان، وهل اصبح مسؤولا؟ ولماذا لا يسال عنا إذن؟

تغادر دمشق وقد استعادت موقعها في قلبك؟ وتظل حاملا تأنيب الضمير تجاه من رأيتهم هناك قابضين على جمر العودة، وانت كمن في فيه ماء عاجز عن مصارحتهم.

كان من الطبيعي بعد الزيارة الأولى ان استغل أية مناسبة لزيارة دمشق،

وقد تحققت هذه المرة كمدرب إعلامي لمجموعة من الشباب اختارهم اتحاد الشباب العرب بالتعاون مع المركز العربي للتدريب الإذاعي، وهو مركز تابع لجامعة الدول العربية وقد ارتحل بعد الأحداث الأخيرة الى تونس وعمان.

خلال الزيارة الثانية تعرفت الى فضل شرورو، وماجد كيالي، والمخرج الفلسطيني بشار ابراهيم، وتجولت في ذات الأماكن، وزدت عليها الزبداني وبلودان وداريا والطريق العسكري الواصل لبيروت وبانوراما تشرين التي تروي قصة حرب العام 73 وتستثني كل ما هو غير سوري.

سمعت من المتدربين اللبنانيين عن التدخل السوري غير الحميد إطلاقا في لبنان، وعن قيام بائعي الكعك برفع علم لبنان على عرباتهم حتى يتمكنوا من اجتذاب اللبنانيين ومنافسة البائعين السوريين.

وسمعت قصة الشهيد عبد المجيد الزغموت، والذي كان من أوائل فدائيي حركة فتح وقد اتهمته سوريا بقتل النقيب يوسف عرابي وسجنته 32 عاما واستشهد في سجن صيدنايا ولم تشفع له حتى إصابته بالسرطان بالخروج من المعتقل.

السوريون في غاية الاعتداد بالنفس، بمبرر ودون مبرر، خاصة ان كانوا من عتاة الحزبيين، ولكنهم ان وثقوا بك، أسمعوك من النقد لحزبهم ما تشيب له الرؤوس.

تأبى دمشق ان تمكنك من أسباب كافية ووافية لحبها، فكما قال مظفر النواب: «وجه الحزب مندس في كل زاوية»، وحتى في خمرة الحب التي غناها صباح فخري.

لم يعد يذكرني منذ اختلفنا غير قلبي.. والطريق
كل شيء طعمه.. طعم الفراق
حينما لم يبق وجه الحزب وجه الناس
قد تم الطلاق

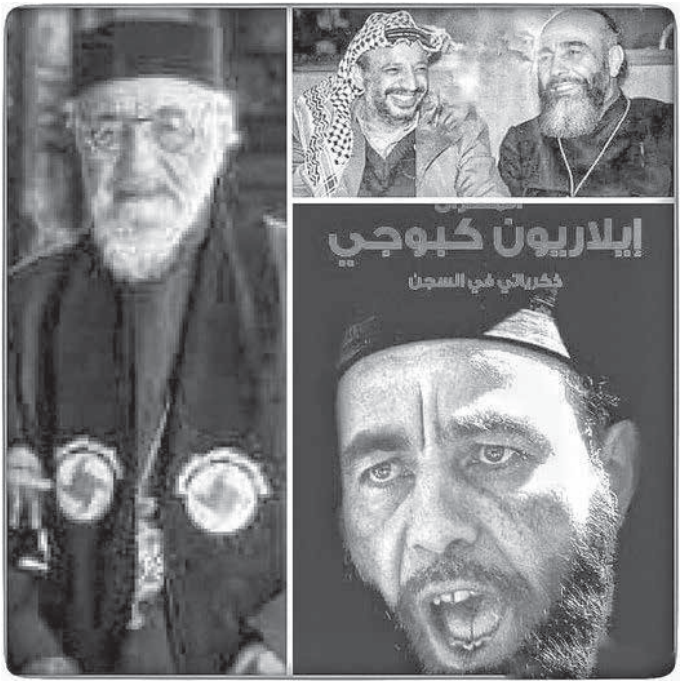

لم يطل الفتى جورج البواب ابن حلب الشهباء والذي سيعرف طيلة حياته وبعد مماته باسم المطران هيلاريون كبوجي، لم يطل الوقوف طويلا على حافات الاسئلة، فالأسئلة لا تثور في نفوس المؤمنين الا لتدلهم الى الصواب. (ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام).

كانت ذئاب صباه في سوريا انتداب فرنسي، يقول البارزون في الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي اسسه انطون سعادة، ان المطران حمى بردائه الكهنوتي مناضلي الحزب من الاعتقال على ايدي الفرنسيين، يذهب بعضهم الى حد التلميح انه كان عضوا في حزبهم، ويتشرون صوره

وهو عجوز يرتدي وشاحا زينت اطرافه بشعار حزبهم.
ويقول شوقي خير الله في كتابه «قصة الحزب» ان المطران نزع رداء الكهنوت والبسه لعمرين (عمر ابو ريشة الشاعر وعمر ابو زلام المحامي) امرهما بحزم خبئوا هذه المنشورات الحزبية، ارتدوا هذه الملابس واتبعوني لتنجو من جنود فرنسا. كان العمران مطلوبين لفرنسا بسبب نشاطهما في حزب يسعى لتحرير الاسكندرون وتخليص البلاد من انتداب فرنسا ولمنع الصهاينة من الاستيلاء على اراضي فلسطين، وتوحيد الاردن وفلسطين ولبنان في سوريا الكبرى ثم توحيدها مع العراق لتصير «سوراقيا».
ومثله مثل العمرين كان المطران متساميا فوق الدين والطائفية والجغرافيا والاقليمية. (تعرفون الحق والحق يحرركم).
كانت ذئاب صباه في سوريا انتداب فرنسي، واما ذئاب شبابه في فلسطين فقد كانت انتدابا بريطانيا، وصارت صهيونية.
في العام 1946 ارسل مناحيم بيغن عناصر من جماعة الإرجون الارهابية متنكرين بزي عربي ويضعون متفجرات في أوعية الحليب لتفجير فندق الملك داوود في مدينة القدس. كان المطران شاهدا على التفجير وعلى مقتل 91 شخصا من ديانات وجنسيات مختلفة، صار على حكمته وبساطته ان تصبحا اكثر انحيازا ووضوحا.
كان يؤمن بان السيد المسيح هو الفدائي الفلسطيني الاول، صار عليه ان يصير فلسطينيا بالعمل والانتماء، طوى حلب من جدول اعماله مؤقتا، ووضع مكانها القدس، وطوى اسم مولده جورج واختار اسم ذلك الراهب الغزي الذي ظل يتعبد الله في كوخ صغير بصحراء سيناء وعاد الى غزة ليؤسس مدرسة وكنيسة في ام التوت قبل ان يطارده الامبراطور الروماني جوليان المرتد عن المسيحية، صار اسمه هيلاريون لغرض في

قلبه.

لقد قدم اجابات قاطعة لنفسه ولمن حوله من المؤيدين والمعارضين، اذا كان الغرب قد حول تعاليم المسيح عن التسامح ومحبة الاعداء الى مبررات لشن حروب (مقدسة) وقهر الشعوب، فان على الخيرين ان يبحثوا عن حرب عادلة تنصف الشعوب المقهورة. لقد انفق قبله مطران العرب غريغوريوس حجار جلّ حياته وهو يحاول انصاف المقهورين على هذه الارض وعليه هو ايضا ان يكون راعيا لخير رعيته، ورعيته هي كل البشر. (مَن أَرادَ أن يَصِيرَ فِيكُم عَظِيمًا يَكُونُ لَكُم خَادِمًا. وَمَن أَرَادَ أن يَصيرَ فيكُم أَوَّلًا يَكُون للجَمِيع عَبدًا).

في النكسة لم ينتكس، (لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد بل خافوا ممن يقدر أن يهلك الجسد والروح معًا في جهنم)، وقف مع الشيخ ليصلي على الشهداء، وليساعد في دفن 400 منهم.

ولان الله يرسل لاتباعه الاشارات، فلقد بصق عليه ذات يوم جندي اسرائيلي، (ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟) ترجل من السيارة واشبعه ضربا. لم يعطه الخد الآخر. (لا تدينوا لكى لا تدانوا).

كان الوحيد من بين رجال الدين الذي رفض حضور الاحتفالات والاستقبالات الرسمية التي تنظمها السلطات الإسرائيلية. وفي يوم وفاة جمال عبد الناصر عام 1970 توجه إلى جميع الأساقفة في القدس طالبًا منهم رفع الأعلام السود فوق مقارهم، وقرع الأجراس أثناء جنازته.

بدأ بتشكيل خلايا للمقاومة، اتصل بفتح، (كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُون)، سأحمل السلاح من لبنان الثائرين الى فلسطين الصامدين، وفي سيارتي مستفيدا من حصانتي الدينية، حمله ومضى، مرة بعد مرة. (انا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن

الخراف).

بعد 108 ايام من الصلابة في وجه المحقق، ارسل الى المحكمة فظل يقول (للقضاة) مثلما ارفض حكمكم ارفض محكمتكم، حكم بالسجن 12 عاما، لا بأس بالسجن يا رفاق، علموني كيف اضرب عن الطعام، الى ان احصل على كتابي المقدس، وعلى حقي في اقامة القداس، ان الصلاة في المعتقل خير من الف صلاة، الله هنا اقرب، (أنا هو الطَّريق والحق والحياة. مَن آمن بي ولو مات فسَيَحيا).

قضى من محكوميته 3 سنوات و3 اشهر، كان خلالها موضع الاحتفاء والتكريم من قبل الاسرى، حاول السجانون اذلاله، لكنه ظل صامدا كما يليق بالمناضلين، تحرر من السجن بموجب اتفاق بين اسرائيل والفاتيكان، لكنه ظل يرفض وينتهك بنود هذا الاتفاق الذي يمنعه من العودة الى سوريا او لبنان، اودع كل ما تعرض له من محاولات اذلال وتعامل لا انساني بين دفتي كتاب «ذكرياتي في السجن».

وزار بلده سوريا بدعوة من ياسر عرفات ليشارك في اعمال دورة المجلس الوطني الـ 14، وظل عنيدا يركب اسطول الحرية مرة، ليخترق الحصار الاسرائيلي المفروض على قطاع غزة، يعتقله جنود الاحتلال فيبعدونه فيعود مرة اخرى في سفينة اخرى، ليعاد اعتقاله وابعاده. اذا كان هيلاريون الاول قد عاد الى غزة من الصحراء قبل 1800 سنة فان هيلاريون كبوجي سيعود الى غزة من البحر.

واذا كان المطران غريغوريوس قد انفق 40 سنة من حياته حارسا للقدس وخادما لآهلها، فان كبوجي سيظل الى يوم وفاته عام 2017 عن 94 عاما حارسا للقدس ومدافعا عنها وعن اهلها وساعيا لإعادة الوئام الى بلده سوريا.

يريد اتباع انطون سعادة ان يقولوا ان المطران على دينهم، ويريد النظام

السوري ان يقول ذلك ايضا، وتريد المعارضة السورية ان تنفي ذلك، المطران نفسه لم يكن يريد الا ان يجسد فكرة لاهوت المقاومة والتحرير. في كل ما كتب وقيل وجرى تمثيله من افلام ومسلسلات عن المطران الراحل هناك تقصير في النظر الى تجربته وسلوكه على نحو مشابه لما قام به رجال الدين المسيحي حين عملوا على ازاحة الديكتاتورية من نيكاراغوا وتولوا المناصب الوزارية في حكومة الساندينستا اليسارية بزعامة دانييل اورتيغا، رغم كل تحفظات الفاتيكان، او عندما رفعوا صوتهم عاليا في مواجهة استغلال الراسماليين للعمال في كولومبيا، وضد ثراء الدول الكبرى الصناعية على حساب دول العالم لثالث.

هؤلاء قرأوا الانجيل قراءة ثورية واعتبروا ان مهمة رجل الدين في مجتمعه كمهمة النبي موسى الذي استطاع أن ينجي قومه من بطش وظلم الفرعون، وكمهمة المسيح حينما وقف أمام ظلم الرومان، ألم يستعمل المسيح العنف لطرد لصوص الهيكل.

سمرة وانا الحاصودي

اعتدت ان احب أو اكره أو ان أتناسى، ولكن الموقف من سوريا لم يدخل في أي من ألابواب الثلاثة، لم استطع ان اكن لها الحب ولا الكره ولا الإهمال.

صبيحة زيارتي الثالثة لسوريا سمعت الخبر من الإذاعة الإسرائيلية ضربة جوية على موقع عسكري داخل الأراضي السورية، لن يمنعني ذلك من السفر فالرد السوري في المكان والزمان المناسبين لن يتحقق أبدا.

وصلت عمان وامضيت فيها بقية اليوم وسمعت تفاصيل الخبر، فالضربة استهدفت معسكرا لحركة الجهاد الإسلامي في منطقة عين الصاحب وأسفرت عن وقوع عدد غير محدد من الشهداء.

انطلقت مساءا الى دمشق ونمت فيها ولا احد يتحدث عن الهجوم، وعصر اليوم الثاني أذاع الاعلام السوري، وكله اعلام رسمي بالطبع، ما نصه ان هجوما جويا إسرائيليا قد استهدف سوريا وان دمشق تحتفظ بحق الرد في الوقت المناسب. وقفزت الى ذاكرتي على الفور حكاية التوازن الاستراتيجي الذي لن يتحقق أبدا.

بعد اذاعة الخبر بيومين ذهبنا للمشاركة في جنازة والد زميلنا هشام حسين وكان رحمه الله من عمداء اللاجئين الفلسطينيين الى سوريا، ففوجئنا بثلاث جثامين أخرى تخرج مع جثمانه، ومجموعة من الشباب يهتفون لأرواح الشهداء، وعلمت فيما بعد أنهم شهداء ضربة «عين الصاحب» وان سوريا فضلت ان يتم دفنهم دون ضجيج يكشف ضعفها وعمق خسارتها.

من دمشق الى اللاذقية طريق جميل، محفوف بالإحراش تقطعه في ٨ ساعات بالحافلة الكبيرة، لا تشعر خلالها بالملل خاصة وان من معك شبيبة يشاركون في مخيم للأدباء الشباب ومطلوب منك ان تستمع اليهم وان تحكم على أعمالهم، تدهشك متانة لغتهم العربية وتتمنى لو ان المدارس العربية تستفيد من قدرة المدرسين السوريين في تعليم اللغة العربية، ويدهشك أيضًا ضعفهم في اللغة الانجليزية.

الباص يتماوج طربا على أنغام الاغنية الجديدة سمرة وأنا الحاصودي للمغني على الديك، وستظل الأغنية حاضرة مع الدبكة المصاحبة لها طيلة أيام المخيم المقام على الشاطئ الأزرق في اللاذقية، وخلال الجولات في بحيرة كسب وقلعة صلاح الدين وحتى خلال الزيارة الإجبارية لضريح

الرئيس الراحل حافظ الاسد ابن القرداحة التابعة للواء اللاذقية.
وصف الاصفهاني اللاذقية عندما دخلها مع صلاح الدين، فقال: «رأيت اللاذقية بلدة واسعة الأقنية جامعة الابنية، متناسبة المعاني متناسقة المفاني، قريبة المجاني رحيبة المواني، في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، امكنتها محزمة واروقتها مرخمة وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة ومهندمة مطالعها مشرفة وارجاؤها فسيحة و اهواؤها صحيحة».
لم تقع عيني في اللاذقية على شيء غير جميل، او محايد الجمال، كل ما في اللاذقية جميل، ويزداد جمالا خلال انعقاد مهرجان المحبة والسلام. تتغاضى عن كل شيء وتحمل سوريا بيديك بكل رفق وتعيد وضعها في صميم القلب.
يقال ان أهل اللاذقية معروفون بحدة اللسان، وقصة صبيهم مع المتنبي تشهد على ذلك:
دخل المتنبي أحد المطاعم في مدينة اللاذقية، وعند استدعائه الخادم، تفاجأ المتنبي بدمامته وقبحه، فسأله: ما اسمك ؟
فأجابه الخادم: زيتون.
فقال له المتنبي:
أسموك زيتونًا وما أنصفوا... لو أنهم أسموك زعرورا
ففي الزيتون زيت... وأنت لا زيت ولا نورا
فأجابه الخادم على الفور:
يا لعنة الله صبِّي... على لحية المتنبِّي
لو كان المتنبِّي نبي... لكان القردُ ربي
مرّ المعري باللاذقية في يوم فتنة فأنشد:
في اللاذقية ضجةٌ ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدق وذا بمئـذنة يصيح
كل يعظّم ديــنه يا ليت شعري ما الصحيح ؟
كان المعري رهين ثلاثة محابس لا محبسين:
أَراني في الثَلاثَةِ مِن سُجوني... فَلا تَسأَل عَنِ الخَبَرِ النَبيثِ
لِفَقدِيَ ناظِري وَلُزومِ بَيتي... وَكَونِ النَفسِ في الجَسَدِ الخَبيثِ
وكان يتجاهل ترفعا:
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا... تجاهلت حتى قيل إني جاهل
فوا عجبا كم يدعي الفضل ناقص... ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
كان شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء وكان قائد كتيبة خرساء امامها العقل:
يرتجي الناسُ أن يقــومَ إمامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء
كذب الظنُّ لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
وقال عن هذه المذاهب التي يتاجر بها اهل السياسة:
عجبتُ لكسرى وأشياعهُ... وغسل الوجوه ببول البقر
وقول اليهود اله يحب... رشاش الدماء وريح القثر.
وقول النصارى اله يُضام... ويُظلم حيًا ولا ينتصر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد... لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجبًا من مقالاتهم... أيعمى عن الحق كل البشر!
وكانه اراد القول ان «الدين افيون الشعوب» وزاد على المقولة والدين تجارة الرؤساء، المتنبي عبر عن جوهر الدين بقوله العظيم:
أغايةُ الدِّينِ أن تُحْفوا شواربكم... يا أمةً ضحكتْ من جهلها الأمم

جول وجاكلين

لم يكن البطل جول يوسف جمال مصريا، لقد كان سوريا يدرس العلوم العسكرية البحرية في مصر، انهى دراسته مع تأميم عبد الناصر لقناة السويس عام 1956 ووقوع العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الاسرائيلي، ابت روحه العروبية وعقيدته العسكرية القومية ان تسمح له بالمغادرة الى اللاذقية حيث تنتظره خطيبته جاكلين بولص البيطار.

امتطى صهوة طوربيده واقترب من البارجة الفرنسية العملاقة جان بار، كانت هذه المدمرة فخر فرنسا العسكري في ذلك الوقت، طولها نحو 250 مترا، وعليها نحو 100 مدفع من مختلف العيارات، وفوقها نحو الف عسكري بحري، ويحرسها رادار كان الاول الذي يوضع فوق بارجة، اقترب جول جمال بطوربيده حتى اصبح خارج مدى مدافع تلك البارجة الفرنسية الوقحة، فانقض عليها بطريقة الانتحاريين الكاميكاز في اليابان، مجددا نضالات ابيه ضد الانتداب الفرنسي في اللاذقية، ومجددا تضحيات ابن بلده سليمان الحلبي الذي قتل قائد الحملة الفرنسية على مصر.

استشهد جول جمال وتعطلت البارجة، فنال التكريم في مصر وفي

سوريا، وصار رمزا للبطولة تحمل اسمه شوارع عديدة بينها شارع في رام الله، وصار درسا في كتب التاريخ لطلاب المدارس، وفيلما سينمائيا يخلد عمليته البطولية.

بقيت جاكلين مخطوبة له ورفضت ان تتزوج من بعده، توفيت العام الماضي، فجددت بوفاتها ذكرى هذا البطل الذي ظلت مخلصة له طوال 63 عاما.

كنت برفقة وفد عربي يضم مغاربة وجزائريين وللبنانيين وأردنيين وكويتين طلبت الأذن منهم للذهاب الى مخيم اليرموك لتقديم واجب العزاء لاحد الأصدقاء، فأعلنوا عن رغبتهم الشديدة بزيارة المخيم، اتصلت بالأخت هيفاء الأطرش فأعدت لهم استقبالا مؤثرا، لقد دخل أعضاء الوفد الى المخيم مرتدين الأزياء التقليدية لدولهم احتراما لفلسطين، ورغبة في إظهار مدى اهتمام ومحبة شعوبهم لفلسطين، حتى لو كانت مجرد حلم في مخيم، وكان في انتظار الوفد مجموعة من الأشبال والزهرات الذين تدربوا في نادي فتيات فلسطين، وهم يرتدون الكوفيات والأزياء المطرزة ويهتفون بالشعارات الوطنية المرحبة بالزائرين، وكانت لحظة جميلة أدركت معها ان لا جالية فلسطينية أخرى في أي مكان في العالم تم تمكينها من زرع الروح الفلسطينية الوطنية في نفوس أطفالها كجاليتنا في سوريا.

كنا في اليوم التالي على موعد لزيارة مدينة القنيطرة المحررة، وعند حاجز للأمم المتحدة تم تسجيل أسماءنا وتفتيش مركبتنا، فبعد هذا الحاجز الذي لا يبعد سوى 30 كيلو متر هوائي عن قصر الاسد، لا يسمح بأي سلاح سوري، فقط بتواجد شرطي ضئيل ومعلن، حتى ان الطيران السوري لم يسمح له بالتحليق فوق المنطقة المحررة إلا يوم زيارة البابا عام 2000 وطبعا بتنسيق أممي.

زرنا قبور شهداء الكتيبة المغربية التي استشهد أفرادها هناك عام ٧٣، تجولنا في القنيطرة التي تركها السوريون على حالها لتبقى شاهدا على المعركة، وأمام مجسم للجولان بدا محافظ القنيطرة في تقديم شرح عن المعركة وعن بسالة الجندي السوري.

وبعد هذا الشرح عن البسالة توجهنا نحو صخرة النداء والتي تفرق بين الجولان المحتل والجولان المحرر، والتي يقف عندها أبناء الشعب الواحد ليسلموا على بعضهم عن بعد، أو يصطحب من عندها موظف الامم المتحدة عروسا قد زفت عن بعد الى ابن عمها في الجانب الآخر. جبهة الجولان هادئة مطمئنة، ولطالما كانت كذلك في انتظار توازن استراتيجي. يومها فقد تفاح الجولان بعض طعمه الشهي وشعرت ان سوريا ستظل تدخل قلبي لأسباب وجيهة وتغادره لأسباب وجيهة أيضًا.

لم أزر سوريا بعدها، ولم ابحث عن فرصة لزيارتها، ولكن القدر دفعني للعمل عن قرب مع رسام الكاريكاتير السوري المبدع والحاصل على عدة جوائز عالمية علي فرزات، وكانت البداية في لندن ضمن مشروع الاعلام والمجتمع والذي تنفذه المكاتب الإقليمية للمجلس الثقافي البريطاني.

حدثني فرزات عن نقمة النظام عليه بسبب رسوماته، وكيف أنهم أغلقوا صحيفته «الدومري» وانهم كادوا يقتلوه لولا ان الجوائز العالمية التي حصل عليها قد شكلت له حصانة، حدثني عن انتقاداته اللاذعة لمصطفى طلاس رغم انه ابن منطقته، وهنا تذكرت خطابا مخجلا لطلاس أمام عناصر جيشه، شبه فيه يومها الرئيس ابو عمار براقصة التعري في النوادي الليلية.

واحدة من النكات التي اشتهرت في سوريا تقول: ان مصطفى طلاس ضاع في الصحراء واكله ضبع، فاستدعى الرئيس حافظ الاسد رئيس المخابرات بوقتها علي دوبا وأمره بإحضار هذا الضبع ولو من تحت

الأرض.. وفعلا جرى اعتقال الضبع بعد يومين وعرض على الرئيس مكبلا بالأصفاد، فسأل الاسد رئيس مخابراته وكيف تأكدتم بانه هو الضبع المجرم؟ فرد رئيس المخابرات لأنه منذ يومين يخرج اوسمة عسكرية مع البراز.

قدمنا لهذا المشروع أفلاما عن البطالة من أعداد هدى القدومي وإخراج فراس عبد الرحمن ثم مجموعة من الرسوم المتحركة الناقدة تحت عنوان «هموم متحركة» من اعداد وتنفيذ عامر شوملي وباسل نصر، وقدم فرزات مجموعة من الرسوم المتحركة تناولت قضايا التعليم والبيئة والفساد وعمالة الأطفال والزواج المبكر والطلاق وغيرها من القضايا، التقيت فرزات بعدها بسنة في بيروت، وكان يبشر بثورة ولكنها لم تندلع إلا بعد ٧ سنوات من ذلك اللقاء، وكان هو شخصيا من أوائل الفنانين الذين تعرضوا للضرب والتكسير.

ابو سعاد يمتشق السلاح 30 عاما

منذ تخرجه من الكلية الحربية باسطنبول عام 1907 وكان عمره يومها 18 عاما والى يوم استشهاده على اراضي بلدة الخضر بفلسطين عام 1936 قرابة الثلاثين عاما قضاها ابو سعاد وهو يمتشق السلاح ويقاتل في الشمال والجنوب ويشارك في كل ثورة على ارض بلاده العربية وينتمي الى كل حزب يعتقد انه يسعى لرفعة امته ولتحررها.

هذا هو محمد سعيد شهاب الحموي، ابو سعاد، والذي سيعرف دوما بلقب سعيد العاص، ليس تيمنا بذلك النهر الذي يقسم مدينته حماة، وانما للشبه بين سيرته العسكرية والسياسية ومسيرة ذلك النهر الذي يعاكس الانهر جميعا فيسير من الجنوب الى الشمال.

شارك في حروب الدولة العثمانية بالبلقان، اسره الجيش اليوناني ولكنه تمكن من الافلات.

انتسب مع زملائه الضباط العرب في الجيش العثماني إلى تنظيم عربي سري هو حزب العهد، اعتقله العثمانيون، لم يفلحوا في الحصول على أي اعتراف منه، سجنوه سنة ونصف ثم ابعدوه الى منطقة البحر الاسود.

التحق بالجيش العربي في الأردن وحارب في الحجاز ثم عاد إلى دمشق

فقاتل الفرنسيين في حلب وحماة واللاذقية وغوطة دمشق وجبل العرب والقلمون والهرمل وعين الصاحب.

ومع انطلاق ثورة 1936 في فلسطين كان في طليعة الثوار العرب القادمين من سورية والأردن ولبنان والعراق، تولى قيادة قوات الجهاد المقدس في منطقة القدس، وكان القائد عبد القادر الحسيني نائبا له، عمل على تدريب المتطوعين، وبدأ بنصب الكمائن ومهاجمة القوافل العسكرية البريطانية، خاض معركة حلحول والتي قتل فيها قرابة أربعين جنديا بريطانيا، واستولى المجاهدون يومها على كمية كبيرة من سلاح الجيش البريطاني وعتاده.

وضعت هذه المعركة القائد سعيد العاص في مقدمة المطلوبين لدى قوات الاستعمار البريطاني فاستخدمت 3 آلاف جندي واستعانت بالطائرات الحربية للمساعدة في رصده وتطويقه.

كان معه 120 مقاتلا، ولما حوصر وشعر بان المعركة غير متكافئة امرهم بالانسحاب وبقي هو مع عشرة آخرين مرابطين هناك لتامين وتغطية عملية انسحاب الثوار. خاض المرابطون صراعا ضاريا بلغ حد الاشتباك بالسلاح الابيض عندما نفذت ذخيرتهم، اصيب نائبه عبد القادر ثم اصيب هو بثلاث رصاصات ولكنه ظل يطلق النار الى ان اصابته الرابعة في رأسه.

كتب عنه الرفيق انطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي: «انضم محمد سعيد العاص إلى هذه الثورة ليجاهد في الجنوب كما جاهد في الشمال. هناك التقى بفرقة من المتطوعة للجهاد اجتمع أفرادها من مناطق متعددة ومن طوائف دينية مختلفة. كان فيها إبن الشوف وابن المتن وابن بيروت وابن صيدا من لبنان، وأبناء حيفا والناصرة ويافا وما جاورها من فلسطين. وكان فيها المحمدي و

المسيحي والدرزي. هي الفرقة الوحيدة التي اجتمع أفرادها، على تعداد مناطقهم وتباعدها، اجتماعًا مقصودًا ظهروا فيه بوحدة روحية وفكرية متينة ميّزتهم عن جميع المجاهدين الآخرين. وكان تصرفهم النظامي في غاية الدقة والحماس.

استلفتت هذه الفرقة نظر القائد النقاد فأعجب بروحيتها ونظامها إعجابًا كبيرًا. وحمله إعجابه على البحث عن سر روحيتها ونظامها، فسأل أفرادها فأخبروه بأمرهم وعرّفوه حقيقة العقيدة السورية القومية الاجتماعية التي يدينون بها. فارتاح لهذا الأمر ارتياحًا كبيرًا، ووقعت القضية القومية الاجتماعية المقدسة من قلبه موقعًا عظيمًا. وجد فيها الفكرة التي كان يتمنى حصولها والغاية العظمى التي كان يرتقب ظهورها ووضوحها. فاستكمل الشرح والتفصيل في أصولها وفروعها. فزاده ذلك تيقنًا بصحتها فآمن أنها النهضة المرجوة لإنقاذ الأمة السورية والوطن السوري اللذين جاهد في سبيل حريتهما من قبل جهادًا لم يكن له أمر منظم ولا منهاج صحيح، فأعلن رغبته في الانضمام إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، فانتدبت منفذية الحزب في حيفا من قام بأمر ضمه إلى صفوف أبناء العقيدة السورية القومية الاجتماعية المقدسة. فانشرح صدره وانطلق إلى ميدان الحرب موقنًا أنّ القضية القومية أصبحت قائمة على أساس لا يتزعزع».

هل كان سعيد العاص فعلا عضوا في الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كان قد نشأ قبل 4 سنين؟

لا يستبعد ذلك بعض الدارسين حين يشيرون الى أن إقامته في تركيا جعلته يطلع باكرًا على الحركات القومية التي انطلقت في أوروبا وحاول انطون سعادة تقليدها، كما اطلع على أحوال الدولة العثمانية وعانى من غطرسة الاتراك على العرب وهو ما دفعه الى الانتساب سابقا لجمعية

العهد السرية، والتأثر بأفكارها الداعية إلى الاستقلال عن الأتراك.
في عددها الصادر بيافا يوم الخميس 26 تشرين ثاني من عام 1936 احتل منتصف الصفحة الاولى من جريدة فلسطين رثاء الشاعر والاديب اللبناني امين الريحاني لفارس الثورات محمد سعيد شهاب العاص، ابن مدينة حماة والذي استشهد وهو يقاتل البريطانيين على ارض بلدة الخضر جنوب بيت لحم، وشيع ودفن فيها.
كتب الريحاني:
عرفت سعيدا يوم بؤسه ويوم جهاده
ساعة ريبه وساعة يقينه
وعرفته في حبه وفي بغضائه
ساعة حنانه وساعة قسوته
فكان في احواله كلها حرا صادقا ابيا على الدوام.
تباركت تلك الروح الزكية، تلك الروح الصافية صفاء مياه الينابيع في صرود لبنان، تلك الروح الملتهبة التهاب الهجير في البادية، تباركت تلك الروح الساذجة العاطرة، روح الاطفال والازهار، وتباركت تلك الروح المجاهدة جهاد الابطال والشهداء.
بعزم كموج البحر ما عرف الكلل، وبهمة كالحديد ما لانت للزمان، وبقوة كالكهرباء التي تسير الحديد.
كان سعيد للعرب لسانا وقلبا وحساما، كلما سمع في العرب كلمة باطلة، كان اول المؤنبين المدافعين، وكلما اذن مؤذن الثورة، كان اول المهرعين الملبين.
عرفته الحضر سيدا جبارا، وعرفته البوادي اسدا مغوارا، عرفته الليالي في سوء الحال والنضال، وعرفته الكتائب في شرذمة من الرجال، بطل حرب العصابات سعيد، ومشتت التجريدات، ومروع المختبئين في الدبابات.

راى الموت في مئة معركة مشمر الاردان، ورآه يفر منه هاربا كالجبان.
هو ابن حماة، منبع العاصي والعصاة، تفتحت عيناه لنور العلم في دمشق وفروق، وحملت يمناه البدقية باسم الدولة العلية، وكان يومئذ في العرب تمرد واصطحاب، وكان سعيد في كتيبة من الكتائب التي ارسلت على العرب، فرأى للمرة الاولى مآذن المدينة المنورة، وسمع للمرة الاولى صوت العروبة في ساحة الوغى، وقف سعيد في وادي العقيق وفي نفسه ارتياب، وفي نفسه اعجاب، فقد تعرف على العرب ابناء امه، وتعرف البسالة فيهم والشمم، فاستيقظت في صدره روح العروبة. وزالت من صدره روح الارتياب.
عاد سعيد الى ميادين القتال في الشمال، فحارب في البلقان، من اجل بني عثمان. وظلت العروبة تناديه، فانضم الى حزب العهد بالاستانة. ثم اعتقل وسجن وحكم عليه بالاعدام.
فقال الموت: ما هذا بيومك.
وقال الزمان: انك لقومك
وقد عاد سعيد الى قومه يحمل قلبا مفعما بالحب، ويشحذ يراعا وحساما فعلم التاريخ بمدرسته بدمشق. ثم حمل الحسام والبندقية وفزع الى من شرفوا التاريخ في الماضي فحارب في عمان، وحارب في الحجاز. وما كان في تينك الحربين غير عربي يناجز عربيا. فناح واستراح برهة من الزمن كان فيها من البائسين. وما كان بؤسه في غير الهدن، وما كان نعيمه في غير الجهاد.
هدنة عقيمة قصيرة الاجل، تاق فيها سعيد الى السلاح، فعندما سمع مؤذن الثورة السورية، كان في طليعة المجاهدين. خرج من بيته وهو يقول: لن اعود والوطن في قيود. وقد آلى على نفسه ان يحمل السلاح، ويحارب في الجبال وفي السهول وفي البطاح. ليبلغ العرب الارب، ولتجلو

كل سلطة اجنبية، عن البلاد العربية.
صوت صارخ في ديار العروبة، حيوا على القتال، للحرية والاستقلال
سيف وبدقية ورشاش! وغير المجاهد ما عاش!
النار والحديد، ما زالت الاجانب الاسياد في البلاد.
رحم الله سعيد العاص، السعيد الفريد. السعيد في جهاده، الفريد في استشهاده.
مئة معركة خاضها وهو سيف العروبة البتار، وبطل العروبة المغوار، وكان يحارب بشرذمة من المجاهدين، الفا من الجنود المنظمة. وكان يزأر ويثور ويهجم ويصول
كانه كتيبة مشرعة الرماح، وما هو غير العاص سعيد وحيد في المعركة فريد، مئة معركة خاضها، وهو يطارد الاعداء، والموت يطارده. الموت – ماعاش الموت – خسئت يا موت، هذا سعيد طريدك في المعركة الاخيرة، في جهاده الاكبر جهاد الصهيونية بفلسطي، وهذه شرذمة من رجاله، وقد ادركت سوء حاله.
رصاص الانكليز، دبابات الانكليز، رشاشات الانكليز
عليهم يا سعيد، عليهم يا اخوان سعيد...
إخس!! ولطم سعيد جنبه بيده... هي الرصاصة الاولى.
وما سكتت بندقيته... خذوها من من يد سعيد العاص.
إخس!! الرصاصة الثانية، اصابته في كتفه...
يا ابن الانكليز خذ بدلها اثنتين!!
ومثل الاسد المطارد، المثقل صدره بالنبال الدامية، هاج سعيد هيجته الاخيرة...
واطلق البندقية قبل ان سقطت من يده...
اصبتم هذه المرة يا....!

اخترقت الرصاصة الثالثة صدره، وتلتها الرابعة...

وما سمع سعيد في تلك الفينة غير قهقهة الموت وهو يقول: غلبتني يا ابن العاص في مئة معركة. ولكن الغلبة الاخيرة لي، لي وحدي.

امير البزق

حتى الداية التي سحبته من قدميه كانت مستعدة للتنازل عن اكراميتها بعدما رأت ضآلة حجمه، ونوت ان تحتسب الالف خطوة التي مشتها في الليل البارد، من بداية مسكنها في حي الخضر الشعبي بحمص وصولا لمنزل عازف العود علي مرعي، اجرا تلقاه يوم الحساب، فقد قدرت ان الفقر حال دون تغذية الام وأحال لمولد هذا الغلام الهش.

من طبع الطبيعة ان تقسو احيانا، لتصيب الغلام بعاهة مستديمة وتوقف نمو جذعه، ومن طبع الطبيعة ايضا ان تعطيك ما تعوض به عن تقصيرها اتجاهك، ولكنها تشترط عليك ان تستهدي منفردا لادوات التعويض، وان تقتنص الفرصة.

الفرصة كانت متاحة امام محمد عبد الكريم، حيث دفعته سخرية اترابه منه الى الاكتفاء بمجالسة والده، وفسح المجال واسعا لاختزان اشكال وعدد اوتار آلتي العود والبزق، وحفظ حركات الاصابع وعلى اي المواضع، وقرن ذلك كله بالنغم المتمايز الذي تصدره. حفظ عقله كل ذلك، وامتلأ بانغام تجاهد لتخرج الى العلن.

اخذت اصابعه تلعب لوحدها مبكرا، وفي سن العاشرة جلس على كرسي صغير في مقهى النوفرة، اعرق مقاهي العاصمة الدمشقية العريقة، وهناك عزف بمصاحبة زعيم فناني خيال الظل «ابو شاكر حبيب» وتحول الى كراكوز يحظى بمجيدية او اثنتين يجمعها حتى تصبح ليرة ذهب، فنال اعجاب وتقدير محمد فخري البارودي سليل الظاهر عمر وصاحب قصيدة بلاد العرب اوطاني، وكانت تلك تذكرته لاقتحام مجتمع الفن، في النوفرة اولا ثم في مقهى احمد المير ببيروت، ويومه صدرت اول اشارة رضا واطمئنان يرسمها الوالد ازاء مستقبل ابنه.

تقدم في العمر والخبرة وطاف العواصم عازفا وملحنا، ولكنه ظل اقصر من آلة البزق... وذات حفل بهيج استمع الملك فيصل ملك العراق إلى عزفه، فأعجب به، ووصفه بأنه أمير العزف على هذه الالة -لم يكن الملك يعرف اسمها في حينه-، فطلب منه (فرمانًا) يشير إلى ذلك، فأصدر فيصل أمرا ملكيًا بتسمية محمد عبد الكريم أميرًا لآلة البزق.

ساهم في تاسيس الاقسام الموسيقية لاذاعات القدس، دمشق، الشرق الأدنى بيافا، والف شاراتها الموسيقية المميزة، وكان مفضلا عند أقطاب الموسيقى مثل محمد القصبجي و زكريا أحمد وداوود حسني ومحمد عبد الوهاب وغيرهم في الشرق والغرب.

ادرك ان امارته المعنوية تحتاج لسلاح متطور ورادع ومؤثر، فانشغل في صناعة وتطوير البزق فزاد عدد اوتاره، وجدد مواضع عقده، وصنع

تيارًا موسيقيا خاصا، وانشأ مقاما خاصا به سماه «مقام مريوما»، وبات قادرا بموسيقاه على اغضاب وتهدئة المستمعين ودفعهم الى الرقص او البكاء او الضحك قبل ارسالهم في نوم عميق. ويقال انه تمكن بالعزف من شفاء ابنة احد ملوك العرب.

له في فلسطين صولات وجولات فقد تعلم على يد الموسيقار الفلسطيني يوسف بتروني تدوين النوتات، وتولى بعدها رئاسة القسم الموسيقى لاذاعة هنا القدس، وأثر وتأثر بموسيقيين فلسطينيين آخرين، مثل يحيى السعودي وروحي خماش ومحمد غازي، ولحن للاخير عدة اغنيات كما لحن لفهد نجار وماري عكاوي. ولحن بعدهم لسعاد محمد وصالح عبد الحي وفايزة احمد.

تقول المرحومة هنرييت سكسك مقدمة برامج الاطفال في اذاعة القدس، انها توقفت بعد بث برنامجها بصحبة الاطفال امام الشاعر ابراهيم طوقان لتناقشه في حلقتها القادمة، ولما همت بالمغادرة لمحت طفلا بجانبها فاخذته من يده وسحبته معها، لحظات وانطلق الجميع ضاحكين، فلم يكن هذا الطفل سوى امير البزق، والذي سايرها بطيبة نفس، فيما كانت تذوب خجلا وتعتذر بكل اللغات وبكل ما وسعت من ادب وتهذيب.

سجل لشركة أوديون الالمانية خمس اسطوانات تضمنت مجموعة من المقطوعات الموسيقية بينها مقطوعة «رقصة الشيطان» وهي واحدة من اصعب واسرع المعزوفات. وبها تفوق في السرعة على العازف التركي الشهير شنشلار، واصبح اسرع عازف بزق في العالم.

كان يعزف ويغني في إحدى حانات ألمانيا، فشاهده (هتلر) قبل استلامه الحكم، وسأل بعنجهية: من هذا الحمار ؟ و بعد أن فهم من مرافقه ما قاله عنه , أجابه بالرد عزفاً و غناء على البزق حتى جعله يهز رأسه

إعجاباً به.

وفي ايطاليا ناله الكثير من الحسد، بعد ان انتزع إعجاب الايطاليين بعزفه على البُزق لحنين شعبيين لمدينة نابولي.

و بينما كان يزور بريطانيا و بعد أن قدمه المذيع للجمهور على المسرح هزأ الجمهور منه و بدأ بالصفير و الصياح، فما كان منه إلا أن خلع حذاءه، وبدأ يعزف النشيد الملكي البريطاني بأصابع قدميه، مما جعل جمهور الحضور يقفون إجلالًا له و لعزفه المتقن، ثم غادر المسرح و لم يعد إليه إلا بعد اعتذار و تأسف لما حدث من الجمهور.

ظل على عشقه للاذاعة، وكرهه للتلفزيون، حتى وفاته عام 1989 عن 78 عاما غنية بالفن، متواضعة جدا فيما عدا ذلك، فقد أمضى سني حياته الأخيرة في غرفة صغيرة بحي عين الكرش، وحيدًا كأغلب العظماء، ومنها شيع في جنازة متواضعة إلى مثواه الأخير.

وكان آخر ما قاله عن نفسه: «اشهد انني عشت حياتي، وتمتعت بلذة العزف، وسماع الموسيقى، وابداعاتها. انا اغنى رجل في التاريخ، لانني ملكت قلوب الناس وعقولهم وارواحهم، وهذه اعظم الثروات، ولسوف يذكرني الناس كلما سمعوا الحاني، او شاهدوا غجريا يتشيطن على بزقه ببراعة».

امير الكمنجة

سامي وعبود وجهاد، ثلاثة اسماء، لامعة دون سعي للشهرة، صادحة دون كلام، مؤثرة دون قصد، ومحبوبة قبل ان ترى، فالأذن كما قال بشار بن برد تعشق قبل العين احيانا والأُذنُ كَالعَينِ تُؤتي القَلبَ ما كانا. يشترك الثلاثة في استخدام آلة يجمع طرفيّ قوسها 150 شعرة حصان، تسبح وتسرح فوق اربعة اوتار من حرير مجدل، فتحن وتئن وتصدح، وتخترع نوعا ثالثا من البكاء، ليس البكاء حزنا ولا فرحا، بل البكاء اشفاقا وتهجدا في حضرة الابداع.

وكأن هذا النوع من البكاء نفض وطرد لأحزان متراكمة، وتذكرة للتحليق على جناحي ابداع بعيدا عن مكامن الحزن وثقوبه السوداء، او كأنه

التعبير الصامت عن الخشية من الوصول الى نهاية حدث سعيد: سطر اخير في رواية جميلة، او تنهيدة اخيرة في اغنية. نعرف دائما ان النهايات لصيقة بالبدايات مهما ابتعدت، ونخشى الوصول اليها، نتذكر النهايات عندما تصيبنا السعادة المفرطة، فنبكي. بكاء لا سلوى له، بكاء لا ينفع معه السؤال عن اسبابه، بكاء لا يقترن بسبب ولا يحتاج الى بوح.

يقول محمود درويش عن الكمنجات:

الكَمَنجاتُ تَبْكى مَعَ الغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى الأنْدَلسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على العَرَبِ الْخَارِجِينَ مِنَ الأنْدلُسْ

الكَمَنجاتُ تَبْكى على زَمَنٍ ضائعٍ لا يَعودْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على وَطَنٍ ضائعٍ قَدْ يَعودْ

الكَمَنجاتُ تُحْرقُ غَاباتِ ذَاكَ الظلَامِ الْبعيدِ الْبعيدْ
الكَمَنجاتُ تدْمي الْمُدى، وَتَشُمُّ دَمِى في الْوريدْ

الكَمَنجاتُ تَبْكى مَعَ الْغَجِرِ الذَّاهبينَ إلى الأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَرَب الْخارِجِينَ منَ الأَنْدلُسْ

الكَمَنجاتُ خَيْلٌ على وَتَرٍ من سرابٍ وماءٍ يَئِنُّ
الكَمَنجاتُ حَقْلٌ مِنَ اللَّيْلكِ الْمُتوحِّش يَنْأَى وَيَدْنو

الكَمَنجاتُ وَحْشٌ يُعَذِّبُهُ ظُفْرُ إمراة مَسَّهُ، وابْتَعَدْ
الكَمَنجاتُ جَيْشٌ يُعَمِّرُ مَقْبَرَةً منْ رُخامٍ ومنْ نَهَوَنْدْ

الكَمَنجاتُ فَوْضى قُلوب تُجنِّنُها الرِّيحُ في قَدَمِ الرَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ أَسْرابُ طيْرٍ تفرُّ منَ الرَّايَة النَّاقِصَةْ

الكَمَنجاتُ شَكْوى الْحَرير الْمُجَعِّد فى لَيْلَةِ الْعاشقَةْ
الكَمَنجاتُ صَوْتُ النبيذ الْبعيدِ على رغْبَةٍ سابِقَةْ

الكَمَنجاتُ تَتْبعُني هٰنا وهناكَ لتثأر مَنِّي
الكَمَنجاتُ تَبْحَثُ عنِّى لتقتلني، أَيْنما وَجَدتْني

الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَربِ الْخارجينَ مِنَ الأَندلُسْ
الكَمَنجاتُ تبكى مع الغجر الذَّاهبينَ إلى الأنْدَلُسْ

كتبت جريدة مرآة الشرق لصاحبها بولس شحادة في العدد 621 السنة العاشرة، والصادر يوم الخميس 11 تموز 1929 ما نصه:

«يصل في هذا النهار الاستاذ امير الكمنجة سامي افندي الشوا وسيقيم حفلة موسيقية باهرة الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر يوم الاحد الواقع في 14 الجاري على مرسح نادي الشبيبة البيتلحمية في بيت لحم. اما اسعار الدخول فهي 200 مل درجة اولى، و100 مل درجة ثانية. هذه فرصة نادرة لا ندري متى تعود مرة اخرى، يرى فيها اهل فلسطين امير الكمنجة ويشنف آذانهم بتلك الموسيقى السماوية الخالدة. فعسى ان ينتهز الجمهور هذه الفرصة الثمينة ويقصدوا نادي الشبيبة البيتلحمية ليروا هناك الكمنجة واميرها».

وكتبت جريدة فلسطين لصاحبها عيسى داود العيسى عن ذات الحفلة في عددها الصادر يوم السبت 13 تموز من ذات العام:

«وصل نابغة الكمنجة الى القدس فاستقبل فيها بما يليق بنبوغه

وعبقريته..... على عشاق الفن ان يسارعوا الى حضور هذه الحفلة الفريدة النادرة، والتي سيطرب الحضور فيها الاستاذ كاظم افندي السباسي بلبل فلسطين».

كان الموسيقار العبقري سامي الشوا كلما زار بلدا اعد مقطوعة ارتجالية تحمل بعضا من تراث هذا البلد، وهو ما لاحظه وكتبه شعرا ايليا ابو ماضي في قصيدة «اوتار الكمنجة»

عندي لكم نبأٌ عجيبٌ شيّقٌ... سأقصّهُ... وعليكم تفسيره
بالأمس مر بنا فتى من قومكم... رقّت شمائلهُ... ورقّ شعوره
يلهو بأوتار الكمنجة والدجى... مرخيّةٌ فوق العبابِ ستوره
يهدي إلى الوطن القديم سلامَهُ... ويناشد الوطن الذي سيزوره

واما الشاعر المصري ابراهيم ناجي فقد كتب عن امير الكمنجة في قصيدة «يا أبا الفن»

آهٍ من لحنٍ سماويٍّ عجيب النغمات
أيها الساحر لم تضرب بقوسٍ بل عصاة
يا أبا الفنّ المصفى هات ألحانك هات
في شطوط النيل مهد الفنّ مهد المعجزات
الصبا في ريح لبنان الرقيق النسمات
وحجاز رقَّص الآهات من شطِّ الفرات

السحر الحلال

أمير الكمنجة سامي الشوا
في كلية روضة المعارف
عمر كمنجة الاستاذ الشوا ١٢٥ عاماً
سمعنا امير الكمنجة في المشرق الاستاذ سامي افندي الشوا يعزف على كمنجته السحرية ، مساء الجمعة الماضي ، في قاعة محاضرات كلية روضة المعارف فسمعنا السحر الحلال ، الذي اتى على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وشهدنا رأي العين ، كيف يكون التلاعب بالعواطف ، وكيف تفيض النفس بالاحساسات المختلفة ، حتى تكون قيد أنامل هذا الفنان العبقري المبدع يورهن ارادة تلك الاوتار الاربعة ، التي تتولد منها نغمات لاتحصى ، تجد طريقها الى قرارة النفس وسويداء القلب توا دون مرشد او دليل ، الا الالهام وعبقرية الفن .
ولم تدر ونحن نسمع تلك النغمات السحرية ، هل السحر كان في تلك الكمنجة ، التي يحركها انامل الاستاذ الشوا في حديقة الاربعين ، عمرها ١٢٥ عاماً ، وأنه ورثها عن المرحوم الشيخ ابراهيم الكاتب ، والد الاستاذ الذي ورثه عن والده ، ام ان السحر كامن في قرارة تلك النفس المشبعة الوديعة المتواضعة المطمئنة التي تتجلى رقة واحساساً وشعوراً وقبلا ، والتي كانت توزع من وحيها هذا السحر على السامعين في تلك الليلة الفريدة ، التي استطاعوا ان يباهوا اصحابهم التحليق في سماء الخيال والشعور بعظمة الفن الخالدة .
افرأيت الى العبقرية كيف تجعل سحراً سويداء والى المواهب السامية كيف تساقط عليك ثمراً

يدفعني للاهتمام بسيرة الفنان السوري امير الكمنجة سامي الشوا انه لم يكن مجرد عازف ماهر، ولا استاذ تلحين فقط، ولا موهوبا يحسن استخدام موهبته فقط، لقد كان فوق ذلك على الصعيد الانساني متواضعا ومحبوبا، ومحسوبا على كافة الاقطار العربية، حتى انه تم احصاء 53 قصيدة لشعراء كبار من مصر ولبنان وسوريا وفلسطين والعراق وغيرها تغنت به وبفنه، واضافة لذلك فلقد كان هذا الفنان باحثا في اصول الموسيقى، وصاحب غيرة عليها وساعيا لتطويرها وتوسيع مدياتها، والاهم انه كان صاحب نظرة وله موقف ثابت ازاء قضايا الابداع والفن، وهو ما سنراه لاحقا.

احيا امير الكمنجة حفلا آخر في كلية روضة المعارف، فكتبت عنه جريدة الجامعة العربية لصاحبها منيف الحسيني في العدد الصادر يوم الاثنين

15 تموز 1929، النص التالي:

«سمعنا السحر الحلال الذي نزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وشهدنا راي العين كيف يكون التلاعب بالعواطف، وكيف تفيض النفس بالاحساسات المختلفة، حتى تكون قيد انامل هذا الفنان العبقري المبدع، ورهن ارادة تلك الاوتار الاربعة، التي تتولد منها نغمات لا تحصى، تجد طريقها الى قرارة النفس وسويداء القلب توا دون مرشد او دليل، الا الالهام وعبقرية الفن».

واضافت الجريدة: «لقد قيض لنا ان نسمع كثيرين من الموسيقيين ولكننا لم نجد ان احدا منهم استطاع ان يتبوأ في نفوس السامعين هذه المنزلة الرفيعة التي تبوأها امير الكمنجة، ولا ان تسلك نغماته سبيلها الى النفوس فتستهويها بمثل هذه السرعة والبساطة اللتين كانتا من حظ هذا الفنان النابغة.

اعجاز في الفن، وتلاعب بالعواطف، واستهواء للنفوس، حتى ليخال المرء نفسه في عالم روحي سام وقد انقطعت صلاته بهذا العالم المادي الفاني، اذا ما لمست انامل الموسيقار العبقرية اوتار كمنجته السحرية فآنست انين ذات الكبد المقروحة، وترنمت ترنم ثكلى اوجعتها الجنائز، وغدا السامعون لا يملكون من امرهم شيئا وكأن على رؤوسهم الطير، اللهم الا ما يسمع من حفيف انفاس تتصعد كانها بخار الافئدة الذائبة بحرارة العواطف المتأججة ما بين الضلوع والجوانح، ثم تنفجر عند انتهاء النغمة السحرية، وتنفرج الشفاه عن افواه السامعين مرة واحدة بصوت كصوت المتصوفين والزهاد يرن في ارجاء القاعة الفسيحة مناجيا ذا القدرة والجلال: الله!!!!

ولم ندر ونحن نسمع تلك النغمات السحرية، هل السحر كائن في تلك الكمنجة العجوز، التي قال لنا الاستاذ الشوا في حديثه اول امس ان

عمرها 125 عاما وانه ورثها من المرحوم طيب الذكر والده، الذي ورث منه ضيفنا النابغة الفن والنبوغ، ام ان السحر كامن في قرارة تلك النفس العذبة الوديعة المتواضعة المطمئنة التي تفيض رقة واحساسا وشعورا ونبلا، والتي كانت توزع من فيضها هذا السحر على السامعين في تلك الليلة الفريدة حتى استطاعوا ان يساهموا صاحبها التحليق في سماء الخيال والشعور بعظمة الفن الخالدة.

افرأيت الى العبقرية كيف تتمثل بشرا سويا، والى المواهب السامية كيف تتساقط عليك ثمرا جنيا، والى النفوس الكريمة كيف يصقلها الفن فيزيدها رونقا وبهاء؟ فهكذا كان امير الكمنجة عندما ظل يتلو على الحاضرين من آياته الخالدات ما ادهش الافكار وحير الالباب، يرهن على ان الشهرة التي يتمتع بها في عالم الفن في هذا الشرق لم تكن عبثا، وان لنا ان نفاخر به كبراء النابغين في فن الموسيقى من اهل الغرب، فله منا جميعا اجزل الشكر واعطر الثناء.

ولا نرى بدا قبل ان نختم هذه الكلمة من ان نخص بالثناء، المطرب المبدع السيد يحيى السعودي، الذي كان له قسط كبير في اسباغ ثوب البهاء والصفاء على تلك الليلة الانيسة بصوته الرخيم وحسن ايقاعه اللذين استحق من اجلهما الاعجاب العظيم.

وسيحيي امير الكمنجة ليلة زاهرة مساء اليوم (الاثنين) في يافا في النادي الرياضي الاسلامي، كما انه سيحيي ليلة اخرى كما علمنا في نابلس، فنحث اهل فلسطين على التهاب هذه الفرصة النادرة التي قلما يجود الدهر بمثلها، والتي تتجلى فيها مواهب هذا النابغة الشرقي بأجلى مظهر».

وضعت النص كاملا، ليس لإعجابي به فقط، بل محاولة مني لدفعكم للمقارنة بين التغطية الثقافية في الاعلام في تلك الايام الزاهرة وهذه

الايام البائسة، في هذه الايام لا يملك الصحفيون لغة ولا اهتماما فكريا ولا ثقافيا، انهم مجرد ببغاوات وحاملي كلشيهات متشابهة ومملة، مستنسخة حد البهوت، يهتم احدهم بمن حضر الحفل اكثر من اهتمامه بمجريات الحفل!!، ويكتب احدهم عن دار النشر وحجم الكتاب وعدد صفحاته وينسى ان يكتب شيئا عن مؤلف الكتاب او مضمونه!!، يذهب محاولا اصطياد اية ثغرة ليكتب عنها، لأنه لا يملك حسا ولا مفردات تمكنه من التعبير عما سمعه او شاهده، ولأنه عاجز عن ادراك قيمة الفن ورصد تأثيره في الناس.

مظاهر سلبية كثيرة وتشوه كبير ابعد الصحافة عن حسها الثقافي وواجبها ومسؤوليتها الاجتماعية تجاه الفن والادب، وتجاه تنمية ذائقة الجمهور، دفعنا ذلك في مركز تطوير الاعلام ذات سنة الى عقد دورات متخصصة في التغطية الثقافية، وها نحن نعمل في المركز على انتاج مساق جامعي يدرس اساليب تغطية كافة الفنون والاداب اداء وتشكيلا وتعبيرا، مسموعة ومُبصرة ومقروءة.

الحقيقة ان المبدعين لا يجدون اليوم ساعدا صحافيا يستندون اليه، فالسواعد الصحفية ممدودة لمساعدة انصاف وارباع الموهوبين، واما السوشيال ميديا فإنها موجودة لخدمة كل افاق لعين، وكل ساع في تخريب الفن وتشويه الذوق، وها نحن نجني ثمار هذا الزرع الخبيث لا على صعيد الذائقة الفنية فقط، بل على صعيد السلوك القبيح والانفس الخبيثة.

الزهاوي والرصافي يتنافسان في مديح الشوا

في عددها الصادر يوم الجمعة 20 تشرين الثاني 1931 اهتمت جريدة فلسطين بتغطية اجواء الحفلات التي اقامها الموسيقار السوري المبدع ابن مدينة حلب سامي الشوا في العراق، وابرزت حجم التكريم والترحيب الذي لقيه هناك فكتبت: «ما برح العراقيون يقيمون الحفلات التكريمية لنابغة الفن الموسيقي الاستاذ سامي الشوا، وما برح هو يسمعهم من كمنجته الانغام الساحرة التي تخلب البابهم.... في آخر هذه الحفلات قدم وزير المعارف العراقي للمحتفى به كمنجة من الفضة وعلبة خشبية جميلة تذكارا لزيارته العراق.... وقد انشد شاعر العراق الاستاذ معروف الرصافي قصيدة عصماء موجهة الى سامي الشوا، قوطعت اكثر ابياتها بالتصفيق الشديد، وها نحن نبث نصها هنا:

صاح قم بي الى امير الكمنجة... اصدق النابغين في الفن لهجه
قم بنا نستمع الى نغمات... تملأ الانفس انتعاشا وبهجة
ولحون كالصبح ان هي فاضت... تغرق الروح من سرور بلجه

ذاك سامي الشوا الذي قد سما في... فلك الفن بالغا منه اوجه
هو في فنه الرفيع امام... موضح للانام منه المحجه
كل من سار في طريق الاغاني... يقتفي اثره وينهج نهجه
ما امر الانامل الخمس بالاو... تار الا القى على القوم رجه
نغمة منه تجعل القوم كالبحر... يموجون موجة بعد موجة
و يميلو ن با تجا ه ا ليه ... اينما مال ضاربا او توجه
بطل الفن هز رمح ابتداع... راكزا فوق هضبة المجد زجه
وبكأس الفخار اسقى صرفا... من كمال تعود الناس مزجه
فلنفا خر بلاد يعرب فيه... سادة الفن في بلاد الفرنجه
يا اميرا في الفن صار مليكا... حاملا الصولجان وهو الكمنجه
شهد الله ان كل حياة... لم تزنها بدائع الفن سمجة

****

من خلال متابعتي لشاعري العراق: معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، اشعر احيانا ان الله خلق الرصافي لكي يناكفه الزهاوي بقصد، وربما دون قصد، فعندما يصف الرصافي الحياة دون فن بانها سمجة، يختار الزهاوي التركيز على البقاء وعلى خلود الفن، وهذا جزء بسيط من تعارض تراه في هذه القصيدة وفي مجمل حياة واشعار الرجلين، فالرصافي يصف ما هو قائم واما الزهاوي فيذهب لوصف ما لا يرى، يتعمد الرصافي تقديم اجابات واما الزهاوي فيطرح تساؤلات فلسفية ووجودية:

هزنا الفن في كمنجة سامي... وهو في اميرها الججاج
حبذا الموسيقى وحسبك منها... لغة في غموضها افصاح
لغة ليس يفهم العقل ما يسمع... منها وتفهم الارواح
وتر جامد ورق بلا حس... فمن اين جاء هذا النواح

وكأن الاوتار تحت يديه... ألسن تشرح الغرام فصاح
كلما جستها الانامل منه... شملت ارواحا لنا الافراح
واذا ما اراد فالأمر جدّ... واذا ما اراد فهو مزاح
اغنموا فرصة السماع اليه... فهي في كل مرة لا تتاح
ان في لحنه جمالا اليه... كل نفس حساسة ترتاح
نغمات فاضت على الجو حتى... ملأته كما يفيض الصباح
نغمات لها الخلود فلا تذهب... في هبات بهن الرياح
هي نور للتائهين مبين... وهي ماء للظامئين قراح
هل علينا اذا صبونا الى السحر... كما يدّعى اناس جناح
خلب الفن أنفس السامعين... ايها الفن انت سحر مباح
انما الفن للبقاء فلا يجتاحه... مثل غيره المجتاح

*****

نملك عينين اثنتين ولا نشاهد ما يكفي من الجمال، ونملك اذنين اثنتين ولا نسمع الا الضجيج، نتقارب اجسادا فنصرخ لأننا نريد إسماع قلوبنا المتباعدة، يتحدث العشاق همسا، لأن حجرات قلوبهم مبنية بطريقة الجدار على الجدار، واما الاشد عشقا فانهم لا يهمسون، لانهم صوفيون يعيشون بقلب مشترك.

يا لجفاف الارواح والقلوب حين لا يغذيها البصر بالجمال، ويا لشقائها حين لا يسقيها السمع بالابداع.

هزمتْك يا موت الفنون جميعها

هنا القدس

مجلة القسم العربي للإذاعة الفلسطينية

المجلد الاول
العدد
الثاني والعشرون

١٠ تشرين الثاني
سنة ١٩٤٠
١٠ شوال
سنة ١٣٥٩

— ١٠ —

شيء من حياة امير الكمان

الاستاذ سامي بك الشوا

وهي الكلمة التي القيت من محطة الاذاعة الفلسطينية منذ اسابيع

يحق للمستمعين الكرام ان يتشوقوا الى كلمة موجزة في حياة امير الكمان الاستاذ سامي الشوا الفنان النابغة الذي طار صيته في الإفاق في المشرق والمغرب، وفي قصور الملوك ومعاهد الموسيقى العالمية ومحطات الاذاعة والمحافل الاجتماعية الراقية كما يحق لهم ان يأخذهم البحر الخلال من الانغام الشجية التي تبعث من اوتار كمانه: وربما تسائل بعضكم هل سامي الشوا مصري او سوري او مغربي

موطنه في حلب وحلب عدا كونها عاصمة بني حمدان فهي لا تزال من عواصم الموسيقى في العالم العربي: واما مولده ففضية موجلة في علم الكلمة وقد كان جده رحمة الله الياس الشوا صديقا حميما للشيخ ابي الهدى الصيادي الشهير وكان جده استاذا في الفن الموسيقي كما كان والده ايضا. وقد تزوج والده السيد الطون الشوا من حلب الى مصر منذ نحو نصف قرن وكان من المبرزين في الفن الموسيقي ويقوم برحلات بين مصر وسوريا واستنبول. اما صاحب هذه الترجمة الاستاذ سامي الشوا فقد ولد في مصر ونشأ على نغمات الكمان وقد تكون هذه النغمات اول ما استمعت اليه اذناه من صوت الفن في هذا الوجود وقد توفي والده سنة ١٩١٣ ومنذ صغره اخذت تظهر عليه مخايل النبوغ والابداع فلما ظهر في اول حفلة عامة عازفا على كمانه كان سنه اقل من الرابعة عشرة وكان ذلك في دار المرحوم اسماعيل سري باشا في مصر وكان ذلك في حياة والده: وهنا قد يباح لنا ان نذكر جريمة واحدة ارتكبها هذا النابغة في اول حياته كانت سببا في اقتسامه بهذا الفن حتى امتلك قيادة وعلا فيه هذا العلو الكبير: ذلك انه ذهب خلسة عن والده من مصر الى حلب حيث قضى هناك ثلاث سنوات منقطعا الى اتقان العزف على هذه الالة الموسيقية العجيبة: وقد قلنا انه ارتكب هذه الجريمة لان والده كان كلما رآه يعزف على الكمان سرا وخلسة في البيت يزجره ويؤنبه ويتوعده بالقصاص اذا عاد الى مثل ذلك ثانية. اما الاسباب التي كانت تدعو والده الى هذا فربما كانت ناشئة عن عدم اعتقاده ان يكون للكمان مستقبل زاهر على يد ابنه كالمستقبل الذي تحلق بالعمل، وربما كان من جملة الاسباب ايضا ان والده مع انه كان

كانت بعض الصحف تصف امير الكمنجة سامي الشوا بانه سوري فيما تصفه اخرى بانه مصري وكانت بعضها تقول انه فلسطيني، فعندما استضافت فلسطين مرة اخرى الموسيقار النابغة، نشرت يومها مجلة دار الاذاعة الفلسطينية في عددها الصادر يوم الأحد 10 تشرين الثاني 1940 كلمة القتها الاذاعة قبل ايام كمقدمة لتقرير مطول عنوانه «شيء من حياة امير الكمان، الاستاذ سامي بيك الشوا» وجاء في هذه الكلمة

التي تحولت الى تقرير مكتوب:

«يحقّ للمستمعين الكرام أن يستمعوا إلى كلمة موجزة في حياة أمير الكمان، الأستاذ سامي الشوا، الفنّان النابغة الّذي طار صيته في الآفاق في المشرق والمغرب، وفي قصور الملوك ومعاهد الموسيقى العالميّة ومحطّات الإذاعة والمحافل الاجتماعيّة الراقية، كما يحقّ لهم أن يأخذهم السحر الحلال من الأنغام الشجيّة الّتي تبعث من أوتار كمانه. وربّما تساءل بعضكم، هل سامي الشوا مصريّ أو سوريّ أو مغربيّ أو مشرقيّ، وفي الجواب على هذا نقول إنّ الأستاذ سامي الشوا هو في الحقيقة كلّ هذا وأكثر، بمعنى أنّ أخلاقه الرضيّة، ونفسه الطيّبة، ونبوغه في الفنّ الموسيقيّ، جعله عربيًّا ينتمي إلى كلّ قطر من أقطار العرب، وشرقيًّا ينتمي إلى الشرقيّة من حيث الإبداع والنبوغ، فهو عربيّ لكلّ العرب في جميع الأقطار، وشرقيّ لكلّ الشرق في جميع الأرجاء؛ وقد استمعتم إلى الآن أوقاتًا عديدة إلى أوتار كمانه، وكلّما أصغيتم وسُحِرتم ازددتم شوقًا إلى زيادة الاستماع، فحريّ بنا وبكم أن نعلم شيئًا عن حياة هذا النابغة».

جريدة الدفاع لصاحبها ابراهيم الشنطي وفي عددها الصادر في يافا يوم الاحد 11 تشرين الاول 1942 كتبت: «امير الكمان الاستاذ سامي الشوا لا يحتاج الى تعريف، فهو اليوم في الموسيقى العربية كمعبد والفريض وابراهيم الموصلي والفارابي في العصرين الاموي والعباسي الزاهرين. ومن حسن الحظ ان اهل فلسطين اعتادوا سمع امير الكمان في المواسم والاعياد في السنتين الاخيرتين يعزف انغامه المرقصة المشجية من دار الاذاعة الفلسطينية. ولا نعتقد ان الكبار وحدهم هم الذين تاخذ بالبابهم الحان امير الكمان، بل يشاركهم في هذا الاطفال والطيور ونسمات الصباح، كل هذا يشترك في الاغتباط لسماع الحان سامي الشوا... وهناك ما هو ارفع من معزوفات امير الكمان، ذلك هو خلقه الرضي السمح،

ونفسه الطيبة المرحة».

سألت صحفيا مستجدا عن رأيه في هذا النص، فاستنكر التعرض بالاستحسان لخلق الفنان، ولكنه طبعا لم يستغرب استحسان واهتمام صحافة اليوم بما تلبسه الفنانة اكثر من اهتمامهم بصوتها او مضمون كلماتها. واستغرب التطرق للاطفال والطيور ونسمات الصباح، لكنه لم يستنكر ذلك حين قرأه في تقرير عن ادمان الاستماع الصباحي للفنانة فيروز.

اقام الشوا في فلسطين طيلة ايام شهر رمضان المبارك عام 1943 بدعوة من دار الاذاعة الفلسطينية، وفي يوم وداعه كتبت جريدة فلسطين في عددها الصادر يوم الاحد 10 تشرين الاول: «... ان وجود امير الكمان في فلسطين مدة شهر الصوم المبارك قد اتاح الفرصة لمستمعي دار الاذاعة الفلسطينية في البلاد العربية لكي ينهلوا من مورده الموسيقي العذب الذي هو فيه افرس فرسانه وحامل لوائه وامير كمانه... ولن ينسى احد منا معزوفاته الشجية لا سيما معزوفة الاذان ومعزوفة الوحدة العربية، كان من حسنات دار الاذاعة ان مكنت مستمعيها الكرام من الاستماع الى امير الكمان.. وقد اجتمعنا به مرارا في رمضان المبارك فقال لنا بعبارته التي كلها اخلاص انه شعر هذه السنة بان شعور العرب نحو الوحدة العربية شعور فياض في جميع البلاد واخبرنا انه بعد عودته الى القاهرة سيعنى بوضع نشيد خاص يحيي به المؤتمر العربي المزمع عقده في القاهرة بعد اسابيع.

كان امير الكمنجة قادرا على تقديم اصوات العصافير والبلابل والعواصف الهوجاء فضلا عن الاذان واصوات مناغاة الاطفال عبر اوتار كمنجته. كان قادرا على التحكم باحاسيس ومشاعر جمهوره.

وكما لقي الشوا ترحيبا خاصا في زياراته لفلسطين والعراق وجد ترحيبا

مماثلا في نيويورك، رحب به يومها ايليا ابو ماضي بقصيدة جميلة هذه بعض ابياتها:

نيويورك يا ذات البروج التي... سمت وطالت كي تمس الغمام
لن تبلغي واللّه باب السما... إلاّ بـأوتار كنار الشآم
فاصغي إلى ألحانه لحظة... تحتقري كلّ صنوف الكلام
وتدركي أنّ قصور المنى... تبقى تتنهدّ قصور الرّجام
فرّحبي معنا به واهتفي... هذا أمير الفنّ، هذا الإمام

لسنا غجرا بما يكفي لنركب الرياح ونكون سعداء، لقد ربطنا انفسنا بأوتاد ارض، ولم تعد هناك عربة مزركشة تستطيع حمل البيت، ولم تعد هناك روح تلبي ما في الخيال من شيطنات، ولا اكتاف تستطيع اسناد الكمنجات، لسنا بدوا نتوحد مع الطبيعة ونسير على هدي ربابة بحثا عن كلأ وماء، ولا رعاة نشتاق لناي، ولا ثوارا يستريحون بين الرصاص والرصاص، لقد صرنا اشباه اشياء تبحث عن خلاص، خلاص فردي.

في الجدارية حاور محمود درويش موته وقال له:

هزمتْك يا موت الفنون جميعها.
هزمتك يا موت الأغاني في بلاد الرافدين.
مِسلّة المصريِّ، مقبرة الفراعنةِ،
النقوش علي حجارة معبدي، هزمتْك وانتصرتْ
وأفْلت من كمائنك الخلود
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريد

كمنجة الشوّا عليك السلام

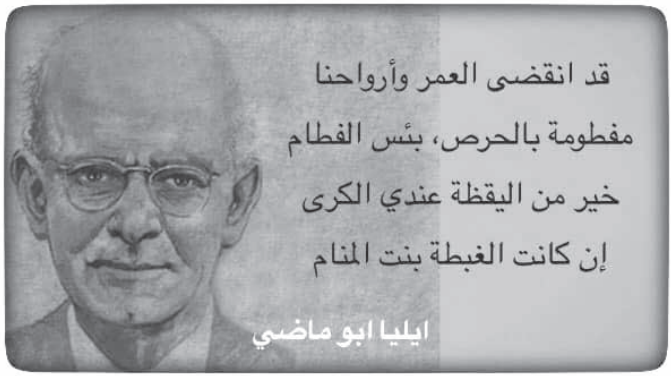

رحل جسد امير الكمنجة سامي الشوا بعد 100 عمل موسيقي فضلا عن ارتجالات كان يقدمها في كل بلد يزوره ويضمنها شيئا من وحي تراث ذلك البلد، في موسيقاه تسمع صوت مؤذن الفجر وزقزقة العصافير وهدهدة الاطفال ومناغاة الرضع وصوت الرياح الهوجاء.

رثاه الموسيقي اللبناني سليم الحلو وهو صاحب 11 كتابا في الموسيقى فضلا عن العديد من الالحان والاعمال التي اعادت احياء تراث الموشحات الاندلسية رثاه فكتب في مقالة مؤثرة:

«مات في الشهر الماضي إمام العازفين في الشرق على آلة الكمان الساحرة... إن يدَي سامي العبقريتَين هما أقوى مَن تحكّم في آلة الكمان في الشرق قاطبة، وقدرتهما لم تعتمد يومًا على ثقافة واطلاع، لكنهما تعتمدان على تلك الموهبة التي أضفى عليهما الخالق نوعًا من الرشاقة في العزف ولونًا عبقريًا في جمال التصرّف، لن يستطيع العلم والاجتهاد الوصول إليه مهما تسلّحا بالسرعة والمران... ان سامي أول فنان شرقي أسمع الدنيا صوت العصفور، وأصوات مختلف أنواع الطيور المتباينة التغريد، وكذلك صوت العاصفة، وأبرز ذلك كله بأنامله على كمانه بصورة جلية

واضحة».

ثم نقل عن أحد الشعراء قوله: «إني سمعته مرةً في حشد زاخر يشدو بمحاكاة المؤذن عند الفجر، فيخرج بكمانه للناس آذانًا شرعيًا جعلهم يلتفتون يمنة ويسرة وهم يبحثون عن صوت المؤذن».

واضاف الحلو «كان سامي رحمه الله أنشط الموسيقيين المحترفين وأكثرهم سفرًا شرقًا وغربًا وأرفعهم منزلةً وأوفرهم انتاجًا، ومن أعظمهم خبرة ودراية بصناعته. يمتاز فنه بالقوة الخارقة وبالقدرة الراسخة التي تجيد التعبير عن أصدق العواطف لتصل إلى شغاف القلوب، مما رفع اسمه وجعل من فنّه اسطورة وتاريخًا مليئًا بالعجب والاكبار، جديرًا بالدرس والفحص والتحليل، ولعله أكثر الموسيقيين كسبًا لتقدير مختلف الحكومات التي أنعمت عليه بالأوسمة الرفيعة التي كان يفخر بها ويعلّقها على صدره في كل حفل رسمي».

في العام 2015 وبمناسبة الذكرى الخمسين على غياب جسده، عن عمر ناهز الثمانين، اصدرت مؤسسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربية كتابا بعنوان «امير الكمان» الكتاب من قسمين يتناول الاول سيرة الفنان وهو من تأليف العازف والباحث أحمد الصاحي، ويتناول الثاني نماذج تحليلية لتقاسيم الشوا وأنغامه وهو من تأليف مصطفى سعيد، مدير المؤسسة، واصدرت مع الكتاب اربعة اقراص تشمل مختارات من موسيقاه.

ومما كتبه أحمد صالحي: من مصر، انطلق الشوا إلى العالم وأصبح رسول الفن الشرقي إلى الغرب، رسّخ آلة الكمان في التخت الموسيقي العربي وأعطى هذه الآلة كل إمكاناتها، وجعلها تتكلم اللغة العربية الفصحى. جاب العالم بكمانه وسَحَر محبّي الموسيقى من ملوك وسلاطين ورؤساء وسواد بشر، فأُغدقت عليه الأوسمة التي أثقلت كاهله

الصغير. عزف كأفضل عازف عراقي مع الموسيقيين العراقيين، وكأفضل عازف كويتي مع الكويتيين، وحاكى المزمار الصعيدي بلهجته، ولم يجد بابا في الموسيقى الشرقية إلا وطرقه عبر كمنجته وبنجاح.

تلك الكمنجة السحرية التي قال فيها ايليا أبو ماضي:

كمنجة الشوّا عليك السلام... بهيكل الوحي وعرش الغرام
فيك التفت أرواح أهل الهوى... نجوى وشكوى وبكا وابتسام
وأودعت فيك الصّبا همسها... وخبّأ الأسرار فيك الظلام
وذاب فيك الحبّ ذوب الندى... في مبسم الورد وجفن الخزام
ردّي إلينا اليوم دنيا الرؤى... فإنّنا نشقى بدنيا الحطام
أجنحة الأشواق مقصوصة... أو موثقات، والأماني رمام
قد انقضى العمر وأرواحنا... مفطومة بالحرص، بئس الفطام
ننأى عن الحسن ونشتاقه... ونهجر الماء ونشكو الأوام
ويبعث الحقل إلينا الشّذى... ونحن لا ننشق إلاّ الرّغام
نسير والأضواء من حولنا... كأنّنا في هبوة أو قتام
والماء يجري حولنا كوثرا ونحن... نستسقي السحاب الجهام
ونسهر الليل لغير الهوى... ما تنفع اليقظة والقلب نام؟
حتى نسينا كيف لون الضحى... ولم نعد نذكر سجع الحمام
خير من اليقظة عندي الكرى... إن كانت الغبطة بنت المنام
خلنا الهوى ترجع أيّامه لم... يرجع الحبّ ولا المال دام
فيا فتى الشهباء يا شاعرا... قد رفع الفنّ لأسمى مقام
رجعت بالسحر وكان انطوى... وجئتنا بالوحي في غير جام
هذا عصير الوحي في آلة... خرساء يجري فتنا للأنام
فإن تجدنا حولها عكّفا... فالمنهل العذب كثير الزّحام
فدغدغ الأوتار لا تكترث... أنّ تذهب الفتنة بالاحتشام

سعادة الأنفس في نشوة... من صورة أو نغم أو مدام
وقل لمن يحذر أن يشتكي... ويحبس الدمع لئلاّ يلام
إسمع فهذا وتر نائح وانظر... فهذا خشب مستهام

الشوا يعتزل الفن

رصد الباحث اللبناني والخبير في مجال الفنون الدكتور محمود زيباوي فصولا من حياة امير الكمنجة سامي الشوا، ومن بينها فصل من الاهمال الرسمي لموهبته وهو ما ادى الى اعتزاله للفن، وكتب في مقال نشرته صحيفة النهار بتاريخ 17 نيسان 2015:

«عاش أمير الكمان وعرف المجد في زمن مصر الملكية، وبقي اسمه حيًا في زمن الجمهورية، بعد سقوط الملك فاروق، وصعود الجيش إلى الحكم. في 1953، سافر من جديد إلى أميركا في رحلة فنية مثمرة، وعاد إلى مصر. في آب 1955، أعلن أمير الكمان اعتزاله الفن «نهائيًا»، غير أن ظهوره تواصل في الصحف والمجلات.

وبدا أن هذا الاعتزال جاء نتيجة لإهمال الإذاعة الرسمية المتعمد له وعزوفها عن التعامل معه. في العام 1957، قيل أن غياب سامي الشوا سببه عدم تقدّمه للإذاعة «ليطلب الإشتراك في برامجها»، وردّ صالح جودت على هذا الكلام بتعليق في مجلة «الكواكب» قال فيه: «إن سامي كبير في فنه، مثله مثل طه حسين والعقاد في الأدب، وعزيز أباظه وأحمد رامي في الشعر. فهل يتصور أحد أن واحدًا من هؤلاء الأعلام يطيق أن يسعى إلى الإذاعة لتذيع له شيئا؟».

في العام التالي، عاد المعلّق إلى هذه المسألة، وقال: «إن الإذاعة هي التي يجب أن تسعى إلى الأعلام، فالأعلام لا يبذلون ماء الوجوه وإن هلكوا من الجوع، واليوم الذي يفكرون فيه في بذل ماء وجوههم على عتبات الإذاعة، هو اليوم الذي لا يصح فيه أن نسمّيهم أعلامًا». في المقابل، صرّح الشوا في مطلع الستينات بعدما تجاوز الخامسة والسبعين أنه يمتلك طاقة موسيقية تفوق ما كان يمتلكه، وأنّه يعمل على إنشاء معهد موسيقي شرقي يكون مقرّه حلب، غير أنه رحل بعد سنوات من دون أن يحقق هذا المشروع الكبير».

شيء مشابه حصل مع ام كلثوم، كان مسؤولو الاذاعة المصرية قد قاطعوا اغاني ام كلثوم بعد الثورة على اعتبار انها من رموز العهد البائد فلما علم الزعيم استدعاهم وامرهم بهدم الاهرامات فلما استغربوا ذلك قال لهم: لأنها ايضا مثل ام كلثوم من العصر البائد؟!!!

وكما هو معروف فلا كرامة لنبي في وطنه، ولا مجد لمبدع في حياته، فالمجد الحقيقي يأتيه بعد غياب جسده، فقد أصدر «نادي الاسطوانة العربية» في باريس ألبومًا موسيقيًا مخصصًا لتسجيلات سامي الشوا على الإسطوانات في العام 1999. وفي أواخر 2003، صدرت في اميركا اسطوانة حوت مجموعة من المقطوعات سجّلها سامي في العام 1953

لصالح إذاعة نيويورك.

في العام 1966، نشر فؤاد القصاص «مذكرات سامي الشوا»، ورصد من خلالها ما قيل عنه في الصحافة اضافة الى ابرز قصصه مع مجايليه واصدقائه من المغنين والشعراء والموسيقيين. وخصصت مجلة «الضاد» عددا خاصا لسامي الشوا، حصرا لبعض إنتاجه، إضافة إلى 53 قصيدة فصحى وعامية قيلت في مدحه.

قال فيه أمير الشعراء «أحمد شوقي»:

يا صاحب الفن هل أوتيتَهُ هبَـةً... وهل خُلِقتَ له طبعًا ووجدانا
وهل وجدت له في النفس عاطفة... وهل حملت له في القلب ايمانا
وهل لقيت جمالا في دقائقه... غير الجمال الذي تلقاه احيانا
وهل هديت لكنه من حقائقه... يرد اعمى النهى والقلب حيرانا
الفن روض يمر القاطفون به... والسارقون جماعات ووحدانا
اولى الرجال به في الدهر مخترع... قد زاده جدولا او زاد ريحانا
العبقرية فيه عز مالكة... اذا مشى غيرها لصا وجنانا
لا تسأل الله فنا كل آونة... واسأله في فترات الدهر فنانا
يا واحد الفنِّ في أشجى معازفِهِ... هذا أوان الثناءِ العدلِ قد آنا
يا رب ليل سمرنا الراح فاختلفت... على بنانك للسمار الحانا
تِلك الُّلَعِيْبَةُ من عود ومن وتـرٍ... لولا بنانُكَ لم تجعل لها شأنا
قد آنست رحمة في الصدر فاتكأت... بجانب الاذن تستوحيك شيطانا
كأنها عش طير هاج آهله... من كل ناحية ينساب اشجانا
ضممتها وتواصت راحتاك بها... ضمَّ الوليدةِ إشـفاقًا وإحسـانا
تملي عليها الذي يوحي إليك بها... كأنه داودَ والمزمار مـا بانا
حركتها فأتاها الروح فاندفعت... تبكي وتضحك اوتارا وعيدانا
لطيبها حين تحدوها بحنجرة... كخرطم النحل ارواحا والوانا

مصرية السر وهابية عذبت... شدوا ونوحا وترجيعا وتحنانا
ذكرت خلقا وراء البحر مغتربا... موالفا وصبابات واوطانا
غنيتهم باغاني العهد فالتمسوا... في ملتقى القوس والاوتار لبنانا
لو هتفت ببتهوفن لما انصرفت لك القلوب وإن صادفت اسماعا
سقيتهم من سلاف طالما دخلت... عليهم العهد اعنابا والبانا
فمن تعطل منه الشرق آونة... وكان شغل بني العباس ازمانا

ورصد الباحث عامر رشيد مبيض ابن مدينة حلب آراء كبار المطربين ببراعة سامي وكيف كانوا يشعرون بوجوده فنقل عن كوكب الشرق «أم كلثوم» قولها: «في بداية حياتي الفنية كنت كلما شعرت وأنا على المسرح بقلق أو اضطراب أنظر خلفي، وبمجرد أن أرى «سامي الشوا» و»القصبجي» في مكانهما في التخت أشعر أن كل شيء على ما يرام».

ونقل عن الموسيقار محمد عبد الوهاب قوله: «إن تختًا موسيقيًا ليس فيه عازفون من طراز سامي الشوا، هو تمامًا مثل ذلك البيت الذي ينتظر صاحبه السقوط على رأسه في أي لحظة».

الشوا: الموسيقى انفع طرق التربية واقواها

اتابع ما يكتبه ابن حلب الشهباء الدكتور سعد الله الآغا القلعة على الفيسبوك عن الاغاني والموسيقى، فوجئت وانا ابحث بانه طبيب اسنان وحاصل على الدكتوراه في الهندسة، وانه عمل مقدما للبرامج ومدرسا جامعيا ثم وزيرا للسياحة، ولكن اهتمامه وحبه الاول الاخير هي الابحاث في مجال الموسيقى العربية حيث سبق وان قدم عدة برامج اذاعية وتلفزيونية وانجز عدة ابحاث واطلق عدة مبادرات تهدف لإطلاق نهضة موسيقية عربية جديدة.

ومن صفحة الباحث القلعة عرفت ان سامي الشوا نشر في عام 1946 كتابه «القواعد الفنية في الموسيقى الشرقية والغربية» وذلك في إطار

استكمال جهوده لنشر علوم الموسيقى العربية، في المعهد الموسيقي الذي كان قد افتتحه في القاهرة.

يقول الدكتور سعد الله آغا القلعة ان سامي الشوا اهتم في هذا الكتاب، بتوثيق المقامات الموسيقية، مع شرح أسلوب العمل لإبراز شخصية كل مقام موسيقي، بما يتكامل مع تسجيلاته، لعشرات التقاسيم على الكمان، المستندة إلى تلك المقامات، وبما يشكل دليلًا نظريًا وعمليًا لكل من يريد فهم المقامات الموسيقية العربية، التي لطالما كانت من الأسرار، كما اهتم في هذا الكتاب بتوثيق الأوزان الموسيقية العربية، مضيفًا مساحة واسعة، لتعليم أسلوب كتابة الموسيقى، و شرح علاماتها.

قرأت في مقدمة هذا الكتاب الذي نشره القلعة على موقعه ما كتبه سامي الشوا مدفوعا بغيرته على الفن:

«ان الموسيقى الشرقية غنية بانغامها التي لا تحصى وأوزانها العديدة وبضبط اصولها وقواعدها، ولكن لم يستعمل من انغامها بمصر منذ 120 او 130 سنة زيادة عن نغمتين او ثلاثا ثم صارت تزيد تدريجيا حتى بلغ المتداول الآن 20 او 30 نغمة فقط، والانغام المهملة كثيرة جدا، وهي لا تقل طربا وفنا عن الانغام المتداولة الآن، ولم ار احد يطرق لها بابا، ظنا بانها لم تكن شيئا بجانب الانغام المتداولة، وفي هذا الظن ما فيه من الخطأ. وغاية ما هناك بان الانغام المتداولة الآن الفتها آذاننا وصار التلحين والعزف منها سهلا، نظرا لتشابه تقليد أي ملحن لملحن آخر او عازف لعازف آخر، وكذلك كل ما في الانغام فهو في الاوزان، فلذلك دفعتني غيرتي على فني الذي كرست له حياتي، واخذته ميراثا عن اهلي واجدادي، فضلا عن رحلاتي العديدة في معظم بلاد الشرق والغرب للبحث والتنقيب، كل هذا دفعني لوضع هذا الكتاب محتويا على كلمة عن الموسيقى اليونانية والهندية والفارسية والافرنجية وتحليل السلم

الموسيقي الشرقي بأبعاده وتركيب الانغام المتداولة والمهملة مع شروطها وتحليلها.

وفي فصل متقدم من هذا الكتاب يعرض الشوا رأيه بالموسيقى: «الموسيقى في حقيقتها طريقة من انفع طرق التربية واقواها. على شريطة واحدة هي:احكام امرها، كما انها اذا اهملت وترك لأهلها العنان كانت من اشد البواعث على فساد النفس، وفي ذلك كل الضرر بافراد الامة ثم بمجموعها. لعل اشد ما اسقط النفوس عندنا وذهب بالفضائل القومية، وخنث الرجولة، وعفى على اكثر صفاتنا الحربية، واضعف النشئ ضعفا نفسيا يخشى منه ومن عواقبه على الامة نفسها، هو شيوع تلك الادوار السخيفة وهذه الطقاطيق التي يحسبونها مطربة وشجية: ولا يدرون انها على ذلك تمسخ الناس... ان اوجب الواجبات على قادة هذه الامة اصلاح الغناء والموسيقى قبل كل شيء، ولو نظرت الحكومة الى الواجب والاوجب، والى اللازم والالزم ثم وضعت الاشياء في مواضعها، اذن لحولت قلم المطبوعات من الرقابة على الصحف الى الرقابة على المسارح واماكن اللهو والغناء.

الاخطل الصغير بشارة الخوري كتب تحت عنوان «الى الصديق النابغة سامي الشوا»:

أجراح تسيل أم هي ارواح... على انمليك ذبن حنينا
أم شآبيب من جداول شتى... يتفجرن ضاحكا وحزينا
وتر يأخذ العيون فيجمدن... عليه كأن خلقن سكونا
هجرت وكرها القلوب لنقتات... غراما ونشوة وجنونا
فترفق اذا ضربت فما تضرب... الا مكامن الحس فينا

واما شاعر القطرين خليل بيك مطران فقد كتب القصيدة التالية عن امير الكمنجة:

أيتم انس أم يطيب ترنم... الا اذا كان المرجع سامي
تتدفق الاوتار تحت بنانه... كتدفق الانهار بالانغام
بين انسجام واختلاط مونق... وتوافق وتباين بنظام
يجري على اسلاكها ايقاعه... متحدرا من مصدر الالهام
نبراته لغة تناط حروفها... بالسمع يحملها الى الافهام
شتان في كشف السرائر بينها... طربا وبين مقاطر الاقلام
يشجيك منها ما يعيد رنينها... من شدو قمري وسجع حمام
وتحس تنسيم الصبا في روضة... وترى فطور الورد في الاكمام
فتحار في تلك الاداة ودفعها... ما ليس تفعل ريشة الرسام
يا مبدعا في فنه ومحليا... يقظاتنا بروائع الاحلام
في الشرق او في الغرب لا عجب اذا... الفيت ما تلقى من الاكرام
حق النبوغ وانه لشريعة... تستن في نتباين الاقوام
نعم الثواب على التمام وشدّ ما... يتجشم المجواد دون تمام
ما العبقرية سهلة للمجتنى... هي من ثمار السهد والآلام
فن قصرنا همنا فيه على... عتب وإعتاب وبث غرام
وعلى نحيب خافت لم يعد ما... يشكوه ذو دنف من الاسقام
حجب السرور فما تطالع شمسه... ارواحنا الا وراء غمام
وتكاد بارقة المنى لا تنجلي... لعيوننا الا وهن هوام
الشرق وهو مجال ارباب النهى... ومصال اهل الكبر والاقدام
ران الكرى دهرا على اجفانه... فالعيش مما رق شبه منام
واليوم نبهه الزمان بصرخة... دوت الى اقصى مدى مترام
أخلق بموسيقاه بعد سرارها... الا تبارى في علو مقام
هل بح صوت فخارنا وكلامه... في كل قوم فوق كل كلام
او حالنا في تالد او طارف... مجد له رجع على الايام

أو ما لهذا الغيل زأر منذر... للغارقين بيقظة الضرغام
زيدوا وسائلكم ليرقى فنكم... ويعز بالغرض البعيد السامي
في الطابع الشرقي متسع لما... يبغي من التنويع والإحكام

الجواهري: أني شآمي إذا نسب الهوى... وإذا نسبت لموطن فعراقي

استخرج الضيف من جيبه ليرة ذهبية لامعة وقال: يا محمد يا جواهري هذه الليرة ستكون من نصيبك ان حفظت 500 بيت من الشعر قبل ان تنام، ذهب الولد، مفتونا بالتحدي وبالليرة الذهبية اللامعة، فحفظ في ليلته تلك 500 بيت من عيون الشعر، فنال الليرة الذهبية ونام فرحا، وكبر ليصير شاعر العرب الاكبر.

قد يغدق كاتب المديح على الطفل وعلى الضيف، وقد يرى آخر ان تلك الليرة الذهبية جعلت من الجواهري شاعرا مداحا، مدح الكثير من الرؤساء، سيستعين الكاتبان الاول والثاني بما يُقدِران انه يخدم ما يذهبان اليه

من رأي في الرجل، ولكن الشاعر سيبقى في انتظار كاتب منصف وقارئ حصيف. او قارئ يمتلك ميزة الفصل بين الكاتب وانتاجه.

الحقيقة ان تلك الليرة والتي لم تكن سوى صدفة ترجمت نبوغ هذا الفتى، تحولت الى بيت ومزرعة بكامل معداتها عندما مدح الجواهري القائد البريطاني مونتغمري بطلب مباشر من نوري السعيد رئيس وزراء العراق المقرب جدا من بريطانيا، ولكنه كان قد مدح ستالين قبل ذلك كثيرا حتى سموه شاعر السوفييت، وانه توعد الجميع بثورة على الطغاة يوم استشهد شقيقه جعفر عام 1948 برصاص الشرطة العراقية التابعة للحكومية الموالية لبريطانيا:

أتعلمُ أم أنت لا تعلمُ... بأن جراحَ الضحايا فمُ
أتعلم أن رقاب الطغاة... أثقلها الغُنم والمأثم
أتعلم أن جراح الشهيد... تظل عن الثأر تستفهم
أتعلم أن جراح الشهيد... من الجوع تهضم ما تلهم
تمصّ دمًا ثم تبغي دمًا... وتبقى تلحّ وتستطعم
أخي جعفرًا لا أقول الخيالَ... وذو الثأر يقظانُ لا يحلم
ولكن بما أُلهم الصابرون... وقد يقرأ الغيبَ مستلهمُ
أرى أفقًا بنجيع الدماء... تنوّر، واختفت الأنجم

الحقيقة ان الجواهري مدح كثير من الرؤساء والملوك، وسعى في اواخر ايامه الى شطب بعض قصائد المديح، هل يحق للشاعر ان يشطب من دواوينه او اعماله الكاملة قصائد نشرها للجمهور؟ هل الشاعر ومنجزه الشعري ملك شخصي ام ملك للناس؟ اعتقد ان الناقد الفلسطيني الدكتور عادل الاسطة لاحظ قيام اكثر من شاعر بشطب بعض قصائدهم حين يجمعون اشعارهم، واعتبر انه لا يحق لهم ساعتها اطلاق اسم الاعمال الكاملة على ما جمعوه، وطبعا لا يحق لهم انكار عملية الشطب.

كيف يمكن الفصل بين الجواهري واشعاره؟! وكيف يمكن النظر الى بديع قصائده في المجالات الاخرى وتناسى قصائد المديح، هل يمكن معاملته كالمتنبي مثلا، فالمتنبي ايضا اغرق في المديح وابدع فيه وفي سواه؟!.

والحقيقة ايضا ان الجواهري دفع ضريبة عالية لاختلاف وامتناعه عن مدح آخرين مثل صدام حسين وقبله عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. سحبت جنسيته العراقية، ثم أعيدت ثم سحبت ثانية:

قبل أن تبكي النبوغ المضاعا... سبّ من جرّ هذه الأوضاعا
سبّ من شاء أن تموت وأمثالك... همّا وأن تروحوا ضياعا
سبّ من شاء أن تعيش فلولٌ... حيث أهل البلاد تقضي جياعا
خبروني بأن عيشة قومي... لا تساوي حذاءك اللماعا

اضطر الجواهري بعد هذا التعامل الرسمي العراقي معه الى قبول دعوة كريمة من الرئيس السوري حافظ الاسد للإقامة في دمشق مطلع الثمانينيات واهدى لدمشق اجمل القصائد، واهدى الاسد شخصيا ما لم يحصل عليه أي رئيس سوري آخر من أي شاعر، لقد اهداه قصيدة:

سلامًا أيها الأسدُ... سلمت وتسلم البلدُ
وتسلم أمة فخرت... بأنك فخر من تلد
لها من حافظ سند... ومنه الزند والعضد
يمينًا أنك الأسد... له عن غابة رصدُ
صمودًا أيها الأسد... رعاك الواحدُ الأحدُ

قصيدة اعتبرها الكاتب احمد برقاوي وهو باحث ومفكر فلسطيني عمل رئيسا لقسم الفلسفة في كلية الآداب، بجامعة دمشق، ونائبا لرئيس الاتحاد الفلسفي العربي، اعتبرها لغوا فارغا وسجعا خاويا من القيمة الجمالية والوجدانية، بل إن طفلا مبتدئا في كتابة الشعر لا تصدر عنه

مثل هذه الرداءة الشعرية وهذه المفردات المضحكة.

الشاعر الاردني ماهر الرمحي والذي بدأ بكتابة الشعر العمودي قبل عشرة اعوام فقط، عارض قصيدة الجواهري فقال:

ودَاعَـا أيـّـُهـا الأسَـــــدُ... بـَعـُـدْتَ , ولـَـسْـتَ تـُفْـتـَـقـَـدُ
سَـتـَـذكـُـرُ أمـَّة شـَـهـِـدَتْ... بـأنـَّـكَ شـَـــرّ مَـنْ تـَـلـِـــدُ
وتـَـنـْهـَضُ بَعـْدَمَـا قـَـشَـعَـتْ... ظـَلامـَا ظـَـلَّ يـَـنـْـعـَـقـِدُ
وتـَـكـْـتـُبُ فـي صَحـَائـِفـِها... زمَانـَـكَ أنـَّـهُ الـكـَـبـَـدُ
وأنـَّـكَ عِـشـْتَ تـَـسْـلـُبـُـهـَا... كـَرامـَـتـَهـَـا وتـَضْـطـَهـِـدُ
وأنـَّـكَ كـُـنـْتَ تـُـشـْـعـِـلـُـهـَـا... ضَلالًا دَامَ يـَـتـَـــقـِـــدُ
وأسَّـــــسَ حـِـزبـَـــهُ زُمـَرا... فـُـروعـــا فـِعـْـلـُهَـا الـزَّبـَـدُ
لـِيـَجْـعَـــلَ مِـــنْ مـَـعاقـِلـِها... قـُلـوبَ الـنـَّاس تـَـرتـَـعـِـدُ
تـُـراقـِـبُ كـُلَّ مـَـنْ رفـَـضُوا... نـِـظـاما عـَيـْـشُـــهُ نـَـكـِـدُ
مـِـنَ الـجُـــهَّـال مـُـتـَّـخـِذا... عـُيـونا شـُـغـْـلـُـهـا الـــرَّصَـدُ
ووَرَّثَ حـِـــزبـــُه غـِـــرًّا... و فـَـاقَ الـــوالـِـــدَ الـــوَلـَـــدُ

اعتقد ان لغة الشاعر تكشف مقدار صدقه وعمق ايمانه بما يقول، واعتقد ان صدق الشاعر هو صدق الشعور في لحظة القصيدة، وليس بمستغرب ان يتغير هذا الشعور خاصة ازاء الاشخاص، هناك تقلبات اخطر تطال المبادئ والمواقف والقيم، الشاعر اللبناني سعيد عقل وبعد كل ما كتبه بلغة عربية فصيحة ورصينة في حب الاقطار العربية انتهى الى العنصرية المفرطة والعدائية والسعي الى تكريس اللهجة اللبنانية كلغة بحروف لاتينية!!.

يقول الاديب محمد حسين الاعرجي ان صديقه الجواهري كتب وصيته مبكرا فجعل ملكية داره لزوجته امون، وجعل ريع اعماله وكتبه وطبعاتها ومراسلاته لابنه فرات، كتب وصيته رغم انه كان يكره الموت

ويكره التفكير فيه:

لغز الحياة وحيرة الألباب أن... يستحيل الفكر محض تراب
إن يصبح القلب الذكي مفازة... جرداء حتى من خفق تراب
إنا ابغض الموت اللئيم وطيفه... بغضي طيوف مخاتل نصاب
ذئب ترصدني وفوق نيوبه... دم إخوتي وأقاربي وصحابي

وفعلا لقد اعمل ذئب الموت انيابه في شقيقه جعفر وزوجته الاولى مناهل جعفر «ام فرات» ثم شقيقتها امونة وهي زوجته الثانية ثم ابنه فرات

حُيِيَّتِ «أُمَّ فُراتٍ «إنَّ والدة... بمثلِ ما انجبَتْ تُكنى بما تَلِد
تحيَّةً لم أجِدْ من بثِّ لاعِجِها... بُدًّا، وإنْ قامَ سدًّا بيننا اللَحد
بالرُوح رُدِّي عليها إنّها صِلةٌ... بينَ المحِبينَ ماذا ينفعُ الجَسد
خَلعتُ ثوبَ اصطِبارٍ كانَ يَستُرُني... وبانَ كِذبُ ادِعائي أنَّني جَلِد
بكَيتُ حتَّى بكا من ليسَ يعرِفُني... ونُحتُ حتَّى حكاني طائرٌ غَرِد
ناجيتُ قَبرَكِ استوحي غياهِبَهُ... عن حالِ ضيفٍ عليهُ مُعجَلا يفد

تزوج اختها امونة لأنه لم يرد لغريبة ان تربي اولاده وبناته فترصدها ذئب الموت ايضا خلال منفاه الدمشقي:

ها نحنُ أمّونةٌ ننأى ونفترقُ... والليلُ يمكثُ والتسهيدُ والحرقُ
والصبحُ يمكثُ لا وجهٌ يُصَبّحُني... به، ولا بسماتٌ منكِ تنطلقُ
ما أروحَ الموتَ، بل ما كان أبغَضَه... لديّ إذ أنتِ مني الروح والرمقُ..
يا حلوةَ المجتلى والنفسُ ضائعةٌ... والأمرُ مختلطٌ والجو مختنقُ
ويا ضحوكةَ ثغرٍ والدنى عبسٌ... ويا صفيةَ طبعٍ والمنى رنـقُ..
منّي عليكِ سلامٌ لا يقومُ به... سنّ اليراعِ ولا يقوى به الورقُ
كأن نفسي إذ تخشين وحشتها... إنسانُ عينٍ بمرأى أختها غَرقُ
يا رحمة اللهِ غادِ المؤمنين به... وخلّ أمونةً صنوًا لمن سبقوا

دفن كل هؤلاء ورثاهم وظل ذئب الموت يترصده على ابواب المئة عام، دفن

تبعا لوصيته في دمشق، قرب قبر زوجته امونة، اقيم على قبره مقام من الرخام بقبة خضراء ورسمت خريطة العراق يعبره دجلة والفرات على احد جوانبه:

حـييتُ سـفحكِ عن بعدٍ فحَييني... يـادجلة الـخير، يـا أمَّ البساتين
حـييتُ سـفحَك ظمآنًا ألوذ به... لـوذ الـحمائِم بـين الـماءِ والطين
إنـي وردتُ عُيون الـماءِ صافية... نَـبعًا فـنبعًا فـما كـانت لتَرْويني

وكتب بجانبها من قصيدة اخرى:

يا شام يا لمح الكواكب في دجى... يا موكب الأعراس في الصحراء
يا موئل الذكرى يغطي أرضها... وسماءها حشد من الأصداء
من ناذرين نفوسهم لم يعرفوا... فيهن غير فريضة وأداء
بشراة موت يزحفون إلى الوغى... زحف الحبيب لموعد ولقاء
وبراقد في ميسلون وطيفه... متنقل ينهى عن الإغفاء

وجاء على احد جنبات القبر:

أني شآمي إذا نسب الهوى... وإذا نسبت لموطن فعراقي
ويذيع منك البرق كامن لوعتي... فيدي على قلبي من الاشفاق

رقت طباع بنيك فهي إذا انبرت... سالت كصفو نميرك الرقراق
كم في الجوانح لي إليهم زفرة... كمنت ليوم تزاور وتلاقي
ورسائل برقية مهزوزة... اسلاكها من قلبي الخفاق
أما الهوى فدليله شرقي متى... ذكروا رباك بدمعي المهراق
أرقت أجفاني فلو راودتها... غمضًا لما طاوعن في الاطباق

قالوا: دمشق، فقلت: غاية... الربى قالوا: لذاك تطاول الاعناق

في الصورة مرقد الجواهري في مقبرة الغرباء خلف مقام السيدة زينب بدمشق، أي حزن واية كآبة يطويها مكان يحمل اسمه مفردتي مقبرة وغرباء!!

شعر في كل العواصم ولم يذهب الغزاة، ولم يترجل الطغاة

التاريخ يظل يكرر نفسه عند الذين لا يتغيرون. ورغم الفروق المريرة والكثيرة فإن ما يجري من تراشق وتلاسن بين مشجعي الدوحة ومشجعي ابو ظبي يثير الضحك، ويذكر بالمتشابه كثيرا، والمضحك المبكي كثيرا الذي كان بين بغداد ودمشق، وهو تشابه اجتهدت العاصمتان غاية الاجتهاد في تحويله الى تنافر وتنافس على نحو محير.

العراق وسوريا مواطن للحضارات الاولى، وتاريخيا دمشق وبغداد عاصمتا الخلافتين الاموية فالعباسية، العاصمتان البعثيتان المناديتان بالوحدة ظلتا تتفننان في مهاجمة بعضهما البعض، سياسيا وحزبيا

واستخباراتيا وامنيا وثقافيا ايضا.

مؤسس حزب البعث السوري ميشيل عفلق حكم بالإعدام في دمشق بعد احد الانقلابات البعثية على البعثيين، ففر الى بغداد التي اكرمت وفادته ولكنها وضعته على الرف، الى ان حمل صدام حسين نعشه ودفنه في قبر مزخرف تحت قبة زرقاء في حديقة مقر القيادة القومية للحزب ببغداد.

واكرمت دمشق وفادة العديد من الشعراء المعارضين لحكم البعث العراقي وغالبيتهم من الشيوعيين، رغم ان المعارض السوري كان يعاني الامرين خاصة ان كان شيوعيا، ودفنت دمشق بعضا من شعراء العراق على اراضيها، فيما كان العراق يستقبل الناجين من مجزرة حماة، ويفتح لهم معسكرات التدريب، رغم ان غالبيتهم من جماعة الاخوان المسلمين التي لا يسمح للعراقي الانتساب اليها ولا الى غيرها.

كان على بغداد ان ترتكب مجزرة شبيهة بمجزرة حماة لكي يظل التشابه قائما، لم يطل الانتظار جاءت مذبحة حلبجة.

اذا انشأت سوريا فصيلا فلسطينيا كانت بغداد ترد عليه بإنشاء فصيل يتبع لها، واذا استعانت بغداد برجل امن مأجور كانت دمشق تبحث عن نظير له تستعين به، واذا دعمت سوريا فصيلا لبنانيا تدخل العراق لدعم فصيل آخر.

واذا ما زاد عدد الصحف العربية المؤيدة لسوريا، واشترت دمشق بعض الكتاب برواتب خليجية، انشأ العراق صحفا جديدة، واشترى ذمم عدد من الكتاب بكوبونات النفط.

عندما اشتهر معرض دمشق الدولي وصارت العديد من الدول تشارك فيه، والكثير من العرب يزوروه، اقامت بغداد معرضها الدولي وعلى مساحة اوسع، التنافس انتقل من البضائع الى الكتب وصار لكل دولة معرضها للكتاب، وصار ايضا لكل دولة مهرجانها الشعري والذي قد

يعقد في ذات التاريخ، ومن دون ان يؤثر على جدول اعمال الشعراء، فمعظمهم إما هنا او هناك، ومن يركب في الباص المتجه الى بغداد سينال تقريع زملائه المتوجهين الى دمشق.

حصل امر مشابه مع محمود درويش في الثمانينيات. فرد عليه برسالة موجهة الى جورج حبش ومن خلاله الى كتاب عراقيين يعسكرون في دمشق ويكتبون في الهدف لسان حال الجبهة الشعبية.

نشرت هذه الرسالة على غلاف مجلة اليوم السابع، كانت مجلة سياسية ثقافية تتبع لمنظمة التحرير وكانت متنفسا للكتاب والمثقفين غير التابعين للحكومات.

كان محمود درويش قد انتبه للأمر منذ بداياته فكتب في الاهرام بداية السبعينيات سلسلة مقالات حوله. فتحت عنوان «لا أعرف دمشق... ولكنني أعرف الطريق إلى دمشق...» كتب ما يلي:

ومن الواضح أنّ الأدباء والشعراء العرب المسافرين إلى دمشق لن يقفوا طويلًا على الحدود السورية، لأنهم سيُستقبلون استقبالًا رسميًا، ثم يمضون إلى قاعة المؤتمر الكبير. يستمعون إلى تقارير، يوافقون على القرارات والتوصيات التقليدية التي تؤكد وحدة الأمة العربية وانتصارها الأكيد على الاستعمار والصهيونية وأنصار التجزئة. فهل من أجل هذه النتيجة المعروفة تُقام كل هذه الضجة، وتنفق كل هذه الأموال؟

في عالمنا العربي. ثمة فارق هائل بين الانتماء والولاء للوطن وبين الانتماء والولاء لبعض الذين يدّعون الحماية الإلهية عليه. وثمة فارق بين الوطن على الطبيعة، والوطن في الملفات الرسمية وفي جيوب الموظفين. ثم... كيف تكون حليفًا للحرية في شرق آسيا من جهة، وبوقًا لسحق الحرّية في بيتك؟ لن نظلم الأديب، ولن ندّعي أنه المسئول الوحيد عن مثل هذه التناقضات والمفارقات.

واضاف معلقا على تزامن انعقاد المهرجانين في بغداد ودمشق:
وفي الوقت الذي يُعقد مؤتمر الأدباء العرب في دمشق، يُعقد مؤتمر أدب آخر في العراق. لماذا؟
مرة أخرى نتساءل: متى يُتاح للأدب أن يمارس استقلاله النسبي خارج اللعبة السياسية المفتعلة؟ لا يمكن النظر إلى ازدواجية عقد المؤتمرين، في وقت واحد وفي عاصمتين عربيتين، ببراءة وطيب قلب. هنا، يجب الاتهام، حتى يكفّ بعض المسؤولين عن معاملة الأدباء كما تُعامَل الراقصات. إنّ عقد مؤتمرين في وقت واحد، لا يشبه إقامة عرسين في يوم واحد. وإذا كنّا عاجزين عن تنسيق مؤتمر أدبي، فكيف نحلم بتنسيق عسكري أو سياسي؟ تحية إلى الأدباء العرب المجتمعين في دمشق... وتحية إلى الأدباء المجتمعين في العراق... وعفوًا
وفي مقال آخر تحت عنوان «نحن نستمع ولا نقرأ» تعقيبا على مهرجان البصرة في نيسان من عام 1972، كتب:
أن الانتهازية الفنية ابنة شرعية للانتهازية السياسية، حين يقوم الشعراء برصد درجة غليان دم الناس وميولهم السياسية أو الطائفية فيُخضعون قصائدهم لهذا الاعتبار. إن تغيير عناوين القصائد وأسماء الشهداء الذين تخاطبهم هذه القصائد، من قاعة إلى قاعة ومن عاصمة إلى عاصمة، وفقًا لمدى انتماء الجمهور هنا أو هناك إلى عقائد هؤلاء الشهداء، هو تعبير بدائي وبذيء عن الانتهازية الفنية وعن الانتهازية السياسية.
وكتب ايضا في ذات العام تحت عنوان «عزف منفرد فوق القانون:
»ينهمر الشعر على العرب في كل الفصول، غدًا يفرغ القطار المسافر من بغداد إلى البصرة حمولته الثقيلة من االشعراء المدججين بالقصائد والحناجر المصقولة. وطيلة هذا الشهر، كانت بيروت تبدأ سهراتها باكرًا ثم تنام على أصوات الشعراء وتصحو على صورهم في الصحف اليومية

وقبل ذلك تعبت أكف الدمشقيين من التصفيق للشعراء. شعر في كل العواصم ولم يذهب الغزاة، ولم يترجل الطغاة، وماذا بعد،

الله يرحمك يا محمود درويش، التاريخ يكرر نفسه، لا شيء تغير، فقط تعتق الغباء وصار تراثا، وجاء ترامب لينشأ مدرسة سياسية جديدة في الحكم، مدرسة جعلت الواقعية تقف عارية بكل وقاحة دون ادنى خجل، وجعلت المصالح صريحة علنية دون أي برستيج او غطاء اخلاقي او تمويه، مدرسة جعلت من الصحافة والاعلام بحرا من الشكوك وعدم اليقين وهمّا زائدا يمكن الاستغناء عنه.

تغييرات اتت على ما تبقى من هيبة مصطنعة للحاكم العربي، ودفعت المثقف العربي الى الحافة، وصار عليه إما التخلي عن قشرة المبادئ التي يستر بها عورته، ليظهر على حقيقته النفعية، او التخلى عن منصاته ومستحقاته وصوره وجوائزه ورحلاته واستضافاته واصطفافاته، ليقضي ما تبقي من عمره قابضا على الجمر.

كثيرون سحبوا مشاركاتهم وترشيحاتهم لأنشطة وجوائز ترعاها الامارات كرد على تطبيعها العلني، هذا جيد، ولا علاقة لنا بمبعث النوايا سواء كان المبدأ ام الخجل. ولكن ماذا بعد؟ أشك غاية الشك في امكانية ان يستطيع المثقف العيش او الوصول الى الجمهور دون هذه الوسائل التي يمتلكها السياسيون..

في منتصف ثمانينيات وطوال تسعينيات القرن الماضي نشط المال العراقي والخليجي في تجنيد الكتاب للنشر وبأجور مجزية في مجلات افتتحوها في لندن وباريس، لعل بعضكم يتذكر الآن مجلات الدستور والحوادث والوطن العربي والمحرر وكل العرب والطليعة والكفاح والديار والاسبوع العربي، ويذكر التنقلات بين المحررين ورؤساء التحرير، والانقلابات في الملكية وفي السياسات التحريرية، كان الشأن الفلسطيني عند هؤلاء

جميعا يستخدم لغرض مهاجمة الخصم العربي لا لبناء حالة نضالية تضامنية بين العرب، ولاحقا صار همها جميعا تعهير منظمة التحرير حتى قبل ان تدخل مسار اوسلو.

واليوم تقوم بهذه المهمة جولات وصولات الردح على الفضائيات العربية، وما يتلوها من قيام نجوم الفضائيات بحملات مدفوعة الاجر للتغريد الارعن عبر تويتر وفيسبوك، جولات سطحية وبذيئة تجعل من هؤلاء القردة مشاهير واغنياء، ورموزا بديلة للمثقف الحقيقي، وماذا بعد؟ عواصم تحترق واخرى تنظر وتنتظر. يبقى سؤال درويش قائما: متى سيتمكن المثقف من تحقيق استقلاله النسبي عن مؤسسات السلطة وعن ارهاب المعارضة؟ وربما يجب ان يتلوه سؤال آخر هو: متى سينهى المثقف قطيعته او استقلاله عن الناس وينزل من المنصات والشاشات صغيرها وكبيرها ليجلس معهم في الشارع؟

اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض

»حصول النظرة الفلسفية الجديدة إلى الحياة والكون والفن يفتح آفاقًا جديدة للفكر ومناحي جديدة للشعور،.. وهنا نقطة الابتداء لطلب أشكال سياسية جديدة ولفتح تاريخ أدب وفن جديدين».

ستحظى هذه الكلمات عن علاقة الفلسفة بالأدب والفن والسياسة بتقدير اكبر حين نعرف انها قيلت في مطلع اربعينيات القرن الماضي، وان قائلها لم يكن اديبا وروائيا ومجددا في الشعر العربي وناقدا فقط وانما سياسي وزعيم من نمط فريد، واستاذ جامعي وباحث في علم الاجتماع والاديان، وصاحب نظرية شمولية ظل يسعى لتحقيقها، ودفع حياته ثمنا لها بكل شجاعة.

انه انطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، المولود في لبنان عام 1904، والذي ترك وراءه في الولايات المتحدة والبرازيل والارجنتين حياة واعدة ليبدأ وهو شاب دون العشرين في مقاومة الانتداب الفرنسي على بلده لبنان وجارتها سوريا، وفضح الصهيونية ومناهضة وعد بلفور واتفاقية سايكس بيكو، اعتقلته سلطات الانتداب الفرنسي، وطاردته في البرازيل، ولكنه ظل وفيا لأفكاره واحلامه، فانشأ جريدة الجريدة ومجلة المجلة وظل يشكل الاحزاب لتأطير المغتربين السوريين في المهاجر.

عمل في التدريس الجامعي في سوريا ولبنان ليلتقي بالطلبة ويضمهم الى حزبه السري الجديد «الحزب السوري القومي الاجتماعي» والذي ينادي بوحدة سوريا الكبرى ويطرح افكارا جديدة عن شروط تكون الامة، ويسعى لمنع مخطط فرنسا لفصل لبنان عن سوريا، اعتقلته سلطات الانتداب اول مرة فانجز كتاب نشوء الامم، واعتقلته مرة ثانية فالف كتابا عن مبادئ وغايات حزبه، واعتقلته مرة ثالثة فكتب مرافعات وردود على مبادئ الاحزاب الانعزالية. كما الف خلال فترة اعتقاله نشيد الحزب:

سوريا لك السلام... سوريا أنت الهدى
سوريا لك السلام... سوريا نحن الفدى
نحن قوم لا نلين... للبغاة الطامعين
أرضنا فيها معين... للرجال الناهضين
كل ما فيها جميل... كل من فيها كريم
جوها صاف عليل... شعبها حي عظيم
يا جبالا قد تعالت... وتجلت كحصون
يا نفوسًا قد تسامت... فوق آماد المنون

نهضة هزت قرونًا... وجلت عنا الخمول
أمة نحن يقينا... وحياة لن تزول

قام بتلحين هذا النشيد المغني والملحن اللبناني الشهير زكي ناصيف، والذي كان معتقلا ايضا بتهمة الانتماء للحزب.

صار حزبه شهيرا ومنتشرا رغم ظروف العمل السري، وظل يكبر رغم ان الفرنسيين حظروا نشاطه، مما اضطر سعادة الى السفر في جولة عربية واوروبية للترويج لحزبه وافكاره، وبناء على طلب فرنسي اعتقلته البرازيل مدة شهر، ليلجأ بعدها الى الارجنتين حيث اصدر جريدة الزوبعة، ويظل فيها الى ان حين انسحاب فرنسا.

ظل الرئيس اللبناني بشارة الخوري ومعه رئيس الوزراء رياض الصلح يعرقلان عودته الى لبنان بحجة ان عليه احكام قضائية من ايام الانتداب، ولكنه عاد واطلق برنامجا لمواجهة شاملة خلال النكبة، فما كان من السلطات اللبنانية الا ان ضيقت عليه شخصيا ومنعت انشطة حزبه مما ادى الى وقوع اشتباكات بين انصاره والسلطة اللبنانية، التي إتهمته بمحاولة الانقلاب والتخطيط لتنفيذ اغتيالات، فلجأ الى سوريا حيث تعهد الرئيس حسني الزعيم (القادم من انقلاب) بحمايته، ولكن هذا الرئيس عقد صفقة مع لبنان بعد شهر واحد فقط وسلمها انطون سعادة فحاكمته مساءا واعدمته فجرا.

«يا خجل هذه الليلة من التاريخ»... هكذا قال للكاهن بينما كان الجنود يربطونه الى خشبة الاعدام رميا بالرصاص.

كان عمره يوم اعدامه 45 عاما فقط قضى ثلثيها تقريبا وهو يقرأ التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع ويكتب المقالات ويؤلف الكتب وينشأ الجمعيات والاحزاب ويشارك في المؤتمرات والندوات لطرح افكاره السياسية والادبية والفنية والاجتماعية.

كان شجاعا بل في غاية الشجاعة يوم اعدامه، فقال بينما هم يعصبون عينيه امام فرقة الاعدام:

»أنا لا يهمني كيف أموت، بل من أجل ماذا أموت.. لا أعدّ السنين التي عشتها، بل الأعمال التي نفّذتها.. هذه الليلة سيعدمونني، أما أبناء عقيدتي فسينتصرون«

وكان شجاعا وواضحا جدا في طرح افكاره القومية ليقول:

«أن الوجدان القومي هو أعظم ظاهرة اجتماعية في عصرنا وهي الظاهرة التي يصطبغ بها هذا العصر على هذه الدرجة العالية من التمدن«

وكان واضحا في رفض الاقطاع وصريحا في موقفه العلماني ورفضه للطائفية:

ان مبادئ حزبنا تقوم على اساس فصل الدين عن الدولة، و منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين، و إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.

وكان عميقا ومباشرا في طرح افكاره السياسية، ليقول:

«لعلكم ستسمعون من سيقول لكم إنّ في إنقاذ فلسطين حيفًا على لبنان واللبنانيين، وأمرًا لا دخل للبنانيين فيه. إنّ إنقاذ فلسطين هو أمر لبناني في الصميم، كما هو أمر شامي في الصميم، كما هو أمر فلسطيني في الصميم. إنّ الخطر اليهودي على فلسطين هو خطر على سورية كلها، هو خطر على جميع هذه الكيانات».

وكان صريحا وواضحا في رؤيته الاجتماعية:

»اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض، إن قضايا السماء تحل في السماء. إنها قضايا بين الفرد والله لا بين جماعة وجماعة، فلا فائدة من اقتتال جماعة و جماعة لأجل السماء ما دام الله هو الديان الذي يقضي يوم الحشر وما دام الناس قد أسلموا لله. لا يمكننا أن نربح الأرض و نحن

نقتتل على السماء».

وكان عميقا في الربط بين السياسة والادب:

»كان موضوع الأدب يلوح أمام ناظري، ويطل من وراء المشاكل الإدارية والنفسية والسياسية التي تعرض أمامي. ولم أكن أجهل علاقة الأدب بهذه المشاكل، وإمكانيات تذليلها بإنشاء أدب جديد، حي».

وكان مؤدبا في محاججة خصومه من الادباء:

»أن مجموع آراء هؤلاء لا يحصل منها غير اضطراب في الفكر، وتشتت في الشعور يحرمانك إدراك حقيقة الأدب عموما، والشعر خصوصا، ورسالة الفن»... «أنكم تحاولون فهم عصركم من خلال الأدب وبالاقتباس من أدب شكسبير وغوته، وليس من درس وضعيّة بلدانكم، أن القضية المهمة هي أحوال الشعب والبلدان، وليس أحوال الأدب».

بعد تقييد سعادة بخشبة الإعدام، في الرابعة صباحًا، استقرت 11 رصاصة في صدر الزعيم أنطون سعادة، قطعت أولها أخر جملة نطقها «لتحيا سوريا».

هناك كثير مما يُحسب لانطون سعادة وحزبه، وهناك ما يؤخذ عليه وعلى حزبه، ولكن هناك بهتان وتضليل ومحاولة لتغييبه.

تجري الرياحُ كما تجري سفينتنا... نحن الشراعَ ونحن الريحُ والقدَرُ

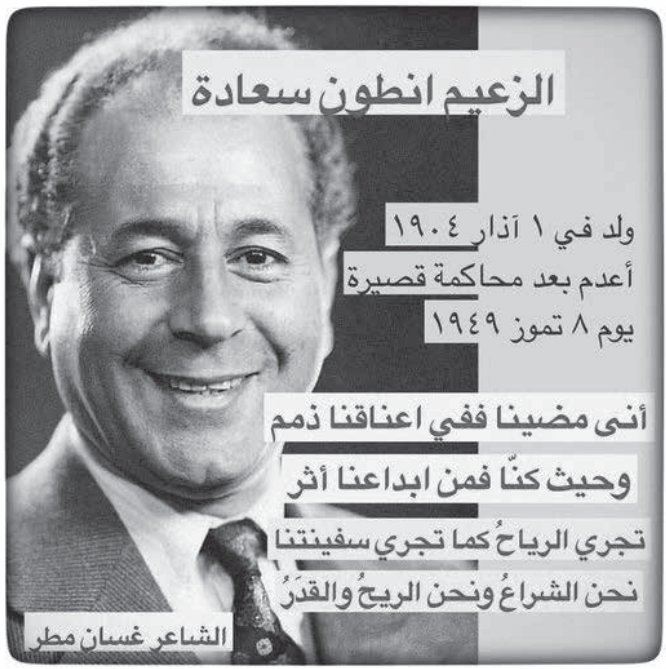

الى جانب شجاعته وتضحياته ووضوح وشمول فكره كان الزعيم انطون سعادة قادرا على ادارة حزبه، الحزب السوري القومي الاجتماعي، سياسيا وجماهيريا وعسكريا بطريقة فذة مكنت حزبه من الاستمرار الى يومنا هذا، وكان قادرا على ضم نخبة النخبة الى حزبه تماما كما يضم الشباب من الجنسين على قاعدة المساواة، فبرز من بين اعضاء حزبه رؤساء مثل اديب الشيشكلي، وفنانون مثل دريد لحام، وشعراء مثل سعيد عقل ومحمد الماغوط وادونيس ومفكرون. وفدائيون ابدعوا في تنفيذ العمليات ضمن المقاومة المشتركة للاحتلال الاسرائيلي. ربما

تتذكرون سعيد العاص ومن بعده سناء محيدلي مثلا، ورفيقاتها ورفاقها.

ربما يؤخذ على سعادة وحزبه نزعته العسكرية، وتخطيطه لانقلابات، غير ان هذا المأخذ قد لا يكون وجيها تماما اذا ما قورن في زمن التفكير بتلك المخططات، لقد كانت اوطاننا ايامها مسرحا للانقلابات والانقلابات المضادة، وكانت النزعة العسكرية هي الاساس. واما ما يؤخذ على الحزب اليوم من وقوف الى جانب النظام السوري في وجه الثورة فانه يؤخذ ايضا على احزاب اخرى كحزب الله مثلا. واجمالا فان سوء النظام ومشايعيه لا يعني بالضرورة التسليم بصلاح معارضيه وصواب اساليبهم.

اما يفترى على انطون وحزبه فهو كثير، ومنه انه تأثر بالنازية ونزعتها القومية، والحقيقة ان كثيرين تحالفوا مع هتلر، ولم توجه اليهم اية اتهامات، وان النزعة القومية التي ظهرت عند انطون لم تكن مصحوبة بدعاوى التفوق العرقي. يقولون ان شعار منظمته «نسور الزوبعة» رباعي الاطراف يذكر بصليب هتلر المعقوف، وطبعا لا يوجد أي شبه لا من قريب ولا بعيد فاطراف الشعار ترمز الى الحرية والقوة والواجب والنظام. وقد جاءت على شكل يوحي باستمرارية الحركة والدوران.

ويقولون ان انطون سعادة كان ماسونيا، ولكنهم يتجاهلون حقيقة انه الوحيد تقريبا الذي نشر علنا رسالة انسحابه من الماسونية لأنها لم تكن تهتم بتحرير واستقلال الارض العربية وجاء في هذه الرسالة: «إن الاشتغال في القضية الوطنية هي ما عجل في انضمامي إلى محفل نجمة سوريا وهو ما عجل في انضمام كثيرين غيري ولكن المنطق الذي استعمل في هذا المحفل وهو التباعد عن السياسة قد قضى على أكبر آمالنا».

ما كان يسعى اليه انطون سعادة عبر سوريا كبرى تضم العراق والكويت والأحواز وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن، ربما كان طموحا سابقا،

ولكنه فكرة وجدت تطبيقا لها في الاتحاد الاوروبي، وفي مجلس التعاون الخليجي وفي محاولات انشاء مجلس التعاون العربي الرباعي، واتحاد دول المغرب العربي.

انتقم اعضاء حزبه في الاردن لإعدامه باغتيال رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح عام 1951 اثناء توجهه الى مطار ماركا في ضواحي العاصمة عمان.

ما زال اعضاء حزبه يحتفلون بتواريخ ميلاده واعدامه وانطلاق حزبه، وما زال الشعراء يكيلون المديح له ولأفكاره ومنهم الابن المخلص للحزب الرفيق الشاعر غسان مطر:

وتُهتُ في سُفنٍ قد غابَ شاطئُها... وقد نأتْ عن مدى مجذافها الجُزرُ
ربّانُها الريح تُدميها وتُبعدها... يشدّها القعرُ يُضني وجهها السفرُ
وكِدتُ أدفنُ خلف الريح أشرعتي... وكادَ مجذافيَ المحموم ينكسرُ
بانت على البعد أطيافٌ محملةٌ... بالنور، يبسمُ فيها الدرب والقمرُ
وصوتُ تمّوز ضوءٌ في محاجرها... وعمرُ تموز فيها الوحيُ والعِبَرُ
فعدتُ أمسكُ مجذافي أوجهه... نحو القناديل لا ينتابهُ خوَرُ
هناك قافلةُ الأحياء صامدةٌ... حروفُها بدم الأحرار تختمرُ
يقولُ أحرارها للدهر منبُتنا... هذي القلاعُ التي أيامها غررُ
أنّى مضينا ففي أعناقنا ذممٌ... وحيثُ كنا فمن إبداعنا أثرُ
تجري الرياحُ كما تجري سفينتنا... نحن الشراعُ ونحن الريحُ والقدَرُ

في عام 2015 وضمن برنامجه الجميل «بيت القصيد» سأل الشاعر زاهي وهبي الشاعر غسان مطر:

بعد كل هذه الاحداث هل اصبحت اقرب الى فكر انطون سعادة، ام اصبحت بعيدا عنه؟

اجاب مطر:

انا في صلب هذا الفكر وانا ابن هذه المدرسة لذلك لا يمكن القول انني صرت اقرب، ولكن قناعاتي تعززت، عندما ترى ان داعش اصبحت الدولة الاسلامية في العراق وسوريا، وعندما ترى ان كل هذه المشاريع الاجنبية والصهيونية تركز على هذا المشرق العربي، فهذا يجعلك اقرب الى فكر انطون سعادة، تاريخيا وتراثيا واجتماعيا وثقافيا هذه بلاد واحدة، صحيح ان لمصر دورها الرائد وللخليج اهميته النفطية والمالية وللمغرب العربي اشراقاته، ولكن اذا انتصرت بلاد الشام على الموت ستكون وسيلة تلاحم وتلاقي العالم العربي.

سعادة يطرد سعيد

في العلاقة الشائكة بين الزعيم انطون سعادة والشاعر سعيد عقل قصص توضح بجلاء حقيقة افكار ومواقف الرجلين من قضايا الشعر والسياسة والقومية. كيف اتفق الرجلان ولماذا اختلفا؟ من منهما كتب النشيد الرسمي للحزب؟، وهل امر الزعيم بطرد عقل من صفوف الحزب؟ وكيف اثر الزعيم في الشعراء وانشأ مدرسة شعرية رغم انه لم يكن شاعرا.

انتمى الشاعر سعيد عقل للحزب السوري القومي الاجتماعي منذ البداية وكان متحمسا جدا، طلب منه انطون كتابة نشيد للحزب، فوافق مسرورا وكتب هذه المقاطع:

صخبُ البحر أم الموجُ السخيّ
أم بلاد تملأ الدنيا دويّ
سوريا - يقظةٌ ملء المدى
بسمةٌ ملء الربيع
سوريا فوق الجميع

رفض انطون هذه النشيد لاحتوائه عبارة «سوريا فوق الجميع»، لقد رأى فيها طابعا عرقيا يستدعي الى الذهن عبارة هتلر الشهيرة يومها «ألمانيا فوق الجميع»، عكف الزعيم خلال سجنه على كتابة نشيد الحزب رغم انه لم يكن شاعرا، واسعده الحظ لان الملحن زكي ناصيف كان مسجونا معه ايضا بتهمة الانتماء للحزب فتفرغ لتلحين النشيد.

سوريا لك السلام... سوريا أنت الهدى
سوريا لك السلام... سوريا نحن الفدى

كان ذلك اول خلاف بين الرجلين، اما الثاني فقد وقع عندما كتب سعيد عقل مسرحيته الشهيرة بنت يفتاح، والمستمدة من اسطورة يهودية ملخصها ان يفتاح ملك جلعاد كان ابن عاهرة مجنونة يخجل منها، وكانت له ابنة وحيدة اسمها راحيل من زوجته المتوفاة، وظل يخفي عنها خبر جدتها، وذات يوم حارب يفتاح العمونيين وانتصر عليهم، فنذر بان يقتل اول من يخرج من باب بيته، ولم يكن يعلم ان ابنته راحيل ستكون هي اول الخارجين.

ثار الزعيم وخاطب سعيد عقل مستنكرا فعلته: ألم تجد في تراثنا ما تكتب عنه لتلجأ الى التوراة والتلمود!

كان انطون سعادة قد دعا الى استخدام اساطير بلاد الشام في الادب مثل اسطورة تموز آلهة الخصوبة، وادونيس آلهة الحب والنماء، وهي الدعوة التي لاقت صدى عند كثيرين جدا من شعراء وادباء عصره، حتى

اصبحت هذه الدعوة مدرسة تدعى مدرسة الشعر التموزي.
يعتبر الشعراء خليل حاوي ويوسف الخال وأدونيس وجبرا إبراهيم جبرا وبدر شاكر السياب من الشعراء التموزيين الذين التزموا بالإفادة من التراث الرمزي لشعوب الهلال الخصيب.
والشعراء التموزيون، في رأي جبرا، هم أولئك الذين يستخدمون أسطورة تموز، أو إحدى تجلياتها في كتابة أشعارهم. وقد كان هو نفسه معجبًا بغنى هذه الأسطورة وخصبها.
ينسب البعض مدرسة الشعر التموزي لجبرا، والحقيقة انه هو من اطلق عليها الاسم الذي اصبح مصطلحا دارجا، واما بواكير الدعوة لاستخدام الاسطورة – وتموز بالذات- والافادة منها في الشعر فقد صدرت عن سعادة، وليس عن غيره، وقد وردت في كتابه الصراع الفكري في الادب السوري والصادر في بداية اربعينيات القرن الماضي، ويكفي ان نتذكر ان انطون قد سبق جبرا بعشرين عاما في الولادة وبعدد اكبر من ذلك في مجال الكتابة. صدر الكتاب الاول لجبرا وهو صراخ في ليل طويل بعيد او قبيل إعدام سعادة عام 1949، وليس قبل ذلك.
ردا على الانتقاد اللاذع لمسرحيته بنت يفتاح كتب سعيد عقل مسرحية قدموس المستلهمة من اسطورة فينيقة ملخصها: ان قدموس (القادم من الشرق) سافر من صيدون الى بلاد الاغريق لتخليص اخته اوروب التي خطفها محبوبها زيوس، كانت اوروب تريد الحفاظ على حبيبها من دون ان تخسر شقيقها، وكان هو يريد استرداد كرامته وكرامة بلده من دون ان يخسر شقيقته، انتهى الصراع بين الواجب الذي يجسده قدموس والحب الذي تمثله شقيقته اوروب، بانتصار الواجب على الحب.
رأى سعادة ان عقل في مسرحيته الجديدة حاول أن يصبغ الحقائق التاريخية والأساطير التقليدية بصبغة محلية ضيقة، فأساء إلى الأساطير

وإلى الواقع التاريخي، فأمر بفصله من الحزب، وكان قد اكمل عامين من الانتساب اليه.

يبدو ان سعيد عقل والمطرود من الحزب، الاشهر في ذلك الوقت، قد بدأ يتقمص شخصية قدموس ولكن بعد تضييق مجاله القومي ليجعل حدوده لبنان وفقط لبنان، فانتهى الى ما انتهى اليه من تأييد للهجمات الاسرائيلية على الفلسطينيين في لبنان، ورفض عنصري مقيت لكل ما هو فلسطيني.

كان الزعيم انطون سعادة على بصيرة وحق حين طرده من حزبه. كان سعادة يريد سوريا كبرى فيها لبنان، وكان عقل يريد لبنان فقط، شاملا سوريا ان استطاع.

الشعر منارة لا مرآة

آراء سعادة في الشعر والادب والتي تضمنها كتابه الشهير «الصراع الفكري في الادب السوري» تشربها وتجسدها الشاعر السوري علي أحمد سعيد إسبر، ولعل خير ما يوضح هذا التجسد هو تسميته لنفسه باسم ادونيس، ذلك الاله الذي دعا انطون سعادة الى استلهام رمزيته في الادب. ادونيس انتسب مثل زوجته خالدة سعيد الى الحزب السوري القومي الاجتماعي وقابل الزعيم انطون سعادة مرتين. في حوار نشرته مجلة الدراسات الفلسطينية شتاء عام 2000 سأل الكاتب الفلسطيني صقر ابو فخر ماذا تبقى من انطون سعادة في شخصية ادونيس؟ اجاب ادونيس:

بقي فيّ منه أولا هاجس التغيير المستمر، وهاجس التقدم نحو الأفضل. وثانيًا، مفهومه عن السلالة والعرق. فلديه مفهوم استخدمه للرد على بعض التيارات التي كانت تضفي على العروبة طابعًا عرقيًا. وكانت حتى التسميات لدى هذه التيارات، مثل «الشعب العربي في سورية» لها هذا الطابع. كأن سورية مجرد إناء أو مجرد مكان والعرب مجرد مقيمين بهذا المكان. وهذا يضمر أن هناك أناسًا غير عرب في سورية، وكأنه يضمر، بالتالي، أنهم مستعبدون وخاضعون بشكل أو بآخر. وسعادة، في رده على هذه الأمور كلها، وفي رده على الطائفية، وعلى كل ما يمت إلى العرقية بصلة، ابتكر مفهوم «السلالة التاريخية».

ويتابع ادونيس شرح افكار انطون سعادة:

أي أن في هذا المجتمع سلالة تاريخية تتألف من جميع العناصر المهجنة. وهذه الكلمة استعملها البعض، للأسف، بصفة التحقير ومرادفة للشعوبية؛ أي بذهنية نبذ الآخر غير العربي. لكن كلمة التهجين كلمة نبيلة جدًا، وأعتقد أن لها قيمة كبرى، ويجب الإلحاح عليها. إن شعبنا مؤلف من عناصر متعددة ومتمازجة منذ القدم وقبل الفتح العربي. وصار العرب جزءًا من هذا المزيج، ولم يصبحوا المزيج الغالب إلاّ بالثقافة. هذا ما كان يقوله أنطون سعادة، أي أننا مزيج تاريخي، لكن ثقافتنا عربية ولغتنا عربية وأخذنا الطابع الأخير لهذا المزيج. لكن لا يجوز أن ننسى العناصر التاريخية الموجودة قبل الفتح العربي. هذا أيضًا باقٍ عندي منه. وهذا جعلني أصرّ على الانفتاح على الآخر. والانفتاح على الآخر، ثالثًا، يعني أن لا شيء منتهيا. فالبعد الذي استلهمته من سعادة هو مفهوم اللانهاية في كل شيء. لا شيء ينتهي. لا شيء نقف عنده ونقول إنه اكتمل. ينطبق ذلك حتى على مفهوم الوطن. كل شيء متحرك وكل شيء لانهائي».

واضح ان ادونيس، الذي دخل عامه التسعين، لا يقل اثارة للجدل عن معلمه انطون، ولكن المعلم والزعيم كان اوضح من الشاعر في تفصيل هذه المسألة، حيث ذكر في كتابه «نشوء الامم» أن السلالة جماعة جوهرها الاشتراك بصفة جسدية تتوارث جيلًا بعد جيل. هذه الجماعة قد لا تكون مقيمة كلها في قطر واحد لكنها بالرغم من التباين الجغرافي تظل سلالة واحدة، يتمتع أفرادها بنفس الصفة الجسدية. وهو ما يتفق مع اجماع علماء الانثروبولوجيا.

و في هذا الكتاب يشرح سعاده نظريته في الأمة قائلًا، إن جوهر الأمة ليس الاشتراك بصفة جسدية واحدة وإنما الاشتراك في الحياة في قطر معيّن.

ويخلص سعادة الى القول: إذا كانت السلالة واقعًا فيزيائيًا فإن الأمة واقع اجتماعي، وشتّان بين هذا وذاك.

يخصص صقر ابو فخر سؤاله التالي لادونيس وماذا بقي منه فيك في مجال الادب؟ فيجيب ادونيس:

«بقي فيّ منه أيضًا، أنه كان يقول إن الأدب ليس انعكاسا، وإنما بناء. الأدب هو أن تبني عالما آخر، ولا سيما أن اللغة مهما تكن رفيعة ومهما يسيطر عليها الشاعر فإنها لا تعبّر عن المشاعر ولا عن العواطف، وإنما عن مظهر منها أو عن جزء منها، أنا ميّال إلى أن تكون اللغة وأن يكون العمل الأدبي بنّاء أكثر مما أن يكون تعبيرًا. من هنا كان رأيي أن الموضوعات، مهما يكن نبلها، لا تصنع شاعرًا. لا بد للشاعر الذي يتكلّم عليها من أن يكون كبيرًا في الأساس، فيأخذ شعره الأهمية من «فنّيته» لا من «وطنيّته». وثمة نقطة أُخرى، فالفكر مهما يكن صادقًا (ويجب أن نقيس صدقه على الواقع) فهو متغير أيضًا، لأن مادة الفكر هي الواقع. وبما أن الواقع حركة متغيرة باستمرار، فالفكر يجب أن يتغير بتغير الواقع.

ويضيف: طبعًا، هذا شيء يختلف قطعًا عن الانتهازية. وأعتقد أن العرب، والإسلام نفسه، مارسوا هذا الأمر بالناسخ والمنسوخ، ومارسه المفكرون الإسلاميون بعد الناسخ والمنسوخ بالتأويل أيضًا. وهذه الحيوية الفكرية التي يجب أن نقيسها دائمًا بحيوية الواقع هي التي ظلت عالقة بي من أنطون سعادة. والشيء الأخير الباقي هو أن القاعدة الأساسية للمجتمع يجب أن تكون القاعدة الفكرية. فمجتمع بلا ثقافة وبلا فكر حي وخلاّق لا معنى له. حتى السياسة إذا لم تكن قائمة على فكر خلاّق وثقافة خلاّقة تكون سياسة صغائر لا قيمة لها.

وفي هذه المسألة ايضا نجد ان الزعيم قادر على ايصال افكاره بشكل اوضح من الشاعر فهو يلخص موقفه من هذه المسألة في كتاب «الصراع الفكري في الادب السوري» قائلا: «ان الادب والشعر يجب ان يكون منارة لا مرآة، ورؤية للمستقبل وليس تعبيرا عن الواقع».

وعن اعدام سعادة يقول ادونيس: موت سعادة كان مهمًا جدًا له هو، وللحزب أيضًا، وللمعنى الاجتماعي. بعبارة أُخرى: يجب أن يكون المجتمع في غنى داخلي، بحيث يموت شخص عظيم من أجل فكره. وهذا ما نفتقده كثيرًا في مجتمعنا هذه الايام.

هناك الكثير من الدراسات التي تناولت سعادة كمفكر وسياسي، ولكن عددا قليلا جدا من هذه الدراسات اعتنى به كناقد وصاحب نظرية في الادب والشعر. ويبقى ان الزعيم الذي واجه الاعدام بشجاعة وهو في سن الـ 45 قد انجز كثيرا قياسا بعمره وظروف زمنه المتقلب، سعادة عبر عن موت الشخص العظيم من اجل فكره بقوله المأثور: «الحياة وقفة عز» قالها ومارسها وواجه الاعدام رميا بالرصاص وهو يقول: «انا لا يهمني كيف اموت بل من اجل ماذا اموت».

يا خجل هذه الليلة من التاريخ

«كنت اتمنى ان اموت برصاصة على الطريق، وان لا تسجل على لبنان وصمة العار هذه عبر محاكمتي بهذا الشكل» بهذه العبارة يبدأ فيلم «حدثني الكاهن الذي عرّفه» والذي يروي وقائع ليلة محاكمة واعدام السلطات اللبنانية للزعيم انطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، بعد ساعات قليلة من قيام الرئيس السوري حسني الزعيم بتسليمه للبنان.

مدة الفيلم الذي حاز عدة جوائز 21 دقيقة، وقد انتجه معهد الدراسات المسرحية في جامعة القديس يوسف، عام 1998، واستند فيه المخرج جاد ابي خليل، الى قصّة شهيرة تحمل نفس العنوان، للأديب والكاتب

المعروف سعيد تقيّ الدين، ويروي فيها ما قاله له الأب إيليّا برباري عن ليلة إعدام أنطون سعادة.

«حين فتحت الباب على صوت القرع الشديد في منتصف ذلك الليل، وجدت نفسي أمام ضباط من الجيش يطلبون إلي أن أرتدي ملابسي وأحمل صليبي وعدة الكهنوت بسرعة. قلت: ما الخبر؟ أجابوا: سنعدم أنطون سعادة هذه الليلة، ونريد أن تعرّفه وتقوم بمراسم الدين قبل إعدامه. قلت: إن أمرًا كهذا لا يسعني أن أفعله، آتوني بإذن من سيادة المطران، هكذا ينص قانوننا الكنسي. قالوا: ليس لدينا وقت، افعل هذا على مسؤوليتنا نحن. فاعتذرت من جديد. وراحوا يلحون عليّ مرددين أن خرق النظام الكنسي هو أقل ضررًا من أن يرسل مسيحي إلى الموت غير متمم واجباته الدينية.

كان ذلك منتصف ليل السابع من تموز لعام 1949، والمتحدث هو الكاهن الذي اذعن اخيرا وسار مع الجنود الى سجن الرمل حيث استقبله مدير السجن وقال له أن هذا هو الإعدام الثالث عشر الذي يمر به، وأن الأمر بسيط فأجابه الكاهن: لقد مضى علي ثلاث عشرة سنة في الثوب الكهنوتي، وهذا أول إعدام سأشهده.

كانت محاكمة سعادة مهزلة حقيقية فما بين قيام الرئيس السوري حسني الزعيم بتسليمه للسلطات اللبنانية واتخاذ القرار بإعدامه مجرد ساعات قليلة، توحي بخطورة الرجل، ومدى الخشية من انصاره، وتؤكد ان القرار متخذ سلفا وان كل ما على المحكمة هو النطق به.

يضيف الكاهن في روايته التي نقلها سعيد تقي الدين:

كان الزعيم، في زنزانته مفترشًا بساطًا أقصر من قامته، وكان نائمًا نومًا طبيعيًا، أيقظناه فنهض حالًا، وبادرنا السلام، وخصني بقوله: أهلًا وسهلًا يا محترم، فأبلغناه أنه لم يصدر عنه عفو وأن الإعدام سينفذ به

حالًا. فشكرنا باسمًا رزينًا، واستأذن بلبس جاكيته التي كانت مطوية تحت قدميه، فأذنوا له، فشكرهم من جديد، ولبسها.

خلوت به، وسألته إن كان يود أن يقوم بواجباته الدينية، فأجاب: لم لا؟ وطلبت إليه أن يعترف، فأجاب: ليس لي من خطيئة أرجو العفو من أجلها، أنا لم أسرق، لم أدجل، لم أشهد بالزور، لم أقتل، لم أخدع، لم أسبب تعاسة لأحد. وبعد أن فرغت من المراسيم الدينية، تركنا الغرفة فكبلوا يديه، وخرجنا إلى مكتب السجن.

هناك، طلب أن يرى زوجته وبناته، فقيل له إن ذلك غير ممكن، وقدموا له»ترويقة» فاعتذر شاكرًا، ولكنه قبل فنجان القهوة متناولًا إياه بيمناه ومسندًا إياه بيسراه، وكانت تسمع للقيد رنات كلما ارتطم بالفنجان. كان يبتسم صامتًا هادئًا مجيلًا عينيه من وجه إلى وجه وكأنه يودعنا مهدئًا من روعنا. وبعد أن شرب القهوة، عاد يصر على لقاء زوجته وبناته، فسمع الجواب السابق.

وسئل لمن يريد أن يترك الأربعمئة ليرة التي وجدت معه، فأجاب أنها وقطعة أرض في ضهور الشوير هي كل ما يملك، وهو يوصي بها لزوجته وبناته بالتساوي.

طلب مقابلة الصحافيين، فأخبروه أن ذلك مستحيل، فسألهم ورقة وقلمًا، فرفضوا، فقال: إن لي كلمة أريد أن أدونها للتاريخ. فصرخ به أحد الضباط منذرًا: حذار أن تتهجم على أحد، لئلا نمس كرامتك، فابتسم الزعيم من جديد وقال: أنت لا تقدر أن تمس كرامتي، ما أعطي لأحد أن يهين سواه، قد يهين المرء نفسه.

سكتنا جميعًا، في صمت يلمس سكونه ويسمع دويه. وسمعته يقول: أنا لا يهمني كيف أموت، بل من أجل ماذا أموت. لا أعد السنين التي عشتها، بل الأعمال التي نفذتها. هذه الليلة سيعدمونني، أما أبناء عقيدتي

فسينتصرون وسيجيء انتصارهم انتقامًا لموتي، كلنا نموت، ولكن قليلين منا يظفرون بشرف الموت من أجل عقيدة. يا خجل هذه الليلة من التاريخ، من أحفادنا، من مغتربينا، ومن الأجانب، يبدو أن الاستقلال الذي سقيناه بدمائنا يوم غرسناه، يستسقي عروقنا من جديد.

حين خرجت إلى الباحة رأيت إلى يميني تابوتًا من خشب. لم يخف الليل بياضه. وتطلع الزعيم إلى نعشه فلم تتغير ملامحه ولا ابتسامته. مشينا إلى حيث انتظرنا السيارات، كان يسير بخطى هادئة قوية يبتسم... لم ينفعل، كأن الإعدام نفذ به مرات عديدة من قبل.

وقبل أن يرتقي السيارة طلب للمرة الثالثة والأخيرة أن يرى زوجته وأولاده. وللمرة الثالثة والأخيرة، سمع الجواب نفسه. فتغيرت ملامحه، وفي تلك اللمحة العابرة فقط من عمر ذلك الليل لمحت وميض العاطفة خلال زوبعة الرجولة. ساروا به إلى عمود الموت المنتظر، واقتربوا منه ليعصبوا عينيه، فسألهم أن يبقوه طليق النظر، فقيل له: انه القانون. فأجاب: إنني أحترم القانون.

أركعوه وشدوا وثاقه إلى العمود. وكأن الحصى آلمته تحت ركبته فسألهم إن كان من الممكن إزالة الحصى، فأزالوها، فقال لهم: شكرًا، شكرًا، رددها مرتين، وقطع ثالثتها الرصاص. فإذا بالزعيم وقد تدلى رأسه وتطايرت رئته، وتناثرت ذراعه اليسرى، فلم يعد يصل الكف بالكتف إلا جلدة تتهدل.

كوموا الجثة في التابوت، وتسارعت القافلة نحو المقبرة، وهناك كادوا يدفنونها من غير صلاة لو لم يتعال صياحي. أخيرًا قالوا لي: صل، إنما بسرعة. دخلنا الكنيسة، ووضعنا التابوت على المذبح، ورحت أصلي، والدم يتقطر من شقوق الخشب، ويتساقط على أرض الكنيسة نقاطًا نقاطًا، ليتجمع ويتجمع ثم يسيل تحت المذبح.

سليمان الحلبي يقتل الجنرال الغازي بخنجر غزيّ

في متحف الانسان بقصر شايو في باريس وداخل علبة من البلور توجد جمجمة وخنجر وفوقهما كتب بالفرنسية «جمجمة مجرم»، الجمجمة هي للبطل السوري سليمان الحلبي وهو من ابناء القومية الكردية في الاساس، واما الخنجر فهو السلاح الذي اشتراه الحلبي من سوق غزة، وقتل به قائد الحملة الفرنسية على مصر الجنرال كليبر. كان ذلك عصر يوم الاحد 14 حزيران من عام 1800 للميلاد.

كان الحلبي قد غادر قرية كوكان فوقاني قرب حلب السورية الى القدس، لسداد ديون والده تاجر السمن، فهاله ما رأى من قتل وتدمير على يد جنود نابليون، فطاف في البلاد الى ان وصل الخليل ثم غزة، وهناك استضافه ياسين آغا في الجامع الكبير، وسلمه 40 قرشا لتغطية نفقات سفره برفقة قافلة الجمال التي تحمل الصابون والتبغ إلى مصر، وليشتري خنجرا من سوق غزة يقتل به الجنرال كليبر.

وصل القاهرة بعد 6 ايام، واقام في الازهر كطالب مع أربعة فتيان من الفلسطينيين أبناء غزة، هم: محمد وعبد الله وسعيد عبد القادر الغزي، وأحمد الوالي، وسرعان ما عرفوا نواياه النضالية.

تخفى في ثوب شحاذ ودخل قصر كليبر وطعنه اربع طعنات نجلاء وفر، ولكنهم امسكوه بعد ذلك وحكموا عليه بان يشهد اعدام رفاقه الاربعة لانهم عرفوا بأمره ولم يبلغوا الفرنسيين، وبعد ذلك ان تحرق يده التي طعنت، ثم يوضع على الخازوق الى ان يموت وتأكل الطير جثته.

وفعلا تم تنفيذ العقوبة في منطقة تل العقارب بمصر القديمة، وعندما رحلت القوات الفرنسية اخذت معها جمجمة الحلبي ووضعتها في المتحف الى جانب خنجره ولم تفلح منذ ذلك الحين والى الآن كل المطالبات السورية باسترداد رفاة هذا البطل.

لا تذكر فرنسا الا ويذكر نابليون الذي سبق البريطانيين في اعطاء وعد لليهود بإقامة وطن وهيكل في بلادنا.

عرفت 3 مجانين وسمعت عن ثلاثة آخرين، لا يجمع بين الستة بعد الجنون سوى لقب موحد حملوه هو نابليون، ترى هل كان مطلقو الالقاب على دراية بجنون عظمة بونابرت، هذا الجنون الذي قاد سنوات عمره الخمسين فقط، في اتون متاهات ومغامرات ومتناقضات وفوز وخسارات لم يعرفها اي قائد في التاريخ بهذه الكثافة. 6 ملايين قتيل في 17 عاما من الحملات الحربية والمعارك المتواصلة التي شنها نابليون.

الفتى القصير الذي حمل لكنته الايطالية ودخل المدرسة العسكرية الفرنسية عانى النبذ، فانكب على كتب الآداب والتاريخ، ليتخرج في نصف المدة حاملا رتبة الملازم بعمر الـ 15 عاما، ورتبة اللواء بعدها بـ 8 اعوام فقط. ليبدأ حياة فيها من التناقض اكثر مما فيها من الثبات.

القائد الذي تربى على مبادئ الحرية ومعاداة الملكية، سرعان ما اعلن

نفسه رئيسا مدى الحياة لفرنسا، ثم امبراطورا عليها وعلى ايطاليا واجزاء من المانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا واسبانيا وحتى بعض روسيا. وأمر باعدام 5 الآف ثائر اسباني في يوم واحد. وبنهب وتخريب العواصم التي اجتاحتها جيوشه.

الامبراطور المولع بالفنون والآداب والذي احب جوزفين رغم انها تكبره بـ 6 اعوام، لم يخلص لها وهي ايضا لم تخلص له، كتب يشكو امرها لأخيه فوقعت الرسالة في ايدي البريطانيين فنشروها، فما كان منه الا ان طلقها بدعوى انها لم تنجب له الخليفة المنتظر.

الحكيم الذي وضع القانون المدني وانشأ دور الرقابة على الحكومة، ودار البورصة واقر النظام المتري، سرعان ما تجاهل كافة الاتفاقيات وادخل ابناء بلده في سلسلة حروب اوروبية وشرع بتولية اقاربه في المناصب الهامة غير آبه لا بالرقابة ولا بغيرها.

أقوال نابليون بونابرت تعكس مقدار التضارب في احكامه، كان كلما تقدم في العمر والقيادة انقلب على اقواله السابقة فهو القائل في البواكير: «مستقبل الولد صنع أمه»، «الأم التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها»، «فتّش عن المرأة»، «المراة الصالحة امنع الحصون»، و «أجمل نساء العالم هي المرأة التي أحب» نسي كل ذلك وقال في الخواتيم: «الذي يدع امراته تحكمه، لا هو رجل ولا هو امراة، انه لا شيء».

وهو القائل في البدايات: «تفسد المؤسسات حين لا تكون قاعدتها الأخلاق» لكنه ختم حياته باقوال اخرى مناقضة من قبيل: «ينبغي أن يكون الدستور قصيرًا ومبهمًا»، «أفضل طريقة للالتزام بالوعد هي ألا تعد بشيء» و «أخشى 3 جرائد أكثر من خشيتي لمائة ألف حربة».

واما مقولته: «فن الحكم يقتضي ألا تدع الرجال يهرمون في مواقعهم» فقد نسيها حين عين اقاربه وحين نصب نفسه امبراطورا مدى الحياة.

ومقولته: «أجل سنن الحياة الاجتماعية الزواج» مسحها على اعتاب محظياته الكثيرات قبل وبعد طلاقه من زوجته جوزفين.

واما مقولاته الكثيرة في الشجاعة في مواجهة العدو والموت وحسن قيادة الجيوش ومزايا القادة، ومنها قوله: «مثل الذي خان وطنه وباع بلاده مثل الذي يسرق من مال أبيه ليطعم اللصوص، فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه» و «لا يعني الموت شيئًا، لكن أن تعيش مهزومًا وذليلًا يعني أن تموت يوميًا»، فقد نسفها تماما حين لجأ إلى الجيش البريطاني أملا في الحصول على اللجوء السياسي، لكنهم نفوه إلى جزيرة سانت هيلانة، ليموت هناك.

اقواله في الدين بقيت هي الاكثر عرضة للتبدل فهو القائل بداية: «المجتمع بلا دين، كالسفينة بلا بوصلة»، «لا يكون الرجل أعظم من حاله وهو جاث على ركبته أمام الله» قام شخصيا باعتقال بابا الفاتيكان لخمس سنوات، واستخدم الدين في كافة حملاته العسكرية لتضليل الشعوب وقد اعترف بذلك حين قال: «إن سياستي هي حكم الناس كما تريد الأغلبية أن تُحكم، لقد كسبت الحرب في فاندي لما جعلت من نفسي كاثوليكيا، و استطعت دخول مصر عندما جعلت من نفسي مسلما، وكسبت نفوس الناس في ايطاليا عندما جعلت من نفسي باباويا، و إذا كان علي أن احكم الشعب اليهودي فسأعيد بناء معبد سليمان».

بعد ان قتل نابليون الكثيرين في يافا هزمت اسوار عكا جيوشه، فقتل جنوده المرضى كي لا يعيقوا مسيرة عودته الى مصر ومنها الى باريس، ليعلن عزمه -حسبما تقول عدة روايات- على «اعادة مدينة يروشلايم لليهود» وتقول الروايات العديدة التي لم تثبت صحتها من بطلانها انه وجه رسالة لكل يهود افريقيا وآسيا يدعوهم فيها الى العودة لأرضهم والتجمع حول رايتهم حتى يبنوا مجددا دولتهم» جاء في الرسالة ما نصه

«ايها الاسرائيليون، ايها الامة الفريدة، فرنسا تقدم لكم ورثة اباءكم، استعيدوا ما اخذ منكم بالقوة ودافعوا عنها، بدعم فرنسا ومساعدتها».
إن صح هذا الوعد الذي قطعه نابليون على نفسه وعلى فرنسا وقتها لمصلحة يهود العالم فانه يكون قد سبق به وعد بلفور البريطاني سيء الصيت والسمعة بـ 119 عاما.

واحدة من مقولاته فقط لم ينقلب عليها بل انه وقع ضحية لها وهي: «التاريخ هو صيغة أحداث الماضي التي قرر الناس الاتفاق عليها» وفعلا هو كذلك فلقد كتب التاريخ ان نابليون كان قصيرا، حتى ان عقدة قصار القامة سميت عند العلماء «عقدة نابليون» في حين ان طوله كان مترا وواحد وسبعين سنتمترا. اي ان طوله كان طبيعيا جدا وليس الاقصر بين القادة على اقل تعديل. ولكنه التاريخ الذي اتفق الناس على صيغته.
وواحدة اخرى من مقولاته اثبتت صحتها عبر الزمان وهي عن السياسيين المتلبسين بالتدين: «يرددون باستمرار ان الدنيا ليست دارهم ومع ذلك يضعون ايديهم (القذرة) على كل شيء يستطيعون الوصول اليه».
مؤكد أن فرنسا اليوم ليست فرنسا نابليون ولا فرنسا احتلال الجزائر، ولكنها ليست امنا ولا ابونا، ان يطالب لبنانيون الرئيس الفرنسي بإعادة انتداب بلاده على لبنان، أمر يذكرنا بزيارات الرؤساء الفرنسيين المتعاقبة منذ عام 1975 للجزائر التي استعمروها عشرات السنين، رسائل مبطنة وبروتوكولات متشددة لمنع أي إحراج، او خروج عن اللباقة واللياقة، وعدم تنازل عن المطالبة الجزائرية باعتذار فرنسي، غير ان ذلك لم يمنع قيام مجموعة كبيرة من الشباب الجزائري بالهتاف وبصوت عالٍ جدا امام الرئيس جاك شيراك: فيزا فيزا، نريد فيزا!!!!
شباب من لبنان يريد عودة الاحتلال الفرنسي، وشباب من الجزائر يريدون الذهاب اليه في عقر داره ليحملوا جنسيته.

مؤكد ان اللبنانيين لن يطالبوا بعودة الانتداب او السيطرة السورية على بلادهم.

لوحة اغتيال كليبر للرسام الفرنسي انتوني جين غروس، والذي عاش الثورة الفرنسية وسافر مع نابليون عدة سنوات لرسم حروبه

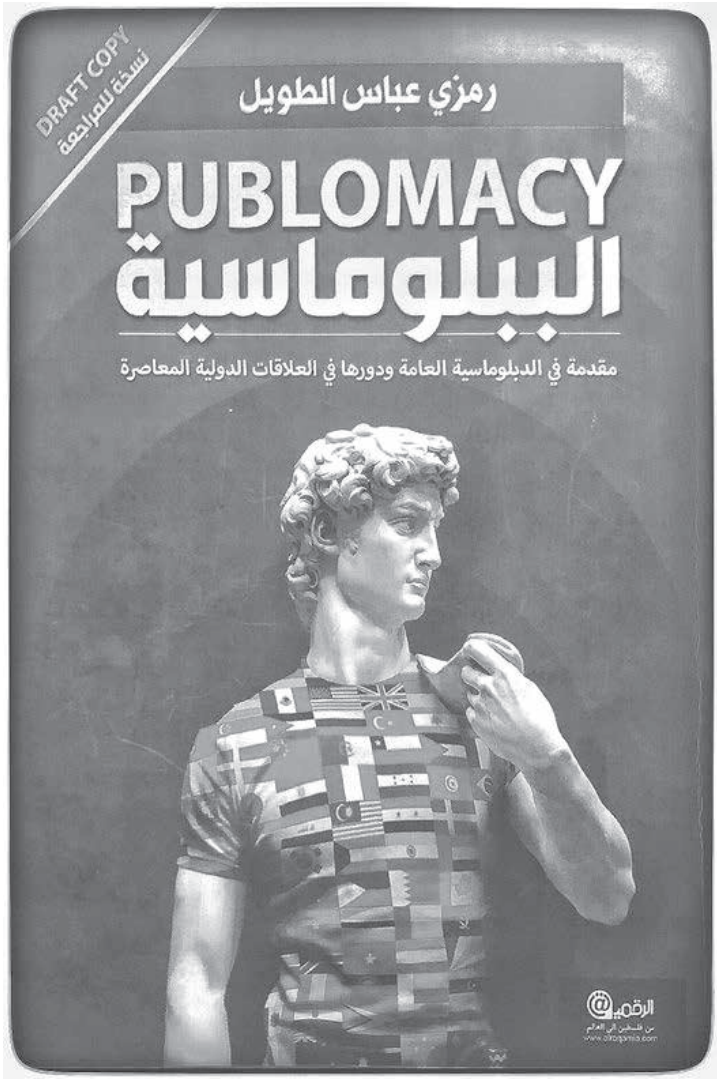

اهداني الصديق رمزي الطويل كتابه «البيبلوماسية» والذي ما زال في طور المراجعة، ووعدته ان اقرأه، وسأقرأه فعلا، ليس لأن رمزي صديق

قديم فقط، بل لأسباب اخرى اكثر موضوعية من الصداقة، ومنها: ان عنوان الكتاب مهم جدا ويزداد اهمية في هذا الوقت، ولأنني اعرف تمام المعرفة ان رمزي يعمل عليه بصبر وحرص شديدين منذ وقت طويل.

يمكنني الآن وانا اتمعن في الغلاف واتصفح المحتويات ان اضيف سببين آخرين: الغلاف جميل جدا، والكتاب تفاعلي جدا، يزود القارئ ببصمة رقمية QR Code لكل عنوان، مما يمكن القارئ وبمجرد استخدام هاتفه لمسح البصمة الرقمية ضوئيا من الاستزادة بمعلومات وفيديوهات ومقالات حديثة حول كل موضوع. تحسب هذه الحسنة ايضا لدار الرقمية للنشر والتوزيع الالكتروني والتي يتشارك فيها رمزي مع صديقه فؤاد العكليك.

رمزي متعدد المواهب عرفناه طالبا في الاعلام بجامعة بيرزيت ورساما للكاريكاتير ثم حاملا لشهادة الماجستير في العلاقات الدولية وباحثا في هذا المجال الحيوي وغيره من المجالات كفن الكاريكاتير مثلا، او الاعلام الحديث. اذا وضع رمزي رأسه في امر ما فانه سيبحث فيه كثيرا وسينجزه على احسن وجه، ولكن على ابعد مدى.

في خاتمة كتابه المؤلف من 400 صفحة يقول رمزي: «اكدت احداث القرن الماضي انه كلما فُقدت او هبطت مكتسبات الدول من التواصل الدبلوماسي التقليدي، او حتى تعرضت مكانتها للمنافسة كانت تستعين بالببلوماسية لتعديل الارباح او تخفيف الخسائر التي لحقت بها، مثل انشاء المجلس البريطاني British Council لمنافسة البروباغندا النازية في ثلاثينيات القرن الماضي».

يكتظ الكتاب بتعاريف مختلف المدارس للدبلوماسية العامة وللعلاقات العامة والبروباغاندا ويشتق تعريفه الخاص والذي يميل الى اعتبار الببلوماسية وسيلة لكسب القلوب والعقول، وفي هذا التعريف ما يكفي للتميز

بين الاشكال الثلاثة، ويحفل الكتاب بأمثلة وحالات دراسية قديمة وجديدة، استطاعت كسر القالب الاكاديمي الاجباري لمثل هذا النوع من الكتب. واحدة من الحالات الدراسية تتحدث عن التنافس الثقافي الاجنبي في بلاد الشام – لبنان نموذجا، ومما جاء فيها:

تنافست كل من فرنسا وايطاليا وبريطانيا وروسيا وحتى الولايات المتحدة على النفوذ الثقافي في بلاد الشام، بذريعة الامتيازات الاجنبية التي كانت اول اختراق غربي للحدود العثمانية، فكان ان بنيت المدارس التبشيرية التي روجت للثقافة واللغة القومية لتلك الدول، طمعا في كسب النفوذ السياسي والاقتصادي، وهوما آتى اكله في المثال اللبناني، حين استحوذت النسبة الاكبر من خريجي جامعة سان جوزيف الفرنسية على المناصب الحكومية اللبنانية بعد الاستقلال، فزادت من قوة ونفوذ فرنسا في لبنان على حساب باقي الدول، وتذكر بعض المصادر ان هذا النفوذ تصاعد بالتوازي مع ظهور حالة من التحييد المقصود لخريجي الجامعة الامريكية من دخول الاجهزة الحكومية، مما يعني تحييد الفكر والنفوذ الامريكي عن الساحة السياسية اللبنانية. لم يكن التنافس الثقافي في لبنان حكرا على الدول الغربية فقط، فجمهورية مصر في عهد عبد الناصر مولت انشاء جامعة بيروت العربية كمنافس ايدولوجي للجامعة الامريكية في بيروت.

في حالة دراسية اخرى يستعرض كتاب الببلوماسية قرار المانيا فتح حدودها لاستقبال اللاجئين عام 2015، وكيف كان هذا القرار نابعا من احتياج المانيا الى سد النقص المتزايد في الايدي العاملة والذي بلغت نسبته 36% بسبب انخفاض المواليد وزيادة نسبة الكهولة، ازعج هذا القرار حكومات الدول الواقعة على طريق الهجرة، لأنه اشعل فتيل هجرات جماعية غير مسبوقة منذ الحرب العالمية الثانية، كان لألمانيا النصيب

الاكبر من المهاجرين.

وينقل الكتاب عن مؤسسات الامم المتحدة ان عدد اللاجئين السوريين منذ بداية الحرب في سوريا وعليها منذ عام 2011 وحتى العام الماضي قد وصل الى 5.6 مليون لاجئ، نسبة كبيرة منهم ذهبت الى المانيا والسويد.

الحقيقة التي يذكرها الكتاب ايضا ان بلاد الشام عموما مبتلاة بالهجرة منذ القدم فهناك ما لايقل عن 300 الف هاجروا الى امريكا اللاتينة قبل بداية القرن العشرين.

يقترب عدد اللاجئين السوريين هذه الايام من حاجز الـ 8 مليون لاجئ معظمهم في تركيا ولبنان والاردن ومصر والعراق ثم المانيا والسويد، عدد كبير منهم وخاصة في دول الجوار يبحث عن عودة آمنة، مأساة كبيرة تذكر بمأساة اللاجئ الفلسطيني، من بابين: الاول هو العدد الكبير وسوء الاوضاع، والثاني هو مستوى النشاط والمهارة والقدرة على التكيف والانجاز والابداع التي يبديها اللاجئ السوري في كل مكان يصله.

وبحسب الكتاب فان 5% من سكان امريكا اللاتينية هم من اصول عربية وبتعداد قد يصل الى 30 مليون، فمثلا يبلغ عدد البرازيليين من اصول لبنانية بين 7 – 10 ملايين نسمة، فيما عدد سكان لبنان 6 مليون فقط. وتحتضن البرازيل ايضا 4 ملايين من اصول سورية.

وفي الكتاب قائمة باسماء 10 مهاجرين من اصول لبنانية وفلسطينية وسورية وصلوا الى منصب الرئاسة في بعض دول هذه القارة.

في حالة دراسية اخرى يستعرض الكاتب الى جانب العلاقات الاستراتيجية والمصالح الاقتصادية، دور الروسيات المتزوجات من سوريين، تم ابتعاثهم الى روسيا للدراسات العليا، في تمتين العلاقة الروسية السورية، فعدد هؤلاء السيدات يقترب من الـ 200 الف سيدة، وهن بلا شك متزوجات من اصحاب شهادات ومناصب عليا في الدولة السورية.

زهرة دمشق وسيفها

يعود تاريخ هذه الصورة الى العام 1942، منتصف الاعوام الستة للحرب العالمية الثانية، مجلة هنا القدس الصادرة عن دار الاذاعة الفلسطينية، وضعتها غلافا للعدد الاول من سنتها الثالثة والصادر يوم الاحد 11 كانون الثاني من ذلك العام. آلاف الأوروبيين فرّوا خلال الحربين العالميتين من القارة العجوز الى سوريا ولبنان والعراق بحثًا عن ملاذ آمن.

قناة العربية والتي عرضت صورا اخرى لهؤلاء اللاجئين الى سوريا، قالت ان عدد اللاجئين من اليونان فقط، والى حلب فقط، بلغ وقتها 12 الف لاجئ، واضافت ان موقع «أمازون» الأميركي عرض للبيع صورا مماثلة تعود لتلك الحقبة، بمبلغ 11 ألف دولار.

العربية اجرت مقارنة، فاليوم وبعد حوالي 72 عامًا، يفر ملايين السوريين الى اليونان عبر البحر تمهيدا للانتقال منها للدول الأوروبية المضيفة للاجئين كألمانيا والنمسا والسويد. وشبح الموت غرقًا أو على حافة الطرق الوعرة يقف لهم بالمرصاد، ونموذج الطفل آلان الكردي والذي هزت صورة جثته الهامدة على الساحل العالم اجمع، خير مثال على هذا الموت البشع.

قناة الجزيرة ووكالات انباء عالمية نشرت صورا عديدة تظهر اللاجئين على الحدود اليونانية شبه عرايا، وقد تعرضوا للضرب والاستيلاء على أموالهم وملابسهم.

قد تكون الجمعية التي تولت اطعام هؤلاء اللاجئين هي جمعية النجمة الحمراء التي اسستها عام 1920 السيدة نازك العابد، وقد تكون نازك التي حملت عدة القاب مثل زهرة دمشق، وسيف دمشق، ونجمة ميسلون، وجان دارك العرب، قد تكون هي السيدة الظاهرة في الصورة اثناء توزيع الملابس على هذه الطفلة اليونانية اللاجئة.

نازك العابد سيدة سورية صاحبة نضالات تذكرنا بالمُقاوِمة الجزائرية جميلة بوحيرد، وصاحبة دعوات تحررية تذكرنا بالمناضلة المصرية صفية زغلول ورفيقتها نور الهدى الشعراوي، وصاحبة مبادرات اجتماعية واغاثية تذكرنا بالمربية الفلسطينية الفاضلة هند الحسيني، مؤسسة دار الطفل العربي في القدس.

June 10 1922 Vol. 9 No

الكرمل

EL - CARMEL

نازك العابد

وديع البستاني

يحيى نازك العابد

مع بدايات القرن الماضي كانت نازك تتنقل من مدرسة الى اخرى بين دمشق والكرك والموصل مع والدها الذي عين واليا للموصل في اواخر حكم العثمانيين، اتقنت عدة لغات اضافة الى فنّي التصوير والموسيقى، وعلميّ التمريض والاسعاف.

شرعت ورفيقات لها، منهن الأديبة ماري عجمي، بمواجهة الاستعمار الفرنسي، ومحاربة العادات والتقاليد البالية التي تحرم المرأة من حقوقها وتحد من مشاركتها في الحياة العامة، فأسسن الصحف المهتمة بقضايا تحرير المرأة مثل مجلة العروس ونور الفيحاء والحارس وشاركن في

الندوات وكتبن للصحف الاخرى، وشكلن الجمعيات، واقمن المدارس والملاجئ والمكتبات مثل الجمعية النسائية العربية، والمدرسة الخاصة للبنات، وجمعية النجمة الحمراء، مدرسة بنات الشهداء، وجمعية الفيحاء، والنادي النسائي الشامي. وأسهمت في إنشاء مصنع للسجاد كان يخصص ريع المبيعات لصالح الأيتام.

تمكنت بفضل انشطتها ومجلاتها ومقالاتها المطالبة بحرية المرأة من استقطاب اقلام وتأييد المفكرين والادباء ودعاة الاصلاح الاجتماعي في زمنها، فحازت على مكانة اجتماعية مرموقة واستحقت ثقة الملك فيصل الذي اصدر امرا ملكيا بمنحها رتبة عسكرية فخرية هي النقيب.

ما أن شرع الفرنسيون باقتحام دمشق وإنذار الملك فيصل بمغادرتها،

حتى خلعت نازك النقاب عن وجهها وارتدت الملابس العسكرية ونزلت بين الثوار لتسعف الجرحى وتشحذ الهمم وتحرض على القتال.
منعها الفرنسيون من تنظيم أي نشاط واغلقوا مجلتها ومدرستها، فمارست نشاطها بشكل سري، الى ان ابعدت فقامت بجولة شملت الاردن وفلسطين والولايات المتحدة وعدة عواصم غربية، فكانت خير سفير لثورة ونضال بلدها من اجل نيل الاستقلال عن فرنسا.
وعندما عادت فرضوا عليها الاقامة الاجبارية في مزرعتها الخاصة في ضواحي دمشق، فراحت تشتغل في الزراعة، تعايش الفلاحين، وتعرفهم بحقوقهم وتنقل اليهم افكارها الاشتراكية عن العدالة الاجتماعية.
تزوجت من الاديب والمؤرخ اللبناني محمد جميل عام 1929. فأسسا معا جمعية مكافحة البغاء، متحدين سلطات الانتداب الفرنسي التي شرّعت البغاء في لبنان، وأسهمت وإياه في خدمة اللاجئين بعد نكبة فلسطين، حيث أسسا ميتما لأبناء المشردين، ومدرسة وجمعية لتأمين العمل ومشغلًا للنساء يتعلمن فيه مهنًا. توفيت عام 1959 في بيروت تاركة ورائها سلسلة طويلة من الانجازات وسيرة ناصعة وملهمة.
في شهر حزيران من عام 1922 حلت نازك العابد ضيفة عزيزة على فلسطين فأقامت لها جمعية تهذيب الفتاة الاسلامية ومدرسة الاناث الاسلامية والمدرسة الاصلاحية حفلة تكريمية، وبمناسبة الزيارة فقد افردت صحيفة الكرمل صفحتها الاولى كاملة للتعريف بالسيدة السورية وبنضالاتها ضد المستعمر الفرنسي، وبجهودها لتحرير النساء، ويومذاك انتدب الشاعر اللبناني الفلسطيني وديع البستاني السيدة الصحفية المناضلة ساذج نصار لإلقاء قصيدته الترحيبية بنازك:
أنازك تبدو والرجال تطلع... أم الكوكب الدري في الليل يسطع
وما ضرها هذا السفور وكلهم... عيون لمرآها تغص وتدمع

ولم تهجر الحسناء ساحة خدرها... ولكنها الظبي النفور المروع
ويا لفتاة في الفلاة طريدة... ومن خلفها سيف ورمح ومدفع
تتيه وارض الله واسعة لها... وقلب يحييها وقلب يشيع
تسائل عن عدل اضاعوه قبلها... وما وجدوها بعدما العدل ضيعوا
واكرم به عدلا يهم برجعة الى الشام يدعوها: هلمي، فترجع
وما ذنبها إن قالت الدار دارنا... اذا قام ضيف الدار بالدار يطمع
ويا رب كلَّ المتن والباب موصدٌ... وذا ملك الاوطان بابك يقرع
أنازك انت البدر إن غاب ليلة... فما هو الا البدر في الغد يطلع
وان حجبت شمس البلاد فانها... سحابة صيف عن قريب تقشع
وانت فتاة البسوها قناعها... وقد رابهم حتى الجمال المقنع
وقد حذروها فتنة وتحيروا... وضاقوا بها ذرعا وما العذر اوسع
أنازك لا تحزنك فهي فريةٌ... وثوب خليق بالمحال مرقع
ويزهوك ما يزهوك حلى شمائل... وتاج فخار بالدراري مرصع
وامرا ونهيا انت فينا مليكة... ونحن عبيدٌ ما تقولين نسمع
انازك في باريس اختك تشتكي... وطارت شعاعا نفسها وهي تجزع
تقول انا حرية وشقيقتي... تبدى له غول فهبوا وازمعوا
بدار اليها من لها غير اهلها... بباريس ام باريس قاع وبلقع
وباريس دكت معقل الظلم مرة... فما باله في الشام يبنى ويرفع
وهذا فتى لبنان قد طال مكثه... وما هو ضيف تكرمون فيقنع
أباريس منفاه ولبنان داره... فماذا عسانا بعد ذلك نصنع
أتقتل باريس فتى جاع فاشتهى... وعن صدرها حرية كان يرضع
فرحماك يا باريس يا اخت لندنٍ... فإنّا عطاشٌ للمساواة جوَّع
وهذي بلاد الله ضاقت باهلها... وأجركما في نصرها لا يضيع
وان كثير الظلم ما سد من طوي... وان قليل العدل يا قوم يشبع

الصحفية ساذج بديع الله بهائي نصار، والتي القت هذه القصيدة، واحدة من رائدات العمل النسوي والنضالي في فلسطين، كانت تُعد زوايا المرأة في جريدة الكرمل، وكانت اول صحفية تعتقلها سلطات الانتداب البريطاني، امضت في السجن 11 شهرا، وكتب لها زوجها نجيب نصار رسالة جاء فيها: «اذا لم ادخل التاريخ لأنني انشأت جريدة الكرمل، او لأنني تزوجت الصحفية الاولى، فسأدخله لأنني تزوجت المعتقلة الاولى».
صور الصحف من موقع جرايد.

قتلناكَ.. يا آخرَ الأنبياءْ

جمع القدر بين الشاعر السوري الكبير نزار قباني وكوكب الشرق ام كلثوم في اغنيتين بمناسبتين حزينتين، الاولى بعد نكسة حزيران عندما غنت له من الحان الفنان الكبير محمد عبد الوهاب قصيدة:

اصبح عندي الآن بندقية
الى فلسطين خذوني معكم
الى ربىً حزينة كوجه المجدلية
الى القباب الخضر والحجارة النبيَّة
عشرين عامًا وأنا أبحث عن ارضٍ وعن وهوية
أبحث عن بيتي الذي هناك
عن وطني المحاط بالأسلاك
أبحث عن طفولتي وعن رفاق حارتي

عن كتبي عن صوري عن كل ركن دافئٍ وكل مزهرية
واما المناسبة الحزينة الثانية فقد كانت بعد وفاة الزعيم المصري المحبوب جمال عبد الناصر عندما غنت له من تلحين الموسيقار رياض السنباطي قصيدة:

عندي خطابٌ عاجلٌ إليكْ
من الملايينِ التي قد أدمنتْ هواكْ
من الملايين التي تريدُ أن تراكْ
عندي خطابٌ كلّهُ أشجانْ
لكنّني.. لكنّني يا سيّدي... لا أعرفُ العنوانْ
الحزن مرسوم على الغيوم.. والأشجار والستائر
وأنت سافرت ولم تسافر
فأنت في رائحة الأرض.. وفي تفتح الأزاهر
في صوت كل موجة، وصوت كل طائر
في صدر كل مؤمن، وسيف كل ثائر
عندي خطاب عاجل إليك
لكنني لا أجد الكلام
الصبر لا صبر له والنوم لا ينام

تم تسجيل هذه الاغنية (وتجدون رابطا لنسخة منها في التعقيب الاول) ولكنها لم تبث لأسباب لم يعرفها نزار قباني، وكشفها الاعلامي المصري وجدي الحكيم قبل وفاته عام 2014، يقول الحكيم في تسجيل صوتي: كنت شاهدا على إعجاب أم كلثوم بالقصيدة، طلبت مني أن ارسلها إلى الموسيقار رياض السنباطي كي يلحنها. وفعلا بدأ السنباطي بالتلحين، استغرقت ام كلثوم ليلة كاملة من منتصف الليل وحتى الساعة الثامنة صباحا لتنتهي من تسجيل الأغنية بسبب حزنها الشديد، كانت تبكي

مع كل جملة تقوم بتسجيلها، تم تسجيل الاغنية وتجميعها على شكل مقاطع، لم تكن ام كلثوم معتادة على هذا النوع من التسجيل، لقد كانت تحب الوقوف امام الفرقة الموسيقية لتستطيع الاندماج مع اللحن.

وعندما أرسلت الأغنية إلى الإذاعة ليتم بثها، طلبت أم كلثوم إيقاف البث، لأن الرئيس الجديد أنور السادات سيظهر في اليوم التالي ليتحدث للشعب، لقد اعتبرت ام كلثوم أن حب عبدالناصر سيبقى في القلب، وأنه لا يجب التشويش على الرئيس الجديد أنور السادات الذي تولى أمور البلاد، وهو ما أثار حيرة القباني وغضب السنباطي، خاصة بعد المجهود الكبير الذي قدمه مع فريق العمل لأجلها.

بعد وفاة عبد الناصر ارتدت ام كلثوم السواد وحبست نفسها حدادا عليه, وأعلنت نيتها اعتزال الغناء, لكن بعد أيام من هذا الحبس الانفرادي اتصلت بها السيدة تحية زوجة عبدالناصر وقالت لها: إننا خسرنا جمال عبدالناصر, ولا نريد خسارتك أنت أيضا, إذا كنت تحبين جمال حقيقي فأخرجي من حبسك وغني لأنه كان معجبا بصوتك.

كان مسؤولو الاذاعة المصرية قد قاطعوا اغاني ام كلثوم بعد الثورة على اعتبار انها من رموز العهد البائد فلما علم الزعيم استدعاهم وامرهم بهدم الاهرامات فلما استغربوا ذلك قال لهم: لأنها ايضا مثل ام كلثوم من العصر البائد؟!!!

نزار قباني تعرض لإهمال مصري مماثل بعد قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» فاشتكى لعبد الناصر في رسالة شهيرة جاء فيها:

سيدي الرئيس.. لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد ان يكون شريفا وشجاعا في مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته. يا سيدي الرئيس لا أصدق أن يحدث هذا في عصرك.

عندما قرأ عبد الناصر رسالة قباني الطويلة، وضع خطوطا تحت اكثر من مقطع، وكتب قراره: لم أطلع على قصيدة نزار الا في النسخة التي ارسلها هو إليّ، وانا لا اجد اي وجه من وجوه الاعتراض عليها، ولذلك تلغى كل التدابير السلبية المتخذة في حق الشاعر نزار قباني ويدخل مصر كما كان يدخلها في السابق ويُكرم فيها كما كان يكرم في السابق.
التوقيع: جمال عبد الناصر.

لم تكن قصيدة «عندي خطاب اليك» القصيدة الوحيدة التي يكتبها الشاعر السوري نزار قباني عن الزعيم المصري جمال عبد الناصر، لقد كتب ثلاثة قصائد اخرى عنه، وهو امر لم يفعله نزار مع أي زعيم آخر بما في ذلك زعماء بلده سوريا، لقد ظل يتجاهلهم في اشعاره او ينتقدهم دون ان يسميهم.

في قصيدة بعنوان «ذكرى ميلاد عبد الناصر» يقول نزار:

زمانك بستانٌ.. وعصركَ أخضرُ... وذكراكَ، عصفورٌ مـن القلب ينقرُ
ملأنا لك الأقداحَ، يا من بِحُبّـه... سكِـرنا، كما الصـوفيّ بالله يسـكرُ
دخلت على تاريخنا ذات ليلـةٍ... فرائحـةُ التاريـخ مسكٌ وعنبرُ
وكنت، فكـانت في الحقول سنابلٌ... وكانت عصـافيرٌ.. وكان صنوبرُ
لمسْتَ أمانينا، فصارتْ جداولًا... وأمطـرتنا حبّـا، ولا زلتَ تمطـرُ
تأخّرت عن وعد الهوى يا حبيبنا... وما كنت عن وعد الهوى تتأخرُ
سَهِدْنا.. وفكّرنا.. وشاخت دموعنا... وشابت لياليا، وما كنت تحضُرُ
تعاودني ذكـراك كلّ عشيّـةٍ... ويورق فكـرى حين فيـك أفكّر
وتأبى جراحـي أن تضمّ شفاهها... كأن جـراح الحـبّ لا تتخثّـرُ
أحبّك لا تفسيـر عندي لصَبْوتي... أفسّر ماذا؟ والهوى لا يفسَّـر
تأخرت يا أغلـى الرجال، فليلنا... طويل، وأضـواء القناديـل تسهرُ
تأخّـرت.. فالسـعات تـأكل نفسهـا... وأيامنا فـي بعضها تتعثّـرُ

أتسأل عن أعمارنا ؟ أنت عمـرنا... وأنت لنا المهـديّ.. أنت المحـرّرُ
وأنت أبو الثورات، أنت وقودها... وأنت انبعاث الأرض، أنت التغيّـرُ
تضيق قبـور الميتيـن بمن بها... وفى كل يـوم أنت فـي القبر تكبرُ
تأخرت عنّا.. فالجيـاد حزينـة... وسيفك مـن أشـواقه، كـاد يكفرُ
حصانك فـي سيناء يشـرب دمعَهُ... ويا لعذاب الخيـل، إذ تتـذكّرُ
ورایاتك الخضراء تمضغ دربها... وفـوقك آلاف الأكاليـل تُضـْفَرُ
تأخرت عنا.. فالمسيـح معـذّبٌ... هناك، وجـرح المجـدلية أحمرُ..
نساء فلسطيـنٍ تكحّلـن بالأسـى... وفى بيت لحمٍ قاصـراتٌ.. وقصّرُ
وليمونُ يـافا يابسٌ فـي حقولهِ... وهل شجرٌ في قبضة الظلم يُزهرُ؟
رفيق صلاح الدين.. هل لك عودةٌ... فإن جيـوش الروم تنهـى وتأمرُ
رفاقك فى الأغوار شدّوا سُروجَهم... وجندك فى حِطِّين، صلّوا.. وكبّروا..
تُغنّـى بك الدّنيا.. كأنك طـارقٌ... على بركات الله، يرسـو.. ويُبحرُ
تناديـك من شوقٍ مآذنُ مكّـةٍ... وتبكيـك بَـدرٌ، يا حبيبـي، وخيبرُ
ويبكيك صفصاف الشام ووردها... ويبكيك زهـرُ الغـوطتين، ودُمَّرُ
تعال إلينا.. فالمروءات أطرقتْ... وموطـن آبائـي زجـاج مكسّرُ..
هزمنا.. وما زلنا شِتاتَ قبائلِ... تعيشُ على الحقـد الدفيـن وتثـأرُ
رفيق صلاح الدين، هل لك عـودةٌ... فإن جيوش الروم تنهى، وتأمرُ
يحاصرنا كالموت ألفُ خليفة... ففى الشرق هولاكو وفى الغرب قيصرُ
أبا خالد أشكـو إليك مـواجعي... ومثلـى له عـذرٌ.. ومثلك يعـذرُ
أنا شجرُ الأحزان، أنـزفُ دائمًا... وفى الثلـج والأنـواءِ أعطـي وأُثمرُ
يثيـرُ حزيـرانٌ جنوني ونقْمتَـي... فأغتال أوثاني.. وأبكي.. وأكفـرُ
وأذبح أهلَ الكهف فـوق فراشهم... جميعًا، ومن بوّابة المـوت أعبرُ
وأتـرك خلفي ناقتي وعباءتي... أمشى وأنا فى رَقْبـة الشمس خِنجرُ
وأصرخُ: يا أرض الخرافات احبلي... لعلّ مسيحًا ثانيـًا سوف يظهرُ

وفي قصيدة اخرى بعنوان «جمال عبد الناصر» يقول الشاعر نزار قباني

قتلناكَ.. يا آخرَ الأنبياءْ

قتلناكَ..

ليسَ جديدًا علينا

اغتيالُ الصحابةِ والأولياءْ

فكم من رسولٍ قتلنا..

وكم من إمامٍ..

ذبحناهُ وهوَ يصلّي صلاةَ العشاءْ

فتاريخُنا كلّهُ محنةٌ

وأيامُنا كلُّها كربلاءْ.

***

نزلتَ علينا كتابًا جميلًا

ولكننا لا نجيدُ القراءة

وسافرتَ فينا لأرضِ البراءة

ولكننا.. ما قبلنا الرحيلا..

تركناكَ في شمسِ سيناءَ وحدكْ..

تكلّمُ ربكَ في الطورِ وحدكْ

وتعرى.. وتشقى.. وتعطشُ وحدكْ..

ونحنُ هنا نجلسُ القرفصاءْ

نبيعُ الشعاراتِ للأغبياءْ

ونحشو الجماهيرَ تبنًا وقشًا

ونتركهم يعلكونَ الهواءْ

***

قتلناكَ..
يا جبلَ الكبرياءْ
وآخرَ قنديلِ زيتٍ..
يضيءُ لنا في ليالي الشتاءْ
وآخرَ سيفٍ من القادسيهْ
قتلناكَ نحنُ بكلتا يدينا
وقُلنا المنيَّة
لماذا قبلتَ المجيءَ إلينا؟
فمثلُكَ كانَ كثيرًا علينا..
سقيناكَ سُمَّ العروبةِ حتى شبعتْ..
رميناكَ في نارِ عمَّانَ حتى احترقتْ
أريناكَ غدرَ العروبةِ حتى كفرتْ
لماذا ظهرتَ بأرضِ النفاقْ..
لماذا ظهرتْ؟
فنحنُ شعوبٌ من الجاهلية
ونحنُ التقلّبُ..
نحنُ التذبذبُ..
والباطنيّة..
نُبايعُ أربابنا في الصباح..
ونأكلُهم حينَ تأتي العشيّة
***
قتلناكَ..
يا حُبّنا وهوانا
وكنتَ الصديقَ، وكنتَ الصدوقَ،

وكنتَ أبانا..
وحينَ غسلنا يدينا.. اكتشفنا
بأنّا قتلنا مُنانا..
وأنَّ دماءكَ فوقَ الوسادةِ..
كانتْ دِمانا
نفضتَ غبارَ الدراويشِ عنّا..
أعدتَ إلينا صِبانا
وسافرتَ فينا إلى المستحيل
وعلمتنا الزهوَ والعنفوانا..
ولكننا
حينَ طالَ المسيرُ علينا
وطالتْ أظافرُنا ولحانا
قتلنا الحصانا..
فتبّتْ يدانا..
فتبّتْ يدانا..
أتينا إليكَ بعاهاتنا..
وأحقادِنا.. وانحرافاتنا..
إلى أن ذبحناكَ ذبحًا
بسيفِ أسانا
فليتكَ في أرضِنا ما ظهرتَ..
وليتكَ كنتَ نبيَّ سِوانا...
***
أبا خالدٍ.. يا قصيدةَ شعرٍ..
تقالُ.

فيخضرُّ منها المدادْ..
إلى أينَ؟
يا فارسَ الحُلمِ تمضي..
وما الشوطُ، حينَ يموتُ الجوادْ؟
إلى أينَ؟
كلُّ الأساطيرِ ماتتْ..
بموتكَ.. وانتحرتْ شهرزادْ
وراءَ الجنازةِ.. سارتْ قريشٌ
فهذا هشامٌ..
وهذا زيادْ..
وهذا يريقُ الدموعَ عليكْ
وخنجرهُ، تحتَ ثوبِ الحدادْ
وهذا يجاهدُ في نومهِ..
وفي الصحوِ..
يبكي عليهِ الجهادْ..
وهذا يحاولُ بعدكَ مُلكًا..
وبعدكَ..
كلُّ الملوكِ رمادْ..
وفودُ الخوارجِ.. جاءتْ جميعًا
لتنظمَ فيكَ..
ملاحمَ عشقٍ..
فمن كفَّروكَ..
ومَنْ خوَّنوكَ..
ومَن صلبوكَ ببابِ دمشقْ..

أُنادي عليكَ.. أبا خالدٍ
وأعرفُ أنّي أنادي بوادْ
وأعرفُ أنكَ لن تستجيبَ
وأنَّ الخوارقَ ليستْ تُعاد...
وفي قصيدة رابعة بعنوان «الهرم الرابع» يقول نزار في ذكرى الزعيم العربي جمال عبد الناصر:
السيّدُ نامْ
السيّدُ نام
السيّدُ نامَ كنومِ السيفِ العائدِ من إحدى الغزواتْ
السيّدُ يرقدُ مثلَ الطفلِ الغافي.. في حُضنِ الغاباتْ
السيّدُ نامَ..
وكيفَ أصدِّقُ أنَّ الهرمَ الرابعَ ماتْ؟
القائدُ لم يذهبْ أبدًا
بل دخلَ الغرفةَ كي يرتاحْ
وسيصحو حينَ تطلُّ الشمسُ..
كما يصحو عطرُ التفاحْ..
الخبزُ سيأكلهُ معنا..
وسيشربُ قهوتهُ معنا..
ونقولُ لهُ..
ويقولُ لنا..
القائدُ يشعرُ بالإرهاقِ..
فخلّوهُ يغفو ساعاتْ..
***
يا مَن تبكونَ على ناصرْ..

السيّدُ كانَ صديقَ الشمس..
فكفّوا عن سكبِ العبراتْ..
السيّد ما زالَ هُنا..
يتمشّى فوقَ جسورِ النيلِ..
ويجلسُ في ظلِّ النخلاتْ..
ويزورُ الجيزةَ عندَ الفجرِ..
ليلثمَ حجرَ الأهراماتْ.
يسألُ عن مصرَ.. ومَن في مصرَ..
ويسقي أزهارَ الشرفاتْ..
ويصلّي الجمعةَ والعيدينِ..
ويقضي للناسِ الحاجاتْ
ما زالَ هُنا عبدُ الناصرْ..
في طميِ النيلِ، وزهرِ القطنِ..
وفي أطواقِ الفلاحاتْ..
في فرحِ الشعبِ..
وحزنِ الشعب..
وفي الأمثالِ وفي الكلماتْ
ما زالَ هُنا عبدُ الناصرْ..
من قالَ الهرمُ الرابعُ ماتْ؟
***
يا مَن يتساءلُ: أينَ مضى عبدُ الناصرْ؟
يا مَن يتساءلُ:
هلْ يأتي عبدُ الناصرْ..
السيّدُ موجودٌ فينا..

موجودٌ في أرغفةِ الخُبزِ..
وفي أزهارِ أوانينا..
مرسومٌ فوقَ نجومِ الصيفِ،
وفوقَ رمالِ شواطينا..
موجودٌ في أوراقِ المصحفِ
في صلواتِ مُصلّينا..
موجودٌ في كلماتِ الحبِّ..
وفي أصواتِ مُغنّينا..
موجودٌ في عرقِ العمّالِ..
وفي أسوانَ.. وفي سينا..
مكتوبٌ فوقَ بنادقنا..
مكتوبٌ فوقَ تحدينا..
السيّدُ نامَ.. وإن رجعتْ
أسرابُ الطيرِ.. سيأتينا..

تحتاج هذه الامة من عشرين الى ثلاثين ناصر، ومئة الى مئتي ام كلثوم ونجاة وفيروز وعبد الوهاب وعبد الحليم والف الف نزار.

يقول نزار قباني انه قدم لام كلثوم أغنية «اغضب كما تشاء»، ولكنها اعتذرت عن غنائها، وقالت له بأسلوبها الساخر: «إنّ أم كلثوم لا يمكن أن تقول للرجل هذا الكلام ثم تسامحه، أنا كنت أورّيه نجوم الظهر لو خانني أو لعب بديله»، ظلت القصيدة على الرف الى ان غنتها بعد سنوات طويلة، الفنانة السورية أصالة نصري.

في كتابه «آخر كلمات نزار» ينقل الكاتب عرفان نظام الدين عن القباني قوله: لا أحد ينطق قصيدة الشعر مثل أم كلثوم، ولا أحد يستطيع أن يتقمص القصيدة الأنثى مثل نجاة، ولا أحد يستطيع أن يلبس القصيدة

ثوبا حضاريا مثل ماجدة الرومي. ويقول عن عبد الحليم حافظ: انه يختصر تاريخ الغناء والمغنيين منذ إسحق الموصلي حتى اليوم.

ويقول عن عبد الوهاب انه لم يكن مغنيا عظيما فحسب، وإنما كان متكلما عظيما ومحاورا كمحاوري الإغريق، لقد عرفته في القاهرة عام 1945 حين كنت دبلوماسيا فيها، ولم أقترب منه شعريا لعلمي أنه لا يزال يدور في فلك أحمد شوقي، وحين لحن قصيدتي الأولى «أيظن» لنجاة الصغيرة، التي ضربت الآفاق في الستينيات؛ شعَر عبدالوهاب أنه بحاجة إلى كلام من نوع جديد وصياغات جديدة وصور جديدة، وعندما كان في طور تلحين قصيدة «ماذا أقول له؟» التي أقول فيها: (هنا جريدته... في الركن مهملة- هنا كتاب معا... كنا قرأناه- على المقاعد بعض من سجائره... وفي الزوايا بقايا من بقاياه) قال له أحد الأصدقاء الذين يترددون عليه: إيه ده يا أستاذ؟ أنت بعد ما غنيت «يا جارة الوادي» و«مجنون ليلى» لأمير الشعراء بتلحن كلام السجائر والجرانيل؟!

فتوقف عبدالوهاب عن العزف، وقال لضيفه: «اسمع يا سيدي... أنا ألحن هذه القصيدة لنزار قباني لأنها قصيدة تتحدث عن الحب المعاصر... وكلمة (سجائر) بالذات... والجرائد... هي التي جذبتني. فهل هناك عاشقان في العصر الحديث يلتقيان في كافتيريا ولا يكون بينهما جريدة وفناجين قهوة ومنفضة سجائر؟»

هكذا كان يفكر محمد عبدالوهاب، وهكذا كان يبحث عن الجديد والمتطور، وقد قال يوما لأحد الصحافيين في لبنان: صحيح أنني ارتبطت طويلا بشعر أحمد شوقي، ولكن نزار أدخلني بشعره عصر الحداثة.

احلام ومريم الاسطرلاب

مريم ابنة كوشيار الجيلي سيدة سورية عاشت في حلب في القرن العاشر الميلادي وكانت سيئة الحظ في حياتها، رغم انها عاشت في اجمل قصور حلب، وظل سوء الحظ يطاردها حتى بعد مماتها، رغم انها ماتت بعد ان كرست اسمها كعالمة ومخترعة ذات شأن، وطارد ايضا الباحثين في سيرتها كأحلام بشارات، الشاعرة والكاتبة المتخصصة في الادب لليافعين، ورمزي الطويل، الناشر والمؤلف ورسام الكاريكاتير، وساهر الكعبي، الفنان والخطاط.

والدها هو كوشيار الجيلي او الجيلاني او الكيلاني، نسبة لمنطقة جيلان من اراضي طبرستان، عاش واشتغل واشتهر في بغداد، ومات بعيدا

عن ارض وطنه تاركا عدة كتب في علوم الفلك والهندسة والحساب. تقول دائرة المعارف الاسلامية ان اعماله تتوزع على مكتبات: القاهرة والإسكندرية وبغداد وإسطنبول وطهران ودبلن وباريس وأوكسفورد، ومعهد التراث العلمي العربي بحلب والمكتبة البريطانية والمتحف البريطاني.

ويقول حاجي خليفة وهو كبير الموسوعيين العثمانيين: «أن لكوشيار كتابا في علم الاختيارات، وهو علم يبحث عن أحكام كل وقت وزمان، من الخير والشر، وأوقات يجب الاحتراز فيها عن ابتداء الأمور، وأوقات يستحب فيها مباشرة الأمور، وأوقات يكون مباشرة الأمور فيها بين بين. وذلك بحسب كون الشمس في البروج، والقمر في المنازل، والأوضاع الواقعة بينهما من: المقابلة، والتربيع، والتسديس، وغير ذلك، حتى يمكن بسبب ضبط هذه الأحوال، اختيار وقت لكل أمر من الأمور التي تقصدها: كالسفر، والبناء،. إلى غير ذلك من الأمور».

وترك ايضا ابنته مريم، ولا نعلم ان كانت صديقتنا مريم قد استفادت من كتاب والدها «علم الاختيارات» ام لا، قبل ان تنشغل بالفلك وعلومه وادواته؟

ما من شك بان العلماء يعايشون الشقاء والتعاسة، ينقطعون عن الدنيا وملذاتها، يسألون ولا ينتظرون جوابا بل يذهبون الى ما وراء وراءَ الطبيعة وما بعد بعدَ المألوف ليبحثوا عن جواب، يُتهمون بالزندقة والالحاد والهرطقة فيقتلون، او تنهار عليهم كتبهم، او يموتون بالإشعاع او اثناء تذوق مكتشفاتهم وتجريب مخترعاتهم.

وراء هذا التطور التقني الذي يشهده العالم بشكل متسارع علماء ضحوا بحياتهم او سعادتهم لننعم نحن الجهلة بالراحة والرفاهية، صدق القائل:

مَن لي بعيش الأغبياء فإنّه... لا عيشَ إلا عيشُ من لا يعلم

وصدق البحتري حين قال:

ارى العقلَ بؤسًا في المعيشة للفتى... ولا عيشَ إلا ما حَباك به الجهلُ

وصدق المتنبي وهو من قتله بيت من شعره:

الخيل والليل والبيداء تعرفني... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صدق حين قال:

ذو العقل يَشقى في النعيم بعقله... وأخو الجَهالة بالشّقاوة يَنعَمُ

عاشت مريم في قصر سيف الدولة الحمداني بحلب، ولكن عقلها كان منشغلا عن القصور ورفاهيتها، لقد كانت تناظر السماء والنجوم، لا الحدائق الغناء والقاعات الفارهة والمجالس المخملية، وظلت كذلك الى اخترعت الاسطرلاب المعقد وهو تطوير جوهري على الاسطرلاب التقليدي، فصار مخترعها ابا واما لعلم تحديد المواقع المعروف اختصارا في ايامنا هذه بنظام الـ GPS. والذي يعرف بانه علم الملاحة بين الاقمار الصناعية.

ماتت مريم ولم تنل من الشهرة معشار ما نالت جاريات ذلك الزمن، حتى الكتب المدرسية والمراجع والموسوعات التي تجتهد في تضخيم آثار ومنجزات علماء العرب والمسلمين اهملتها، وها انا، على سبيل المثال، ممن يعتبرون انفسهم من القراء والمهتمين، لم اعرف شيئا عن هذه السيدة، واعتقد ان كثيرين مثلي لم يسمعوا باسمها، واعتقد ان مؤسسات الدفاع عن حقوق المرأة لن تذكرها كنموذج صارخ للتمييز الذكوري الذي قد يطال العالمات ايضا.

أول مرة سمعت فيها اسم مريم الاسطرلابية، كان قبل عامين عندما نشرت الكاتبة أحلام بشارات قصتها التاريخية الموجهة للناشئة بعنوان «مريم سيدة الاسطرلاب»، أرادت الكاتبة لهذه القصة ان تكون مميزة

فتشاركت في الاشتغال عليها مع رسام الكاريكاتير وصاحب دار الرقمية للنشر رمزي الطويل حيث عقدا العزم على ان يكون الكتاب مميزا ومزودا بنموذج تعليمي، حقيقي ومصغر للاسطرلاب.

لم تكن المهمة سهلة حاول رمزي مع شركات صينية فاصطدم بالكلفة وغيرها، عوض عن ذلك بان ضم للكتاب صورا عن المخطوطات الاصلية التي تحدثت عن مريم واسطرلابها المطور، ثم استورد جهازا خاصا لنحت هذا الاسطرلاب وجعله شيئا ملموسا وماديا وقابلا للتشغيل والعمل ومرفقا بالكتاب، ولكي يكون الكتاب اكثر تميزا ومناسبة لجوه وطبيعته فقد تم الاعتماد على الخطاط الشهير والذي خطط النسخة الفلسطينية من القرآن الكريم كاملا، ساهر الكعبي ليكتب القصة كاملة بخط يده، صدر الكتاب الذي لم ينل حظه من الاهتمام ولا المبيعات. وكان مقدرا ان يقدم للتنافس على احد الجوائز التي ترعاها الامارات العربية المتحدة، ولكن هذا اصبح مستحيلا فلأصحاب هذا الكتاب موقفهم المعارض للتطبيع الاماراتي مع الاحتلال.

لا يشفع لك ان تكون مجتهدا في هذه البلاد، يجب ان تسند اجتهادك بحظ قوي وفيتامينات من هنا وهناك.

يحسب لأحلام بشارات بأنها تعمل بشكل جاد، في الكتابة لليافعين، وغيرهم، وفي تنويع مواضيع وأشكال أعمالها، كتبت عدة كتب، ترجم بعضها الى الايطالية والإنجليزية والألمانية، ووصل كتابين من كتبها للوحة الشرف العالمية لأهم مئة كتاب لليافعين، من خلال المجلس العالمي لكتب اليافعين، تفعل ذلك كله منشغلة بالبحث عن أسرار جديدة للإبداع قبل أي شئ آخر.

ويحسب لرسام الكاريكاتير رمزي الطويل بانه يسعى جاهدا، مع شريكه في دار الرقمية فؤاد العكليك، لتعميم النشر الالكتروني للكتب

في مجتمع لا يقرأ، مجتمع يسعى في البحث عن كتب ترسل اليه مزودة بإهداء وتوقيع الكاتب ليزين بها رفوف مكتبته.

ويحسب للخطاط ساهر الكعبي بانه يعمل في مهنة فنية تقف الكومبيوترات وبرامج التخطيط والتصميم الالكتروني لها بالمرصاد، مهنة الخطاط «مش جايبة همها» هكذا قال الكعبي لصحيفة العربي الجديد، ولكنه ما زال مع ذلك يقبض على الريشة والجمرة معا.

كل هذه الأسماء تشاركت بمنتهى الاخلاص في انجاز قصة تاريخية للناشئة عن عالمة عربية أغفلها التاريخ، ولكن هذا الاخلاص لم يخدم الكتاب كثيرا كما تشرح أحلام بشارات، حيث كتبت تحت عنوان «شرفة واطئة مطلّة على حياة مريم سيدة الإسطرلاب»:

»إن أهم ما يحركني، عادة، نحو الكتابة، هو الشغف، في البداية شعرت بالفضول اتجاه امرأة عالمة مارست عملها بين ثلاثة رجال: والدها، وأستاذها، والأمير الحاكم، في بيئة لا بد وكانت بيئة محافظة، لكن التاريخ، للأسف، ينقص ويزيد، بأيدي من يكتبونه، ويبدو أن المرأة العربية المسلمة لم تكن من أولوياته، بل على العكس، كان حجب دورها أحد أدواته».

بدأت الكاتبة رحلة البحث في حياة مريم، او مهمة ترميم صورة مريم، ولم يكن الأمر سهلا أبدا، نظرا لقلة المعلومات وصعوبة الحصول على اجابة لهذا السؤال:

»كان السؤال: ما الذي أضافته مريم للاسطرلاب، حتى يقال بأنها طورته؟ وكانت الإجابة على هذا السؤال هي المبرر العلمي لتأليف هذا الكتاب، ففي النهاية كيف سأكتب كتابا عن عالمة دون أن أقول للقارئ ما الذي فعلته بالضبط! وهنا، فقد اعتمدت، مع زميلي، رمزي الطويل، الذي يعود له الفضل في البحث حول المعلومات العلمية، وتصنيع الإسطرلاب،

على الاستنتاج، بحيث استنتجنا من خلال القياس، والمقاربة، والمقارنة، لاسطرلابات تعود للمرحلة التي عاشت فيها مريم، وأخرى للمرحلة التي سبقتها، وحقائق علمية سادت في وقتها، وأخرى سبقت على عصرها، فتبين أنه يمكننا أن نقول بأنه يعود لمريم الفضل في أمرين، هما: تصنيع القطعة المسماة بالعنبكوت، وهي قطعة مضافة للاسطرلاب، والأمر الثاني هي أنها أثبتت أن نجم الزهرة نجم واحد لا نجمين كما كان الاعتقاد سائدا، لاختلاف أوقات ظهوره، بين الصيف والشتاء، صباحا ومساء».

كان على الكاتبة وضع هذه الحقائق العلمية في إطار أدبي، بعد التبحر في المرحلة الزمنية والمكان الذي عاشت فيه مريم بجانب نهر قويق في حلب، ورسم صورة لمدينة حلب في عهد الامير الفارس الشاعر العاشق لعلم الفلك، ويبدو أنها قد نجحت الى حد ان كاتبا فلسطينيا يعرف سوريا جيدا اعتقد ان الكاتبة عاشت حياتها في حلب.

لماذا بخط اليد؟ تجيب احلام:

»إخترنا أن يكتب الكتاب بخط النسخ، بيد الخطاط الفلسطيني ساهر الكعبي، الذي برى قلمه بطريقة جعلت خط النسخ يظهر وكأنه خط يد كتبت الكتاب في أحد الليالي البعيدة المعتمة، تحت ضوء شمعة»

هل كان العمل مكلفا؟

»قمنا في البداية بطباعة الكتاب، وصناعة قطعة الاسطرلاب من الخشب، وكانت هذه النسخة من الكتاب هي النسخة الأجمل، مع إضافة قطعة ورقية مقواة لتثبيت قطع الاسطرلاب التي سوف يقوم التلاميذ بتثبيتها بأنفسهم، لكن هذه النسخة، بهذه الصورة، كانت مكلفة جدا، ونحن لا نمتلك الأموال الكافية لطباعة عدد مناسب، وإذا فعلنا فلن نجد من يشتري منا، وإذا وجدنا فإن الكتاب سيظل في أيدي النخبة، ممن يمتلكون المال،

ونحن كنا نطمح منذ البداية لأن يكون هذا الكتاب الجميل، متوفرا للناس العاديين، من طلبة المدارس، ومرتادي المراكز الثقافية في القرى والمدن والمخيمات، وعليه فقد ذهبنا للبحث عن طرق أخرى، من ضمنها نسخة ليست النسخة الأفضل، كون الاسطرلاب مصنوعا من بلاستيك مقوى، ما جعله غير منسجم مع الورق، لا سيما ورق الطباعة الذي صممه رمزي خصيصا للكتاب، فبدا ورقا أقرب لورق المخطوطات القديمة، لقد جعلنا هذا نشعر بالاحباط، إلا أنه لم يوقفنا عن إطلاق الكتاب، في المرصد الفلكي، في جامعة بيرزيت، وبحضور مميز من المهتمين».

لا استطيع الا ان اقدم احترامي للمجتهدين، في هذا الزمن المجبول على محاربة الجد والاجتهاد، ومع باقة الاحترام باقات من التضامن والتعاطف. فاطلاق الكتاب في جامعة وداخل مرصد فلكي وبحضور رسمي وأكاديمي ومؤسساتي لم يكن كافيا لتأمين طباعة هذا الكتاب بالشكل اللائق وضمان وصوله الى المستهدفين.

ويبدو ان الكتاب كان اسرع وصولا الى غير المستهدفين كما تشرح احلام: «كنت سعيدة جدا عندما تم العثور على كتابنا عبر الانترنت، من قبل المتحف العلمي في أكسفورد، يبدو ان لديهم الرغبة في التعرف على هذه التجربة التي جعلت ثلاثة فنانين فلسطينين، في قطاعات فنية مختلفة، الكتابة، والخط، والكاريكاتير، رغم ظروف الحصار والحرب، يفكرون بامرأة عالمة عاشت قبل ما يزيد عن ألف عام، ولم يعطها التاريخ حقها، بدل أن يفكروا بحياتهم ومشكلاتها، ويتناولونها عبر فنونهم، ثم يعيدونها الى الحياة».

ماري وبترو باولي

كانت الاديبة السورية ماري عجمي تسير على عكازة لوهن اصاب احدى ساقيها منذ الصغر ولكن ذلك لم يوهن عزيمتها ولم يمنعها من ان تطرق بعكازها باب جمال باشا السفاح لتفاوضه على تشكيل لجنة للدفاع عن حقوق رجال الفكر والتنوير قبل إعدامهم في يوم 6 أيار من عام 1916، لأنهم طالبوا بخلاص البلاد من الحكم العثماني.

ولم يمنعها مرضها من مواصلة التعلم وانشاء اول مجلة عربية تطالب بتحرير وتعليم النساء وتخليصهن من قيود العادات البالية، جمعت حولها عددا كبيرا من الفتيات وكان بعضهن يكتبن بأسماء مستعارة.

استقطبت ماري لمجلتها النسائية «العروس» عددا كبيرا ونوعيا من

الادباء العرب امثال: جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وإيليا أبو ماضي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والأخطل الصغير وعباس محمود العقاد وغيرهم.

غير ان اهم من استقطبتهم هو حبيبها اليوناني بترو باولي مراسل المجلة في بيروت، كان بترو صاحب مقالات نارية تهاجم العثمانيين، اعتقلوه فظلت تزوره، وعندما منعوها بدأت برشوة السجانين لتتمكن من زيارته وزيارة بقية المسجونين، صارت ساعية بريد بين هؤلاء المعتقلين وذويهم في الخارج، وظلت تزوره الى ان اعدموه مع آخرين.

ماري عجمي وخطيبها الشهيد اليوناني بترو باولي

نفذت عمليات الاعدام فجر يوم السبت 6 أيار سنة 1916 في ساحة المرجة بدمشق وساحة البرج في بيروت، كتاب «شهداء الحرب العالمية الكبرى لأدهم الجندي» رصد اللحظات الاخيرة في حياة الشهداء فكتب:... وفي الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل حانت ساعة الموت، فدخل الجند وطلبوا الشهداء: سعيد عقل،وباترو باولي،وجرجي الحداد،وسيقوا مكبلين بالأغلال إلى ساحة الإعدام، وقام الطبيب يفحص أجسامهم،وتلى ضابط الديوان العرفي نص الحكم الصادر بالإعدام، صعد الشهيد بترو

باولي من تلقاء نفسه إلى منصة المشنقة، ورفس الكرسي برجله فهوى وقضى نحبه. بكته ماري كثيرا وحرمت على نفسها الزواج من غيره وظلت تعيش على ذكراه.

أنـت يـا ذكريـاتِ دهـري إذا مـا... بسطَ اللـيلُ مُدلهـمَّ الجنـــاحِ
فارفعي الستـرَ فـالـحديث شجونٌ... لرؤًى قـد تدوم حتى الصباح
أنـت مستـودعُ الأمـاني اللواتي... كـنَّ من قبلُ عـابقـاتِ النـواحي
صـورُ الأمسِ والزمـانُ شهـــيٌّ... تتـراءى فـي لـوحة الإفصـــاح
أنـتِ مـثلُ الغيوم فـي صفحة الأفْـقِ.. نهـارًا ما بـين غافٍ وصاح
تعكـسـين الأنوارَ شـتَّى عـلى الأمواجِ... يـهتـاجهـا أنـيـن الرياح
أنـت مـن مـوجةِ الهُيـام رشَاشٌ... نفضَتْهُ أنـامـلُ الأشبـــــاح
يصـبح الأمس حـاضرًا فـيك لـولا... مـا نَزا مـن مدامعٍ وجـــراح

ولـيَغْدو العـدا كرامًا نشـــاوى... شـربـوا خمـرةَ الـــولاء الصُّراح
ولـيُمسي الـبعـيـدُ فـيك قـريبًا... بـاعثًا فـي الفضـاء ريّا الأقاحي
ويـهـبّ الـمـوتى، فهذا حبيبٌ... يـتهـادى وذي قُدودُ الـمـــــلاح
لكأنَّ الشبـــابَ لَدْنٌ حَفِيٌّ... مشـرئبٌّ إلى فُنـون الـــــمِراح
أسمعُ الصوتَ أو أرى الطـيفَ مـنهم... يـتهـادى على النجـوم الصِّباح
وأردُّ الصدى، وأرفع كأسا... أُتـرعَتْ مـن عُصـــارة الأرواح
وأنـا الطفلة اللعـوبُ وصحـبـي... نـتبـارى عـلى رمـال الـبِطـــاح
نـتسـاقى مـن الـوداد صـفـيًّا... فـي رياضٍ مطرَّزاتِ الـوِشـــاح
ثـم تخـفى معـالـمٌ ورسـومٌ... لـيس يبقى غـيرُ الأسـى الـمِلْحاح

كتبت الشعر والنثر والمقالات وترجمت العديد من الروايات، وشكلت الجمعيات والنوادي وساهمت في تأسيس المدارس والمكتبات وحرضت على قتال الفرنسيين حتى اغلقوا مجلتها نهائيا.

زارت فلسطين وعملت فيها وتعرفت الى اهلها وكتبت في صحافتها وكتبت صحافتها عنها، واقيمت لها المهرجانات التكريمية. وكان لها نصيبها من مدائح شعراء فلسطين ايضا، فها هو الشاعر الشاب «ابو سلمى» عبد الكريم سعيد الكرمي يقدم لها بخشوع زهرة اعجاب واخلاص، عبر قصيدة نشرتها جريدة مرآة الشرق لصاحبها بولس شحادة، في العدد الصادر في القدس يوم الخميس 14 حزيران عام 1928:

صمت الليل وهو اسيان عانٍ... واجفا من طوارق الازمان
مثقلا بالخطوب مثل بني... الدنيا خفي الاحساس كالانسان
وتجلى بدر يبث عزاء لا لأولي... الشجو بل الى الاكوان
مستمدا من عالم الغيب سرا... منحته الاقدار فيض الاماني
نشرت والقلب غارق في جواء... اقلقته عوامل النزوان
في ثنايا الليل الكئيب حزينا... فانا وهو في الاسى اخوان

وأتيت الروض الجميل ارجى... خفقة من مسرة او حنان
على عشبة ارتميت وكان الزهر... في الروض ناعس الاجفان
واذا عصبة «الالاهات» ينسبن... انسيابا كناقر الغزلان
يتهادين باسمات ويجررن... من التيه جانب العنفوان
فانثنى الليل باسما واخو اليأس... طليقا من ربقة الاحزان
ونزا الخافق التياعا ووجدا... وقديما ابلاه حب الحسان
بين زهر ونرجس واقاح... حدثها شقائق النعمان
بسمت (ربة البيان) دلالا... بسمة بلبلت نهى رضوان
ثم قالت الى الزميلات همسا... هاجت الحس يقظة في الجنان
فجعلنا ماري «اديبة سوريا»... ابتهاجا اميرة للبيان
ايه ماري وانت موئل وحي الشعر... والنثر اذ هما يشهدان
اسمعينا الشعر الحلال لكيما... نتغنى بخالد غير فان
نلمس الشجو تارة من ثناياه... فينسى الحشا اذى الاشجان
ونحس الحبور طورا فتعلو الروح... شوقا الى سماء الجنان
العبي بالشعور بالعقل بالقلب... وحتى يئن في الخفقان
فمنى الناس هيكل الادب الرائع... ترعى حماه احدى الغواني
فاحرسيه لا زلت فخر مريديه... بفكر ومهجة ولسان

انصرفت ماري بعد اغلاق مجلتها إلى التدريس في العراق عام 1940، وكان من تلميذاتها الشاعرة نازك الملائكة. ولما بدأ المرض يثقل عليها عادت إلى دمشق وظلت تعيش هناك وحيدة، خلال مرضها الأخير ظلت قابعة في بيتها، وحيدة، لا شيء يسليها سوى جهاز الراديو:

أنام والأنغام في مسمعي... تدوي وحر الشوق في أضلعي
تردد الأصداء مخضوبة... بما نزل في كبد موجعِ
يا صلتي بالكون في وحدتي... إذا دجى ليل النوى الأروعِ

مدي بهذا الصوت يا طالما... حملت إلى الملأ الأرفعِ
أكل ما يبقيه دهر لنا... سلك من الفولاذ في المخدعِ ؟!

اشتدت عليها وطأة النوبات العصبية، حتى ماتت في ليلة عيد الميلاد عام 1965، ودُفنت في دمشق بجنازة لم يحضرها سوى 16 شخصًا.

جمعت بعض اعمالها في كتاب «ماري عجمي.. في مختارات من الشعر والنثر»، وجاء على غلاف الكتاب بيتان من الشعر للزعيم السوري فارس الخوري:

يا أهيل العبقرية... سجلوا هذي الشهاده
إن ماري العجميّة... هي ميّ وزياده

تختلف صورة الدمشقيات كماري عجمي ونازك العابد ورفيقاتهن في تلك المرحلة الزمنية عن صورة نساء دمشق في باب الحارة ومجمل

الاعمال الدرامية السورية، وهذا ما سعى المخرج الفلسطيني باسل الخطيب وكاتبة السيناريو عنود خالد الى اظهاره من خلال مسلسل حرائر، والذي لعبت فيه الفنانة حلا رجب دور ماري فيما لعبت الفنانة لمى الحكيم دور نازك، ولعب الفنان يزن خليل دور بترو باولي ذلك الشهيد اليوناني الذي احبته ماري ورفضت الارتباط بغيره الى ان ماتت.
لعبت الفنانة سلاف فواخرجي دور بسيمة وهي شخصية افتراضية وليست واقعية كبقية الشخصيات اعلاه، شخصية ظلت تنتمي الى عالم سيدات باب الحارة الى ان تعرفت على ماري ونازك، فانتفضت على واقعها المرير المتمثل بمرض زوجها ثم وفاته وتسلط شقيقه عليها ومحاولة ابتزازها لتقبل الزواج به ورفض إعطاءها ميراثها هي وبناتها.
بسيمة وبعد معرفتها بماري ونازك قررت ان تدرس بناتها واستطاعت العمل وإيجاد صنعة خاصة بها درت عليها الكثير من المال، ومنحتها القوة لمواجهة محيطها وكشف غطاء وجهها ووجه بناتها الصغيرات.
تعليقا على المسلسل كتب ماهر منصور في العربي الجديد ان المسلسل انشغل في تصحيح الصورة التي رسمها مسلسل باب الحارة للشاميات، على حساب انشغاله برسم الصورة الواقعية للبطلتين ماري عجمي ونازك العابد، وخلص الكاتب الى أنّ واقع بسيمة لم يكن هو القاعدة العامة الشاملة لحال النساء في دمشق، ولم تكن نازك العابد وماري عجمي الاستثناءين الوحيدين بين نساء دمشق.
حاز العمل اعجاب النقاد والجمهور ولكن ذلك لم يمنع اعتراض الكاتبة على المخرج بشأن النهاية، لقد ارادت الكاتبة مشهدا ختاميا يسجل ذهاب نازك إلى معركة ميسلون لإقامة مشفى ميداني، تعالج به الجنود المقاتلين الذين وقفوا في وجه الفرنسيين، بعد أن توَّجها الملك فيصل برتبة نقيب شرف في الجيش السوري، لتكون أول امرأة تحصل على

هكذا شرف عام 1920.

استبدل المخرج الخطيب هذا المشهد بختام مختلف تماما ورد على الكاتبة قائلا: كان فيصل أول الفارين من الشام بعد سقوط ميسلون واستشهاد يوسف العظمة، ولم يكن واردًا أن يمنح أية أوسمة في وقتها. ثم إنه وبغض النظر عن الواقعة التاريخية، ليس مقبولًا اليوم، بالنسبة لنا كسوريين، أن نختتم مسلسلًا يتحدث عن تحرر وتنوير نساء الشام، بمشهد لملك حجازي معروف باتصالاته السرية مع اليهود.

لا أَعودُ من الشام حيًا، ولا ميتًا، بل سحابًا

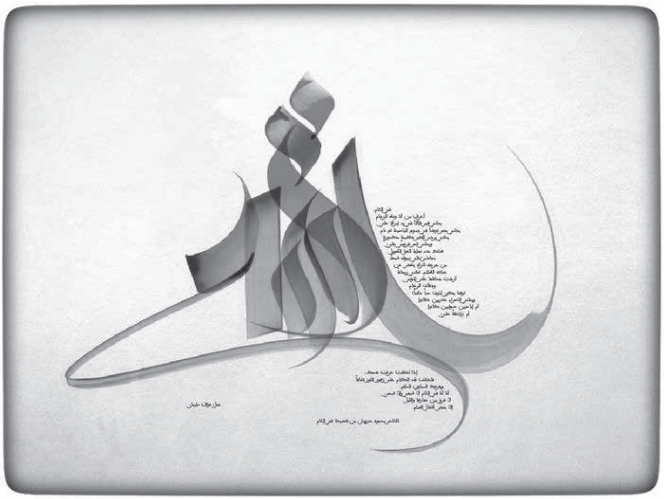

عندما حلت النكبة على شعبنا بظلمها وظلامها، كان الحديث الذي يدور في اروقة السياسة والاعلام يكاد يقتصر على اللاجئين، ويهمل ذلك من القسم من الشعب الذي ظل في بيوته وعلى ارضه ليخوض مواجهة يومية مع المحتل، مواجهة تشمل كافة تفاصيل الحياة بتاريخها وحاضرها ومستقبلها، مواجهة تشمل الحرف والاسم، وصك الملكية وكافة الحقوق. لقد فرضنا كفلسطينيين وكعرب ما يشبه الجدار بيننا وبين هؤلاء الصامدين، لم يكن مسموح لهم بالسفر الا للحج عبر الاردن وبمسارات خاصة تحفظ عزلتهم، يكفي ان نتذكر ان حزب البعث العربي الاشتراكي في القطر السوري فصل الاديب الفلسطيني فيصل حوراني لأنه صافح الشاعر محمود درويش خلال لقاء جرى في العاصمة البلغارية صوفيا عام 1968.

محمود درويش وزملاؤه الادباء الشيوعيون خاضوا هذه المواجهة

اليومية، ولولاهم فلربما اختفت اللغة العربية، وضاعت فصول كثيرة من الرواية، ولم نجد من نفخر بهم من الكتاب الفلسطينيين على طول وعرض وامتداد مسيرتنا.

درويش كان الالمع بحكم عبقريته وشاعريته، ومواقفه السياسية ايضا، اضافة الى تعدد وتنوع تجاربه ومراجعه بحكم ظروف سفره وتنقله وعلاقاته، لقد طغت شهرته المستحقة على شهرة الآخرين، شهرة لم يفرضها هو ولم يسع اليها بل فرضها جمهوره، وفرضتها لغته التي سيطرت على لغة الآخرين، وصارت موردا من موارد ابداعهم، دون ان يشعروا.

التأثر بدرويش كان سمة اللاحقين به، اما مجايلوه فلقد كانت لهم سماتهم الخاصة والفريدة، ولكي لا ننسى فان من هؤلاء الادباء: توفيق زياد، اميل حبيبي, سميح القاسم, اميل توما, راشد حسين، محمد علي طه، سلمان ناطور، سليمان دغش، جمال قعوار، سالم جبران، طه محمد علي، جوني منصور، و صالح برانسي وحنا ابو حنا وغيرهم كثير.

كنا محظوظين وطنيا وادبيا بهؤلاء، كانوا جزءا من التعويض الرباني لشعبنا على نكبته الكبيرة، هذا التعويض كان احمر المنبت، وطني وجماعي وانساني الحضور والتوجه، لم يكن اخضر ولا اصفر. ما احوجنا الى تعويض رباني مماثل.

محمود درويش احب دمشق وتزوج سورية (إنفصل عنها فيما بعد) كما احب بيروت، اعتقد احيانا انه كتب الشعر عن بيروت الفلسطينية وليس بيروت اللبنانية اما شعره عن دمشق فقد كان خالصا لدمشق السورية:

في دِمَشْقَ، تطيرُ الحماماتُ، خَلْفَ سِياجِ الحريرِ، اُثْنَتَيْنِ... اُثْنَتَيْنِ...

في دِمَشْقَ، أَرى لُغَتي كُلَّها، على حبَّة القَمْحِ مكتوبةً، بإبرة أُنثى، يُنَقِّحُها حَجَلُ الرافِدَيْن

في دِمَشْقَ، تُطَرَّزُ أَسماءُ خَيْلِ العَرَبْ، مِنَ الجاهليَّةِ، حتى القيامةِ، أَو بَعْدها، بخُيُوطِ الذَهَبْ

في دِمَشْقَ، تسيرُ السماءُ، على الطُرُقات القديمةِ، حافيةً، حافيةْ، فما حاجةُ الشُعَراءِ إلى الوَحْيِ والوَزْنِ والقافِيَةْ ؟

في دِمَشْقَ، ينامُ الغريبُ، على ظلّه واقفًا، مثل مِئْذَنَةٍ في سرير الأَبد، لا يَحنُّ إلى بَلدٍ، أَو أَحَدْ

في دِمَشْقَ، يُواصل فِعْلُ المُضَارِع، أَشغالَهُ الأُمويَّةَ، نمشي إلى غَدِنا واثِقِينَ، من الشمس في أَمسنا، نحن والأَبديَّةُ، سُكَّانُ هذا البَلَدْ!

في دِمَشْقَ، تَدُورُ الحوارات، بين الكَمَنْجَةِ والعُود، حَوْلَ سؤال الوجودِ، وحول النهاياتِ:مَنْ قَتَلَتْ عاشقًا مارقًا، فَلَهَا سِدْرَةُ المنتهى!

في دِمَشْقَ، يُقَطِّعُ يوسُفُ، بالنايَ، أَضْلُعَهُ لا لشيءٍ، سوى أَنَّهُ لم يَجِدْ قلبَهُ مَعَهُ

في دِمَشْقَ، يَعُودُ الكلامُ إلى أَصلِهِ، ألماءِ: لا الشِعْرُ شِعْرٌ، ولا النَثْرُ نَثْرٌ، وأَنتِ تقولين: لن أَدَعَكْ، فخُذْني إليك، وخُذْني مَعَكْ!

في دِمَشْقَ، ينامُ غزالٌ إلى جانب اُمرأةٍ، في سرير الندى، فتخلَعُ فُسْتَانَها، وتُغَطِّي بِهِ بَرَدَى!

في دِمَشْقَ، تُنَقِّرُ عُصْفُورَةٌ، ما تركتُ من القمحِ فوق يدي، وتتركُ لي حَبَّةً، لتُريني غدًا، غَدِي!

في دِمَشْقَ، تدَاعِبُني الياسمينةُ:لا تَبْتَعِدْ، واُمشِ في أَثَري، فَتَغارُ الحديقةُ:لا تقتربْ من دَمِ الليل في قَمَري

في دِمَشْقَ، أُسامِرُ حُلْمي الخفيفَ، على زَهْرة اللوزِ يضحَكُ:كُنْ واقعيًا، لأُزهرَ ثانيةً، حول ماءِ اُسمها، وكُنْ واقعيًّا لأعبر في حُلْمها!

في دِمَشْقَ، أُعرِّفُ نفسي على نفسها:هنا، تحت عَيْنَيْن لوزيَّتَيْن، نطيرُ معًا تَوْأَمَيْن، ونرجعُ ماضِينَا المشتركْ

في دِمَشْقَ، يرقُّ الكلامُ، فأسمع صَوْتَ دمٍ، في عُرُوق الرخام:اُخْتَطِفْني مِنَ أُبني، تقولُ السجينةُ لي، أَو تحجَّرْ معي!

في دِمَشْقَ:أَعدُّ ضُلُوعي، وأُرْجِعُ قلبي إلى خَبَبِهْ، لعلِّ التي أَدْخَلَتْني إلى ظِلِّها، قَتَلَتْني، ولم أَنْتَبِهْ

في دِمَشْقَ، تُعيدُ الغريبةُ هَوْدَجَها إلى القافِلَةْ:لن أَعودَ إلى خيمتي، لن أُعلِّقَ جيتارتي، بَعْدَ هذا المساءِ، على تينة العائلةْ

في دِمَشْقَ، تَشِفُّ القصائدُ، لا هِيَ حِسِّيَّةٌ، ولا هِيَ ذهْنيَّةٌ، إنَّها ما يقولُ الصدى، للصدى

في دِمَشْقَ، تجفُّ السحابةُ عصرًا، فتحفُرُ بئرًا، لصيف المحبِّينَ في سَفْح قاسْيُون، والنايُ يُكْملُ عاداته، في الحنين إلى ما هُوَ الآن فيه، ويبكي سدى

في دِمَشْقَ، أُدوِّنُ في دفْتَرِ اُمرأةٍ:كُلُّ ما فيكِ من نَرْجسٍ يَشْتَهيكِ، ولا سُورَ حَوْلَكِ، يحميكِ، مِنْ ليل فِتْنَتِكِ الزائدةْ

في دِمَشْقَ، أَرى كيف ينقُصُ ليلُ دِمَشْقَ، رويدًا رويدًا، وكيف تزيدُ إلهاتُنا، واحدةْ!

في دِمَشْقَ، يغني المسافر في سرِّه:لا أَعودُ من الشام حيًا، ولا ميتًا، بل سحابًا، يخفِّفُ عبءَ الفراشة، عن روحِيَ الشاردةْ

لحن هذه القصيدة وغناها الفنان المبدع مارسيل خليفة، كما لحنتها وغنتها ايضا الفنانة بادية حسن، مؤكد انهما استصعبا تلحين وغناء قصيدة درويش الاخرى «طريق دمشق»

وكان درويش قد زار دمشق مرة اخيرة عام 2005 على هامش مشاركته في دورة معرض الكتاب، واحيا امسية طويلة استهلها بالإعراب عن حيرته قائلا: في الشام لا اعرف كيف ابدأ وكيف انهي، ولكن افضل ما امرّن به قلبي على الكلام، هو التغني باسم دمشق، ثم القى القصيدة

اعلاه والتي جعل عنوانها «طوق الحمامة الدمشقية» وجعل لها هذه المقدمة الرائعة:

أمر باسمك إذ أخلو إلى نفسى... كما يمرّ دمشقي بأندلسي
هنا أضاء لك الليمون ملح دمي... وها هنا وقعت ريح عن فرسي
أمر باسمك لا جيشٌ يحاصرني... ولا بلاد كأني آخر الحرسِ
أو شاعر يتمشّى في قصيدته

وهي مقدمة لحنها وغناها ايضا مارسيل خليفة.

في تلك الامسية لم ينس درويش ان يذكر الاكراد الذين لم يحصلوا على حقوقهم لا في سوريا ولا في غيرها فانشد قصيدته الشهيرة «ليس للكردي الا الريح» وقدمها قائلا: هذه القصيدة تحية الى الاخوة العربية الكردية في اطار الهوية الوطنية السورية الواحدة، الى افضل من يكتب اللغة العربية منذ عقدين من الزمان الشاعر والروائي السوري سليم بركات. مؤكد انه تعمد اختيار القصيدة، وكذلك الاهداء، ومؤكد ان ذلك لم يعجب السوريين الرسميين، درويش فعل ذلك في بغداد ايضا حين تحدث عن «الشعار على الجدار».

في امسية معرض الكتاب بدمشق لم ينس درويش ايضا القاء قصيدته الشهيرة عن الشاعر العراقي بدر شاكر السياب.

للحمام حضور كثيف على ادراج وفي سماء قصائد درويش، وفي هذه الامسية، استذكر درويش حمامة ابي فراس الحمداني الاسير في سجن الروم، فطّيرها الى ابن عمه سيف الدولة في حلب، حاملة روميّاته، وكأنه ينشد تراثا شاميا خالدا «يا طيرة طيري يا حمامة وانزلي بدمّر والهامة»: زنزانتي اتسعت سنتمترًا لصوت الحمامة:

طيري إلى حلب، يا حمامة، طيري برروميتي، واحملي لابن عمّي سلامي!.... سوف أخرج من حائطي

كما يخرج الشبح الحر من نفسه سيدا
وأمشي إلى حلب. يا حمامة طيري
برومیتي، واحملي لابن عمّي
سلام الندى

كما شكى ابو فراس الحمداني للحمامة تلكأ ابن عمه سيف الدولة في انقاذه من الاسر، سبق لدرويش ان عدّ اضلاعه في اكثر من قصيدة فشكى غياب سوريا وغيرها، في قصيدته احمد الزعتر قال درويش:

و أعدُّ أضلاعي فيهربُ من يدي بردى
و تتركني ضفافُ النيل مبتعدا
و أبحثُ عن حدودِ أصابعي
فأرى العواصمَ كلـَّها زبدا

الحقيقة ان الشاعر محمود درويش أحب بردى قبل ان يراه، وانه اصيب بخيبة امل عندما شاهده اول مرة كما يروي ساطع نور الدين، في مقال نشرته السفير اللبنانية، لقد وجده شحيح المياه وملوثا بالصناديق الفارغة والفضلات، ولكنه وكما يروي ساطع، ظل يعتبر ان جمهوره في سوريا هو الجمهور الاعظم اهتماما بالشعر، والاكثر تميزا في ذائقته الفنية.

اجد خيبة امل محمود درويش بنهر بردى حاضرة في قصيدته «طريق دمشق»:

أحاصرهم: قاتلًا أو قتيل
وأنسى الخلافة في السفر العربيِّ الطويل
إلى القمح والقدس والمستحيل
يؤرِّخني خنجران:
العدوُّ

وعورةُ طفل صغير تسمّونهُ
بردى
وسمَّيته مبتدأ
وأخبرته أنني قاتل أو قتيل

الحقيقة ان عبارة (يؤرخني خنجران) وردت على ثلاث روايات تبعا لمدى سوء نية الناشر، البعض مثلي كتب (يؤرخني) طبقا لما جاء في ديوانه، والبعض كتبها (يؤخرني) قاصدا شيئا ما في نفسه، وآخرون كتبوها (يوخزني) قاصدين الاسوأ، وربما كان الامر مجرد خطأ بحسن نية، وانا نفخت فيه متوقعا سوء نوايا، لم يغب مرة الا ليظهر مرات.

يمتاز النظام السوري بالدهاء، فهو نفسه من ينقل امسية محمود درويش من قاعة صغيرة الى ملعب كبير في مناسبة معينة، ثم يخصص لأمسيته قاعة لا تستوعب اكثر من 400 في مناسبة اخرى، وهو من يجعل من مغناة احمد الزعتر فاتحة لفعاليات دمشق عاصمة الثقافة العربية وكأنه (النظام) بريء تمام البراءة من مجزرة تل الزعتر، وهو نفسه من يحتفي بالشاعر بعد رحيله من خلال مسلسل (بائس) ثم يمنع عرض فيلم «كما قال الشاعر» للمخرج نصري حجاج، كانت حجة المنع هي وجود شاعر اسرائيلي في الفيلم.

يقول نصري حجاج والعهدة عليه وعلى الراوي:

«حكاية سمعتها من أحد المقربين من محمود درويش وأعتقد بأن كثيرين من الفلسطينيين يعرفونها.

في فترة على ما أظن بعد أوسلو مباشرة وكان الشاعر على خلاف مع الرئيس عرفات وحدث أنه دعيّ لأمسية في دمشق فذهب. وكما هو معلوم فإن حافظ الأسد الأب كان يكره عرفات وكل ما يمت له بصلة فأرسل الى محمود في فندقه الدمشقي دعوة للقائه فلم يستطع الشاعر الصادق

والعارف بألاعيب الأسد رفض الدعوة.

وفي نهاية اللقاء اقترح الأسد على الشاعر أن يقيم في دمشق من غير أن يعلن له أنه يعلم بخلافه مع عرفات وأظهر كرمًا مبالغًا فيه تجاه محمود لو أخذ قرارًا بالإقامة في دمشق.

شكره محمود بتهذيب وعندما عاد الى فندقه أسرع بالرحيل عن دمشق وذهب مباشرة الى تونس بدلًا من باريس حيث كان يقيم ودخل على عرفات وعانقه وصالحه وقبّله وكان عرفات بحسه الحاد عرف بما اقترحه الأسد على الشاعر ليغيظه ويضرب الشاعر الفلسطيني بالقائد الفلسطيني».

مثلما النسمةُ من بردى

اول فكرة خطرت ببالي وانا اشاهد دجلة يخترق بغداد، ثم وانا اسير عرضيا فوقه، واحيانا الى جانبه طوليا، هي ان المزاج واحد من الاشياء المشمولة بالآية الكريمة وجعلنا من الماء كل شيء حي، للمدن العريقة انهارها، للقاهرة نيلها ولبغداد دجلاها ولدمشق برداها، ولا عزاء للمدن القاحلة، لسكان المدن النهرية فرصة تبديد المزاج السيء، بكل يسر وسهولة، ولشعراء هذه المدن مورد عظيم يغذي اشعارهم.

كم من الشعر قيل في النيل ودجلة والفرات، لقد قيل فيها الكثير الكثير، حتى صارت الانهر رمزا خالدا من رموز هذه الدول، ولكن وكما قال محمود درويش:

لن يصب النيل في الفولغا
ولا الكونغو، ولا الأردن، في نهر الفرات!
كل نهر، وله نبع.. ومجرى.. وحياة!
تواجه الانهار مصيرها الاسود منفردة، تلويثا بمياه الصرف الصحي والنفايات الصناعية، وتجفيفا، وتحويلا، وتبدلا مناخيا، واستيلاء عبر السدود الجائرة. تستحوذ اسرائيل على نصيب الاسد من مياه الاردن، ومثلها تفعل تركيا مع سوريا والعراق وكذلك تفعل اثيوبيا مع النيل العظيم.
توقف الناس عن تقديم القرابين للأنهر، فهي لم تعد تفيض، وما عادت العائلات تخرج في رحلات السيران الاسبوعي الى ضفاف النهر، وعما قريب سينفض المزارعون والصيادون من محيط النهر، وسيضع من يسير بجانبه كمامة تقيه من الروائح الكريهة. لن يعود للشعر الذي قيل في الانهار أي تأثير، سيهزأ تلاميذ المدارس بأمير الشعراء احمد شوقي وهو يقول:
سلام من صبا بردى ارق... ودمع لا يكفكف يا دمشق
دخلتك والاصيل له ائتلاق... ووجهك ضاحك القسمات طلق
سيكون معلم اللغة العربية خجولا حين يطلب من تلاميذه حفظ نشيد سليمان العيسى:
بردى بردى ظل وندى... بردى بردى عذب أبدا
بردى بردى نغم وصدى
يمشي يخطر في خيلاء... بين الخضرة والأفياء
حلو اللفتة والإيماء... حلو البسمة والإغراء
بردى بردى تحيا أبدا
غنت فيروز لبردى هذا الموال الدمشقي الذي كتبه نزار قباني:

لقد كتبنا.. وأرسلنا المراسيلا... وقد بكينا وبلّلنا المناديلا
قل للذين بأرض الشام قد نزلوا... قتيلكم بالهوى مازال مقتولا
يا شام. يا شامة الدنيا، ووردتها... يا من بحسنك أوجعت الأزاميلا
وددت لو زرعوني فيك مئذنة... أو علقوني على الأبواب قنديلا
يا بلدةَ السبعة الأنهار.. يا بلدي... ويا قميصًا بزهر الخوخ مشغولا
ويا حصانًا تخلّى عن أعنته... وراح يفتح معلومًا، ومجهولا
هواك يا بردى، كالسيف يسكنني... وما ملكتُ لأمر الحب تبديلا
ما للدمشقية كانت حبيبتنا... لاتذكر الآن طعم القبلة الأولى
يا من على ورق الصفصاف يكتبني... شعرًا.. ويزرعني في الأرض أيلولا
يا من يعيد كراريسي.. ومدرستي... والقمح، واللوز، والزرق المواويلا
يا شام إن كنت أخفي ما أكابده... فأجمل الحب حبٌ بعدُ ما قيلا

وكم هو جميل بردى، وكم هو عظيم حين يجمع الملحن محمد عبد الوهاب بالفنانة فيروز لتغني رائعة اخرى عن بردى كتبها سعيد عقل ويقول فيها:

مُرَّ بي يا واعدًا وعدا مثلما النسمةُ من بردى
تحمل العُمْرَ تُبدِّدُه آه ما أطيبه بَدَدا
رُبَّ أرضٍ من شذىً وندىً وجراحاتٍ بقلبي عِدى
سكتت يومًا فهل سكتت؟ أجملُ التاريخِ كان غدا
واعدي لا كنتَ من غضبٍ أعرف الحب سنىً وهدى
الهوى لَحْظُ شآميةٍ رقّ حتّى قُلْتَهُ نَفَدا
هكذا السيف ألا انْغَمَدَتْ ضربةٌ والسيف ما انْغمدا
واعدي الشمسُ لنا كرةٌ إن يدٌ تتعبْ فَنادِ يدا
أنا حبّي دمعةٌ هَجَرَتْ إن تَعُدْ لِي أشعلتْ بردى

استعار محمود درويش النيل وبردى ليصف خيبة امله بالحكومات

العربية:

و أعدّ أضلاعي فيهرب من يدي بردى

و تتركني ضفاف النيل مبتعدا

و أبحث عن حدود أصابعي

فأرى العواصم كلها زبدا...

وكانت لدرويش خيبة امله الخاصة والمجردة مع بردى كنهر مجرد، فلقد عرفه شعرا، قبل ان يراه، فلما رآه قال:

في الشام، أَعرفُ مَنْ أنا وسط الزحام.

يَدُلّني قَمَرٌ تَلألأَ في يد اُمرأةٍ... عليَّ.

يدلّني حَجَرٌ تَوَضَّأ في دموع الياسمينة

ثم نام. يدلُّني بَرَدَى الفقيرُ كغيمةٍ

مكسورةٍ. ويَدُلّني شِعْرٌ فُروسيّ عليَّ.

****

في الشام

أمشي نائمًا، وأنام في حِضْن الغزالةِ

ماشيًا. لا فرق بين نهارها والليل

إلاّ بعضُ أشغال الحمام. هناك أرضُ

الحُلْمِ عاليةٌ، ولكنَّ السماءَ تسيرُ عاريةً

وتَسكُنُ بين أَهل الشام...

لدرويش لغته التي تتكرر عندما يكرر الحديث عن ذات المكان، كلما ذكر بيروت ذكر النجمة والقمر، وكلما ذهب الى بغداد تذكر الشعر والتماثيل والاساطير، ولكن قمره هناك كان ليمونيا، مفردات عشقه الدمشقي ظلت تدور في فلك الغزالة والياسمينة والندى وشرايين الرخام والسماء التي تسير حافية على طرقات دمشق القديمة:

في دمشق
ينام غزال إلى جانب إمرأة
في سرير الندى
فتخلع فستانها وتغطي به بردى

قبل ايام نشر سيد محمود اربعة مقالات كتبها محمود درويش في اوائل السبعينيات، ولكنه اهمل وضعها في نثرياته، في واحد من هذه المقالات يظهر بوضوح ان صورة بردى كنهر لم تكن بحجم توقعات محمود درويش المبنية على قصائد لشعراء سبقوه الى هذا النهر الذي استمد اسمه من الجنة (برادايس)، ولكنه ظل يحبه وبواقعية اجمل:

لا أعرف دمشق.

ولكنني رأيتُ بردى... سألتُ عنه المارة، وسألت عنه عيني، ثم دلّوني عليه. ولكنني لم أجده في دمشق, لأن الأغاني بدّدت بردى.

لماذا تحوّل عشاقنا إلى أساطير؟ لماذا نقول إن جسم الحبيبة غزال ووجهها قمر؟ لماذا نحتقر الجلد واللحم والعظم والدم؟ إذًا، لماذا ننفخ فى بردى ونضخّمه حتى ينفجر؟

إنّه جدول عظيم يسكن بيوت الدمشقيين، إنه أحد أفراد الأسرة السورية؟ إنه جرة ماء في كل بيت. وهذه الصفة وحدها كفيلة بتبرير حبّنا اللامتناهي لبردى، من دون أن نعين له خريرًا وهديرًا وهميَّيْن.

لماذا نشعر بالحاجة إلى تضخيم الأشياء؟ هل لأننا نشعر، في اللاوعي، أن الصوت الطنّان هو وحده القادر على الوصول إلى الأسماع؟ انتهى الاقتباس من مقال درويش.

ظلت هذه الانهار تستقبلنا حضارة بعد حضارة، وظلت تحتفي باسرار العاشقين، وامتنان الصيادين، وعرق الفلاحين، لم تغضب من النواعير، لم تغضب من الشعر الرديء، ظلت تنظر بمودة الى الجسور فوقها، ظلت

تجاهد لتروي الجداول والقنوات الجديدة، ولكننا ارهقناها بالسدود، وعكرنا مزاجها بالنفايات، وكسرنا شاعريتها بالاطماع، وحملناها ما لا تطيق من الشعارات والرموز، فلم تعد تستطيع الاستمتاع بالقصائد والاشعار.

فلسطين داري ودرب انتصاري

شكرا للصديقة التي ذكرتني بنشيد عمي منصور نجار. لقد وجدتني استرجع كامل كلمات هذا النشيد، دون ان انسى منها شيئا. ان تحفظ شيئا بمنتهى السهولة فهذا يعني انه سهل، وان تبقى حافظا له فهذا يعني انه جميل ومؤثر، ومؤثر ايضا ان تتذكر صورة النجار والى جانبه فتاة صغيرة تحمل دمية.

عمي منصور نجار... يضحك في يده المنشار

قلت لعمي عندي لعبة... اصنع لي بيتا للعبة

هز الراس الراس وقال... انا اهوى الاطفال

جميل ما تحمله هذه الكلمات من ضحك وهز راس وحوار يبدأ بطلب وينتهي بقبول، واجمل من ذلك ان القارئ، وربما لا شعوريا، سيغير

اللحن عندما يصل الى مقطع هز الرأس وما يليه من قول، ولا شك ان اللحن سيتغير مع المقطع الثاني:

بعد قليل عدت إليه... شيء حلو بين يديه

سواه عمي منصور... أحلى من بيت العصفور

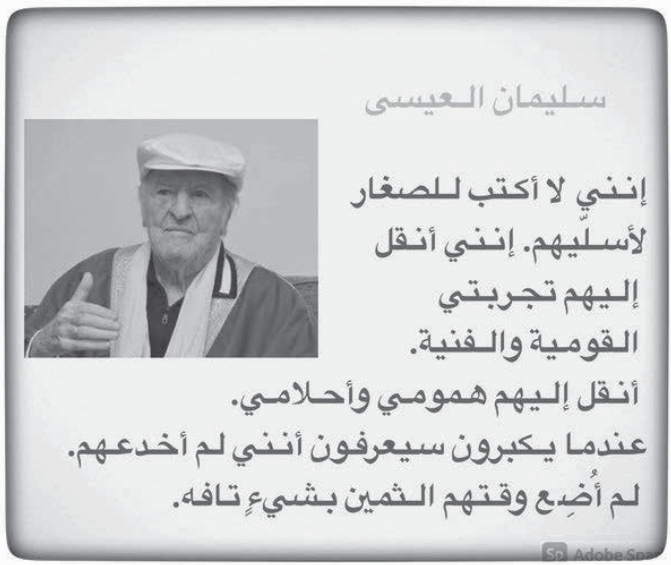

جميل ايضا ان تحفظ نشيدا في مدرستك الابتدائية ثم تجد ان ابنتك بعد نصف قرن تحفظ النشيد وبذات السرعة، والاجمل ان تعرف ان هذا النشيد وكثير غيره مما تحفظ لذات الشاعر مثل: ماما ماما يا انغاما، ويا الهي يا مجيب الدعوات، وقفز الارنب خاف الارنب كنت قريبا منه العب، وغيرها الكثير، تدرس في بلد الشاعر سوريا وفي العديد العديد من الاقطار العربية.

كتب الاديب العماني محمد الشحري في مقال نشرته صحيفة القدس العربي: «ما الذي جعل طفلا يرعى الإبل في جبال ظفار، متعلقا بالقضية الفلسطينية؟ وأي علاقة هذه التي ربطت طالبا كان يفك الابجدية في

الصف الأول بمدرسة نائية مكونة من غرفتين بقضية العرب الأولى؟ وأي وعي هذا الذي تكوّن لدى طفل يذهب إلى المدرسة حافي القدمين ويعود إلى مبرك إبله ليلقي على مسامع إخوته نشيد 'فلسطين داري ودرب انتصاري' ويحدثهم عن قصص النضال الفلسطيني حسبما تعلمها في الكتب، وهو الذي كان لا يتحدث اللغة العربية ولا يفهم منها كلمة؟ كان ذلك الطفل هو أنا، فقد تعلمت اللغة العربية في سن السادسة، إذ كانت لغتي الأم هي اللغة الشحرية التي تصنف ضمن اللغات العربية الجنوبية، والتي لا تزال منطوقة في ظفار (جنوب عُمان).

فلسطيني داري ودرب انتظاري
تظل بلادي هوي في فؤادي
ولحنا أبيا على شفتيا
وجوه غربية بأرضي السلبية
تبيع ثماري وتحتل داري
وأعرف دربي ويرجع شعبي
إلى بيت جدي إلى دفء مهدي
برغم الغزاة فلسطين داري
فلسطين داري ودرب انتصاري.

ما هو ليس بجميل اطلاقا، انني لم اكن اعرف ان صاحب هذه الاناشيد هو الشاعر سليمان العيسى، وانني لا اعرف شيئا عن هذا الشاعر ولا عن رفيقه الفنان ممتاز البحرة الذي خلق لنا الشقيقين باسم ورباب والشقيقين الآخرين ميسون ومازن، في مناهج المطالعة، ايام كان المنهاج الاردني والفلسطيني متوحدا مع المنهاج السوري.

يقول الفنان والناقد التشكيلي أديب مخزوم: علاقة الراحل البحرة مع الرسوم الموجّهة إلى الأطفال بدأت مع انطلاقة مجلة «أسامة» عام 1969،

حيث ابتكر شخصية «أسامة» ثم بدأت علاقته مع الكتاب المدرسي بمبادرة شخصية من الشاعر الراحل سليمان العيسى ومجموعة أخرى من التربويين والمؤلفين، وعاشت رسوماته في الكتب المدرسية السورية من عام 1972 وحتّى عام 2002.

سنشعر بالخجل كثيرا حين نعلم اننا لا نعرف اشخاصا كثيرين يجب ان نعرفهم وامورا مهمة يجب ان نعرفها، شكرا للسيد جوجل فبعد ساعة من البحث في خوارزمياته متنقلا بين اسم الشاعر واناشيده وموزعا بحثي على الصور ومن نشروها والكتب والنصوص بصيغتي وورد و بي دي اف، صرت اعرف شيئا عن هذا الشاعر الكبير، الذي تنقل بين سوريا والعراق واليمن وغيرها، وصار بإمكاني رسم صورة لهذا الشاعر وهو طفل يحفظ القرآن والمعلقات واشعار المتنبي، ويبدأ بكتابة الشعر وهو في سن العاشرة.

صار بإمكاني ان اتخيل لماذا انتقل الى كتابة الاناشيد للأطفال بعد النكسة مباشرة، واي مشاعر كان يحملها وهو يكتب فلسطين داري ودرب انتصاري، فالشاعر عانى من احتلالين: احتلال بلده من قبل فرنسا واحتلال قريته الواقعة في لواء الاسكندرون من قبل تركيا.

الشاعر السوري نزار درميني ودع الشاعر سليمان العيسى شاكيا له ما حصل لمناهج التدريس من بعده:

سليمانُ قمْ إنَّ الطفولةَ تُسلَبُ
ومنصورُ بالسوطِ الغليظةِ يُـضرَبُ
لقد زوّجوا ميسونَ غصبًا صغيرةً
ومازنُ أمسى في السجونِ يُعَذَّبُ
لقد أحرقوا كل المروجِ بأهلها
فلا أرنبًا فيها ولا ظبيَ يلعبُ

أَفيلٌ يغني في المياهِ ويطربُ
ومِن خوفهِ التسماحُ في الصبح يهربُ؟
سليمانَ قم باللهِ والعنْ لِحاهُــمُ
على ما أتونا مِن سفاسفَ تُرعبُ
تلعثمتِ الأطفالُ واختلَّ نطقها
فمَنْ لهمُ مِن بعدكَ اليومَ يكتبُ؟

ردا على سؤال لماذا يكتب للاطفال يقول العيسى: «لأنهم فرح الحياة، ومجدُها الحقيقي. لأنهم المستقبل. لأنهم الشباب الذين سيملؤون الساحة غدًا، أو بعد غد. لأنهم امتدادي وامتدادك. لأنهم النبات الذي تبحث عنه أرضنا العربية، لتعود إليها دورتها الدموية، التي تعطّلت ألف عام. إنني لا أكتب للصغار لأسلّيهم. إنني أنقل إليهم تجربتي القومية والفنية. أنقل إليهم همومي وأحلامي. عندما يكبرون سيعرفون أنني لم أخدعهم. لم أُضِع وقتهم الثمين بشيءٍ تافه».

وكان المربي والاديب الفلسطيني خليل السكاكيني يقول: «أكثر مدارس هذه الأمة أجنبية دينية، ومدارس الحكومة إلى اليوم لا تزال عرضة لسوء الاستعمال، ولكن لا بد أن يظهر مع الأيام في عداد المعلمين معلمون وطنيون يعالجون هذه العاطفة ولو كانوا في مدارس أجنبية أو مدارس الحكومة، وأكبر عامل في إيقاظ الشعور الوطني هو أدبيات اللغة، والمعلم الوطني لا يعدم في أدبيات اللغة العربية ما يثير الحماسة في نفوس التلاميذ ويبعث فيهم الحياة، إن أمة عندها أمثال المتنبي وأبي فراس وأبي تمام البحتري وأبي العلاء وعنترة لا يمكن أن تموت».

العقربات الخمس

عقربا الاردن تنظر الى سوريا

انتمي لحاملولة الديرية، ويقول الطاعون في السن نقلا عن آبائهم ان جذور الحمولة تعود لدير الزور السورية، ومن هنا جاء الاسم. هناك حاملولة أخرى تحمل ذات الاسم في بيت لحم، أما حاملولتنا فتقيم في بلدة عقربا بمحافظة نابلس، وذات اسم القرية على غرابته، موجود بجوار مدينة اربد الأردنية وفي ريف دمشق وفي محافظة درعا وقرب مدينة حلب. خمس عقربات ثلاث منها في سوريا.

عقربا الاردنية الواقعة شمال اربد هي الاقرب الى الحدود السورية. في الواد الفاصل بين البلدين حيث اقيم سد الوحدة، والذي يمنح الاردن حاجتها من المياه، فيما يمنح سوريا حاجتها من الطاقة الكهربائية. ولكن دون ان يمنع، للأسف، استمرار الخلاف المائي بين البلدين.

تفصل عقربا الواقعة في ريف دمشق بين الغوطتين الشرقية والغربية، ويروي اراضيها المزروعة بالجوز والمشمش، نهر العقرباني وهو اكبر فروع نهر بردى. وقد كانت مسرحا لقتال عنيف بين قوات النظام ومعارضيه المسلحين، وتفصل عقربا الواقعة في درعا بين سهل حوران

وهضبة الجولان، لا يزيد عدد سكانها عن 10 آلاف، بينهم الف لاجئ من القنيطرة، واما عقربا حلب فقرية صغيرة لا يتعدى عدد سكانها الـ 3 الآف قتل ارهابيون منهم 10 اشخاص من عائلة واحدة عام 2014 ومثلوا بجثثهم قبل ان يحرقوها.

عقربا الفلسطينية تقع جنوب شرق نابلس تشرف على الغور ونهر الاردن، شكل اهلها فصيلين لمقاومة الانتداب البريطاني، تحت قيادة خميس العقرباوي وعبد الله البيروتي، سميت «بلد البواردية» وذلك لكثرة عناية اهلها بامتلاك البوارید، قال مؤرخ بريطاني زار القرية في العهد العثماني: يوجد في عقربا 500 مقاتل و2000 بارودة. ما علينا من التاريخ والمؤرخين، ثلاثة ارباع اهل البلد يعيشون خارجها منذ سقوطها في حزيران من عام النكسة.

منذ ذلك العام حملت عقربا لقب «أم السبع حمايل»، حسب وصف اطلقته سيدة من القرية، عندما ابلغوها ان البلاد سقطت، فقالت مستغربة: وعقربا ايضا سقطت!!!، عقربا ام السبع حمايل سقطت!!!!

عقربا نابلس نفضت عنها ثوب القرية وتأرجحت سريعا بين البلدة والمدينة، رغم أن احد ابناء القرية انشأ صفحة فيسبوكية اسماها امبراطورية عقربا.

بطاقة هويتي تقول انني من مواليد نابلس، وهذا غير صحيح، فانا من مواليد عقربا، عشت فيها اول عامين ونصف من عمري، ثم نزحت مع من نزحوا وعدت اليها في عمر الثلاثين. وذات البطاقة تقول ان عنواني هو اريحا، وهذا كان صحيحا لأعوام خلت، ولكن افراد عائلتي بدلوا عناوينهم جميعا، واما انا فقد رفضت التخلي عن اريحا عنوانا لي، وذلك اكراما لرجل اغاثني بمنتهى اللطف بفنجان قهوة مجاني وعشرين شيكل في يوم فقر شديد.

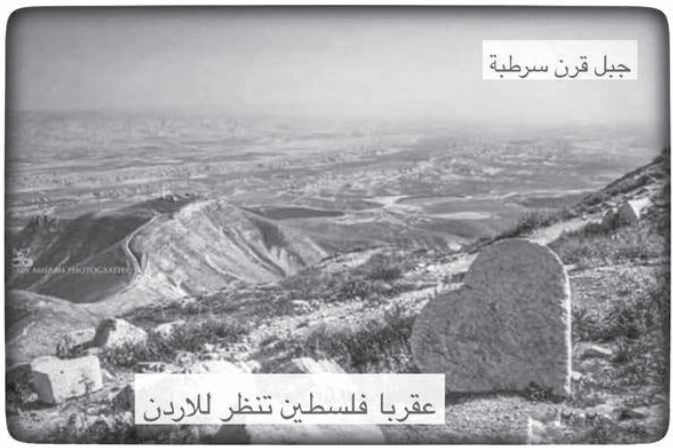

لا اسكن عقربا ولا نابلس، بل اسكن في قرية ابو قش التي توحدت مع جارتها سردا في مجلس بلدي واحد، مارست حقي الانتخابي مرتين للرئاسة ومرتين للتشريعي في مركز انتخابي برام الله، ومرات للمجالس المحلية في بيتونيا حيث سكنت لعدة اعوام. وقتها كان طريقي المعتاد للدوام يبدأ من بيتونيا مرورا برام الله فالبيرة فسردا فأبو قش ثم بيرزيت، لا فاصل اليوم بين هذه القرى والبلدات والمدن، ولا فرق بينها الا في عدد المطبات.

كانت اذاعة صوت فلسطين في حي ام الشرايط بمدينة البيرة، وكان كافة المذيعين والمذيعات يقولون «هنا صوت فلسطين من رام الله»، إحتج رئيس بلدية البيرة لدينا ولدى الشرطة، عاتب وهدد وأوصل شكواه لمكتب الرئاسة، ومع ذلك ظللنا نقول «صوت فلسطين من رام الله» بكل اصرار. ورغم وقوع حسبة خضار رام الله في البيرة فإن اسمها ما زال حسبة رام الله. بعض المدن تستقر في عقلك وقلبك.

لم اكتب كثيرا لا عن عقربا ولا نابلس ولا اريحا ولا رام الله، لقد كتبت اكثر عن البلدة القديمة في بيرزيت، وكلما مررت من هناك صورت بيوتها

وحاراتها، كتبت كثيرا عن فقوعة التي امضيت فيها ليلة واحدة فقط، وكتبت اكثر واكثر عن دورا التي زرتها مرة واحدة فقط، فأنعم علي ابنائها بلقب المواطنة. لم يغضبوا لذكري قصة الشيطان الذي يلف العالم نهارا ويعود ليلا للمبيت عند اخوته التسعة والتسعين في دورا.

لم اكتب شيئا عن مدينة الزرقاء الاردنية، حاولت ولم استطع ان اكتب عنها سطرا واحدا رغم انني عشت فيها من الطفولة الى التوجيهي، ولكنني استطيع كتابة كلمات كافة الاغاني الاردنية الجميلة من جميل العاص وتوفيق النمري وميسون الصناع وعبده موسى مرورا بفؤاد حجازي ومحمد وهيب واسماعيل خضر وفارس عوض وصولا الى مصطفى شعشاعة وعمر العبد اللات.

كتبت كثيرا عن برلين واكثر وأكثر عن بغداد، مجرد ذكر اسم بغداد يجعل الصور والاماكن والاغاني والشخصيات والمقاهي والمكتبات والبارات والتماثيل والذكريات تندفع مرة واحدة كماء وجد فوهة في جدار السد. زرت تونس مرة فكتبت عنها عشرين مرة، وزرت الجزائر فلم ولن اكتب سطرا واحدا عنها.

كان صديقي يدخل المطعم فيطلب صفيحة ارمنية وسلطة تركية، فأقول له السلطة اليونانية افضل، فيرد التركية مع الارمنية تصنع حكاية وتعيد تاريخ، لا تستطيع سلطتك اليونانية ان ترويه، وكنا نذهب الى مقهى تركي فنطلب قهوة عربية، فيغتاظ النادل، ونذهب الى آخر ايراني فنطلب شايا عراقيا.

تصنع غزة صنفا خاصا بها من الكنافة، سأجلس ذات يوم الى محل حلويات في نابلس لأطلب كنافة غزاوية. المطبخ الغزاوي هو الافضل على مستوى العالم، لكنه لا يملك فروعا حتى داخل الوطن.

زرت الخرطوم وكردفان وحدثت اصدقائي السودانيين بكل النكت عن

كسلهم، ضحكوا وهم يرددون بعد كل نكتة: الله يسامحك يا زول، ويزيدونني نكتة جديدة، وقابلت عتاة البعثيين في دمشق وسألتهم إن كانت النكت على الحيوانات مسموحة فردوا: نعم ولكن باستثناء الاسد. وكان بينهم حمصي اتحفنا بنوادر اهل بلده.

يقولون في الاردن ان معانيّا حوصر مع ابن لادن بعد هزيمته في افغانستان، فقال ابن لادن متحسرا: انا ما هزمني الا حلف الشمال، فرد عليه المعانّي: الله يصلحك يا شيخ، غشيم انت عن اهل اربد!!!.

تتنافس بيت فجار في بيت لحم مع جبع القريبة من رام الله على مرتبة الصدارة في قائمة القرى الاكثر تعرضا للسرطان بسبب مقالع الحجر، والكسارات، وتنافسهما بلدة يعبد بسبب كثرة المشاحر التي تنتج الفحم. لا يهم كثيرا ماذا سنفعل لتدارك ذلك؟ المهم ان نحتل المرتبة الاولى وبجدارة، وبعدها لكل حادث حديث!!!. سترسل السلطة الفلسطينية المرضى للعلاج في مستشفيات القدس، سيحتجون مطالبين بالتحويل للمشافي الاسرائيلية. سيجتهد كثيرون في التبرير، وقد يتبرعون بإعطاء شهادة جودة لمنتجات تنوفا، على حساب البان البينار، وكأنهم جميعا من خبراء التغذية والمواصفات.

يقولون ان يعبد تزرع انواعا فاخرة من التبغ، لم اجرب ذلك، فانا الف الآن سيجارة من تبغ دانمركي بماكينة ألمانية وورق إيطالي وفلاتر هولندية وولاعة إسبانية، عاش الاتحاد الأوروبي وعاش المستورد الفلسطيني.

ادخن سيجارتي متعددة الجنسيات، واجمع اعداد سكان كل المدن والقرى التي ذكرتها آنفا واضيف الى المجموع، مجموع ما يمتلكون من بواريد وبهائم ودواجن فأجد العدد النهائي اقل من عدد سكان حي صيني يعيش في نظام ووئام يبيع ويشتري وينتج ويصدر، ينام ويشخر يعمل ويسهر، من دون ان يشتكي او يدعي او يتظاهر او يتباكى، او

يعتب ويطلب معونات، او يعتدي ويصنع ثارات.
الّف سيجارة اخرى متعددة الجنسيات وابحث عن خمسة كذابين يمكنهم اقناع اهالي العقربات الخمس في سوريا والاردن وفلسطين انهم من طين واحد. سيكون هؤلاء الكذابين الخمسة هم اصدق الناس. عقربا احتلت شاشات الاخبار خلال الثورة. منذ حطمت جماهير درعا تمثالا للأسد ومزقت صوره، وانا اقول ان الامر جدي وخطير، من يعرف سوريا ونظامها يعرف ان هذا الحد من الجرأة غير المسبوقة قادر على إشعال ارض وسماء وباطن سوريا دون اي حسابات اخلاقية او سياسية. وحين رأيت غلمانا لا يتقنون الفصحى مزودين بكاميرات حديثة تصور وتبث على الهواء مباشرة على اشهر الفضائيات، عرفت ان وراء الاكمة ما ورائها. انحرف مبكرا ربيع دمشق، وانقاد نحو الإرهاب وجز الرؤوس وإحراق البشر وتنفيذ الإعدامات دون محاكمة.
قرات رواية «القوقعة» التي ترجمت الى عشر لغات، والتي يسرد خلالها الاديب والسجين السابق مصطفى خليفة رواية شاب سوري مسيحي أمضى أكثر من 13 سنة في السجون السورية بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين.
يتعرضُ الشاب خلال فترة سجنه لأهوالٍ من العذاب، بالإضافة إلى رفض أغلبية المسجونين التعامل معه كونهُ قد أعلن أنهُ مُلحد أثناء التعذيب، فيكون هناك تخبطٌ في كونه ملحدًا أو مسيحيًا، لذلك ينعزل الشاب عن الآخرين ويبني حول نفسهِ قوقعةً يسترقُ النظر من خلالها للآخرين، كما أنه يسترقُ النظر إلى ساحة السجن عبر ثقبٍ في الحائط.
ولان دمشق تأبى الوضوح فإنها لا تترك لك فرصة للتهادن معها وتجبرك على الاختيار بين نظام دموي ومعارضة أكثر دموية. وحين يموت من يموت بالكيماوي في سوريا، تطل من شباك الذاكرة تلك الخيم المرصوفة

على جانب الطريق، وفيها من فيها من الناجين من مذبحة الكيماوي في حلبجة العراقية، وقد أُمروا بالبقاء هناك، وعدم العودة لمنازلهم كي يكونوا عبرة لغيرهم.

لعنات كثيرة معلقة لا ادري لمن اوجهها، وانا مدرك تماما بان راس الكيماوي مطلوب لذاته وليس لأفعاله، وان القتل بغير الكيماوي مباح في شريعة واشنطن وحلفائها.

أتعبتنا يا دمشق، أتعبتنا وانت ظالمة، أتعبتنا وانت مظلومة، ولكن رجاء لا تسقطي، او على الاقل فلا تُسقطي صورة البطل من كتاب التاريخ، صدام هُزم ولكنه هتف وحبل المشنقة ملتف حول رقبته «عاشت فلسطين حرة عربية» وقيض الله له ولنا من اعداءه من يسجل هذا الهتاف لطفل سيقرأ كتاب التاريخ في وطن بعثره ابناؤه.

لم اجد صورا خالية من الدماء لعقربات سوريا الثلاث، فوضعت صورتين لعقربتي اربد ونابلس.

تسامح وغفران وليس تناسي وتغاضي
سوريا التي في خاطري 88

عندما كتبت اولى حلقات سلسلة «بغداديات» مع اليوم الاول من شهر رمضان في عام الكورونا، كان من الصعب التوقف، لقد ظللت أؤجل الختام من نهاية الشهر الفضيل وحلول العيد السعيد يوما بعد يوم الى ان وصل عدد الحلقات الى 73 حلقة، كتبت الوداع حزينا وكأنني اغادر بغداد.

وفي سلسلة «سوريا التي في خاطري» كان التحدي الكبير هو ان استمر، منذ الحلقة العاشرة، وانا اماطل باتخاذ قرار التوقف يوما بعد يوم، لقد ظللت ابحث عن شيء مفقود، شيء يمكنه انهاء ارتباكي امام دمشق،

وحيرة موقفي منها، الى ان وصلت الى الحلقة 88 وها انوي اطويها واستعد لحلقة الختام بمشاعر باردة نوعا ما، ولكن محيرة.

الآن افكر بصوت عال وابحث عن الاسباب، ولا ادري لماذا اكتب هذا ولماذا انشره، ربما فقط لإجبار نفسي على المضي قدما في وضع حد لهذه الحيرة، كي انتهي منها وارميها وراء ظهري، لأمضي خالي الوفاض.

علي الاعتراف لنفسي بداية قبل الآخرين بان فكرة المقارنة بين بغداد ودمشق ظلت تسكنني على الدوام، وعلي ان اعترف بموضوعية، انها مقارنة لا موضوعية ولا عادلة، رغم التقارب والشبه الذي بلغ حد التماثل سلوكا وسياسة وفكرا بين البلدين، ورغم التنافس الحاد المستمر بينهما منذ المطالع والى الآن، فان المقارنة غير عادلة، فرغم تشابه المصير، سيظل لكل نهر منبع ومجرى وحياة كما يقول الشاعر محمود درويش.

ورغم ذلك فالمقارنة قائمة والاعتراف بلا موضوعيتها غير قادر على شطبها. فلنحاول اذا جعلها اكثر عدلا او اقل ظلما.

علي الاعتراف ان علاقتي بالبلدين ليست علاقة سائح او مقيم بل علاقة فلسطيني يحمل انتماء سياسيا وتؤثر عليه وعلى مواقفه وافكاره وحياته مواقف البلدين من قضيته الوطنية، وربما كان للبلدين تأثير كبير ولكن متمايز على قضيتنا، العراق عسكريا في النكبة وفي حرب الخليج الثانية، وسوريا بتدخلاتها السياسية والعسكرية (مباشرة وغير مباشرة) والحزبية بدء من الحرب الاهلية بلبنان وتشجيع الانقسامات المتوالية بدء من الانشقاق وانتهاء بتأييد حماس والجهاد ودفعهما الى مواصلة القطيعة مع منظمة التحرير.

يبقى ربما ان سياسيات العراق الغني كانت عنجهية واقل حكمة، واما سياسيات سوريا بمواردها المحدودة فقد كانت اكثر ذكاء ودهاء على الدوام، ولكن البلدين لم يكونا جارين طيبين مع بعضهما البعض ولا

مع جيرانهما الآخرين، فالعراق اعتدى على الكويت وسوريا اعتدت على لبنان. وعلى نحو لم تفعله اي دولة عربية اخرى.

يشهد الله انني لم ابدأ بكتابة هاتين السلسلتين عن العراق وسوريا الا لترك الانطباعات الحسنة جدا عن البلدين في اذهان من يتابعني، وهي ذكريات موجودة وبكثرة طاردت ما امكنني منها ونقلته اليكم، غير ان التشابك والتقاطع الذي تركته سياسات البلدين وعلاقتهما بنا قد تركا علامات بارزة على جلودنا، علامات لا نستطيع نسيانها، مهما كنا شديدي التسامح، ونحن فعلا كذلك نسامح ونغفر، غير ان الغفران والتسامح الحقيقيين يشترطان التذكر لا التناسي او التغاضي، ذلك لأن للتغاضي والتناسي أجل ينتهي، وقد تثور بعده الاشجان والمشاعر الصاخبة غير الحميدة، واما التسامح الحق فانه قرار عقلي ووجداني يتخذ مع حضور الذاكرة لا بغيابها او تعطيلها.

وطبعا لم نكن في خضم هذه العلاقة مجرد ضحايا بصفات ملائكية، لقد حملنا كافة المواصفات البشرية، بما فيها من ردات فعل وغباء وانفعال وسوء تقدير، وحساسية اللاجئ التي تدخل عميقا في كل خلية من خلايانا.

قال درويش يوما: انا يوسف يا ابي، اخوتي لا يحبونني، وقال في يوم آخر: كم كَذَبنا حين قلنا: نحن استثناء!

هذا التسامح الفلسطيني ليس عقلانيا نابعا من زواية المصلحة فقط، انه تسامح مطرز بالحب. ابتعد قليلا عن السياسة واسمع ما سيقوله الفلسطيني عن بغداد او دمشق وعن اهلهما، ادفع فلسطينيا للمقارنة بين سوريا والعراق وبلدان عربية اخرى وستسمع منه مدائح عجيبة للعراقيين والسوريين.

اعتقد احيانا ان الفلسطيني هو الشقيق الاصغر الذي يريد حماية دون

وصاية من اشقائه الاكبر، وانه يريد ان يجرب ومن حقه ان يجرب، ومن حقه ان يرفض النصائح، ولكنه يريد دوما مقاسمة النتائج، التي لم تكن في صالحه في اي يوم، مع كافة الاشقاء غصبا عنهم، واشعر ايضا بان الاشقاء الكبار قد خذلوا هذا المشاكس الصغير في اكثر من موضع وزمن، وانهم كانوا سببا في تعاسته منذ البداية، ولكنهم لا يشعرون بتأنيب ضمير كاف، ويعتقدون انهم قد سددوا ديونهم عن هذا الاذى وتلك التعاسة.

لم تدخل شعوبنا العربية، ولو لمرة واحدة فقط، مرحلة الاحساس بوحدة المصير بشكل عملي عميق، لقد دخلتها مرات ومرات شعرا ونثرا فقط، وبموجات تضامن متقطع، ويكفي ان نلحظ هنا ان مصطلح تضامن ينفي بشكل او بآخر مفهوم الوحدة والمصير الواحد، ويكرس الفصل بدلا من الاخوة.

درس الفلسطيني مجانا في جامعات البلدين وتخرج ليعمل في دول الخليج العربي براتب يفوق رواتب مدرسيه الجامعيين، وتزوج الفلسطينيون عراقيات وسوريات فانجبوا فلسطينيين سوريين وعراقيين، ظل الفلسطيني يطلب من عروبته حبا من جانب واحد، لاعتقاده انه الضحية الاوجب بالرعاية وكان محقا، الآن زاد عدد الضحايا كثيرا، وصار من بينهم للأسف الاشقاء الكبار، فأي مرار هذا!.

يشهد الله انني احب العراق وسوريا وان المقارنة بينهما تحمل نكهة تمور البصرة و فستق حلب، وروعة سعدون جابر وصباح فخري وشاعرية العراق مجتمعة في مواجهة حسية نزار قباني. احب العراقي لطرافته على خشونته، واحب السوري لشدة تأنقه ولباقته، ان تفوق العراق في الرسم غلبته سوريا في الرقص، حين يغني العراقي يحزن السوري، وحين يغني السوري يفرح العراقي وفي الحالين ينتشي الفلسطيني طربا.

خدنا معود ع اللطيم كما يقولون، واما خدود سوريا والعراق فجديدة عليه نوعا ما، ماذا نستطيع ان نقدم لسوريا والعراق ولغيرهما، اكثر من الدعاء المخلص بأيام افضل.

سوريا التي في خاطري
الختام

قال الامير شوقي ورددنا من بعده: «كلنا في الهم شرق»، كان همنا قدس، وها هو يصبح الآن قدس وبغداد ودمشق، والحبل على الجرار كما يقولون، والجرار يحرث ظهورنا، ولا نقوى على مواجهته، فنستسلم للذكرى، ننقيها من الشوائب، نغسلها من المنغصات، نُبسط مآسيها، نلتمس منها قبسا من امل، يعيننا على مواجهة الاحباط، او شعاعا من فخر نتجاوز به ظلمة الذل، الذكرى حمولة نافعة، عبء مطواع يمكن تكييفه حسب المُشتهى.

ولقد فعلت ذلك، وقفت على اعتابها، فتحت بواباتها، انتقيت ما اريد، ومع ذلك ورغم كل هذا التقصد لقد اصطادتني افخاخها في اكثر من موقع، فوقعت وتألمت، وضعت على يسار وعلى يمين كل جرح وردة، فتشافيت وتناسيت، ومضيت ابحث عن ورود اخرى، وطال بحثي لأنني اريد لعدد الورود ان يتفوق على عدد الجراح.

اطلت الوقوف في حارة «صح النوم» لقد كان مسلسلا واعدا بتفوق الدراما السورية، تفوق ظل العرب جميعا يعقدون الامل عليه، ولم تخيب سوريا املهم، لقد اهدت شاشاتهم تاريخا ناصعا، ومسرحا هادفا، وما زالت تقدم الهدايا.

وقفت في القنيطرة يتقاذفني اضطراب المشاعر، هنا ارض محررة، وهناك قبور شهداء مغاربة، وهناك صخرة نداء، ومرصد للرادار الاسرائيلي، وجبهة عالية لا تشرف الا على الهدوء. وهناك بانوراما للنصر التشريني وهناك وديعة رابين.

صاح بي احمد الزعتر، وقفت مطعونا في الظهر لا اقوى على المسير، كان علي ان اوفر بعضا من الدمع لمن سيقتلون هناك ايضا، فرفعت النشيد في مواجهة الغضب، واعليت من الصمود في وجه الانسحاب والهزيمة، كان الصمود اجباريا تماما كما كان الانسحاب اجباريا، وكان النشيد واحة في صحراء بؤس الغضب والهزيمة.

فتشت عن دواء يسكن جراحي، عن صوت يعلو فوق عتابي، وجدت ضالتي في القباني، كان علي ان اكمل قمر شعره ووجهه، كان علي ان اكشف جمال وجهه الآخر، كنت راضيا في الختام عن صورة هذا الدمشقي الجميل، وهو يعشق بجنون، ويغضب ويثور، ويصول ويجول، ويشتم المنتكسين. طعنوني في الخاصرة وشقوا كبدي، ابعدوني، ذكرتهم بالقسام، بسعيد العاص «ابو سعاد»، سرت معهم في دروب ومسالك ومذكرات فوزي

القاوقجي، لقد اردت انصافه، واعتقد انني فعلت، فهو لم يكن سوى بطل مهزوم بين مهزومين لم يكونوا قريبين من البطولة. تتبعت المواقف المشرفة لمطران اسمه كبوجي، كان يريد شاما مستقرا وقدسا محررة، كان يضع مداميك من الانجيل للاهوت مقاوم.

تذكرت غربة اليرموك الطويلة ثم جوعه وعطشه فمذبحته الجديدة، من اين يستخرج الفلسطيني كل هذا الصبر؟! من اين سيستخرجه اللاجئون الجدد، مرة بعد مرة، ما الذي سيميز لاجئا فلسطينيا عن لاجئ يحمل جنسية بلد يفترض انه مستقل وصاحب سيادة؟!.

وضعت ما امكنني من اضواء على رجلين فذيّن هما المطران غريغوريوس حجار، والزعيم انطون سعادة، ارادا شرقا موحدا وقويا لا سطوة لاسرائيل على لبنانه، كانا من افصح الناس لسانا، واوعاهم في السياسة والادب، نتفق جميعا ان محاكمة سعادة لم تكن عادلة، وانه واجه حكما جائرا ان لم نقل حكما باطلا، ولكن سوريا الكبرى التي ارادها، فكرة لم تنل هي ايضا الانصاف الكافي، واما افكاره في الادب والشعر والفنون، ونظرته لنشوء وارتقاء الامم، وتمييزه الواعي بين السلالة والامة، فقد اطلق عليها الرصاص من قبل المفكرين، تماما كما اطلق الجنود الرصاص على جسده قبل ان يبلغ الخامسة والاربعين.

جلست مع النواب في مقهى دمشقي فكتب قصيدته الرائعة «حمام نسوان» وبحثت عن طاقية الجواهري في دمشق فلم تخطئها عيني، انتعشت ببرودة الرخام الدمشقي، ورأيت الحمام يطير اثنتين اثنتين في قصائد محمود درويش، ورأيت بردى في اشعار سعيد عقل والحان الرحابنة وصوت فيروز، لم يكن نهرا جافا ولا ملوثا، لقد كان لسانا امويا. ذهبت الى اللاذقية فواسيت جاكلين باستشهاد خطيبها البطل جول جمال، وحضرت محاكمة واعدام سليمان الحلبي ورفاقه، طربت

لموسيقى الاميرين امير البزق محمد عبد الكريم وامير الكمنجة سامي الشوا، تصفحت ما تيسر من مقالات ماري عجمي، رثيت لحالها وهي تذوي بعد استشهاد خطيبها اليوناني الشهم، حفظت اسم نازك العابد واسم مريم الاسطرلابية، ورددت بيني وبين نفسي اناشيد سليمان العيسى.

شعرت بالعجز وتأنيب الضمير حين لم اجد من الكلمات ما يعكس اناقة بيت دمشقي، ويحاكي صوت ناعورة في حماة، او فيح ياسمينة في الشام، لم تتسع لغتي لتكون بساطا حمويا او قدا حلبيا، اذهلتني الحارات بتشعباتها في بطن التاريخ، وبهرني توالد الحكايات، اذهلني الناس بصبرهم بمهارتهم بإتقانهم بدأبهم باحترامهم للحياة للأسرة للبيت، للهجة للعادات للموروث بكل اشكاله، هناك في الشام خطة محكمة لكل شيء، لصحن السلطة لكاسة الشاي وفنجان القهوة، للحب والزيجات المدبرة، لتربية الابناء والبنات، خطة لتوريث المهنة والمهارة، خطة للارجيلة والسيران وجمعة الحمّام، واجتماع النساء، وسوق التجار، وبسطات الباعة، هناك في الشام خلطة سحرية لكل شيئ، خلطة تجعل العادي جدا جميلا بامتياز.

احب كثيرا ان اصدق ان في الشام خلطة سحرية لما تواجهه من حرب فيها وعليها، احب ان تنتهي الى الابد كل اشكال الديكتاتورية، وان تكون البدائل وطنية، واعية منفتحة مؤمنة بكرامة المواطن كمواطن بعيدا عن جنسه ولونه وعرقه ودينه وطائفته وفكره، احب ان ترجع الشام شامة الدنيا ووردتها.

رام الله

7 تشرين الاول 2020